آدواردو جاليانو

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

(تاريخ مضاد)

ترجمة

أحمد حسان
بشير السباعى

النيل

هذه ترجمة الطبعة الحادية والثلاثين من كتاب:

LAS VENAS ABIERTAS DE

AMÉRICA LATINA.

الصادرة عن دار نشر

SIGLO VEINTIUNO DE ESPAÑA

فى ديسمبر عام ١٩٨١.

ترجم أحمد حسان المقدمة والباب الأول وبعد سبع سنوات.

وترجم بشير السباعى الباب الثانى عن الإنجليزية والفرنسية.

.....

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

- تاريخ مضاد -

تأليـــــف : ادواردو جاليانو

ترجمـــــة : أحمد حسان ، بشير السباعى

نشـــــر : دار النيل - إسكندرية

طباعـــــة : مطبعة الجمهورية - إسكندرية

رقـم الإيـداع : ٩٤ / ٤٧٩٤

الترقيم الدولى : I - S - B - N: 977 - 5360 - 05 - 6

تصميم الغلاف: للفنان على عاشور - إسكندرية

جمع وتوضيب : طارق حسانين - إسكندرية

ماكان لهذا الكتاب أن يتم بدون المعاونة التى قدمها، بصورة أو بأخرى، سيرخيو باجو، ولويس كارلوس بنبينوتو، وفرناندو كارمونا، وأديثياكاستييو، وألبرتو كوريل، وأندريه جوندر فرانك، وروخيليو جارثيا لوبو، وميجيل لاباركا، وكارلوس ليسا، وصامويل ليشتنشتاين، وخوان أ. أودونى، وأدولفو بيريلمان، وأرتور بويرنر، وخرمان راما، ودارسى ريبيرو، وأورلاندو روخاس، وخوليو روسييو، وباولو شيلينج، وكارل - هاينز ستانزيك، وبيبيان تريّاس، ودانييل بيدارت.

فإليهم، وإلى الأصدقاء العديدين الذين شجعونى على العمل خلال هذه السنوات الأخيرة، أهدى النتيجة، التى ليسوا مسئولين عنها، بالطبع.

مونتڤيديو، أواخر عام ١٩٧٠

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

إدواردو جاليانو

المحتويات

صفحة

- مقدمة: مائة وعشرون مليون طفل فى قلب العاصفة..... ١١
- الباب الأول: فقر الإنسان كنتيجة لثراء الأرض. ١٩

● حُمّى الذهب ، حُمّى الفضة ٢١

علامة الصليب على مقابض السيوف – عاد الآلهة بالأسلحة السرّية – "مثل خنازير جائعة كانوا يتلهّفون على الذهب" – أمجاد پوتوسى: دورة الفضّة – كانت إسبانيا تملك البقرة، لكن آخرين يأخذون اللبن – توزيع المهام بين الحصان والفارس – أطلال پوتوسى: دورة الفضة – سفك الدم والدموع: ورغم ذلك، كان البابا قد قرّر أن للهنود روحاً – الحنين المقاتل لدى توپاك آمارو – أسبوع الآلام الهندى ينتهى دون قيامه – ڤيلا ريكادى أورو بريتو: پوتوسى الذهب – مساهمة ذهب البرازيل فى تقدّم إنجلترا.

● الملك سُكّر وملوك زراعيون آخرون ٧٩

المزارع، واللاتيفونديات، والقَدَر – إغتيال التربة فى الشمال الشرقى البرازيلى – الهجوم بالخطوة السريعة فى جزر الكاريبى – قلاع من السكر فوق أراضى كوبا المحروقة – الثورة فى مواجهة بنية العجز – السكر كان السكين والقاتل هو الامبراطورية – بفضل تضحية العبيد فى الكاريبى، وُلدت آلة چيمس وات ومدافع واشنطن – قوس قزح هو طريق العودة إلى غينيا – بيع الفلاّحين – دورة المطاط: كاروزو يفتتح مسرحاً ضخماً فى قلب الغابة – مزارعو الكاكاو يشعلون سيجارهم بأوراق عملة من فئة خمسمائة ألف ريس – أذرع رخيصة من أجل القطن – أذرع رخيصة من أجل البن – أسعار البن تقذف المحاصيل فى النار وتحدّد إيقاع الزيجات – عشر سنوات أدمت كولومبيا – العصا السحرية للسوق الدولية توقظ أمريكا الوسطى – فليصعد القراصنة

إلى السفن – أزمة الثلاثينات: "قتل نملة جريمة أكبر من قتل رجل" – من أطلق العنف فى جواتيمالا؟ – أول إصلاح زراعى فى أمريكا اللاتينية: قرن ونصف من الهزائم من أجل خوسيه أرتيجاس – أرتيميو كروث وميتة إميليانو ثاپاتا الثانية – اللاتيفونديا تضاعف الأفواه وليس الخبز – مستعمرات الشمال الثلاث عشرة وأهمية ألاّ نولد مهمّين.

● المنابع الدفينة للسلطة ١٧٥

إقتصاد أمريكا الشمالية يحتاج إلى معادن أمريكا اللاتينية كما تحتاج الرئتان إلى الهواء – باطن الأرض أيضاً ينتج إنقلابات، وثورات، وحكايات جاسوسية، ومغامرات فى الغابة الأمازونية – كيميائى ألمانى يهزم المنتصرين فى حرب الباسيفيكى – أسنان من النحاس فى جسد تشيلى – عمال مناجم القصدير، تحت الأرض وفوقها – أسنان من الحديد فى جسد البرازيل – البترول، واللعنات، والإنجازات – بحيرة ماراكايبو فى منقار الطيور الجارحة المعدنية الضخمة.

■ الباب الثانى: التنمية رحلةٌ غرقاها أكثر من مبحريها. ٢٢٣

● حكاية الموت السابق للأوان. ٢٢٥

البوارج البريطانية تحيّى الاستقلال من الرّيو – أبعاد قتل الصناعة فى مهدها – الحماية والتجارة الحرة فى أمريكا اللاتينية: تحليق لوكاس آلامان الذى لم يدم طويلاً – حراب المتمردين وميراث الكراهية الذى خلّفه مانويل دى روساس – كيف قضت حرب التحالف الثلاثى ضد الباراجواى على المحاولة الناجحة الوحيدة للتنمية المستقلة – كيف شوّهت القروض والسكك الحديدية إقتصاد أمريكا اللاتينية – الحماية والتجارة الحرة فى الولايات المتحدة: لم يكن النجاح من عمل يدٍ خفيّة.

● بنية النهب المعاصرة ٢٦٦

تعويذة عاجزة – الحرّاس هم من يفتحون البوابات: عقم البورچوازية القومية الآثم – أى علم يرفرف على الآلات؟ – قصف صندوق النقد الدولى يسّهل إنزال

الفاتحين – الولايات المتحدة تحمى مدخراتها الداخلية، لكنها تتصرف فى مدّخرات الآخرين بأريحية: غزو البنوك – إمبراطورية تستورد رؤوس الأموال – التكنوقراطيون أبرع من مشاة البحرية فى قطع الطريق – التصنيع لايغيّر من تنظيم عدم التكافؤ فى السوق العالمية – الربّة تكنولوجيا لاتتكلم بالإسبانية – تهميش البشر والأقاليم – تكامل أمريكا اللاتينية فى ظل العلم ذى الخطوط والنجوم – "أبداً لن نكون سعداء ، أبداً" هذا ما تنبأ به سيمون بوليفار.

● بعد سبع سنوات. ٣٣٧



"... لقد التزمنا صمتاً شديد الشبه بالحُمق ...."

(إعلان العصيان الذى أصدرته عصبة الدفاع فى
مدينة لاباز، فى ١٦ يوليو عام ١٨٠٩)

مقدمة:

مائة وعشرون مليون طفل فى قلب العاصفة

يتلخص التقسيم الدولى للعمل فى أن بعض البلدان تتخصص فى الربح والبعض الآخر يتخصص فى الخسارة. وقد كان إقليمنا من العالم، الذى نسمّيه الآن أمريكا اللاتينية، مبكراً فى ذلك: فقد تخصص فى الخسارة منذ الأزمنة البعيدة التى إندفع فيها أوربيّو عصر النهضة عبر البحر وغرسوا أسنانهم فى حنجرته. ومرّت القرون، وبلغت أمريكا اللاتينية بمهامها حد الكمال. أنها لم تعد مملكة العجائب حيث يهزم الواقع الأسطورة ويرجع الخيال كسيراً أمام غنائم الغزو، ومناجم الذهب، وجبال الفضة. لكن الإقليم مازال يقوم بعمل الخادمة. فمازال يواصل البقاء فى خدمة الإحتياجات الأجنبية، بوصفه مصدراً وإحتياطياً للبترول والحديد، للنحاس واللحم، للفواكه والبن، للمواد الأولية والأغذية المتجهة إلى البلدان الغنية التى تكسب من استهلاكها أكثر بكثير مما تكسب أمريكا اللاتينية من إنتاجها. فالرسوم التى يحصلّها المشترون أعلى بكثير من الأسعار التى يتلقاها البائعون؛ وفى نهاية المطاف، وكما أعلن فى يوليو عام ١٩٦٨ كوفى ت. أوليفر Covey T. Oliver، منسّق "التحالف من أجل التقدم"، فإن "الحديث عن أسعار عادلة فى الوقت الحاضر هو مفهوم من القرون الوسطى. إننا فى ذروة حقبة التجارة الحرّة ..." وبقدر ما تزداد الحرية المتاحة أمام الأعمال، بقدر ما يصبح من الضرورى إنشاء المزيد من السجون من أجل من يُضارون من جرّاء الأعمال. وأنظمتنا من المحققين والجلاّدين لاتعمل فقط من أجل السوق الخارجية المسيطرة؛ بل إنها تحقق أيضاً شلالات متدفقة من الأرباح تفيض من القروض والاستثمارات الأجنبية إلى الأسواق الداخلية الخاضعة. وقد أعلن الرئيس الأمريكى الشمالى وودرو ويلسون Woo-drow Wilson، عام ١٩١٣، "جرى الحديث عن تنازلات تقدمها أمريكا اللاتينية لرأس المال الأجنبى، وليس عن تنازلات تقدمها الولايات المتحدة لرأس مال البلدان الأخرى ... فنحن لانقدم تنازلات". كان واثقاً، فقد قال: "إن بلداً من البلدان يتملّكه ويسيطر عليه رأس المال الذى يكون مُستثمراً فيه". وكان على حق. ففى الطريق، فقدنا حتى الحق فى أن نسمّى أنفسنا أمريكيين، رغم أن الهايتيين والكوبيين كانوا قد ظهروا فى التاريخ بوصفهما شعبين جديدين قبل أن يستقر حجاج ماى فلاور على شواطئ بليموث بقرن

من الزمان. والآن، نجد أن أمريكا، بالنسبة للعالم، لاتعنى سوى الولايات المتحدة: والنتيجة، أننا نسكن أمريكا فرعية، أمريكا من الدرجة الثانية، ذات هويّة غائمة.

إن أمريكا اللاتينية هى الإقليم ذو الشرايين المفتوحة. فمنذ الإكتشاف وحتى أيامنا، ظل كل شئ يتحول على الدوام إلى رأسمال أوربى، وبعدها إلى رأسمال أمريكى شمالى، وبهذه الصفة، ظل يتراكم، ومازال، فى مراكز السلطة البعيدة. كل شئ: الأرض، بثمارها وأعماقها الغنية بالمعادن، والبشر، وقدرتهم على العمل وعلى الاستهلاك، الموارد الطبيعية والموارد البشرية. وبالتالى، فإن نمط الإنتاج وبنية الطبقات فى كل موقع، تحدّدا من الخارج، على أساس تكاملهما فى العجلة العالمية للرأسمالية. تحدّدت لكل واحد وظيفة، هى دائماً فى صالح تطور المتروبول الأجنبى السائد، وأصبحت سلسلة التبعية المتتالية لا نهائية، فلها أكثر من حلقتين بكثير، ومن المؤكد أنها تتضمن، داخل أمريكا اللاتينية، اضطهاد البلدان الصغيرة من جانب جاراتها الأكبر، وفى داخل كل بلد، الاستغلال الذى تمارسه المدن الكبيرة والموانئ ضد المصادر الداخلية لإمدادها بالمؤن وبالأيدى العاملة. (منذ أربعة قرون، كانت قد وُلدت بالفعل ست عشرة من المدن العشرين الأكثر إزدحاماً بالسكان اليوم فى أمريكا اللاتينية).

وبالنسبة لمن يفهمون التاريخ بإعتباره منافسة، فإن تأخر وبؤس أمريكا اللاتينية ليسا سوى نتيجة فشلها. لقد خسرنا؛ وكسب آخرون. لكن تصادف أن من كسبوا، قد كسبوا لأننا خسرنا: فتاريخ تخلف أمريكا اللاتينية يتضمن، كما ذكرنا، تاريخ تطوّر الرأسمالية العالمية. **كانت هزيمتنا دائماً متضمّنة فى الإنتصار الأجنبى؛ وكانت ثروتنا تولّد دائماً فقرنا من أجل أن تغذّى رفاهية آخرين: هم الإمبراطوريات ومديروها المحليّون. ففى سيمياء الاستعمار والإستعمار الجديد، يتحوّل الذهب إلى خردة، والغذاء إلى سمّ.** تعفّنت پوتوسى، وثاكاتيكاس، وأورو بريتو وسقطت من قمة بهاء المعادن النفسية إلى الثقب العميق لسراديب المناجم الخاوية، وكان الخراب مصير سهول الپامپا التشيلية حيث النترات والغابة الأمازونية حيث المطاط؛ أما الشمال الشرقى المنتج للسكر فى البرازيل، أو الغابات الأرجنتينية التى تنتج خشب الكبراتشو*، أو بعض القرى المنتجة للبترول على بحيرة ماراكايبو، فلديها جميعاً أسباب مؤلمة للإعتقاد فى فناء الثروات التى تقدمها الطبيعة وتغتصبها الامبريالية. **إن المطر الذى يروى مراكز السلطة الامبريالية**

* خشب الكبراتشو: خشب أمريكي لاتيني صلب علي نوعين: الكبراتشو الأحمر، ويعد أهم مصدر لصبغة الدباغة، والأبيض ويستخدم في أغراض طبية – م.

يقتل غرقاً الأطراف المترامية للنظام. وبنفس الطريقة، وبالتناظر، فإن رفاهية طبقاتنا المسيطرة - المسيطرة إلى الداخل، والخاضعة نحو الخارج - هى لعنة جماهيرنا المحكوم عليها بحياة حيوانات الجرّ.

وتتسع الهوة الفاصلة. فعند منتصف القرن الماضى، كان مستوى المعيشة فى بلدان العالم الغنية يفوق مستوى المعيشة فى البلدان الفقيرة بنسبة خمسين بالمائة. لكن التنمية تنمّى التفاوت: فقد أعلن ريتشارد نيكسون Richard Nixon، فى أبريل عام ١٩٦٩، فى خطابه أمام منظمة الدول الأمريكية، أنه عند نهاية القرن العشرين سيكون دخل الفرد فى الولايات المتحدة أعلى بمقدار خمس عشرة مرة من الدخل فى أمريكا اللاتينية. إن قوة مجموع النظام الامبريالى تقوم على أساس التفاوت الضرورى بين الأجزاء التى تكوّنه، ويكتسب هذا التفاوت أبعاداً تزداد دراميةً باستمرار. فالبلدان المضطهِدة تصبح بالتدريج أغنى بشكل مطلق، لكنها تصبح أغنى بكثير بشكل نسبى، وذلك بسبب آلية التفاوت المتزايد. بإمكان الرأسمالية المركزية أن تتمتع بترف خلق وتصديق خرافاتها الخاصة عن الإزدهار، لكن الخرافات لاتؤكل، وهذا ماتعرفه جيداً البلدان الفقيرة التى تشكّل الرأسمالية الطرفية الواسعة. إن متوسط دخل المواطن الأمريكى الشمالى يفوق سبع مرات متوسط دخل الأمريكى اللاتينى ويتزايد بمعدل أسرع عشر مرات. والمتوسطات خادعة، بسبب الهُوى التى تنفتح بلا قرار، جنوبى الريو برافو*، بين الفقراء العديدين والقلة من أغنياء الإقليم. وبالفعل، فعند القمة، وفق مانقوله الأمم المتحدة، يحتكر ستة ملايين أمريكى لاتينى نفس الدخل الذى يناله مائة وأربعون مليوناً يحتلون قاعدة الهرم الاجتماعى. وهناك ستون مليوناً من الفلاحين تبلغ ثروتهم خمسة وعشرين سنتاً من الدولار يومياً؛ وعلى الطرف المقابل، يمنح وسطاء الشقاء أنفسهم ترف تكويم خمسة آلاف مليون دولار فى حساباتهم الخاصة فى سويسرا أو الولايات المتحدة، ويغدقون على المظاهر والترف العقيم - المستفزّ والمتحدى - وعلى الاستثمارات غير المنتجة، التى تمثل مالايقل عن نصف الاستثمار الكلى، رؤوس الأموال التى كان يمكن لأمريكا اللاتينية أن توجهها إلى تجديد، وتوسيع، وخلق مصادر للإنتاج والعمل. إن طبقاتنا الحاكمة، نظراً لإرتباطها منذ البداية بمنظومة السلطة الامبريالية، ليس لديها أدنى إهتمام بالتحقق مما إذا كانت الوطنية يمكن أن تكون مربحة أكثر من الخيانة، أو ما إذا كان التسول هو الشكل الوحيد الممكن للسياسة الدولية. يتم ارتهان

* الريو برافو: النهر الفاصل بين الولايات المتحدة والمكسيك. ويعتبر الحد الشمالي لأمريكا اللاتينية - م.

السيادة لأنه "ليس هناك سبيل آخر"؛ وتخلط الأعذار التى تقدمها الأوليجاركية عن عمد بين عجز طبقة إجتماعية بعينها وبين الفراغ المزعوم فى مصير كل أمة.

لقد أعلن جوزويه دى كاسترو: "إننى، أنا الذى تلقيت جائزة" دولية للسلام، أعتقد، لسوء الحظ، أنه ما من حل لأمريكا اللاتينية سوى العنف". وهناك مائة وعشرون مليون طفل يضطربون فى قلب هذه العاصفة. فسكان أمريكا اللاتينية يتزايدون أكثر من غيرهم؛ وقد تضاعفوا أكثر من ثلاث مرات خلال نصف قرن. وفى كل دقيقة يموت طفل من المرض أو الجوع، لكن فى عام ٢٠٠٠ سيكون هناك ستمائة وخمسون مليوناً من الأمريكيين اللاتين، سيكون عمر نصفهم أقل من خمسة عشر عاماً: إنها قنبلة زمنية. أما المائتان وثمانون مليوناً من الأمريكيين اللاتين الموجودون فى نهاية عام ١٩٧٠، فبينهم خمسون مليوناً من العاطلين أو الذين يعملون بعض الوقت وحوالى مائة مليون من الأميين؛ ويعيش نصف الأمريكيين اللاتين مكوّمين فى مساكن غير صحية. وأكبر ثلاثة أسواق فى أمريكا اللاتينية – وهى الأرجنتين، والبرازيل، والمكسيك – لاتستطيع فى مجموعها أن تعادل القدرة الاستهلاكية لفرنسا أو ألمانيا الغربية، رغم أن مجموع سكان بلداننا الثلاثة الكبار يفوق بكثير سكان أى بلد أوربى. وتنتج أمريكا اللاتينية اليوم، بالنسبة للسكان، أغذية" أقل مما كانت قبل الحرب العالمية الأخيرة، وقد إنخفضت صادراتها بالنسبة للفرد ثلاث مرات، بالأسعار الثابتة، منذ عشية أزمة عام ١٩٢٩. إن النظام عقلانى جداً من وجهة نظر سادته الأجانب وبرجوازيتنا من الوسطاء، التى باعت روحها للشيطان بثمن كان يمكن أن يُخجل فاوست. لكن النظام لاعقلانى بالنسبة لجميع الآخرين بحيث أنه كلما تطوّر كلما زاد من حدّة إضطراباتهم، وتوتراتهم، وتناقضاتهم الملتهبة. وحتى التصنيع، التابع والمتأخر، الذى يتعايش بإرتياح مع اللاتيفوندیا ومع بنيات التفاوت، فإنه يسهم فى بذر بذور البطالة بدل أن يساعد على حلها؛ إذ يتسع الفقر وتتركز الثروة فى هذا الإقليم الذى يملك فيالق ضخمة من الأذرع العاطلة تتضاعف دون توقف. وتقام مصانع جديدة فى الأقطاب المحظوظة للتنمية – ساو باولو، وبوينوس آيريس، ومدينة المكسيك – لكن الحاجة إلى الأيدى العاملة تقل بإستمرار. لم يحسب النظام حساب هذه المشكلة الصغيرة: مشكلة أن البشر هم مايفيض عن الحاجة. والبشر يتجدّدون. يمارسون الحب بحماس ودون إحتياطات. وباستمرار، يتزايد الناس على قارعة الطريق، بلاعمل فى الريف، حيث تسود اللاتيفوندیا بأراضيها الشاسعة غير المزروعة، وبلاعمل فى المدينة، حيث تسود الآلات: إن النظام يتقيأ بشراً. وتقوم البعثات

الأمريكية الشمالية بتعقيم النساء على نطاق واسع وتبذر حبوباً، وأغشية، وواقٍ، وعوازل مطاطية، وتقاويم تحمل علامات، لكنها تحصد أطفالاً؛ بإصرار، يواصل أطفال أمريكا اللاتينية توالدهم، مطالبين بحقهم الطبيعي في الحصول على مكان تحت الشمس في هذه الأرجاء الرائعة التي يمكنها أن تقدّم للجميع ماينكرونه على الجميع تقريباً.

في أوائل نوفمبر عام ١٩٦٨، أكد ريتشارد نيكسون Richard Nixon بصوت عالٍ أن "التحالف من أجل التقدم" قد أكمل سبع سنوات من عمره، ورغم ذلك، كان سوء التغذية وندرة الغذاء قد تفاقما في أمريكا اللاتينية. وقبلها ببضعة أشهر، في أبريل، كتب جورج و. بول George W. Ball في مجلة لايف يقول: "خلال العقود القادمة، على الأقل، لن يعنى سخط الأمم الأشد فقراً تهديداً بتدمير العالم. ومهما كان ذلك مُخجلاً، فقد عاش العالم، خلال أجيال، وثلثاه فقراء وثلثه غنى. ومهما كان ذلك جائراً، فإن سلطة البلدان الفقيرة محدودة". كان بول قد ترأس وفد الولايات المتحدة إلى المؤتمر الأول للتجارة والتنمية في جنيف، وصوّت ضد تسعة من المبادئ العامة الإثنى عشر التي صدّق عليها المؤتمر بهدف تخفيف المظالم الواقعة على البلدان المتخلفة في التجارة الدولية. إن مذابح البؤس في أمريكا اللاتينية سرّية؛ فكل عام تنفجر، في صمت، وبلا ضجة، ثلاث من قنابل هيروشيما فوق رؤوس هذه الشعوب التي تعوّدت أن تقاسي وهي تجزّ على أسنانها. هذا العنف المنهجي، الواقعي رغم أنه غير ظاهر، يأخذ في الازدياد: وجرائمه لاتنشر في التقويم الأحمر، بل في إحصائيات منظمة الأغذية والزراعة (FAO). يقول بول أن الإفلات من العقاب مازال ممكناً، لأن الفقراء لايمكنهم إشعال فتيل الحرب العالمية، لكن الإمبراطورية قلقة: ولأنها غير قادرة على مضاعفة الخبز، فإنها تفعل كل مايمكن لتقليل عدد الجالسين على المائدة. "حارب الفقر، إقتل شحاذاً!" هكذا خربش أحد أساتذة الدعابة السوداء على أحد جدران مدينة لاباز. ماذا يقترح ورثة مالتوس سوى قتل كل الشحاذين المقبلين قبل أن يولدوا؟ إن روبرت مكنمارا Robert McNamara، رئيس البنك الدولي الذي كان رئيساً لمؤسسة فورد ووزيراً للدفاع، يؤكد أن الإنفجار السكاني يمثل العقبة الرئيسية أمام تقدم أمريكا اللاتينية. ويعلن أن البنك الدولي سيولي أولوية، في قروضه، للبلدان التي تطبّق خططاً لتحديد النسل. ويبين مكنمارا بأسى أن أمخاخ الفقراء تفكر بدرجة أقل بنسبة خمسة وعشرين بالمائة، ويقوم تكنوقراطيو البنك الدولي (الذين وُلدوا بالفعل) بجعل أجهزة الكمبيوتر تدق وتخرج ألغازاً بالغة التعقيد حول مزايا إلاّ يولد المرء: " إذا استطاع بلد على طريق النمو متوسط دخل الفرد فيه من

١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار سنوياً أن يقلل خصوبته بنسبة ٥٠ بالمائة خلال فترة ٢٥ عاماً، فإن متوسط دخل الفرد فيه بعد ٣٠ عاماً سيكون أعلى بنسبة ٤٠ فى المائة على الأقل عن المستوى الذى يكون قد بلغه بدون ذلك، وسيكون أعلى مرتين بعد ٦٠ عاماً"، هكذا تؤكد إحدى وثائق البنك الدولى. وقد اشتهرت عبارة ليندون جونسون Lyndon Johnson التى يقول فيها: "إن خمسة دولارات مستثمرة ضد النمو السكانى أكثر فعالية من مائة دولار مستثمرة فى النمو الاقتصادى" وقد تنبأ دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower بأن سكان الأرض إذا استمروا فى التضاعف بنفس المعدّل فلن تزداد فقط حدّة خطر الثورة، بل سينتج كذلك "تدهور فى مستوى معيشة كل الشعوب، بما فى ذلك شعبنا".

لاتعانى الولايات المتحدة، داخل حدودها، من مشكلة الانفجار السكانى، لكنها أكثر الدول إهتماماً بنشر وفرض تنظيم الأسرة، فى أركان الأرض الأربعة. ولاتهتم بذلك الحكومة وحدها، فإن روكفللر ومؤسسة فورد بدورهما يعانيان من كوابيس يتقدم فيها ملايين الأطفال، مثل الجراد، من آفاق العالم الثالث. وقد إنشغل أفلاطون وأرسطو بالمشكلة قبل مالتوس ومكنمارا؛ إلاّ أن كل هذا الهجوم، فى أيامنا، يحقق مهمة محددة جيداً: إنه يطرح تبرير التوزيع الشديد التفاوت للدخل بين البلدان وبين الطبقات الاجتماعية، وإقناع الفقراء بأن الفقر هو نتيجة الأطفال الذين لايتم تجنبهم، ووضع حائل أمام تقدم سخط الجماهير بالحركة وبالتمرّد. إن موانع الحمل التى توضع داخل الرحم تتنافس مع القنابل ومع الرشاشات، فى جنوب شرق آسيا، فى محاولة إعاقة النمو السكانى فى فيتنام. أما فى أمريكا اللاتينية، فإن قتل مقاتلى العصابات فى الأرحام يكون أكثر صحيّة وفعالية من قتلهم فى الجبال أو فى الشوارع. وقد قامت عدة بعثات أمريكية شمالية بتعقيم آلاف النساء فى إقليم الأمازون، رغم أن هذه المنطقة هى أقل مناطق كوكبنا القابلة للسكنى إزدحاماً بالسكان. وفى غالبية بلدان أمريكا اللاتينية لايزيد السكان عن الحاجة: بل ينقصون. ففى البرازيل، يقلّ عدد السكان لكل كيلو متر مربع ٣٨ مرة عن بلجيكا؛ وفى الباراجواى، يقلّون ٤٩ مرّة عن إنجلترا؛ وفى البيرو، يقلّون ٣٢ مرة عن اليابان. أما هايتى والسلفادور، وهما أعشاش النمل البشرية لأمريكا اللاتينية، فإن كثافة السكان فيهما أقل منها فى إيطاليا. والحجج المثارة تحتقر الذكاء، أما النوايا الحقيقية فتشعل الإحساس بالمهانة. وفى نهاية المطاف، فإن مالا يقل عن نصف أراضى بوليفيا، والبرازيل، وتشيلى، وإكوادور، والباراجواى، وفنزويلا لايسكنها أحد. وما من شعب أمريكى لاتينى يتزايد بمعدل أقل من أورجواى، بلد العجائز، ورغم

ذلك، لم تعان أمة أخرى، خلال السنوات الأخيرة، مثلما عانت أورجواى من الأزمة التى يبدو أنها تجذبها إلى الدرك الأسفل من الجحيم. فأورجواى خاوية بينما تستطيع مراعيها الخصبة أن تقدم الطعام لسكان أكثر بكثير من الذين يعانون اليوم، على أرضها، من كل هذه الحرمانات.

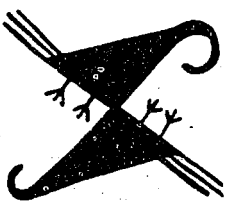
منذ أكثر من قرن من الزمان، قال أحد مستشارى جواتيمالا بصورة تنبؤية: "سيكون غريباً أن يولد الدواء أيضاً من حيث يأتينا الداء، من نفس صدر الولايات المتحدة". والآن، بعد أن مات ودفن "التحالف من أجل التقدم"، تعرض الإمبراطورية، برعباً أكثر من كونه كرماً، حل مشاكل أمريكا اللاتينية بإبادة الأمريكيين اللاتين مقدماً. ففى واشنطن أصبحت لديهم الآن دوافع للشك فى أن الشعوب الفقيرة لا تفضل أن تكون فقيرة. لكن لايمكن للمرء أن يريد الغاية دون أن يريد الوسائل: فمن ينكرون تحرير أمريكا اللاتينية، ينكرون كذلك تجدّدنا الوحيد الممكن، ويغفرون، أثناء ذلك، للهياكل القائمة. إن الشباب يتضاعفون، وينهضون، وينصتون: فماذا يقدم لهم صوت النظام؟ إن النظام يتحدث لغةً سوريالية: يطرح تجنب النسل فى هذه الأراضى الخاوية؛ يعتقد أن هناك نقصاً فى رؤوس الأموال فى بلدان تفيض فيها رؤوس الأموال عن الحاجة لكنها تُبدّد، يطلق إسم المساعدة على جراحة تشويه العظام التى تمارسها القروض وعلى استنزاف الثروات الذى تمارسه الاستثمارات الأجنبية؛ يدعو اللاتيفونديين إلى إنجاز الإصلاح الزراعى ويدعو الأوليجاركية إلى ممارسة العدالة الاجتماعية. وبمرسوم، يتقرر ألاّ وجود للصراع الطبقى ألاّ بجريرة العملاء الأجانب الذين يشعلون ناره، لكن الطبقات الاجتماعية موجودة، بالمقابل، وإضطهاد بعضها من جانب البعض الآخر يسمى نمط الحياة الغربى. والحملات الإجرامية لجنود المارينز* هدفها هو إرساء النظام والسلام الاجتماعى، والدكتاتوريات الوفية لواشنطن تؤسس فى السجون الحالة الاعتيادية وتحظر الاضرابات وتصفّى النقابيين من أجل حماية حرية العمل.

هل كل شئ محظور علينا بإستثناء أن نظل مكتوفى الأيدى؟ ليس الفقر مسطوراً فى النجوم؛ وليس التخلف ثمرة مخطط غامض وضعه الرب. إذ تمر سنوات ثورة، وأوقات خلاص. إن الطبقات الحاكمة تنغمس حتى آذانها فى الترف، وفى نفس الوقت تعلن الجحيم للجميع. وبمعنى من المعانى، فإن اليمين على حق حين يوحّد بين نفسه وبين الهدوء والنظام: فإنه بالفعل نظام الإذلال اليومى للأغلبيات، لكنه نظام فى النهاية: وهدوء

* مشاة بحرية الولايات المتحدة – م.

أن يظل الجور ظالماً والجوع مُجوّعاً. وإذا تحول المستقبل إلى صندوق مفاجآت، فإن الشخص المحافظ يصرخ، وله كل الحق: "لقد خانوني". ومنظّرو العجز، العبيد الذين ينظرون إلى أنفسهم بعيون السيد، لايتوانون عن إطلاق صيحاتهم. إن نسر مين* Maine البرونزى، الذى أُسقط يوم إنتصار الثورة الكوبية، يرقد الآن مهجوراً، وجناحاه محطّمان، تحت إحدى بوابات الحى القديم فى هافانا. ومنذ كوبا فصاعداً، بدأت بلدان أخرى بدورها تجربة التغيير بطرق مختلفة ووسائل مختلفة: فاستمرار النظام الحالى للأمور هو إستمرار للجريمة.

إن أشباح كل الثورات التى خُنقت أو تمت خيانتها على طول التاريخ الأمريكى اللاتينى المعذّب تظهر فى التجارب الجديدة، مثلما أنذرت تناقضات الماضى بالعصر الحاضر وولّدته. **إن التاريخ نبىٌ يوجّه بصره إلى الوراء ومن أجل ما كان، وضد ماكان، يعلن ما سيكون.** لذا، ففى هذا الكتاب، الذى يود أن يقدم تاريخاً للنهب وأن يقص فى نفس الوقت كيف تعمل آليات الاستنزاف الحالية، يظهر الغزاة فى سفنهم الشراعية، وعلى مقربة منهم، التكنوقراطيون فى طائراتهم النفاثة، هرنان كورتيس ومشاة البحرية، مفوّضو المملكة وبعثات صندوق النقد الدولى، أرباح تجار العبيد وأرباح جنرال موتورز. كذلك يظهر الأبطال المهزومون وثورات أيامنا، الفضائح والآمال الميتة والمنبعثة: التضحيات الخصبة. حين درس الكسندرفون همبولت عادات السكان الأصليين القدماء لهضبة بوجوتا، عرف أن الهنود يسمّون ضحايا الإحتفالات الطقسية بإسم **كيهيكا** quihica. وكلمة **كيهيكا تعنى بوابة**: فموت كل شخص مختار يفتح دورة جديدة من مائة وخمسة وثمانين قمراً.



* شعار الولايات المتحدة الأمريكية – م.

الباب الأول

فقر الإنسان كنتيجة
لثـــراء الأرض

حُمّى الذهب ، حُمّى الفضّة

■ علامة الصليب على مقابض السيوف

حين إنطلق كريستوفر كولومبس ليعبر الأبعاد المترامية الخاوية غربى المسكونة، كان قد قبِل تحدّى الأساطير. الأعاصير الرهيبة التى ستتلاعب بسفنه، كأنها قشور بندق، وتقذفها إلى أفواه الوحوش الخرافية؛ وأفعى بحار الظلمات الضخمة، التى ستكون مترصّدة، وجائعة للّحم البشرى. لم يكن باقياً سوى ألف سنة قبل أن تُسوّى نيران يوم الحساب المطهّرة العالم بالتراب، كما كان يعتقد أناس القرن الخامس عشر، وكان العالم حينئذ هو البحر المتوسط بشواطئه ذات الإمتداد الغامض صوب إفريقيا والشرق. كان البّحارة البرتغاليون يؤكدون أن ريح الغرب تجلب جثثاً غريبة وتقذف أحياناً كتلاً خشبية ذات نقوش عجيبة، لكن أحداً لم يظن أن العالم سرعان ما سيتضاعف بصورة مذهلة.

لم تكن أمريكا تفتقر إلى مجرد الإسم. فلم يعرف النرويجيون أنهم كانوا قد إكتشفوها منذ زمن طويل، وقد مات كولومبس نفسه، بعد رحلاته، وهو مقتنع بأنه قد وصل إلى آسيا من الخلف. وفى عام ١٤٩٢، حين ألقى الأسطول الإسبانى مراسيه للمرة الأولى فى رمال جزر البهاما، إعتقد الأدميرال أن هذه الجزر هى مشارف اليابان. كان كولومبس يحمل معه نسخة من كتاب ماركو بولو، تمتلئ بالحواشى على هوامش الصفحات. كان سكان سيبانجو*، كما قال ماركو بولو، "يملكون ذهباً بكميات هائلة والمناجم التى يجدونه فيها لاتنضب أبداً ... كما توجد فى هذه الجزيرة لآلئ لها أنقى بريق بكمية كبيرة، وهى وردية، ومستديرة، وكبيرة الحجم وتتجاوز فى قيمتها اللآلئ البيضاء". كان ثراء سيبانجو قد بلغ مسامع قبلاى خان** العظيم، وأشعل فى صدره الرغبة فى فتحها: لكنه أخفق. من صفحات ماركو بولو البراقة أخذت تحلّق كل خيرات الخليقة؛ فقد كان هناك نحو ثلاث عشرة ألف جزيرة فى بحر الهند جبالها من الذهب

---

* سيبانجو: هى التسمية التى أطلقها ماركو بولو على الجزيرة أو الجزر المدهشة التى تقع شرقى آسيا وكان كولومبس يبحث عنها. وهى اليابان – م.

** قبلاى خان (١٢١٥ – ١٢٩٤): إمبراطور مغولى. حفيد جنكيزخان. فتح الصين وأخضع كوريا وبورما – م.

واللآلئ، وإثنى عشر نوعاً من التوابل بكميات ضخمة، علاوة على الفلفل الأبيض والأسود.

كان الفلفل، والزنجبيل، والقرنفل الفوّاح، وجوزة الطيب، والقرفة مُشتهاةً مثل الملح لحفظ اللحم فى الشتاء دون أن يتعفّن أو يفقد طعمه. وقرّر ملكا إسبانيا الكاثوليكيان تمويل مغامرة الوصول مباشرةً إلى المنابع، حتى يتخلصا من السلسلة المرهقة من الوسطاء والسماسرة الذين كانوا يحتكرون تجارة التوابل والنباتات الاستوائية، والموسلين والأسلحة البيضاء القادمة من أقاليم الشرق الغامضة. كما أن الشغف بالمعادن النفيسة، التى هى وسيلة الدفع فى التبادل التجارى، حفز بدوره عبور البحار الملعونة. كانت أوربا بأكملها بحاجة إلى الفضة؛ فقد كانت مناجم بوهيميا، وسكسونيا، والتيرويل على وشك النضوب.

كانت إسبانيا تعيش عصر إجلاء العرب*. ولم يكن عام ١٤٩٢ مجرد عام إكتشاف أمريكا، ذلك العالم الجديد الذى ولد من ذلك الخطأ ذى النتائج الضخمة. فقد كان كذلك عام استعادة غرناطة. إذ أن فرناندو ملك آراجون وإيسابل ملكة قشتالة، اللذين كانا قد تجاوزا بزواجهما تمزّق ممالكهما، نجحا فى أوائل عام ١٤٩٢ فى إخضاع آخر معقل للدين الإسلامى على أرض اسبانيا. إستغرقت إستعادة ما فقد فى سبع سنوات نحو ثمانية قرون[1]، وكانت حرب إجلاء العرب قد أفرغت الخزانة الملكية. لكن هذه الحرب كانت حرباً مقدسة، الحرب المسيحية ضد الإسلام، كذلك ليس من قبيل الصدفة أنه فى نفس هذه السنة ١٤٩٢، ثم طرد مئة وخمسين ألف يهودى من البلاد. كانت إسبانيا تكتسب واقعاً بوصفها أمة وهى تشهر السيوف التى تحمل مقابضها علامة الصليب. بينما جعلت الملكة إيسابل من نفسها راعيةً لمحاكم التفتيش المقدسة. إن حدث إكتشاف أمريكا لايمكن تفسيره بدون التقاليد العسكرية لحرب الحملات الصليبية التى سادت فى قشتالة فى العصر الوسيط، بينما لم تتباطأ الكنيسة فى إضفاء طابع القداسة على غزو الأراضى المجهولة على الجانب الآخر من البحر. وقد جعل البابا الكسندر السادس، الذى كان من بلنسية، الملكة إيسابل مالكة وسيدة للعالم الجديد. كان توسّع مملكة قشتالة يوسّع مملكة الرب على الأرض.

بعد ثلاثة أعوام من الإكتشاف، قاد كريستوفر كولومبس بنفسه الحملة العسكرية

---

* إجلاء العرب أو إعادة الفتح reconquiste: تنطبق على الأخص على الفترة من معركة كوبا دونجا عام ٧١٨ وحتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ – م.

ضد سكان الدومينيكان الأصليين. قامت حفنة من الفرسان، ومئتان من المشاه، وبعض الكلاب المدربة خصيصاً على الهجوم بتمزيق الهنود إرباً. وأرسل إلى إسبانيا أكثر من خمسمئة منهم، بيعوا كالعبيد في أشبيلية وماتوا بائسين[٢]. لكن بعض اللاهوتيين إحتجوا وحُظر إستعباد الهنود رسمياً مع مولد القرن السادس عشر. وفي الواقع، فإنه لم يُحظر بل بورك: فقبل كل حملة عسكرية، كان يجب على قواد الغزو أن يقرأوا على الهنود، أمام كاتب عمومي، إنذاراً مسهباً وبليغاً يستحثهم على إعتناق العقيدة الكاثوليكية المقدسة: و "إذا لم تفعلوا، أو أبديتم في ذلك إبطاءً بسوء طوية، فإنني أشهدكم على أنني بعون الرب سأحمل عليكم بسطوة وسأشن عليكم الحرب في كل مكان وبكل طريقة أستطيعها، وسأخضعكم لنير وطاعة الكنيسة وصاحبة الجلالة وسآخذ نساءكم وأبناءكم وأجعلهم عبيداً، وعبيداً سأبيعهم، وسأتصرف فيهم كما تأمر جلالتها، وسآخذ أملاككم وأوقع بكم كل ما أستطيع من شرور وأذى" ... [٣].

كانت أمريكا هي إمبراطورية الشيطان الشاسعة، وخلاصها مستحيل أو مشكوك فيه، لكن الحملة المتعصبة ضد هرطقة السكان المحليين كانت تختلط بالحمى التي أطلق عنانها، بين حشود الغزو، بريق كنوز العالم الجديد. يكتب برنال دياث دل كستييو، الرفيق الوفي لهرنان كورتيس في غزو المكسيك، "أنهم قد جاءوا إلى أمريكا " لخدمة الرب وصاحبة الجلالة وكذلك لنيل الثروات".

حين بلغ كولومبس مرسى سان سلفادور، أذهلته شفافية الكاريبي الزاهية، والمشهد الأخضر، وعذوبة ونقاء الهواء، والطيور الرائعة، والفتية "ذوي القوام المشوق، قوم بالغو الجمال" و "شديدو الوداعة" الذين يعيشون هناك. وأهدى الهنود "بعض القبّعات الملونة وبعض قطع الزجاج التي توضع حول العنق، وكثيراً من الأشياء الأخرى القليلة القيمة التي جعلتهم سعداء جداً وأصبحوا رجالنا مما يعد أعجوبة". أراهم السيوف. لم يكونوا يعرفونها، فتناولوها من حدّها، وجرحوا أنفسهم. وفي هذه الأثناء، كما يحكي الأدميرال في يوميات الإبحار، "كنت منتبهاً وحاولت معرفة ما إذا كان ثمة ذهب، ورأيت أن بعضهم يحملون قطعة معلقة من ثقب في أنوفهم، وبالإشارة فهمت أنه بالسير جنوباً أو بالدوران حول الجزيرة من ناحية الجنوب، فإن هناك ملك لديه أواني كبيرة منه، ولديه الكثير جداً" لأنه "من الذهب يُصنع الكنز، وبه يفعل من يملكه كل ما يشاء في الدنيا ويبلغ حد إدخال الأرواح إلى الفردوس". وفي رحلته الثالثة ظل كولومبس على إعتقاده أنه يتجول في بحر الصين حين دخل شواطئ فنزويلا؛ ولم يمنعه ذلك من

أن يذكر أنه من هناك كانت تمتد يابسة لامتناهية تصعد نحو الفردوس الأرضى. كذلك فإن أمريكو فسبوشيو، مستكشف ساحل البرازيل عند مولد القرن السادس عشر، يقص على لورنزو دى ميديتشى أن: "الأشجار يبلغ من جمالها ورقتها أننا أحسسنا أننا فى الفردوس الأرضى ..."[٤]. وقد كتب كولومبس، حانقاً، للملكين الكاثوليكيين، من جامايكا، عام ١٥٠٣ يقول: "حين اكتشفت جزر الهند، قلت أنها أعظم مملكة غنية توجد على الأرض. وقد تحدثت عن الذهب، واللآلئ، والأحجار الكريمة، وأنواع التوابل ...".

كان كيس واحد من الفلفل، فى العصر الوسيط، يساوى أكثر من حياة رجل، لكن الذهب والفضة كانا المفتاحين اللذين استخدمتهما النهضة لفتح أبواب الفردوس فى السماء وأبواب المركنتيلية الرأسمالية على الأرض. وقد إختلط فى ملحمة الإسبان والبرتغاليين فى أمريكا نشر الديانة المسيحية بإغتصاب ونهب الثروات المحلية. كانت سلطة أوربا تمتد لتطوّق العالم. وكانت الأراضى البكر، التى تعج بالغابات والمخاطر، تلهب جشع القواد، والفرسان النبلاء، والجنود ذوى الأسمال المنطلقين لكسب غنائم الحرب المدهشة: كانوا يؤمنون بالمجد، "شمس الموتى"، وبالجسارة. كان كورتيس يقول: "الحظ يساعد الجسورين". وكان كورتيس نفسه قد رهن كل ممتلكاته الشخصية حتى يجهز حملة المكسيك. ففيما عدا إستثناءات معدودة مثلما فى حالة كولومبس أو ماجلاّن، لم تكن تكاليف المغامرات تُقدم من الدولة، بل يقدمها الغزاة أنفسهم، أو التجار والمصرفيون الذين يموّلونهم[٥].

ولدت إسطورة "الدورادو"*، الحاكم الذى يسبح فى الذهب، والتى إخترعها الهنود لإبعاد الدخلاء: ومن جونثالو بيثارّو Gonzalo Pizarro وحتى والتر رالى Walter Raleigh، إقتفى الكثيرون أثره عبثاً عبر غابات ومياه نهرى الأمازون والأورينوكو. وقد أصبح سراب "النبع الذى يفيض فضة" حقيقة عام ١٥٤٥، مع إكتشاف پوتوسى Potosí، لكن كان قد مات قبل ذلك، من الجوع أو المرض أو بسهام الهنود التى إخترقتهم، الكثيرون من أعضاء الحملات الذين حاولوا، دون جدوى، أن يبلغوا نبع الفضة مصعّدين فى نهر الپارانا Paraná.

حقاً، كان هناك ذهب وفضة بكميات ضخمة، متراكمين فى هضبة المكسيك وفى هضبة الألتيبلانو الأنديزية. وقد كشف هرنان كورتيس لإسبانيا، عام ١٥١٩، الحجم الخرافى لكنز موكتزوما الأزتيكى، وبعد خمسة عشر عاماً وصلت إلى أشبيلية الغنيمة

* تعنى حرفياً الرجل الذهبى – م.

الهائلة، غرفة مملوءة بالذهب وغرفتان مملوءتان بالفضة، جعل فرنثيسكو بيثارّو Francis-co Pizarro الإنكا أتاهولپا Atahualpa يدفعها قبل شنقه. وقبل ذلك بسنوات، كان التاج قد دفع أجور البحارة الذين صاحبوا كولومبس فى رحلته الأولى بالذهب المنتزع من جزر الأنتيل[٦]. وفى النهاية، كف سكان جزر الكاريبى عن دفع الجزية، لأنهم إختفوا من الوجود: كان الهنود قد أبيدوا تماماً فى مصافى الذهب، فى الكدّ الفظيع لتقليب الرمال المحتوية على الذهب وأجسامهم مغمورة فى الماء حتى خصرهم، أو وهم يحرثون الحقول وقد تجاوزوا آخر حدود الإجهاد، وظهورهم محنية على أدوات الفلاحة الثقيلة التى جُلبت من إسبانيا.

وقد إستبق كثيرون من هنود الدومينيكان القدر الذى فرضه عليهم المضطهدون البيض الجدد: إذ قتلوا أطفالهم وإنتحروا جميعاً. وقد فسّر المؤرخ الرسمى فرناندث دى أوبييدو Fernández de Oviedo، مذبحة الأنتيليين، فى منتصف القرن السادس عشر، على النحو التالى: "كثيرون منهم، من أجل تسليتهم، قتلوا أنفسهم بالسم حتى لايعملوا، بينما خنق آخرون أنفسهم بأيديهم"[٧].

■ عاد الآلهة بالأسلحة السرّية

عند مروره بجزيرة تنريف، خلال رحلته الأولى، شهد كولومبس إنفجاراً بركانياً هائلاً. وكان ذلك بمثابة نبوءة عن كل ما سوف يجرى بعدها فى الأراضى الجديدة الشاسعة التى ستعترض الطريق الغربى نحو آسيا. كانت أمريكا موجودة هناك، تنبئ بذلك سواحلها اللانهائية؛ واتسع نطاق الفتح، فى موجات، مثل مدٍ هائج. كان المقدّمون يتبعون الأدميرالات وتحولت أطقم البحارة إلى حشود غازية. كانت المراسيم البابوية قد قدمت تنازلاً بابوياً عن إفريقيا للتاج البرتغالى، كما منحت تاج قشتالة الأراضى "المجهولة مثل تلك التى إكتشفها مبعوثوكم حتى الآن وتلك التى ستكتشف فى المستقبل...». كانت أمريكا قد أُهديت إلى الملكة إيسابل. وفى عام ١٥٠٨، منح مرسوم جديد التاج الإسبانى، بصفةٍ دائمة، كل العشور التى تُجبى فى أمريكا: كانت الوصاية الشاملة المرتقبة على كنيسة العالم الجديد تتضمن حق تقديم التاج لكل المزايا الكنسية[٨].

وسمحت إتفاقية توردیسيّاس Tordesillas، المبرمة عام ١٤٩٤، للبرتغال بإحتلال أراضٍ أمريكية فيما وراء الخط الفاصل الذى رسمه البابا، وفى عام ١٥٣٠، أقام مارتيم

ألفونسو دى سوسا Martim Alfonso de Sousa القرى البرتغالية الأولى فى البرازيل، طارداً الفرنسيين. وفى ذلك الوقت، كان الإسبان قد تقدّموا كثيراً فى عملية الاستكشاف والفتح، عابرين غابات جهنمية وصحراوات لانهائية. ففى عام ١٥١٣ توهج المحيط الهادى تحت بصر باسكو نونييث دى بالبوا Basco Núnezde Balboa؛ وفى خريف عام ١٥٢٢، عاد إلى أسبانيا من بقوا أحياء من بعثة إرناندو دى ماجللان Hernan do de Magallanes، الذين عبروا كلا المحيطين للمرة الأولى وأثبتوا أنّ العالم كروى بالدوران حوله دورة كاملة؛ وقبلها بثلاث سنوات، كانت سفن هرنان كورتيس العشر قد غادرت جزيرة كوبا، متجهةً إلى المكسيك، وفى عام ١٥٢٣، إنطلق بدرو دى ألبارادو Pedro de Alvarado ليفتح أمريكا الوسطى؛ وفى عام ١٥٣٣، دخل فرنثيسكو بيثارّو Francisco Pizarro كوثكو Cuzco منتصراً، وسيطر بذلك على قلب إمبراطورية هنود الإنكا؛ وفى عام ١٥٤٠، عبر بدرو دى بالديبيا Pedro de Valdivia صحراء أتاكاما Atacama وأنشأ مدينة سانتياجو دى تشيلى. وإخترق الفاتحون التشاكو Chaco وكشفوا العالم الجديد من البيرو حتى مصب أكثر أنهار الكوكب تدفقاً.

كان سكان أمريكا الأصليون من كل صنف: فبينهم فلكيون وأكله لحوم بشر، مهندسون وبدائيون من العصر الحجرى. لكن لم تعرف أى واحدة من الثقافات المحلية لا الحديد ولا المحراث، ولا الزجاج ولا البارود، ولم تكن أى منها تستخدم العجلة. وكانت الحضارة التى إنقضّت على تلك الأراضى من الجانب الآخر للبحر تحيا الإنفجار الخلاّق لعصر النهضة: بدت أمريكا وكأنها اختراع آخر، واندرجت، مع البارود، والطباعة، والورق، والبوصلة، فى الميلاد الصاخب للعصر الحديث. ويوضّح عدم التكافؤ فى تطور كلٍ من العالمين، بدرجة كبيرة، السهولة النسبية التى خضعت بها الحضارات المحلية. فقد رسى هرنان كورتيس فى فيراكروث وليس بصحبته سوى ما لايزيد عن مائة بحار و ٥٠٨ جنود؛ وكان لديه ١٦ حصاناً، و ٣٢ منجنيقاً، وعشر مدافع برونزية، وبضع قربينات، وبنادق وغدّارات. ورغم ذلك، كانت عاصمة هنود الأزتيك، تينوتشتيتلان Tenochtitlán، حينذاك أكبر من مدريد خمس مرات، وسكانها ضعف سكان أشبيلية، أكبر مدن إسبانيا. كما دخل فرنثيسكو بيثارّو كاخاماركا Cajamarca ومعه ١٨٠ جندياً و ٣٧ حصاناً.

فى البداية، هُزم الهنود نتيجة للذهول. وتلقى الإمبراطور موكتزوما Moctezuma، فى قصره، الأنباء الأولى: كان تلٌ ضخم يمخر عباب البحر. بعدها وصل رُسلٌ آخرون: "سبّب له خوفاً شديداً سماع كيف ينطلق المدفع، كيف يرعد دويّه، وكيف يتهاوى المرء؛

كيف تُصمّ آذانه. وحين تسقط القذيفة، يخرج من أحشائه شئ كأنه كرة من الحجر: تمطر لهباً ..". كان الأجانب قد جلبوا "أيائل" تبقيهم "عالياً مثل السقوف". ومن كل الأرجاء جاءوا وأجسامهم مُسربلة، "لاتظهر سوى وجوههم. وهى بيضاء، كأنها من جير. وشعرهم أصفر، رغم أن شعر بعضهم أسود. وذقنهم طويلة ..."[٩]. إعتقد موكتزوما أن من عاد هو الإله كتزالكواتل Quetzalcóatl. وكان ثمانية عرّافين قد أعلنوا عودته، قبلها بقليل. وكان الصيادون قد أحضروا إليه طائراً فى رأسه إكليل مستدير على هيئة مرآة، تنعكس عليها السماء والشمس فى المغيب. فى هذه المرآة رأى موكتزوما أسراب المحاربين تزحف على المكسيك. جاء الإله كتزالكواتل من الشرق وكان قد مضى باتجاه الشرق: كان أبيض وملتحياً. كذلك كان ويراكوتشا Huiracocha، الإله الخنثى للإنكا، أبيض وملتحياً. وكان الشرق هو مهد الأسلاف البطوليين لهنود المايا[١٠].

كانت الآلهة المنتقمة التى تعود الآن لتصفية الحسابات مع شعوبها تجلب معها دروعاً وزروداً، وأغطية سروج مزركشة تصد الحراب والحجارة؛ وكانت أسلحتها تطلق بروقاً قاتلة وتحيل الجوظلاماً بأدخنة لا يمكن تنفسها. كذلك مارس الفاتحون، ببراعة سياسية، أسلوب الخيانة والتآمر. فقد عرفوا، على سبيل المثال، كيف يستغلّون سخط الشعوب الخاضعة لسيطرة الأزتيك الإمبراطورية والانقسامات التى تمزق سلطة الإنكا. فكان هنود التلاكسكالتيكا tlaxcaltecas حلفاءً لكورتيس، واستغلّ بيثارّو لصالحه الحرب بين وريثى إمبراطورية الإنكا، هواسكار Huáscar وأتاهوالبا Atahualpa، الشقيقين العدوين. وكسب الفاتحون أعواناً من بين الطوائف السائدة الوسطى، من كهنة، وموظفين، وعسكريين، حين أسقطت، بالجريمة، القيادات الهندية الأعلى. لكنهم استخدموا، علاوة على ذلك، أسلحة أخرى، أو بالأحرى، عملت عوامل أخرى بصورة موضوعية على إنتصار الغزاه. والخيول والبكتيريا، مثالان على ذلك.

كان مصدر الخيول، مثلها مثل الجمال، من أمريكا[١١]، لكنها إنقرضت فى هذه البلاد. وبعد إدخالها إلى أوربا بواسطة الفرسان العرب، قدمت للعالم القديم نفعاً عسكرياً وإقتصادياً ضخماً. وحين عاودت الظهور فى أمريكا من خلال الفتح، فإنها أسهمت فى إضفاء قوى سحرية على الغزاة أمام أعين الهنود الذاهلة. وطبقاً لإحدى الروايات، فإن الإنكا أتاهوالبا حين رأى الجنود الأسبان الأوائل، وهم يمتطون خيولاً متوثبة مزيّنة بالأجراس والريش، تجرى فتثير الرعود والغبار بحوافرها السريعة، سقط على ظهره[١٢]. أما الزعيم تيكوم Tecum، الذى كان على رأس ورثة المايا، فقد قطع

بحربته رأس حصان بدرو دى ألبارادو، مقتنعاً أنه يشكل جزءاً من الفاتح: لكن ألبارادو نهض وقتله[١٣]. قامت خيول معدودة، مكسوة بعدّة الحرب، بتفريق الحشود الهندية وبذرت الرعب والموت. "نشر القساوسة والمبشرون أمال الخيال العامّى"، خلال عملية الاستعمار، "أن الخيول من أصل مقدس، حيث أن سانتياجو، راعى إسبانيا، كان يمتطى صهوة مهر أبيض، كسب معارك ثمينة ضد العرب واليهود، بعون العناية الإلهية"[١٤].

أما البكتيريا والفيروسات فكانت أشد الحلفاء فعالية. فقد جلب الأوربيون معهم، بمثابة الأوبئة الانجيلية، الجدرى والتيتانوس، وعدة أمراض رئوية، ومعوية، وتناسلية، والتراكوما، والتيفوس، والجذام، والحمى الصفراء، وتسوس الأسنان الذى يجعل الأفواه تتعفن. كان الجدرى أسبقها فى الظهور. ألا يُعدّ عقاباً إلهياً ذلك الوباء المجهول والمقرف الذى يشعل نار الحمى ويفتت اللحم؟ يقول أحد الشهود الهنود: "ذهبوا ليستقروا فى تلاكسكالا. عندئذ إنتشر الوباء: سعال، دمامل ملتهبة، تحرق"، ويقول آخر: "مات الكثيرون بسبب داء الدمامل الوبيل، اللزج، الثقيل"[١٥]. أخذ الهنود يموتون مثل الذباب؛ فلم تكن أجهزتهم تملك دفاعاً ضد الأمراض الجديدة. وأصبح من نجوا ضعافاً وغير نافعين. ويقدّر الأنثروبولوجى البرازيلى دارسى ريبيْرو أن أكثر من نصف السكان الأصليين لأمريكا، وأستراليا، وجزر المحيط ماتوا نتيجة العدوى بعد أول إتصال بالرجال البيض[١٦].

■ «مثل خنازير جائعة كانوا يتلهّفون علي الذهب»

بطلقات القربينة، وضربات السيوف، ولفحات الوباء، تقدم فاتحو أمريكا القلائل الذين لايلينون. هذا ماتحكيه أصوات المهزومين. بعد مذبحة تشولولا Cholula، أرسل موكتزوما رسلاً جدد للقاء هرنان كورتيس، الذى كان يتقدم باتجاه وادى المكسيك. وأهدى المبعوثون إلى الأسبان عقوداً ذهبية ورايات من ريش الكتزال*. كان الأسبان "مبتهجين. كأنهم قرود، كانوا يرفعون الذهب، كأنهم يشعرون بأنهم فى غمرة النشوة، فكأنه ينعشهم وينير قلبهم. كأنهم، وهذا مؤكد، يتلهفّون عليه بعطش بالغ. تتمدد أجسامهم بسببه، لديهم جوع ضارٍ له. مثل خنازير جائعة كانوا يتلهّفون على الذهب". هذا ما يقوله النص بلغة الناهواتل Náhuatl المحفوظ فى المخطوطات الفلورنسية. وفيما

* الكتزال Quetzal: طائر مقدس بين هنود الأزتيك القدماء. ذو ريش ملون جميل وجناحاه طويلان وريشات الذيل بالغة الطول وله عرف من ريش أخضر. وهو الآن الطائر القومي في جواتيمالا – م.

بعد، حين وصل كورتيس إلى تينوتشتيتلان، عاصمة الأزتيك الرائعة، دخل الإسبان دار الخزانة، "ثم صنعوا كرة ضخمة من الذهب، وأشعلوا، أحرقوا، أضرموا النار فى كل ماتبقى، مهما بلغت قيمته: وهكذا إحترق كل شئ. أما بالنسبة للذهب، فقد حوّله الأسبان إلى قضبان ...".

دارت الحرب، وأخيراً أعاد كورتيس فتح تينوتشتيتلان عام ١٥٢١، بعد أن كان قد فقدها. "ولم تعد لدينا دروع، ولم تعد لدينا هرّاوات، ولم يعد لدينا ما نأكله، فلم نأكل شيئاً". سقطت المدينة المدمّرة، المشتعلة، المغطاة بالجثث. لم تكن المشنقة والتعذيب كافيين: فلم تكن الكنوز المنهوبة تشبع أبداً متطلبات الخيال، وخلال سنوات طويلة، ظل الإسبان يحفرون قاع بحيرة المكسيك بحثاً عن الذهب والأشياء النفيسة التى يُفترض أن الهنود قد أخفوها.

إنقض بدرو دى ألبارادو ورجاله على جواتيمالا "وبلغ من كثرة الهنود الذين قتلوهم، أن تكوّن نهر من الدم، أصبح هو نهر الأوليمتبيك Olimtepeque"، وكذلك "أصبح النهار ملوناً بسبب الدم الغزير الذى سال فى ذلك اليوم". وقبل المعركة الفاصلة، "حين نظر الهنود المعذبون إلى أنفسهم، قالوا للإسبان ألاّ يعذبوهم أكثر من ذلك، وأن أمامهم الكثير من الذهب والفضة، واللآلئ، والزمرد كانت لدى القواد نيهايب إكسكين Nehaib Ixquín، نيهايب النسر والأسد. ثم أعطوها للإسبان وبقوا معهم..."[١٧].

وقبل أن يقطع فرنثيسكو بيثارّو عنق الإنكا أتاهوالبا، إنتزع منه فدية من "ألواح الذهب والفضة فاق وزنها عشرين ألف مارك* من الفضة الخاصة، ومليوناً وثلاثمائة وستة وعشرين ألف إسكودو* من الذهب البالغ النقاء...". بعدها إنقض على كوثكو. إعتقد جنوده أنهم يدخلون مدينة القياصرة، فقد كانت عاصمة إمبراطورية الإنكا فائقة البهاء، لكنهم سرعان ماخرجوا عن ذهولهم وشرعوا فى نهب معبد الشمس : "وهم يتصارعون، ويتقاتلون فيما بينهم، وكل واحد يحاول أن يخرج من الكنز بنصيب الأسد، كان الجنود، ذوى الزرد، يدوسون الجواهر والصور، ويدقون الأوانى الذهبية أو يطرقونها بالمطارق ليقلصوها إلى حجم أسهل وأيسر حملاً ... وألقوا كل كنز المعبد فى البوتقة، ليحولوا المعدن إلى قضبان: الرقائق التى كانت تغطى الجدران والأشجار المسبوكة الرائعة، والطيور ومختلف أشياء الحديقة"[١٨].

---

* المارك: هو وحدة وزن قديمة للذهب والفضة تعادل حوالي ثماني أوقيات، والاسكود وعملة ذهبية - م.

واليوم، فى الثوكالو*، الميدان الضخم العارى فى قلب عاصمة المكسيك، ترتفع الكاتدرائية الكاثوليكية فوق أطلال أهم معابد تينوتشتيتلان، ويقع قصر الحكومة فوق مقر كواوهتيموك Cuauhtémoc، الزعيم الأزتيكى الذى شنقه كورتيس. أحرقت تينوتشتيتلان. ولقيت كوتكو، فى البيرو، مصيراً مماثلاً، لكن الفاتحين لم يستطيعوا هدم جدرانها الضخمة تماماً، واليوم، يمكن أن يشاهد، عند أقدام المبانى الاستعمارية، البرهان الحجرى على عمارة الإنكا الشامخة.

■ أمجاد پوتوسى: دورة الفضة

يقال أنه حتى حوافر الخيل كانت من الفضة فى زمن قمة إزدهار مدينة پوتوسى[١٩]. ومن فضة كانت مذابح الكنائس وأجنحة الملائكة فى المواكب الدينية: وفى عام ١٦٥٨، بمناسبة الاحتفال بعيد القربان، أزيل الحصى من شوارع المدينة، من قلب المدينة حتى كنيسة ريكوليتوس، وكسيت بكاملها بقضبان من الفضة. فى پوتوسى شيدت الفضة معابداً وقصوراً، وأديرة وبيوت قمار، وكانت سبباً للمأساة وللعيد، أسالت الدم والنبيذ، وأشعلت الجشع وأطلقت العنان للتبذير وللمغامرة. وسار السيف والصليب متلازمين خلال الفتح والاستنزاف الاستعمارى. من أجل انتزاع فضة أمريكا، تواعد فى پوتوسى القوّاد والنسّاك، فرسان مصارعة الثيران والرُسُل، الجنود والرهبان. وأخذت أحشاء التلّ الثرى، بعد تحولها إلى مخروطات وسبائك، تغذى تطوّر أوربا أساساً. كان أسمى مديح للأشخاص أو الأشياء منذ أصبح بيثارّو سيد كوتكو هو عبارة "يساوى بيرو"، لكن بدءاً من إكتشاف التلّ، تحدث دون كيخوته دى لامانشا حديثاً آخر، إذ نبّه سانشو قائلاً "يساوى پوتوسى". ولأن پوتوسى هى الشريان الرئيسى لأراضى نائب الملك، وينبوع فضة أمريكا، فقد بلغ سكانها ١٢٠ ألفاً حسب تعداد عام ١٥٧٣. لم تكن فقد مضت سوى ثمانى عشرة سنة منذ أن بدأت تتفتح فى برارى الإنديز وكان سكانها قد بلغوا، وكأنما بفعل سحر، نفس تعداد سكان لندن وتجاوزوا سكان أشبيلية، أو مدريد، أو روما، أو باريس. وحوالى عام ١٦٥٠، قدّر تعداداً جديد سكان پوتوسى بـ ١٦٠ ألفاً. كانت واحدةً من أكبر وأغنى مدن العالم، سكانها عشرة أضعاف سكان بوسطن، فى وقت لم تكن فيه نيويورك قد بدأت فى حمل هذا الإسم.

---

* الثوكالو Zócalo: تطلق فى مدن المكسيك على قلب الميدان العام وبالتالى على الميدان بأكمله -- م.

لم يكن تاريخ پوتوسى قد وُلد مع الأسبان. فقبل الفتح بزمن، كان الإنكا هواينا كاباك Huayna Cápac قد سمع معاونيه يتحدثون عن السوماخ أوركو Sumaj Orcko، أى التل الجميل، وأخيراً استطاع رؤيته حين جعلهم يحملوه، مريضاً، إلى عيون تارابايا Tarapaya الساخنة. من أعشاش الغاب فى قرية كانتوماركا Cantumarca، تأملت عين الإنكا للمرة الأولى ذلك المخروط البالغ حد الكمال والذى يعلو، شامخاً، بين القمم العالية لسلاسل الجبال. وقف ذاهلاً. وظلت درجات الألوان اللانهائية الضاربة إلى الحمرة، والشكل المشوق، والحجم الهائل للتل باعثاً على الإعجاب والدهشة خلال الأزمنة التالية. لكن الإنكا توقع أن يضم التل فى أحشائه أحجاراً كريمة ومعادن ثمينة، وأراد أن يضيف زينة جديدة إلى معبد الشمس فى كوثكو. فالذهب والفضة اللذان كان الإنكا يستخلصونهما من مناجم كولكى پوركو Colque Porco وأنداكابا Andacaba لم يكونا يتخطيان حدود المملكة: لم يكونا يستخدمان فى التجارة، بل فى تمجيد الآلهة. ولم يكد الهنود يضربون بصوانهم فى عروق فضة التل الجميل، حتى أفزعهم صوت مدوٍ. كان صوتاً قوياً كالرعد، يخرج من أعماق تلك التجاويف ويقول، بلغة الكتشوا: "هذا ليس لكم؛ فالرب يختص بهذه الثروات من يأتون من بعيد". هرب الهنود فزعين وغادر الإنكا التل. لكنه غير إسمه أولاً. وأصبح التل يُسمى باسم پوتوخسى Potojsi، التى تعنى: "يرعد، ينفجر، يُحدث إنفجاراً".

لم يتأخر "من يأتون من بعيد" كثيراً فى الظهور. فقد شق قواد الفتح طريقاً لأنفسهم. وكان هواينا كاباك قد مات عندما وصلوا. وفى عام ١٥٤٥، كان الهندى هوالپا يقتفى آثار حيوان لاما هارب واضطر لقضاء الليل فى التل. وأشعل ناراً حتى لايموت من البرد. فأضاءت النار عرقاً أبيض براقاً. كان من الفضة الخالصة. واندفع السيل الأسبانى.

تدفقت الثروة. وسرعان ما أظهر الامبراطور كارلوس الخامس إمتنانه بأن منح پوتوسى لقب المدينة الإمبراطورية وشعاراً يحمل النقش التالى: "أنا پوتوسى الغنية، أنا كنز العالم، أنا ملكة الجبال وموضع حسد الملوك". ولم تكد تمض إحدى عشرة سنة بعد إكتشاف هوالپا، حتى كانت المدينة الإمبراطورية الحديثة المولد تحتفل بتتويج فيليب الثانى بإحتفالات دامت أربعة وعشرين يوماً وتكلفت ثمانية ملايين پيسو ذهبى. وتهافت الباحثون عن الكنوز على هذا الإقليم القاحل. كان التل، الذى يقع على ارتفاع ما يقرب من خمسة آلاف متر، بمثابة مغناطيس فائق القوة، لكن الحياة أسفله قاسية، لاترحم:

كان البرد يقرص كأنه ضريبة مفروضة وفى غمضة عين إزدهر مجتمع غنى وغير منظم فى پوتوسى، بجانب الفضة. إنها فترة قمة إزدهار وفوران المعدن: أصبحت پوتوسى "عصب المملكة الرئيسى"، كما عرّفها نائب الملك أورتادو دى مندوثا Hurtado de Mendoza. وفى أوائل القرن السابع عشر، كان بالمدينة ست وثلاثون كنيسة ذات زينة رائعة، وعدة بيوت للقمار، وأربع عشرة مدرسة للرقص. وكانت الصالونات، والمسارح، وصالات الرقص فى الأعياد تتألق بسجاجيد فاخرة، وستائر، وأسلحة، وحلّى؛ ومن شرفات البيوت تتدلى أقمشة الدمقس الملونة، والأنسجة الذهبية والفضية. كانت أصناف الحرير والمنسوجات تأتى من غرناطة، والفلاندر، وكالابريا؛ والقبعات من باريس ولندن، والماس من سيلان، والأحجار الكريمة من الهند، واللآلئ من بنما؛ والجوارب من نابولى؛ والكريستال من ڤينيسيا؛ والسجاجيد من بلاد فارس؛ والعطور من بلاد العرب، والخزف من الصين. كانت النبيلات تتألقن بالأحجار الكريمة، والماس، والياقوت، والجواهر، والنبلاء يستعرضون ألبسة فاخرة مشغولة من هولندا. وكانت تعقب مصارعة الثيران ألعاب القمار ولم يكن الجو يخلو أبداً من المبارزات على طريقة العصور الوسطى، أمور الحب والكبرياء تلك، بخوذات من الحديد مطعمة بالزمرد وبالريشات الزاهية، ومقاعد ومناضد بتطريز ذهبى، وسيوف من طليطلة ومهور تشيلية مطهمة بمنتهى الفخامة.

وفى عام ١٥٧٩ إشتكى القاضى ماتيينثو قائلاً: "هناك دائماً إبتكارات، وتبجّحات، وقلة حياء". حينئذ كان فى پوتوسى ثمانمئة مقامر محترف ومائة وعشرون عاهرة شهيرة، يتوافد على صالوناتهن المتألقة أصحاب المناجم الأغنياء. وفى عام ١٦٠٨، إحتفلت پوتوسى بأعياد القربان المقدس بستة أيام من الكوميديات وست ليال من الاحتفالات التنكرّية، وثمانية أيام من مصارعة الثيران، وثلاثة أيام من الحفلات الراقصة، وإثنان من المباريات إلى آخر هذه الاحتفالات.

■ كانت إسبانيا تملك البقرة، لكن آخرين يأخذون اللبن

فيما بين عامى ١٥٤٥ و١٥٥٨ تم إكتشاف مناجم الفضة الغنية فى بوتوسى، فى بوليفيا الحالية، وكذلك مناجم ثاكاتيكاس Zacatecas وجواناخواتو Guanajuato فى المكسيك؛ وفى نفس هذه الفترة تم تطبيق أسلوب الدمج مع الزئبق، الذى أتاح استغلال أدنى درجات الفضة. وسرعان ما إنتزع "التهافت" على الفضة مكان الصدارة من استخراج الذهب. وعند أواسط القرن السابع عشر شكلت الفضة أكثر من ٩٩ فى المائة من الصادرات التعدينية لأمريكا الإسبانية[٢٠].

كانت أمريكا، فى ذلك الحين، عبارة عن فتحة منجم مركزها فى بوتوسى، بالدرجة الأولى. ويؤكد بعض الكتاب البوليفيين، وقد ألهبهم الحماس الزائد، أنه خلال ثلاثة قرون تلقت أسبانيا من بوتوسى معدناً يكفى لمدّ جسر من الفضة يربط بين قمة التل وبين بوابة القصر الملكى على الجانب الآخر من المحيط. وهذه الصورة من عمل الخيال، بلا شك، لكنها على أية حال تشير إلى واقع يبدو خيالياً بالفعل: هو أن تدفق الفضة قد بلغ أبعاداً مهولة. ولاتظهر الصادرات السرية الكبيرة من الفضة الأمريكية، التى خرجت مهرّبة باتجاه الفلبين، والصين، وإسبانيا ذاتها، لاتظهر فى حسابات إيرل. ج. هاملتون[٢١]، الذى يقدم، على أساس البيانات المسجلة فى الغرفة التجارية، أرقاماً مذهلة، على أية حال، وذلك فى كتابه المعروف حول هذا الموضوع. ففيما بين عامى ١٥٠٣ و ١٦٦٠، وصل إلى ميناء أشبيلية ١٨٥ ألف كيلو جرام من الذهب و١٦ مليون كيلو جرام من الفضة. لقد تجاوزت كميات الفضة المنقولة إلى أسبانيا فيما لايتجاوز كثيراً قرناً ونصف من الزمن، تجاوزت ثلاث مرات إجمالى الاحتياطيات الأوربية. وهذه الأرقام، الموجزة، لاتتضمن التهريب.

لقد حفزت المعادن المنتزعة من المستعمرات الجديدة النمو الإقتصادى الأوربى ويمكن حتى القول بأنها قد جعلته ممكناً. فحتى آثار الإستيلاء على الكنوز الفارسية التى صبها الإسكندر الأكبر على العالم الهللينى لايمكن أن تقارن بحجم هذا الإسهام الأمريكى الضخم فى تقدم الغير. ليس تقدم إسبانيا، بالتأكيد، رغم أن أسبانيا كانت تملك مصادر الفضة الأمريكية. وكما كان يقال فى القرن السابع عشر، فإن "إسبانيا مثل الفم الذى يتلقى الغذاء، فيمضغه، ويطحنه، ليرسله على التو إلى الأجهزة الأخرى، ولايحتفظ لنفسه منه سوى بطعم عابر أو بالجزيئات التى تعلق بالصدفة بأسنانه"[٢٢].

كان الإسبان يملكون البقرة، لكن آخرين كانوا هم من يشربون اللبن. كان مقرضو المملكة، وأغلبهم أجانب، يفرغون بصورة منتظمة خزائن الغرفة التجارية بإشبيلية، المخصصة لحفظ كنوز أمريكا، تحت ثلاثة أقفال، يحمل مفاتيحها ثلاثة أشخاص مختلفين.

كان التاج مرهوناً. وكان يتنازل مقدماً عن كل شحنات الفضة تقريباً للمصرفيين من ألمانيا، وجنوا، وبلاد الفلمنك وإسبانيا[٢٣]. كذلك كانت الضرائب المتحصلة داخل إسبانيا تلقى نفس المصير، بدرجة كبيرة: ففى عام ١٥٤٣، خصّص ٦٥ فى المائة من إجمالى العائدات الملكية لدفع أقساط الديون السنوية. ولم تندرج الفضة الأمريكية فى الاقتصاد الأسبانى إلاّ بأدنى درجة: ورغم كونها مسجلة رسمياً فى إشبيلية، فإنها كانت تنتهى إلى أيدى عائلة فوجر Függer، وهم المصرفيون الأقوياء الذين أقرضوا البابا المبالغ اللازمة لإنهاء كنيسة القديس بطرس، وإلى أيدى كبار المقرضين الآخرين لتلك الفترة، من قبيل آل ولزر Welser، وآل شتس Shetz وآل جريمالدى Grimaldi. كذلك كانت الفضة تَوّجه إلى دفع ثمن صادرات سلع غير إسبانية متجهة إلى العالم الجديد.

كان لهذا العالم الغنى عاصمة متروبوليتانية فقيرة، رغم أن وهم الرخاء فيها كان يطلق فقاعات تزداد إنتفاخاً باستمرار: فقد كان التاج يفتح جبهات الحرب فى كل مكان بينما كرست الارستقراطية نفسها للتبذير وتضاعفت، على الأرض الإسبانية، أعداد القساوسة والمحاربين، والنبلاء والشحاذين، بنفس المعدل المحموم الذى كانت ترتفع به أسعار الأشياء وأسعار الفائدة. ماتت الصناعة لحظة مولدها فى تلك المملكة ذات اللاتيفونديات* الواسعة العقيمة، ولم يستطع الاقتصاد الأسبانى المريض أن يقاوم التأثير الحاد لارتفاع الطلب على الأغذية والسلع الذى كان نتيجة حتمية للتوسع الاستعمارى. كان الازدياد الكبير للإنفاق العام والضغط الخانق للضروريات الاستهلاكية فى ممتلكات ماوراء البحار يزيدان من حدة العجز التجارى ويطلقان العنان للتضخم المتسارع. كتب كولبير Colbert يقول: "كلما زادت تجارة إحدى الدول مع الأسبان، كلما زادت الفضة التى تملكها". دار صراع حاد بين دول أوربا على غزو السوق الإسبانية التى كانت تتضمن سوق وفضة أمريكا. ويتيح لنا كتاب آثرى فرنسى من أواخر القرن

---

* اللاتيفونديا: هي المزرعة الكبيرة المتخلفة. وقد فضلنا استخدام الكلمة بصياغتها اللاتينية لأن هذا الشكل الإنتاجي استمر في كل النظم الاقتصادية من الرومان وحتي الرأسمالية المتأخرة فلا يصح إذن إطلاق كلمة إقطاعة عليها. وقد شجعنا علي ذلك أن بعض الأساتذة قد استخدمها مثل طه حسين – م.

السابع عشر معرفة أن إسبانيا لم تكن تسيطر، فى ذلك الحين، إلاّ على خمسة بالمائة من التجارة مع "ممتلكاتها" الاستعمارية وراء المحيط، رغم وهم الاحتكار القانونى: فقد كان نحو ثلث مجموع هذه التجارة فى أيدى الهولنديين والفلمنكيين، وربعها فى أيدى الفرنسيين، وكان أهل جنوا يسيطرون على أكثر من عشرين بالمائة، والإنجليز على عشرة بالمائة والألمان على أقل من ذلك[٢٤]. **كانت أمريكا عملاً تجارياً أوربياً.**

كان كارلوس الخامس، وريث القياصرة على عرش الإمبراطورية المقدسة بإنتخاب مدفوع الثمن، قد قضى فى إسبانيا ما لايزيد عن ستة عشر عاماً من أعوام ملكه الأربعين. هذا العاهل ذو الذقن المدببة والنظرة الحمقاء، الذى كان قد ارتقى العرش وهو لايعرف كلمة واحدة من اللغة القشتالية، كان يحكم محاطاً بحاشية من الفلمنكيين الجشعين ظل يمنحهم تصاريح يخرجون بها من إسبانيا بغالاً وخيولاً محملّة بالذهب والجواهر، كذلك كان يكافئهم بمنحهم مناصب الأساقفة وكبار الأساقفة، وهى مناصب بيروقراطية، كما منحهم أول ترخيص لجلب العبيد السود إلى المستعمرات الأمريكية. وفى إندفاعه لمطاردة الشيطان فى كل أوربا، أفرغ كنز أمريكا فى حروبه الدينية. ولم تنقطع سلالة الهابسبورج بموته؛ فقد كان على أسبانيا أن تعانى فى ظل مملكة سلالة أوستريا خلال نحو قرنين من الزمان. وكان ابنه فيليب الثانى هو بطل الإصلاح المضاد. ومن القصر – الدير الضخم الذى كان يسكنه فى الاسكوريال، عند سفوح جبل جوادارّاما، أدار فيليب الثانى، على نطاق شامل، العجلة الرهيبة لمحاكم التفتيش، وأطلق جيوشه على مراكز الهرطقة. كان مذهب كالفن قد إنتزع هولندا، وإنجلترا، وفرنسا، وكان الأتراك يجسّدون خطر عودة الدين الإسلامى. كانت الخلاصية بامظة التكاليف: والأشياء الذهبية والفضية القليلة، من أعاجيب الفن الأمريكى، والتى لم تصل مصبوبة جاهزة من المكسيك والبيرو، إنتزعت بسرعة من الغرفة التجارية بأشبيلية وألقيت فى أفواه الأفران.

كذلك التهمت النيران الهراطقة والمشكوك فى هرطقتهم، أحرقتهم ألسنة اللهب المطهِّرة لمحاكم التفتيش؛ أحرق توركيمادا Torquemada الكتب بينما كان ذيل الشيطان يظهر فى كل الأركان: كذلك كانت الحرب ضد البروتستانتية حرباً ضد الرأسمالية الصاعدة فى أوربا. يقول إليوت فى كتابه المذكور آنفاً "كان استمرار الحرب الصليبية يتضمن استمرار التنظيم الاجتماعى العتيق لأمة من المحاربين الصليبيين". وقدمت معادن أمريكا، بهجة ودمار إسبانيا، وسائل القتال ضد القوى الوليدة للإقتصاد الحديث. كان كارلوس الخامس قد سحق البرجوازية القشتالية بالفعل فى الحرب ضد

رجال الكومينة، التى تحولت إلى ثورة اجتماعية ضد النبلاء، وممتلكاتهم، وامتيازاتهم. وتمت هزيمة الانتفاضة بدءاً من خيانة مدينة بورجوس Burges، التى ستصبح عاصمة للجنرال فرنثيسكو فرنكو بعد ذلك بأربعة قرون؛ وبعد أن أخمدت آخر شرارات التمرد، عاد كارلوس الخامس إلى إسبانيا وبصحبته أربعة الاف جندى ألمانى. وفى نفس الوقت، أغرقت فى الدم الانتفاضة الشديدة الراديكالية التى قام بها النساجون، والغزالون، والحرفيون الذين استولوا على السلطة فى مدينة بلنسيه ومدوا سيطرتهم إلى مجمل الإقليم.

كان الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية قناعاً للنضال ضد التاريخ. كان طرد اليهود - الإسبان ذوى الديانة اليهودية - قد حرم إسبانيا، فى زمن الملكين الكاثوليكيين، من كثير من الحرفيين المهرة ومن رؤوس أموال لاغنى عنها. وبعد أقل أهمية من ذلك طرد العرب - وهم، فى الحقيقة، أسبان من أصحاب الدين الإسلامى - رغم أنه فى عام ١٦٠٩ سيق ما لايقل عن ٢٧٥ ألفاً منهم إلى الحدود مما كان له آثار مدمرة على إقتصاد بلنسيه، ودُمّرت الحقول الخصبة جنوبى نهر الإبرو، فى أراجون. وقبل ذلك، كان فيليب الثانى قد طرد، لأسباب دينية، آلافاً من الحرفيين الفلمنكيين الذين يعتنقون أو المشكوك فى إعتناقهم البروتستانتية: إحتضنتهم إنجلترا على أرضها، وهناك أعطوا دفعة هامة للصناعات البريطانية.

وكما يتضح، لم تكن المسافات الهائلة ولا الاتصالات الصعبة هى العقبات الأساسية التى إعترضت التقدم الصناعى لإسبانيا. فالرأسماليون الأسبان تحولوا إلى أصحاب ريع، من خلال شراء ديون التاج، ولم يستثمروا أموالهم فى التنمية الصناعية وتحولت العائدات الاقتصادية إلى مجالات غير منتجة: كان الأثرياء القدامى، أرباب المشنقة والسكين*، وملاك الأرض وألقاب النبالة، يشيدون القصور ويكومون الجواهر؛ وكان الأثرياء الجدد، المضاربون والتجار، يشترون الأراضى وألقاب النبالة. وكان هؤلاء وأولئك لايدفعون ضرائب تقريبا، ولايمكن سجنهم وفاء لديونهم. وكان من يشتغل بنشاط صناعى يفقد تلقائياً لقب النبالة[٢٥].

وضمنت إتفاقيات تجارية متتالية، موقّعة بدءاً من هزائم الأسبان العسكرية فى أوربا، ضمنت إمتيازات نشطت حركة التجارة البحرية بين ميناء قادس، الذى يوصل إلى أشبيلية، وبين الموانئ الفرنسية، والإنجليزية، والهولندية، وموانئ إتحادات المدن التجارية

* تعبير يقال لوصف النبلاء الذين يتمتعون بالسلطة المدنية والقضائية - م.

الألمانية. وفى كل عام، كانت ما بين ثمانمائة وألف سفينة تفرغ فى أسبانيا المنتجات التى صنّعها الآخرون. وكانت تحمل فضة أمريكا والصوف الأسبانى، الذى كان يتجه إلى مصانع النسيج الأجنبية ليعود وقد نسجته الصناعة الأوربية الآخذة فى التوسع. واكتفى إحتكاريّو قادس بإعادة دمغ المنتجات الصناعية الأجنبية التى يرسلونها إلى العالم الجديد: إذا كانت المانيفاكتورة الأسبانية لاتستطيع حتى كفاية السوق الداخلى، فكيف يمكنها إشباع إحتياجات المستعمرات؟

كانت الشرائط من ليل وأرّاز، والمنسوجات الهولندية، والسجاجيد من بروكسل، والمشغولات المطرزة من فلورنسا، والكريستال من فينيسيا، والأسلحة من ميلانو، والخمور والكتان من فرنسا[٢٦]، كانت تغرق السوق الأسبانية، على حساب الإنتاج المحلى، من أجل إشباع نهم التباهى ومتطلبات استهلاك الأغنياء الطفيليين الذين يزدادون عدداً وقوة فى بلدٍ يزداد فقراً. ماتت الصناعة فى مهدها، وفعلت سلالة هابسبورج كل ما يمكن من أجل التعجيل بموتها. وفى منتصف القرن السادس عشر بلغوا حد التصريح باستيراد منسوجات أجنبية فى حين حظروا كل تصدير للأقمشة القشتالية ما لم يكن موجهاً لأمريكا[٢٧]. وعلى العكس من ذلك، وكما أوضح راموس، فإن توجهات هنرى الثامن واليزابث الأولى فى إنجلترا كانت مختلفة تماماً. فقد حظرا فى هذه الأمة الصاعدة خروج الذهب والفضة، واحتكرا السندات، وعرقلا استخراج الصوف، وطردا من الموانئ البريطانية بضائع رابطة اتحاد المدن التجارية الألمانية لبحر الشمال. كذلك كانت الجمهوريات الإيطالية تحمى تجارتها الخارجية وصناعتها من خلال الرسوم الجمركية، والامتيازات، وأشكال الحظر الصارمة: فلم يكن الصناع يستطيعون تغيير وطنهم دون أن يتعرضوا لعقوبة الموت.

شمل الخراب كل شئ: فمن بين الـ ١٦ ألف معمل نسيج التى بقيت فى أشبيلية عام ١٥٥٨، عند وفاة كارلوس الخامس، لم يتبق سوى أربعمائة عند وفاة فيليب الثانى، بعدها بأربعين سنة. والسبعة ملايين من الماعز التى كانت ترعى فى الأندلس تقلصت إلى مليونين. وقد صور ثربانتس فى روايته دون كيخوته دى لامانشا – وهى رواية واسعة الانتشار فى أمريكا – مجتمع عصره. لكن مرسوماً صدر فى أواسط القرن السادس عشر جعل من المستحيل استيراد الكتب الأجنبية ومنع الطلاب من الدراسة خارج إسبانيا؛ وتقلص عدد طلاب سلمنكا إلى النصف خلال عقود قليلة؛ كان ثمة تسعة آلاف دير وتضاعف الكهنة بنفس سرعة تضاعف النبلاء ذوى العباءة والسيف تقريباً؛ كان

١٦٠ ألفاً من الأجانب يحتكرون التجارة الخارجية وحكمت مظاهر ترف الارستقراطية على إسبانيا بالعجز الاقتصادى. وحوالى عام ١٦٣٠، كان ما يزيد قليلاً على مائة وخمسين من الدوقات، والماركيزات، والكونتات، والڤيسكونتات يحصلون على ريع سنوى قيمته خمسة ملايين دوكاتو، كانت تشبع بإسراف بريق ألقابهم الطنانة. كان لدى دوق مديناثيلى سبعمائة خادم وكان خدم دوق أوسونا ثلاثمائة، وكان، سخريةً من قيصر روسيا، يلبسهم معاطف جلدية[٢٨]. كان القرن السابع عشر عصر التشرد، والجوع، والأوبئة. كان عدد المتسولين الأسبان لانهائياً، مما لم يمنع أن يتدفق عليها كذلك المتسولون الأجانب من كل أركان أوربا. وبحلول عام ١٧٠٠ كان فى أسبانيا ٦٢٥ ألف نبيل، من سادة الحرب، رغم أن البلد كان يفرغ من السكان: فقد نقص سكانه إلى النصف خلال مايزيد قليلاً على قرنين من الزمان، وكان تعداده مساوياً لتعداد إنجلترا، التى كانت قد ضاعفت سكانها خلال نفس الفترة. وبعد عام ١٧٠٠ علامةً على نهاية نظام سلالة هابسبورج. كان الإفلاس شاملاً. بطالة مزمنة، وإقطاعيات ضخمة مقفرة، وعملة تعانى من الفوضى، وصناعة مُدمّرة، وحروب ضائعة، وخزائن خاوية، وسلطة مركزية غير معروفة فى الأقاليم: كانت إسبانيا التى واجهها فيليب الخامس "أقل موتاً بقليل من سيدها الميت"[٢٩].

ومنحت سلالة البوربون البلاد مظهراً أكثر عصرية، لكن عند نهاية القرن الثامن عشر كانت الكنيسة الأسبانية تضم ما لايقل عن مائتى ألف عضو ولم يكن بقية السكان غير المنتجين بقادرين على إعالة نموهم الساحق، على حساب تخلف البلاد. وفى ذلك الحين، كان بإسبانيا أكثر من عشرة آلاف قرية ومدينة خاضعة للسلطة القضائية للنبلاء، وخارجة بذلك عن السيطرة المباشرة للملك. كانت الإقطاعيات ومؤسسة الأبناء البكر* سليمتان لم تمسّا. واستمرت الغيبية والقدرية. لم تكن فترة حكم فيليب الرابع قد تم تجاوزها بعد: ففى عصره، اجتمع مجلس من اللاهوتيين لفحص مشروع إنشاء قناة تربط نهرى المنثانارس والتاخو وانتهى بإعلان أنه إذا كانت الرب يريد أن يتيح الملاحة فى النهرين، لكان قد خلقهما كذلك بنفسه.

* بمقتضى نظام الابن البكر كان أكبر الأبناء الذكور يرث إقطاعيات أبيه ويعمل فارساً مهنته القتال – م.

■ توزيع المهام بين الحصان والفارس

فى المجلد الأول من **رأس المال**، كتب كارل ماركس: "إن إكتشاف منابع أمريكا من الذهب والفضة، وحملة الإبادة، والاستعباد ، والدفن فى المناجم للسكان الأصليين، وبدء فتح ونهب جزر الهند الشرقية، وتحويل القارة الإفريقية إلى ساحة لصيد العبيد السود: كلها وقائع تشير إلى بدايات عصر الإنتاج الرأسمالى. فهذه العمليات الملحمية تمثل عوامل أساسية أخرى فى حركة التراكم البدائى".

كان النهب، الداخلى والخارجى، هو أهم وسيلة لتحقيق التراكم البدائى لرؤوس الأموال الذى أتاح، منذ العصر الوسيط، ظهور مرحلة تاريخية جديدة فى التطور الإقتصادى العالمى. فبقدر ماكان الإقتصاد النقدى ينتشر، بقدر ما كان التبادل غير المتكافئ يتسع ليضم شرائح اجتماعية أكثر وأقاليم أكثر من العالم. وقد أحصى إرنست ماندل قيمة الذهب والفضة المنتزعان من أمريكا حتى عام ١٦٦٠، والغنيمة المستخلصة من إندونيسيا من جانب الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية من ١٦٥٠ حتى عام ١٧٨٠، وأرباح رأس المال الفرنسى من تجارة العبيد خلال القرن الثامن عشر، والأرباح المتحصلة من عمل العبيد فى جزر الأنتيل البريطانية والنهب الإنجليزى للهند خلال نصف قرن: والمحصلة تفوق قيمة كل رأس المال المستثمَر فى كل الصناعات الأوربية عام ١٨٠٠[٣٠]. ويلفت ماندل الانتباه إلى أن هذه الحصيلة الضخمة من رؤوس الأموال خلقت مناخاً مواتياً للإستثمارات فى أوربا، وحفزت "روح المشروع" وموّلت بشكل مباشر إنشاء صناعات أعطت دفعة قوية للثورة الصناعية. لكن، وفى نفس الوقت، فإن التركيز العالمى الضخم للثروة لصالح أوربا، قد أعاق، فى الأقاليم المنهوبة، الإنتقال إلى تراكم رأس المال الصناعى. إن "المأساة المزدوجة للبلدان النامية تكمن فى أنها لم تقع فقط ضحية لعملية التركز العالمى هذه، بل كذلك فى أنها اضطرت فيما بعد إلى محاولة تعويض تأخرها الصناعى، أى تحقيق التراكم الأولى لرأس المال الصناعى، فى عالم تغرقه الأدوات المصنّعة من جانب صناعة أصبحت ناضجة، هى الصناعة الغربية"[٣١].

وقد إكتشفت المستعمرات الأمريكية، وفتحت، واستعمرت ضمن إطار عملية توسع رأس المال التجارى. مدّت أوربا ذراعيها لتبلغ العالم بأسره. ولم تنل إسبانيا ولا البرتغال فوائد التقدم الكاسح للمركنتيلية الرأسمالية، برغم أن مستعمراتهما هى التى قدمت، بقدر أساسى، الذهب والفضة اللذين غذّيا ذلك التوسع. وكما رأينا، فإن معادن

أمريكا النفيسة إذا كانت قد اضاءت الحظ الخادع لنباله إسبانية كانت تعيش عصرها الوسيط بصورة متأخرة وضد التاريخ، فإنها فى نفس الآن قد سببت خراب أسبانيا فى القرون التالية. وكانت أقطار أخرى من أوربا هى التى إستطاعت حضانة الرأسمالية الحديثة مستفيدة، بدرجة كبيرة، من نزع ملكية شعوب أمريكا البدائية. فبعد سرقة الكنوز المكوّمة جاء الاستغلال المنهجى، فى المناجم والمنابع، لعمل السخرة للهنود والعبيد الزنوج المنتزعين من إفريقيا من قبل تجار العبيد.

كانت أوربا بحاجة إلى الذهب والفضة. تضاعفت دون توقف وسائل دفع القيمة التبادلية وكان من الضرورى تغذية حركات الرأسمالية فى لحظة الميلاد: سيطر البورجوازيون على المدن وأقاموا المصارف، وأنتجوا وتبادلوا السلع، وفتحوا أسواقاً جديدة. بالذهب، والفضة، والسكر: تشكّل الاقتصاد الاستعمارى، الذى يقدم من المواد أكثر مما يستهلك، لتلبية متطلبات السوق الأوربية، وفى خدمتها وظلت قيمة الصادرات الأمريكية اللاتينية من المعادن النفيسة، خلال فترات طويلة من القرن السادس عشر، تفوق أربع مرات قيمة الواردات ، التى تتكون فى المقام الأول من العبيد، والملح، والنبيذ والزيت، والأسلحة، والأقمشة والأدوات الفاخرة. وتدفقت الموارد لتراكمها الأمم الأوربية الصاعدة. كانت هذه هى المهمة الأساسية التى حملها الرواد الأوائل، رغم أنهم استخدموا بالإضافة إليها الإنجيل، بنفس تواتر استخدامهم للسوط، ضد الهنود المعذبين. ولدت البنية الاقتصادية للمستعمرات الأيبيرية خاضعةً للسوق الخارجية، وبالتالى، متمحورةً حول قطاع التصدير، الذى ركز الدخل والسلطة.

وطوال هذه العملية، منذ مرحلة المعادن وحتى الإمداد بالأغذية فيما بعد، توحّد كل إقليم مع ما ينتجه، وأنتج ما كان ينتظر منه فى أوربا: كل منتج، محمّل فى أقبية السفن التى تعبر المحيط، تحوّل إلى مهنة وإلى مصير. إن تقسيم العمل، كما نشأ مع الرأسمالية، كان يبدو وكأنه توزيع للمهام بين الفارس والحصان، كما يقول بول باران Paul Baran[٣٢]. نمت أسواق العالم الاستعمارى وكأنها مجرد ملحقات للسوق الداخلية للرأسمالية الوليدة.

يوضح سلسو فورتادو Celso Furtado أن السادة الاقطاعيين الأوربيين كانوا يحصلون على عائد اقتصادى من السكان الذين يسيطرون عليهم، ويستخدمونه، بطريقة أو بأخرى، فى نفس أقاليمهم، بينما كان الهدف الرئيسى للإسبان الذين تلقوا من الملك مناجم، وأراضٍ، وهنود فى أمريكا، يتلخص فى استخلاص عائد لكى ينقلوه إلى أوربا.

هذه الملاحظة تساهم فى توضيح الهدف النهائى للاقتصاد الاستعمارى الأمريكى، منذ تطبيقه؛ فرغم أنه كان يُظهر شكلياً بعض الملامح الاقطاعية، فقد كان يعمل فى خدمة الرأسمالية الوليدة فى أقطار أخرى. وفى نهاية المطاف، فإنه حتى فى عصرنا، لايمكن شرح وجود المراكز الغنية للرأسمالية بدون وجود الأطراف الفقيرة والخاضعة: فهؤلاء وأولئك يتكاملون فى نفس المنظومة.

لكن لم يكن العائد كله يهرب نحو أوربا. كان الإقتصاد الإستعمارى محكوماً بالتجار، وأصحاب المناجم، وكبار ملاك الأراضى، الذين كانوا يقتسمون حق الانتفاع بالأيدى العاملة الهندية والزنجية تحت النظرة الغيورة والكلية القوة للتاج وحليفته الأساسية، الكنيسة. كانت السلطة مركزّه فى أيدٍ قليلة، ترسل إلى أوربا معادن وأغذية، وتتلقى من أوربا الأدوات التَرَفية التى يكرسون للاستمتاع بها ثرواتهم النامية. ولم يكن لدى الطبقات الحاكمة أدنى إهتمام بتنويع الاقتصاديات الداخلية ولابرفع المستويات التقنية والثقافية للسكان: كانت وظيفتهم داخل الإطار الدولى الذى يعملون لصالحه وظيفة مختلفة، وكان البوس الشعبى الساحق، المُربح جداً من وجهة نظر المصالح السائدة، يعوق نمو سوق استهلاك داخلية.

تؤكد اقتصادية فرنسية[٣٤] أن أسوأ ميراث استعمارى لأمريكا اللاتينية، يفسر تأخرها الملحوظ الحالى، هو نقص رؤوس الأموال. إلاّ أن كل المعلومات التاريخية توضح أن الاقتصاد الاستعمارى قد أنتج، فى الماضى، ثروة ضخمة للطبقات المرتبطة، داخل الإقليم، بنظام السيطرة الاستعمارى. فالأيدى العاملة المتوفرة، والتى كانت مجانية أو شبه مجانية، والطلب الأوربى الكبير على المنتجات الأمريكية، أتاحا، كما يقول سيرخيو باجو[٣٥] "تراكما مبكراً ووفيراً لرؤوس الأموال فى المستعمرات الايبيرية. وأخذت نواة المنتفعين، بدل أن تتسع، تتقلص بالنسبة لمجمل السكان، كما يُستنتج من الحقيقة المؤكدة فى أن عدد الأوربيين والكريول العاطلين كان يتزايد باستمرار". إن رأس المال الذى كان يبقى فى أمريكا بعد خصم نصيب الأسد الذى يصب فى عملية التراكم البدائى للرأسمالية الأوربية، لم يكن يولّد، فى هذه البلاد، عملية مماثلة لما يجرى فى أوربا، من أجل إرساء قواعد التنمية الصناعية، بل كان يتحول إلى إقامة قصور ضخمة ومعابد متباهية، إلى شراء جواهر وملابس وأثاثات فاخرة، إلى الحصول على عدد كبير من العبيد، وإلى التبذير فى الاحتفالات. وبدرجة كبيرة، كذلك، ظل هذا العائد راكداً فى شراء أراضٍ جديدة أو واصل دورته فى الأنشطة التجارية وأنشطة المضاربة.

عند أفول العصر الاستعمارى، سيصادف هومبولت فى المكسيك "كتلة ضخمة من رؤوس الأموال مكوّمة فى أيدى ملاك المناجم، وفى أيدى التجار الذين انسحبوا من التجارة". وكان ما لايقل عن نصف الأصول والرأسمال الإجمالى للمكسيك يخص، حسب شهادته، الكنيسة، التى كانت، علاوة على ذلك، تسيطر على جزء كبير من الأراضى الباقية من خلال الرهونات[٣٦]. وكان أصحاب المناجم المكسيكيين يستثمرون عوائدهم فى شراء اللاتيفونديات، وفى قروض الرهونات، مثلهم فى ذلك مثل كبار مصدرى فيراكروث وأكابولكو، وكانت الهيراركية الكنَسية تمد ممتلكاتها فى نفس الاتجاه. كانت دور الإقامة القادرة على تحويل الشخص العامى إلى أمير والمعابد الشامخة تنبت مثل الفطريات بعد المطر.

وفى البيرو، عند أواسط القرن السابع عشر، كانت رؤوس الأموال التى يملكها الولاة، وأصحاب المناجم، وأعضاء محاكم التفتيش، وموظفو الإدارة الامبراطورية تصب فى التجارة. وكانت الثروات الوليدة فى فنزويلا من زراعة الكاكاو، التى بدأت عند نهاية القرن السادس عشر، بالسوط، وعلى أكتاف فيالق من العبيد السود، تستثمر "فى مزارع جديدة وزراعات تجارية أخرى، وكذلك فى المناجم، والأصول العقارية الحضرية، والعبيد، وقطعان الماشية"[٣٧].

■ أطلال پوتوسى: دورة الفضة

بتحليل طبيعة العلاقات بين «المتروبول" و "البلد التابع" على طول تاريخ أمريكا اللاتينية بإعتبارها سلسلة إخضاع متتالية، أبرز أندريه جوندر فرانك André Gunder Frank، فى أحد كتبه[٣٨]، أن أكثر الأقاليم اليوم حملاً لعلامات التخلف والفقر هى تلك الأقاليم التى كانت لها فى الماضى روابط أوثق بالمتروبول وتمتعت بفترات إزدهار. إنها الأقاليم التى كانت أكبر المنتجين للبضائع المصدّرة إلى أوربا، أو إلى الولايات المتحدة، فيما بعد، والتى كانت أكثر منابع رأس المال تدفقا: وهى الأقاليم التى هجرتها المتروبول حين تدهورت الأعمال لسبب أو لآخر. وتمثل پوتوسى أوضح الأمثلة على هذا السقوط فى الفراغ.

عاشت مناجم الفضة فى جواناخواتو وثاكاتيكاس، بالمكسيك، فترة إزدهارها فى وقت لاحق. لكن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان تل پوتوسى الغنى مركز الحياة الاستعمارية الأمريكية: كان المركز الذى يدور حوله، بطريقة أو بأخرى، الاقتصاد

التشيلى، الذى كان يقدم إليه القمح، واللحوم المجففة، والجلود، والخمور؛ وتربية الماشية والصناعات الحرفية فى كوردوبا وتوكومان، إذ تزوّدانه بحيوانات الجر وبالمنسوجات؛ ومناجم رئبق هوانكابيليكا Huancavélica وإقليم أريكا Arica حيث كانت تشحن الفضة إلى ليما، المركز الإدارى الرئيسى لتلك الحقبة. ويعد القرن الثامن عشر علامةً على بداية النهاية بالنسبة لإقتصاد الفضة الذى كان مركزه فى پوتوسى، ورغم ذلك، ففى فترة الإستقلال، كان تعداد سكان الإقليم الذى يشكل اليوم بوليفيا مايزال يفوق تعداد السكان الذين كانوا يسكنون ما يمثل اليوم الأرجنتين. وبعد ذلك بقرن ونصف، نجد أن سكان بوليفيا أقل ست مرات تقريباً من سكان الأرجنتين.

مجتمع پوتوسى هذ، المريض بالبذخ والتبذير، لم يترك لبوليفيا إلاّ الذكرى الضبابية لأمجاده، وأطلال كنائسه وقصوره، وثمانية ملايين جثة من جثث الهنود. كانت أى واحدة من الماسات التى تزين درع فارس غنى تساوى، فى نهاية المطاف، أكثر مما يستطيع هندى أن يكسبه طول حياته من العمل بنظام السخرة*، لكن الفارس هرب بالماسات. واليوم، تستطيع بوليفيا، التى هى واحدة من أفقر بلدان العالم، أن تتباهى – إذا لم يكن ذلك عبثاً يبعث الشجن – بأنها غذت ثروة البلدان الأغنى. وفى أيامنا، فإن پوتوسى مدينة فقيرة فى بوليفيا الفقيرة: "أكثر المدن عطاءً للعالم وأقلها فيما تملك"، كما قالت لى سيدة عجوز من پوتوسى، ملتفة بشال لاينتهى من صوف الألپاكا، ونحن نتحدث تجاه البهو الأندلسى لبيتها الذى يرجع لقرنين من الزمن. هذه المدينة التى حُكِم عليها بالحنين، ويعذبها البؤس والبرد، مازالت جرحاً مفتوحاً للنظام الاستعمارى فى أمريكا: مازالت إتهاماً. وعلى العالم أن يبدأ فى طلب غفرانها.

وهى تحيا على الحطام. فى عام ١٦٤٠، نشر الأب ألبارو ألونسو – باربا Alvaro Alonso - Barba فى مدريد، فى مطبعة المملكة، مبحثه الممتاز عن فن المعادن. كتب باربا أن القصدير "سم"[٣٩] وذكر تلالاً يوجد فيها "قصدير كثير، رغم أن قليلين يعرفونه، ولأنهم لايجدون الفضة التى يبحث عنها الجميع، فإنه يلقونه هناك". وفى پوتوسى يتم الآن استغلال القصدير الذى ألقاه الإسبان جانباً وكأنه نفاية. وتباع جدران البيوت القديمة على أنها قصدير ذى نقاوة جيدة. من أفواه الخمسة آلاف نفق التى فتحها

* طوال العصر الاستعمارى فى أمريكا، كان نظام الميتا Mita هو النظام الأساسى والأوسع إنتشاراً لتنظيم إستغلال قوة عمل الهنود. إذ كان الهنود يتبادلون العمل كخدمة للإسبان فيعمل كل منهم ١٥ يوماً فى العام فى منازل الاسبان وثلاثة أو أربعة شهور فى الرعى، أو عشرة شهور فى المناجم – والكلمة المستخدمة هنا هى Mitayo نسبة لهذا النظام – م.

الإسبان فى التل الغنى تدفقت الثروة على طول القرون. وأخذ لون التل يتغير بقدر ما أخذت تفرغه إنفجارات الديناميت وتخفض من مستوى قمته. وأكوام الصخر، المتراكمة حول الثقوب اللانهائية تحتوى على كل الألوان: فهى وردية، وبنفسجية، وقرمزية، وصفراء، ورمادية، وذهبية، وبنّية. ملاءة من البقايا. يكسر مستخرجو الخام llamperos الصخر بينما تقوم الفرّازات palliris الهنديات، ذوات الأيدى المدربة على الوزن والنقاوة، بالتنقير، مثل العصافير، فى البقايا المعدنية بحثاً عن القصدير. ومازال عمال المناجم يدخلون فى الأنفاق التى لم تغمرها المياه، ومصباح الكربون فى يد، وأجسامهم متشابكة، لإنتزاع مايمكن إنتزاعه. ليس ثمة فضة. ولاحتى بريقها؛ فقد كنس الإسبان عروق الفضة بالمكانس. يحفر الفرّازة pallacos بالمعول والجاروف أنفاقاً صغيرة ليستخرجوا عروقاً من الفتات. أخبرنى أحد العاطلين دون دهشة وهو يغربل الأرض بأصابعه "التل مازال غنياً. لابد أن الله موجود، تخيّل: المعدن ينمو كأنه نبتة، تماماً". وأمام التل الغنى لپوتوسى، يرتفع الشاهد على الخراب. إنه جبل يحمل إسم هواكاخشى Huakajchi، الذى يعنى بلغة الكتشوا: "التل الذى بكى". من جوانبه تسيل ينابيع كثيرة من الماء النقى، هى "عيون الماء" التى تقدم الماء لعمال المناجم.

فى فترات إزدهارها، عند إنتصاف القرن السابع عشر، جمعت المدينة الكثيرين من الرسامين والحرفيين الإسبان أو الكريول أو ذوى الخيال الهنود الذين تركوا ميسمهم على الفن الاستعمارى الأمريكى. وقد خلّف ملتشور بيريث ذى هولجى Melchor Pérez de Holguín، إلجريكو أمريكا، مجموعة ضخمة من الأعمال الدينية تشى فى آن واحد بموهبة مبدعها وبالنفحة الوثنية لهذه البلاد: ومن الصعب، على سبيل المثال، نسيان العذراء مريم الرائعة، ذات الذراعين المفتوحتين، التى ترضع الطفل يسوع من أحد ثدييها وترضع بالآخر القديس يوسف. قام الصاغة، ونقاشو الفضة، وأساتذة الحفر البارز، وصناع الأثاث الخشبى، الصناع المهرة للمعدن، والخشب الثمين، والمصيص، والعاج الراقى، بتزويد الكنائس والأديرة العديدة فى بوتوسى بأشغال الحفر والمذابح ذات النقوش اللانهائية، والمصابيح الفضية، والمنابر والمحاريب النفيسة. وقد قاومت الواجهات الباروكية للمعابد، والمشغولة فى الحجر، عوادى القرون، لكن نفس الشئ لم يحدث بالنسبة للوحات، التى أتلفتها فى أحيان كثيرة وخزات الرطوبة، كذلك لم يحدث مع صورة الأشخاص ومع الأشياء خفيفة الوزن. فقد أفرغ السياح والقساوسة الكنائس من كل ما استطاعوا حمله: من الكئوس والأجراس إلى لوحات الحفر التى يبدو فيها القديس

فرنثيسكو والمسيح بلون الخوخ أو الرماد.

هذه الكنائس المنهوبة، والتي أغلق معظمها، تتهدم بفعل السنين. وإنها لحسرة، لأنها مازالت تشكل، رغم نهبها، كنوزاً ثمينة من فن استعمارى يصهر ويلهب كل الأساليب، فن ثمين فى عبقريته وفى هرطقته: "فالعلامة المدّرجة" لتياهواناكو Tiahuanacu فى مكان الصليب والصليب بجانب الشمس المقدسة والقمر المقدس، والعذارى والقديسون بشعر طبيعى، والكروم والسنابل تلتف على الأعمدة، حتى تيجانها، بجانب الكانتوتا Kantuta، الزهرة الامبراطورية لهنود الإنكا؛ والحوريات، وباخوس والإحتفال بالحياة تتناوب جميعها مع الزهد الرومانى، والوجوه السمراء لبعض القديسين والكرتيدات* ذوات الملامح الهندية. وثمة كنائس أعيد تجهيزها لتقدم، وقد خلت من المؤمنين، خدمات أخرى. فقد تحولت كنيسة سان أمبروزيو إلى سينما أوميستى؛ وفى فبراير عام ١٩٧٠، وفوق النقوش الباروكية الغائرة للواجهة كان هناك اعلان عن العرض القادم: "عالم مجنون، مجنون، مجنون". كذلك تحول معبد فرقة يسوع إلى دار سينما، ثم إلى مخزن لبضائع شركة جراس، وأخيراً إلى متجر أغذية خيرى. إلاّ أن بضع كنائس قليلة مازالت، رغم حالتها السيئة، تقوم بعملها: وقد مضى قرن ونصف على الأقل منذ كف سكان بوتوسى عن إشعال الشموع بسبب قلة النقود. ومثالها كنيسة سان فرنثيسكو. ويقال أن صليب هذه الكنيسة ينمو بمقدار بضع سنتيمترات كل عام، وأن لحية السيد المسيح سيد بيرا كروث تنمو كذلك. وهو مسيح مهيب من الفضة والحرير ظهر فى بوتوسى، دون أن يحضره أحد، منذ أربعة قرون. ولا ينفى القساوسة أنهم يحلقون لحيته كل فترة معينة، وينسبون إليه، كتابةً كذلك، كل المعجزات: التعويذات المتتالية للجفاف والأوبئة، والحروب دفاعاً عن المدينة المطاردة.

ورغم ذلك، لم يستطع سيد بيراكوث أن يصنع شيئاً لوقف تدهور بوتوسى. وكان نضوب الفضة قد فُسّر على أنه عقاب إلهى على فظاعات وخطايا أصحاب المناجم. غابت القدّاسات الفاخرة؛ مثلها مثل المآدب ومصارعات الثيران، وحفلات الرقص والألعاب النارية، كانت العقيدة الدينية بكل بهائها هى الأخرى، فى نهاية الأمر، ناتجاً ثانوياً للعمل المستعبد للهنود. كان أصحاب المناجم، فى عصر البهاء، يقدمون هبات رائعة للكنائس والأديرة، ويقيمون طقوساً جنائزية متباهية. مفاتيح من الفضة الخالصة لبوابات السماء: وقد أمر الباروبيخارانو، فى وصيته عام ١٥٥٩، أن يصاحب نعشه "كل

* الكرتيد cariátide وبالانجليزية Caryatid: تمثال إمرأة يقوم مقام العمود في العمارة القديمة – م.

قسس وكهنة بوتوسى". كانت الشعوذة والسحر قد إختلطا بالديانة الرسمية، فى غيبوبة حماس ومخاوف المجتمع الإستعمارى. كان تلقى البركة الأخيرة فى طقوس باذخة، مثلما فى التعميد، قادراً على شفاء المحتضر، رغم أنه كان من الأفيد كتابة وصية سخية بإقامة معبد أو مذبح من الفضة. كانت الحمى تحارب بالأناجيل: والتراتيل فى أحد الأديرة ترطب الجسم؛ وفى غيره، تعطى حرارة. "كان قانون الإيمان المسيحى منعشاً مثل التمر الهندى أو ملح النترات الحلو وكانت صلاة السلام لك يامريم دافئة مثل ماء الزهر أو نؤابة الذرة الحلوة.."(٤٠).

فى شارع تشوكيساكا يستطيع المرء أن يعجب بالواجهة، التى أبلتها القرون، لقصر كونتات كارما وكايارا، لكن القصر الآن عيادة لطبيب وجرّاح أسنان؛ وشعار القائد العسكرى دون أنطونيو لوبث دى كيروجا، فى شارع لانشا، يزين الآن مدرسة صغيرة؛ أما شعار المركيز دى أوتابى، بأسوده النافرة، فيلمع على بوابة البنك القومى. "فى أى أماكن سيحيون الآن. لابد أنهم قد مضوا بعيداً ...". تحكى لى العجوز البوتوسيّة، المقيدة إلى مدينتها، أن الأغنياء مضوا فى البداية، ثم مضى الفقراء بعدهم: وسكان بوتوسى الآن يقلون ثلاث مرات عنهم منذ أربعة قرون. أتأمل التل من فوق أحد أسطح شارع أويونى، وهو حارة كولونيالية ضيقة وملتوية، حيث تبرز من المنازل شرفات ضخمة من الخشب تلتصق ببعضها من رصيف إلى الآخر بحيث يمكن للجيران أن يتعانقوا أو يتشاجروا دون حاجة إلى النزول إلى الشارع. وقد بقيت هنا، مثلما فى كل المدينة، المصابيح القديمة ذات الضوء الشاحب وتحتها، إذا إقتبسنا عبارات خايمى مولينس". كانت تسوّى خلافات الحب وينساب، مثل الأشباح، فرسان ملثمون، وسيدات أنيقات، ومقامرون". وبالمدينة نور كهربائى الآن، لكنه لا يُلاحظ جيداً. وفى الميادين المظلمة، على ضوء المصابيح العتيقة، يجرى اللعب على اليانصيب فى الليالى: ولقد شهدت سحباً على قطعة فطير وسط جمع من الناس.

ومع بوتوسى، سقطت سوكرى. هذه المدينة السهلية، ذات المناخ المعتدل، التى سُمّيت من قبل تشاركاس، ولابلاتا، وتشوكيساكا على التوالى، تمتعت بنصيب كبير من الثروة التى نقلتها من عروق تل بوتوسى الغنى. كان جونثالوبيثارّو، شقيق فرنثيسكو، قد أقام بلاطه فيها، باذخاً مثل بلاط الملك الذى أراد أن يكونه ولم يستطع؛ تفتحت الكنائس والدور، والحدائق وأركان التسلية باستمرار مع إزدهار القضاة، والصوفيين، والشعراء البليغين الذين منحوا المدينة طابعها، قرناً بعد قرن. "صمتاً، إنها سوكرى. صمتاً لا

أكثر، إذن. لكن قبل ذلك ...". قبل ذلك، كانت هذه هى العاصمة الثقافية لنوّاب الملك، والمقر الرئيسى لكبار أساقفة أمريكا ومقرّ أعلى محكمة فى المستعمرة، أكثر المدن تيهاً وعلماً فى أمريكا الجنوبية. كانت الدونيا ثيثيليا كونتريراس دى توريّس والدونيا ماريّا دى لاس مرثيديس تورّالبادى جراماخو، سيدتا أوبينا وكولكتشاكا، تقيمان مأدب للحم الطيور: إنهما تتنافسان على تبديد الريع المذهل الذى تدره مناجمهما فى بوتوسى، وحين تنتهى الاحتفالات الباذخة كانتا تلقيان من الشرفات الأطباق الفضية وحتى الأدوات الذهبية، حتى يلتقطها المارّة المحظوظون.

ومازال فى سوكرى برج مثل برج إيفل وأقواس نصر، ويقال أن جواهر السيدة العذراء بها يمكن أن تسدد كل الدين الخارجى الضخم لبوليفيا. لكن أجراس الكنائس الشهيرة التى دقت بفرح عام ١٨٠٩ إحتفالاً بتحرر أمريكا، تصدر الآن دقات جنائزية. وجرس سان فرنثيسكو الأجش، الذى طالما أعلن عن تمردات وإنتفاضات، يدق اليوم لسكون الموت الذى أصاب سوكرى. ولايهم كثيراً أنها مازالت العاصمة القضائية لبوليفيا، وأن فيها المحكمة العليا ماتزال. ففى شوارعها يمر عدد لايحصى من صغار المحامين، سقيمين ونوى جلود صفراء، شهود أحياء على التدهور: دكاترة من أولئك الذين يستخدمون العوينات، والشريط الأسود وكل شئ. ومن القصور الضخمة الخاوية، يبعث سادة سوكرى البطريركيين خدمهم ليبيعوا الفطائر عند شبابيك تذاكر السكك الحديدية. لكن كان ثمة من استطاع أن يشترى، فى أوقات سعيدة أخرى، حتى لقب أمير.

فى بوتوسى وفى سوكرى لم يبق حياً سوى أشباح الثروة الميتة. وفى هوانتشاكا Huanchaca، وهى مأساة بوليفية أخرى، استنفدت رؤوس الأموال الأنجلو - تشيلية، خلال القرن الماضى، عروق فضة عرضها أكثر من مترين، وذات نقاوة عالية جداً؛ والآن لا يتبقى سوى الأطلال التى يتصاعد منها الغبار. تظل هوانتشاكا على الخرائط، كأنها مازالت موجودة، وتحدّد بعلامة الجاروف والمعول المتقاطعين، كأنها مركز تعدين مازال حياً. فهل كان حظ المناجم المكسيكية فى جواناخواتو وثاكاتيكاس أفضل؟ على أساس المعلومات التى يقدمها الكسندرفون همبولت، قدر بنحو خمسة آلاف مليون دولار حالى حجم العائد الاقتصادى الذى خرج من المكسيك فيما بين عامى ١٧٦٠ و ١٨٠٩، أى قرن بالكاد، وذلك من خلال صادرات الفضة والذهب[٤١]. وفى ذلك الوقت كانت المناجم المكسيكية أهم مناجم فى أمريكا. وقد قارن العالم الألمانى الكبير منجم بالنثيانا، فى

جواناً خواتو، بمنجم هيملز فورست فى سكسونيا، الذى كان أغنى مناجم أوربا: كان منجم بالنشيانا ينتج ٣٦ ضعفاً من الفضة، عند بداية القرن، ويحقق لمساهميه أرباحا أعلى بمقدار ٣٣ ضعفاً. وقد غلبت الكونت سانتياجو دى لالاجاونا مشاعره وهو يصف، عام ١٧٣٢، مقاطعة ثاكاتيكاس المنجمية و "الكنوز النفيسة التى تخفيها أحشاؤها العميقة"، فى التلال "التى تزدان بأكثر من أربعة الاف فتحة، حتى تقدم بثمرة أحشائها خدمة أفضل لصاحبى الجلالة"، الرب والملك، و "حتى يهرع الجميع إلى الشراب وإلى المشاركة فيما هو عظيم، وثرى، ومُفوّه، وحَضَرى، ونبيل"، لأنه "تبعٌ للحكمة، والشرطة، والسلاح، والنبالة ..."[٤٢]. وقد وصف القس مارموليخو، فيما بعد، مدينة جواناخواتو، التى تتخللها القناطر، والحدائق التى تشبه كثيراً حدائق سميراميس فى بابل، والمعابد البهية، والمسرح، وساحة مصارعة الثيران، وساحات مصارعة الديكة، والأبراج والقباب السامقة على منحدرات الجبال الخضراء. لكن كان ذلك هو "بلد عدم التكافؤ" وقد إستطاع همبولت أن يكتب عن المكسيك: "ربما لم يكن عدم التكافؤ مفزعاً فى أى مكان بقدر ماهو مفزع هنا ... فعمارة الأبنية العامة والخاصة، وجمال جهاز العرائس، وجو المجتمع؛ كلها تنم عن غاية العناية التى تتناقض بصورة غير مألوفة مع عرى، وجهل، وريفية العامة". كانت أنفاق المناجم تبتلع الرجال والبغال فى مرتفعات الجبال؛ وكان الهنود، "الذين يعيشون فقط لمجرد الخروج من ضوء النهار"، يعانون من جوع وبائى وكانت الأوبئة تقتلهم مثل الذباب. وفى سنة واحدة، هى ١٧٨٤، فإن موجة من الأمراض أثارها نقص الأغذية نتيجة برد ساحق، حصدت أكثر من ثمانية آلاف شخص فى جواناخواتو.

لم تكن رؤوس الأموال تتراكم، بل كان يجرى تبديدها. كانت تطبق تلك الحكمة القديمة "أبٌ تاجر، إبن فارس، حفيد شحاذ". وفى مذكرة موجهة إلى الحكومة، عام ١٨٤٣، وجّه لوكاس آلامان Lucas Alamán تحذيراً خطيراً، بينما أكد على ضرورة الدفاع عن الصناعة القومية من خلال نظام محظورات وضرائب فادحة ضد المنافسة الأجنبية، قال: "من الضرورى اللجوء إلى تنشيط الصناعة، بإعتبارها مصدراً وحيداً للرفاهية الشاملة. ولن تفيد بويبلا ثروة ثاكاتيكاس، مالم يكن بسبب الاستهلاك الذى تقدمه لصناعاتها، وإذا تدهورت تلك الأخيرة مرة أخرى كما حدث من قبل، فسوف يشمل الخراب هذه المنطقة المزدهرة الآن، دون أن يكون بإمكان ثروة تلك المناجم أن تنقذها من البؤس". وقد إتضح أن النبوءة صائبة. ففى أيامنا، ليست ثاكاتيكاس ولاجواناخواتو

حتى أهم مدن مقاطعاتها. وكلتاهما تتمدان محاطتان بهياكل معسكرات إزدهار المناجم. وتحيا ثاكاتيكاس، الجرداء المرتفعة، على الزراعة وتصدّر الأيدى العاملة إلى الولايات الأخرى؛ ودرجة نقاوة مستخرجاتها الحالية من الذهب والفضة منخفضة جداً، بالنسبة للأوقات الطيبة الماضية. ومن بين الخمسين منجم التى كانت مستغلّة فى مقاطعة جواناخواتو، لايكاد يتبقى الآن سوى إثنين. ولا يتزايد سكان المدينة الجميلة، بل يتدفق السياح لتأمل البهاء الباذخ للأوقات الماضية، وللتجوال فى الحوارى ذات الأسماء الرومانسية، الغنية بالأساطير، وللإحساس بالرعب لرؤية المومياوات المائة التى حفظتها أملاح الأرض سليمة لم تمس. أما عائلات ولاية جواناخواتو، ومتوسط أفرادها أكثر من خمسة، فتحيا حالياً فى عشش ذات غرفة واحدة.

■ سفك الدم والدموع: ورغم ذلك، كان الباب قد قرر أن للهنود روحاً.

فى سنة ١٥٨١، أكد فيليب الثانى، أمام محكمة* جوادالاخارا، أن ثلث هنود أمريكا قد أبيدوا، وأن الأحياء منهم يجدون أنفسهم ملزمين بدفع الجزية عن الأموات. كذلك قال العامل أن الهنود يباعون ويشترون. وأنهم ينامون فى العراء. وأن الأمهات يقتلن أبناءهن لإنقاذهم من عذاب المناجم[٤٣]. لكن حدود نفاق التاج كانت أوسع من حدود الإمبراطورية: فقد كان التاج يتلقى خمس قيمة المعادن التى ينتزعها رعاياه فى كل أرجاء العالم الأسبانى الجديد، بالإضافة إلى غير ذلك من الضرائب، وحدث نفس الشئ، فى القرن الثامن عشر، بالنسبة للتاج البرتغالى فى أراضى البرازيل. لقد نفذ ذهب وفضة أمريكا، إذا أوردنا عبارة إنجلز، خلال كل مسام المجتمع الإقطاعى المريض فى أوربا، وفى خدمة المركنتيلية الرأسمالية الوليدة حوّل أرباب المناجم الهنود والعبيد السود إلى "بروليتاريا خارجية" هائلة العدد لدى الاقتصاد الأوربى. وانبعثت العبودية الاغريقية الرومانية فعلياً، فى عالم مختلف؛ ويجب أن نضيف إلى تعاسة هنود الامبراطوريات التى صفّيت فى أمريكا الهسبانية المصير المرعب للزنوج المنتزعين من القرى الإفريقية ليعملوا فى البرازيل وفى جزر الأنتيل. كان لدى الإقتصاد الاستعمارى

* الكلمة المستخدمة هي audiencia، وكانت جهازاً قضائياً وإدارياً واستشارياً. وفي المكسيك كانت عبارة عن محكمة عليا للإدارة والقضاء – م.

الأمريكى اللاتينى أكبر تركز لقوة عمل عُرِف حتى ذلك الحين، من أجل إتاحة أكبر تركيز للثروة لم تمتلكه أى حضارة على الإطلاق فى تاريخ العالم.

هذا المدّ العارم من الجشع، والرعب، والإقدام لم يسقط على هذه الأنحاء إلاّ بإبادة السكان المحليين: فقد قدّرت الأبحاث الحديثة ذات المصادر الموثوقة تعداد سكان المكسيك قبل كولومبس بعدد يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين مليوناً، ويقدر أنه كان هناك عدد مماثل من الهنود فى منطقة الإنديز؛ وكانت أمريكا الوسطى وجزر الأنتيل تضم مابين عشرة وثلاث عشرة مليوناً من السكان. كان مجموع هنود الأمريكتين لايقل عن سبعين مليوناً، وربما أكثر من ذلك، حين ظهر الفاتحون الأجانب فى الأفق؛ وبعدها بقرن ونصف من الزمن تقلص عددهم، فى مجموعه، إلى ثلاثة ملايين ونصف فقط[٤٤]. وحسب رواية الماركيز دى بارنياس، لم يتبق فى عام ١٦٨٥، فيما بين ليما وباتيا، أكثر من أربعة آلاف أسرة هندية، حيث كان يعيش أكثر من مليونين من الهنود. لكن كبير الأساقفة لينيان إى ثيسنيروس أنكر إبادة الهنود: "إنهم يختبئون – كما يقول – حتى لايدفعوا الجزية، مسيئين استخدام الحرية التى يتمتعون بها والتى لم تكن لديهم فى عصر الإنكا"[٤٥].

كان يجرى إفراغ معدن المناجم الأمريكية دون توقف، وكانت تصل من البلاط الأسبانى، دون توقف أيضاً، أوامر تضمن حماية وكرامة على الورق للهنود، الذين كان عملهم المرهق يقيم أود المملكة. كانت خرافة الشرعية تحمى الهندى؛ وكان الإستغلال الواقعى يدميه. من العبودية إلى التكليف بأداء خدمات، ومن هذا الأخير إلى التكليف بجزية وإلى نظام الأجور، نجد أن المتغيرات فى الأوضاع القانونية لقوة العمل الهندية لم تغيّر وضعها الفعلى إلاّ بصورة سطحية. إعتبر التاج أن الإستغلال غير الإنسانى لقوة العمل الهندية ضرورى جداً، لدرجة أن فيليب الثالث أصدر، عام ١٦٠١، قواعد تحظر العمل الإجبارى فى المناجم، وفى نفس الوقت، بعث بتعليمات سرية أخرى تأمر بمواصلته "فى حالة ما إذا كان هذا الإجراء سيقلل الإنتاج"[٤٦]. وبنفس الطريقة، قام الزائر والحاكم خوان دى سولورثانو بتحقيق حول ظروف العمل فى مناجم الزئبق فى هوانكابيليكا، وأبلغ مجلس جزر الهند والملك بأن: "... السم ينفذ فى النخاع ذاته، ويضعف كل الأعضاء ويسبب رجفة دائمة، بحيث يموت العمال، بوجه عام، خلال فترة أربع سنوات". إلاّ أن فيليب الرابع أمر، عام ١٦٣١، بالاستمرار فى نفس النظام، وجدد خليفته، كارلوس الثانى، المرسوم بعدها بقليل. كانت مناجم الزئبق هذه تستغل مباشرة

من قبل التاج، بخلاف مناجم الفضة، التى كانت فى أيدى مستثمرين أفراد.

خلال ثلاثة قرون، أحرق التل الغنى فى بوتوسى، حسب مايقوله خوسيًا كوندر Josiah Conder، ثمانية ملايين آدمى. كان الهنود ينتزعون من التجمعات الزراعية ويساقون، مع زوجاتهم وأولادهم، بإتجاه التل. ومن بين كل عشرة يمضون بإتجاه القفار العالية المثلجة، لم يكن سبعة يعودون على الإطلاق. وقد وصف لويس كابوتشى، الذى كان صاحب مناجم ومهندس، أن "الطرق كانت مغطاة بحيث يبدو أن المملكة تنتقل من مكانها". وفى التجمعات، كان الهنود قد رأوا "نساء كثيرات مكلومات يعدن دون أزواجهن وأطفالاً كثيرين يتامى دون آبائهم" وعرفوا أن "ألف موت وكارثة" بإنتظارهم فى المنجم. كان الإسبان يجوبون مئات الأميال فيما حولهم بحثاً عن أيدى عاملة. وكان كثيرون من الهنود يموتون فى الطريق، قبل بلوغ بوتوسى. لكن ظروف العمل الرهيبة فى المنجم هى التى تقتل أغلبهم. وقد أبلغ القس الدومينيكانى دومينجو دى سانتو توماس Domingo de Santo Tomás مجلس جزر الهند، عام ١٥٥٠، بعد برهة وجيزة من مولد المنجم، أن بوتوسى كانت "فوهة الجحيم" الذى يلتهم الهنود كل عام بالآلاف والالاف وأن أصحاب المناجم المتوحشين كانوا يعاملون السكان الأصليين "مثلما يعاملون حيوانات بلا مالك". وسوف يقول القس رودريجو دى لوايسا Rodrigo de Loaysa فيما بعد: "هؤلاء الهنود المساكين يشبهون السردين فى البحر. وكما تطارد الأسماك الأخرى السردين للإمساك به والتهامه، فإن الجميع فى هذه البلاد يطاردون الهنود البؤساء ..."[٤٧]. وكان زعماء تجمعات الهنود ملزمين بُحلّوا محل الميتايو* الذى يموتون، رجالاً جدد من سن الثامنة عشرة إلى سن الخمسين. وحظيرة التوزيع، حيث كان الهنود يُهدون إلى أصحاب المناجم والمصانع، وهى ساحة ضخمة ذات جدران حجرية، تستخدم الآن ليلعب فيها العمال كرة القدم؛ أما سجن الميتايو، وهو ركام من الأطلال لا شكل له، فيمكن رؤيته اليوم عند مدخل بوتوسى.

فى مجموعة قوانين جزر الهند الغربية لاتنقصنا مراسيم من ذلك العصر تؤسس المساواة فى الحقوق بين الهنود والأسبان من أجل استغلال المناجم وتحرّم صراحةً التعدّى على حقوق السكان الأصليين. إن التاريخ الرسمى – تلك الحروف الميتة التى تستعيد فى عصرنا الحروف الميتة للعصور الماضية – ليس لديه ما يشكو منه، لكن بينما كان يجري الجدل في أكوام لانهائية من الورق حول تشريع العمل الهندى وتنفجر فى

* الهنود الذين يقومون بالعمل الاجبارى فى المناجم – انظر، ملاحظة سابقة عن Metayo – م.

حبر عبقرية المشرعين الأسبان، كان القانون فى أمريكا "يُحترم لكنه لايُطبّق". فى الأفعال، كان "الهندى البائس عملة - إذا أوردنا كلام لويس كابوتشى - يمكن بها تحقيق كل ما هو ضرورى، مثلما بالذهب والفضة، وأفضل بكثير". وكان أفراد عديدون يطالبون أمام المحاكم بإقرار وضعهم كخلاسيين حتى لايرسلوهم إلى المناجم، ولايبيعوهم فى السوق المرة تلو المرة.

وعند أواخر القرن الثامن عشر، تبرأ كونكولوركوربو Concolorcorvo، الذى كان يجرى فى عروقه الدم الهندى، من نويه على النحو التالى: "لاننكر أن المناجم تستهلك عدداً كبيراً من الهنود، لكن ذلك ليس بسبب العمل الذى يقومون به فى مناجم الفضة والزئبق، بل بسبب الإنحلال الذى يعيشون فيه". أما شهادة كابوتشى، الذى كان فى خدمته كثير من الهنود، فتعد نموذجية فى هذا المقام. فقد كانت درجات الحرارة الثلجية فى العراء تتناوب مع الحرارة الأشد جهنمية فى أعماق التل. كان الهنود يدخلون الأعماق، "وعادة ما يسحبونهم موتى والآخرون مهشمّى الرؤوس أو السيقان، وفى المصانع يجرحون أنفسهم كل يوم". كان الميتايو يفصلون المعدن بحد المعاول ثم يصعدون به حاملينه فوق ظهورهم، على درجات، على ضوء شمعة. وخارج المناجم، كانوا يحركون المحاور الخشبية الطويلة فى المصانع أو يسبكون الفضة على النار، بعد طحنها وغسلها.

كان نظام "الميتا" آلة لسحق الهنود. وكان استخدام الزئبق لاستخلاص الفضة بالاتحاد الكيميائى يسمم بنفس درجة الغازات السامة فى أحشاء الأرض أو أكثر. كان يُسقط الشعر والأسنان ويبعث ارتجافات لايمكن السيطرة عليها. وكان من يسّممهم الزئبق يتمددون فى الشوارع طالبين الإحسان. كانت ست آلاف وخمسمائة شعلة تشتعل فى الليل على منحدرات التل الغنى، وعلى ضوئها يجرى تشغيل الفضة بالاستفادة بالريح التى يبعثها "سان أغوسطين المجيد" من السماء. وبسبب دخان الأفران لم يعد ثمة زرع ولا بذار فى مساحة نصف قطرها ستة فراسخ حول بوتوسى، ولم تكن الأبخرة أقل قسوة على أجساد الرجال.

وكانت التبريرات الايديولوجية متوفرة. تحولت منبحة العالم الجديد إلى عمل من أعمال البرّ أو إلى سبب للإيمان. مع الذنب ولد نسق كامل من الأكاذيب من أجل الضمائر المذنبة. حُوّل الهنود إلى حيوانات جرّ، لأنهم يتحملون أثقالاً أكبر مما يتحمل ظهر حيوان اللاما الضعيف، وبالمناسبة، جرت البرهنة على أن الهنود هم، فعلاً، حيوانات جر. وإعتبر نائب الملك على المكسيك أنه لاعلاج أفضل من العمل فى المناجم من أجل

شفاء "الشر الطبيعي" لدى الهنود. وأصر خوان خينس دى سيبولبدا Juan Ginés de Sepúlveda، ذو النزعة الإنسانية، على أن الهنود يستحقون المعاملة التى ينالوها لأن خطاياهم ووثنيتهم تمثل إهانة للرب. أما الكونت دى بورفون de Buffon فقد أكدّ أنه لم يُلاحظ فى الهنود، تلك الحيوانات الباردة والضعيفة، "أى نشاط روحى". أما رئيس الرهبان دى بو De Paw فقد إخترع أمريكا يتبادل فيها الهنود المنحطون مع الكلاب التى لاتعرف النباح، والبقرات التى لاتؤكل، والجمال العنّينة. وكانت أمريكا فولتير Votaire، التى يقطنها هنود كسالى وحمقى، تملك خنازير صرّتها على ظهرها وأسوداً صلعاء وجبانة. أما بيكون Bacon، ودى ميستر De Maistre، ومونتسكيو Montesquieu، وهيوم Hume، وبودان Bodin، فقد رفضوا أن يتعرفوا على أشباه لهم فى "البشر المنحطين" للعالم الجديد. وتحدث هيجل عن العجز الفيزيقى والروحى لأمريكا وقال أن الهنود قد ماتوا بنفخة من أوربا[٤٨].

وفى القرن السابع عشر، أكد الأب جريجوريو جارثيًا Gregorio García أن الهنود ينحدرون من سلالة يهودية، لأنهم مثل اليهود "كسالى، لايؤمنون بمعجزات يسوع المسيح وليسوا ممتنّين للإسبان من أجل كل ما فعلوه لهم من خير". على الأقل، فإن هذا الكاهن لم ينكر أن الهنود من نسل آدم وحواء: إذ كان هناك عديد من اللاهوتيين والمفكرين الذى لم يقتنعوا بمرسوم البابا بولس الثالث، الصادر عام ١٥٣٧، والذى أعلن فيه أن الهنود "بشر حقيقيون". وقد آثار الأب بارتولومى دى لاس كاساس Bartolomé de las Casas البلاط الأسبانى بإحتجاجاته ضد قسوة فاتحى أمريكا: وفى ١٥٥٧، أجابه أحد أعضاء المجلس الملكى بأن الهنود بالغى التدنى فى سلم البشرية بحيث لايمكنهم تلقى الإيمان[٤٩]. وقد كرس لاس كاساس حياته المحمومة للدفاع عن الهنود فى وجه تجاوزات أصحاب المناجم والإقطاعيين* . وكان يقول أن الهنود يفضلون الذهاب إلى الجحيم حتى لايصادفوا المسيحيين.

كان الفاتحون والمستعمرون "يُقطّعُون" هنوداً حتى يتزعموهم. لكن لما كان الهنود ملزمين بتقديم خدمات شخصية وجزية إقتصادية للـ "الاقطاعى*"، لم يكن الوقت الباقى كافياً لإدخالهم إلى طريق الخلاص المسيحى. وقد تلقى هرنان كورتيس ثلاثة

* الإقطاعي هنا ترجمة لكلمة encomendero. وكانت الاقطاعات encomiendas تمنح للمستوطنين الإسبان في العصر الإستعماري، وكان الهنود الذي يعيشون علي أراضي الاقطاعيات يوضعون في خدمة الاقطاعي ويدفعون له الضرائب. وكان يفترض فيه مقابل ذلك أن يرعي مصالحهم في أرضه ويدخلهم إلي المسيحية – م.

وعشرين ألف تابع، مقابل خدماته؛ وكان يتم توزيع الهنود فى نفس الوقت الذى تمنح فيه الأراضى من خلال تعطفات ملكية أو من خلال الانتزاع المباشر. ومنذ عام ١٥٣٦ كان الهنود يُسلَّمون فى الإقطاعات، مع نسلهم، لفترة عمرين: عمر الاقطاعى وعمر وريثه المباشر؛ ومنذ عام ١٦٢٩، أخذ العمل بالنظام يمتد، فى الممارسة. كانت الأراضى تباع بما عليها من هنود(٥٠). وفى القرن الثامن عشر، كان الهنود، من بقوا منهم على قيد الحياة، يضمنون حياة مريحة لأجيال كثيرة قادمة. ولما كان الآلهة المهزومون باقين فى ذاكرتهم، فقد توفرت الأكاذيب المقدسة من أجل الانتفاع بقوة عملهم من جانب المنتصرين: كان الهنود وثنيين، لايستحقون حياة أخرى. هل هذه عصور خلت؟ بعد أربعمائة وعشرين عاماً من مرسوم البابا بولس الثالث، فى سبتمبر عام ١٩٥٧، أصدرت محكمة العدل العليا فى الباراجواى تعميماً يبلغ كل قضاة البلاد بأن "الهنود مخلوقات بشرية تماماً مثل بقية سكان الجمهورية ..." وفيما بعد قام مركز الدراسات الأنثروبولوجية بجامعة أسونثيون الكاثوليكية بإستطلاع رأى ملهم فى العاصمة وفى داخل البلاد: والنتيجة أنه من بين كل عشرة باراجويين، يعتقد ثمانية أن "الهنود مثل الحيوانات". وفى كاجواثو Caaguazú، وفى البارانا العليا Alto Paraná، وفى التشاكو Chaco، يُصاد الهنود مثل الوحوش، ويُباعون بسعر رخيص و يُستغلون بنظام يماثل العبودية. ورغم ذلك، فإن كل الباراجويين تقريباً يجرى فى عروقهم دم هندى، ولا تملّ الباراجواى من وضع الأغانى، والقصائد، والخُطب فى تكريم "روح الجوارانى".

■ الحنين المقاتل لدى توپاك أمارو

حين إندفع الإسبان إلى أمريكا، كانت إمبراطورية الإنكا الثيوقراطية فى قمة إزدهارها، وكانت سلطتها تمتد فيما يعرف اليوم بالبيرو، وبوليفيا، والإكوادور، وتغطى جزءاً من كولومبيا وتشيلى وتصل حتى الشمال الأرجنتينى والغابات البرازيلية؛ وكان إتحاد الأزتيك قد بلغ مستوى راقياً من الكفاءة فى وادى المكسيك، وفى يوكاتان وأمريكا الوسطى كانت حضارة المايا الرائعة متصلة فى الشعوب التى ورثتها، والمنظمة من أجل العمل ومن أجل الحرب.

وقد خلّفت هذه المجتمعات شواهد عديدة على عظمتها، رغم كل هذه الفترة الطويلة من التدمير: آثاراً دينية مشيّدة بحكمة تفوق حكمة الأهرام المصرية، وإبداعات

تقنية فعّالة للصراع ضد الطبيعية، وأعمالاً فنية تشى بعبقرية لاتلين. وفى متحف ليما يمكن مشاهدة مئات من الجماجم التى أجريت لها عمليات تربنة وعلاج بشرائح من الذهب والفضة من جانب الجراحين الإنكا. وكان هنود المايا فلكيين عظماء، قاسوا الزمن والمسافة بدقة مدهشة، واكتشفوا قيمة الرقم صفر قبل أى شعب آخر فى التاريخ. وقد أذهلت قنوات الرى والجزر الصناعية التى خلفها الأزتيك هرنان كورتيس، رغم أنها لم تكن من ذهب.

دمّر الفتح أسس تلك الحضارات. وكان لتطبيق الإقتصاد المنجمى نتائج أسوأ من الدم والنار فى الحرب. فقد كانت المناجم تتطلب نقل السكان بأعداد ضخمة وتفكك الوحدات الزراعية الجمعية؛ فلم تبد حيوات لاتحصى من خلال العمل الإجبارى فحسب، بل إنها بالإضافة إلى ذلك، وبصورة غير مباشرة، حطمت نظام الزراعة الجماعى. سيق الهنود إلى المناجم، وأخضعوا لعبودية الإقطاعيين، وأجبروا على تسليم الأراضى التى تركوها أو أهملوها قسراً وذلك دون مقابل. وعلى شاطئ المحيط الهادى دمر الأسبان أو تركوا للخراب الزراعات الضخمة من الذرة، والمنيهوت، واللوبيا، والفاصوليا، والفول السودانى، والبطاطا؛ وسرعان ما إلتهمت الصحراء إمتدادات واسعة من الأرض التى كانت تتلقى الحياة من خلال شبكة رى الإنكا. وبعد أربعة قرون ونصف من الفتح لم تتبق سوى الأحجار والأجمات مكان أغلب الطرق التى كانت تربط الامبراطورية. ورغم أن الأشغال العامة الضخمة للإنكا قد محاها الزمن، فى غالبيتها، أو محتها أيدى المغتصبين، فمازالت باقية، منقوشة على سلاسل جبال الاندين، تل المصاطب اللانهائية التى كانت ومازالت تتيح زراعة جوانب الجبال. ويقدر خبير تقنى أمريكى شمالى[٥١]، عام ١٩٣٦، أن هذه المصاطب لو أنشئت فى ذلك العام، بالطرق الحديثة، لتكلّفت نحو ثلاثين ألف دولار للفدان. لقد أمكن عمل هذه المصاطب وقنوات الرى، فى تلك الامبراطورية التى لم تكن تعرف العجلة، ولا الحصان، ولا الحديد، بفضل التنظيم البارع والكمال التقنى المتحقق من خلال تقسيم حكيم للعمل، لكن كذلك بفضل قوة الدين الذى يحكم علاقة الإنسان بالأرض – التى كانت مقدسة، وبالتالى، حية دائماً.

كذلك كانت استجابات الأزتيك لتحدى الطبيعة مدهشة. وفى أيامنا، يعرف السياح بإسم "الحدائق الطافية" تلك الجزر القليلة الباقية فى البحيرة المجففة حيث ترتفع الآن، فوق الأطلال الهندية، عاصمة المكسيك. وقد خلقت هذه الجزر بواسطة الأزتيك كحلّ لمشكلة نقص الأراضى فى الموقع المختار لإقامة مدينة تينوتشتيتلان. نقل الهنود كميات

كبيرة من الطين من ضفاف الأنهار ودعموا الجزر الجديدة بالجير بين جدران رقيقة من القاب، حتى صلّبتها جذور الأشجار. وبين مساحات الأرض الجديدة إنسابت قنوات المياه. وفوق هذه الجزر الخصبة بصورة غير عادية نمت عاصمة الأزتيك القوية، بشوارعها وقصورها ذات الجمال المتقشّف، وأهراماتها المدرّجة: وبعد أن تفتحت بصورة سحرية من البحيرة، قُدّر لها أن تختفي تحت ضربات الفتح الأجنبي. وسوف تظل المكسيك تنتظر أربعة قرون قبل أن يبلغ سكانها نفس العدد الذى كان موجوداً فى تلك العصور.

كان الهنود، كما يقول دارسى ريبيرو Darcy Ribeiro، هم وقود النظام الإنتاجى الاستعمارى. "من الأمور شبه المؤكدة - هكذا يكتب سيرخيو باجو - أنه قد ألقى فى المناجم الأسبانية مئات من الهنود النحاتين، والمعماريين، والمهندسين، والفلكيين المختلطين بحشود العبيد، ليقوموا بعمل خشن ومنهك فى استخراج المعادن. لم تكن المهارة التقنية لهؤلاء الأفراد تهم الإقتصاد الإستعمارى. كانوا يعدّون فقط بإعتبارهم عمالاً غير مؤهلين". لكن لم تضع كل شذرات تلك الثقافات المدمّرة. فقد أشعل الأمل فى إعادة بعث الكبرياء المفقود إنتفاضات هندية عديدة. وفى عام ١٧٨١ ضرب توباك أمارو Túpac Amaru حصاراً حول كوثكو Cuzco.

تزعم هذا الزعيم الخلاسى، السليل المباشر للأباطرة الإنكا، أوسع حركة خلاصية وثورية. إندلع التمرد الكبير فى مقاطعة تينتا Tinta. ودخل توباك أمارو، على صهوة حصانه الأبيض، ميدان تونجا سوكا وعلى صوت دق الطبول والنفخ فى الأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات، أعلن أنه قد حكم بالشنق على العمدة الملكى أنطونيو خوان دى أرّياجا Antonio Juan de Arriaga، ومنع نظام الميتا فى بوتوسى. وكانت مقاطعة تينتا قد خلت من السكان بسبب الخدمة الإجبارية فى مناجم فضة التل الغنى. وبعد أيام قلائل، أصدر توباك أمارو تعميماً جديداً يأمر فيه بتحرير العبيد. وألغى كل الضرائب كما ألغى "إقتسام" الأيدى العاملة الهندية بكل أشكاله. وانضم الهنود، بالآلاف تلو الآلاف، إلى قوات "والد جميع الفقراء وجميع البؤساء وجميع المنكوبين". وعلى رأس محاربيه، إندفع الزعيم صوب كوثكو. سار وهو يلقى الخطب: كل من يموتون تحت إمرته فى هذه الحرب سوف يبعثون لكى يتمتعوا بضروب السعادة والثروة التى جرّدهم منها الغزاه. وجرت إنتصارات وهزائم؛ وفى النهاية، ونتيجة لخيانته والقبض عليه من قبل أحد قواده، ثم تسليم توباك أمارو، مكبلاً بالسلاسل، إلى الملكيين. وزاره فى سجنه المفتش

أريتشى Areche ليطلب منه، مقابل وعود كثيرة، أسماء المتواطئين معه فى التمرد. فأجابه توباك أمارو بإحتقار: "لايوجد هنا متواطئون سوانا أنت وأنا؛ أنت لكونك مضطهِداً، وأنا لكونى محرِّراً، وكلانا يستحق الموت"(٥٢).

وعُذِّب توباك، مع زوجته، وأبنائه، وأنصاره الرئيسيين، فى ميدان واكايباتا، فى كوتكو. قطعوا لسانه. وربطوا ذراعيه وساقيه إلى أربعة خيول، لكى يمزقوه إلى أربعة أشلاء، لكن الجسد لم يتمزق. قطعوا رأسه عند حافة المشنقة. وبعثوا بالرأس إلى تينتا. وأرسل أحد ذراعيه إلى تونجا سوكا والآخر إلى كارابايا. وأرسلوا إحدى ساقيه إلى سانتاروسا والأخرى إلى ليبيتاكا. وحرقوا جذعه ونثروا الرماد فوق نهر وطناى. وأوصوا بإبادة سلالته، حتى الدرجة الرابعة.

وفى عام ١٨٠٢، استقبل زعيم آخر من نسل الإنكا، هو أستورپيلكو Astorpilco، زيارة همبولت. تم ذلك فى كاخاماركا، فى نفس المكان الذى رأى فيه سلفه، أتاهوالپا، لأول مرة الفاتح بيثارّو. صحب إبن الزعيم العالم الألمانى لجولة بين أطلال القرية وبين حطام قصر الإنكا العتيق، وحدثه وهما يسيران عن الكنوز الرائعة المخبوءة تحت التراب والرماد. سأله همبولت "ألا تشعر أحياناً بالرغبة فى التنقيب بحثاً عن الكنوز لسدّ احتياجاتك؟". فأجاب الشاب: "الرغبة لاتأتينا. يقول أبى أن ذلك سيكون خطيئة. فلو إمتلكنا الأغصان الذهبية بكل الثمار الذهبية، فسوف يكرهنا الجيران البيض ويوقعون بنا الأذى(٥٣)" كان الزعيم يزرع حقلاً صغيراً بالقمح. لكن ذلك لم يكن كافياً لجعله فى مأمن من الجشع الأجنبى. فالمغتصبون المتلهفون على الذهب والفضة وكذلك على أذرع العبيد للعمل فى المناجم، لم يكونوا يتوانون فى الانقضاض على الأراضى حين تقدم الزراعات ربحاً مغرياً. واستمر السلب على طول الزمن، وفى ١٩٦٩، حين أعلن الإصلاح الزراعى فى البيرو، ظلت الصحف تورد تقارير، متواترة، عن أن هنود التجمعات الجبلية المُدمَّرة كانوا يغزون بين حين وآخر، ناشرين أعلامهم، الأراضى التى سرقت منهم ومن أسلافهم، وكان الجيش يصدهم بإطلاق النيران. وكان لابد من الانتظار قرنين تقريباً منذ توباك أمارو حتى يلتقط الجنرال الوطنى خوان بيلاسكو ألبارادو Juan Velasco Alvarado ويطبق عبارة الزعيم تلك، ذات الصدى الخالد: "أيها الفلاّح! لن يأكل المالك فقرك بعد الآن!".

وهناك بطلان آخران أنقذهما الزمن من الهزيمة هما المكسيكيان هيدالجو وموريلوس. ميجيل هيدالجو Miguel Hidalgo، الذى ظل حتى سن الخمسين قساً ريفياً

وديعاً، وذات صباح جميل أطلق العنان لأجراس كنيسة دولورس داعيا الهنود للنضال من أجل حريتهم. "هل تريدون الإنخراط فى عناء إستعادة الأراضى التى سرقها الأسبان البغيضون من أسلافكم منذ ثلاثمائة سنة؟" ورفع لواء عذراء جواد الوبى الهندية، وقبل مرور ستة أسابيع تبعة ثمانون ألف رجل، مسلحين بالسكاكين، والرماح، والمقاليع، والأقواس والسهام. ووضع القس الثورى نهاية للجزية ووزع أراضى جوادلاخارا؛ وأمر بتحرير العبيد؛ وقذف بقواته على مدينة المكسيك. لكنه أعدم فى النهاية، فى نهاية هزيمة عسكرية، وعند موته، كما يقولون، ترك شهادة توبة مؤثرة[٥٤]. ولم تتأخر الثورة فى العثور على زعيم جديد، هو الكاهن خوسيه ماريًا موريلوس José María Morelos: "يجب أن تعتبروا أن أعداءكم هم كل الأغنياء، والنبلاء، والمستخدمين من الطبقة الأولى ...". وبلغت حركته – وهى حركة عصيان هندية وثورة إجتماعية – حد السيطرة على رقعة واسعة من اراضى المكسيك حتى هزم موريلوس بدوره وأعدم رمياً بالرصاص. أما استقلال المكسيك، بعدها بست سنوات، فقد "اتضح أنه صفقة هسبانية تماماً، بين أوربيين وقوم ولدوا فى أمريكا ... صراع سياسى داخل نفس الطبقة المسيطرة"[٥٥]. أصبح القِنّ عاملاً أجيراً وأصبح الإقطاعى مالك أراضى[٥٦].

■ أسبوع الآلام الهندى ينتهى دون قيامة

فى بدايات القرن الحالى، كان ملاّك **البونجو** Pongos، وهم الهنود المكرّسون للخدمة المنزلية، مازالوا يعرضونهم للإيجار عبر صحف لاپاز. وحتى ثورة ١٩٥٢، التى أعادت للهنود حق المساواة المُداس بالأقدام، كان **البونجو** يأكلون بقايا طعام الكلب، الذى ينامون إلى جواره، وينحنون حين يخاطبون أى شخص ذى جلد أبيض. كان الهنود حيوانات جر يحملون على ظهورهم أمتعة الفاتحين: فقد كانت الدواب قليلة. لكن في أيامنا يمكننا، علي طول هضبة الإلتيبلانو الإنديزية، أن نري حمالين من هنود الأيمارا والكتشوا يحملون أحمالاً حتي بأسنانهم مقابل رغيف جاف. كان تغبّر الرئة* أول مرض مهني في أمريكا؛ وفي الوقت الحاضر، حين يكمل عمال المناجم البوليفيون سن الخامسة والثلاثين، ترفض رئاتهم الاستمرار في العمل: إذ يتخلل غبار السيليكا الذي لايرحم جلد

* تغبّر الرئة: neumoconiosis: مرض رئوي مزمن نتيجة الافراط في استنشاق الأتربة المحملة بدقائق معدنية – م.

عامل المنجم، ويشقق وجهه ويديه، ويقضي علي حاستي الشم والذوق، ويهزم رئتيه، بأن يصلّبهما ويقتلهما.

ويعشق السياح تصوير هنود الألتيبلانو وهم يرتدون أزياءهم التقليدية. لكنهم يجهلون أن الزي الهندي الراهن فرضه عليهم كارلوس الثالث في أواخر القرن الثامن عشر. والأردية النسائية التي أجبر الأسبان الهنديات علي إستخدامها كانت منسوخة من الأزياء الإقليمية للفلاحات الأسبانيات في أقاليم اكستريما دورا، والأندلس، وبلاد الباسك، ونفس الشئ جري مع تصفيفة شعر الهنديات، ذات الفرق في المنتصف، والتي فرضها نائب الملك توليدو. لكن، وفي المقابل، لم يحدث نفس الشئ بالنسبة لاستهلاك الكوكه*، الذي لم يبدأ مع الأسبان؛ فقد كان موجوداً في عصور الإنكا. إلاّ أن الكوكه كانت توزع بحرص؛ كانت إمبراطورية الإنكا تحتكرها ولاتسمح بتوزيعها إلاّ لأغراض طقسية أو من أجل العمل الشاق في المناجم. وقد نشط الإسبان بصورة حادة استهلاك الكوكه. فقد كانت تجارة رائعة. وفي القرن السادس عشر كان يجري إنفاق الكثير، في بوتوسي، علي الثياب الأوربية من أجل المضطهدين وكذلك من أجل الكوكه للمضطهَدين. وكان أربعمائة تاجر إسباني يعيشون، في كوتكو، علي ترويج الكوكه؛ وفي مناجم فضة بوتوسي كانت تدخل سنوياً مائة ألف سلّة، بها مليون كيلو جرام من أوراق الكوكه. وكانت الكنيسة تُحصّل ضرائب علي هذا المخدّر. ويخبرنا الإنكا جارثيلاسو دي لابيجا Garci-laso de la Vega، في "شروحه الملكية"، بأن الجزء الأكبر من دخل الأسقف والرهبان وغيرهم من مسئولي الكنيسة في كوتكو كان يأتي من ضريبة العشور علي الكوكه، وبأن نقل وبيع هذا المنتج أثريا إسباناً كثيرين. بالنقود القليلة التي كانوا يحصلون عليها مقابل عملهم، كان الهنود يشترون أوراق الكوكه بدل الغذاء: إذ أنهم بمضغها يمكنهم أن يتحملوا أكثر تلك المهام القاتلة المفروضة عليهم، وذلك مقابل تقصير أعمارهم بأيديهم. وبالإضافة إلي الكوكه، كان الهنود يستهلكون الروم، بينما يشكوا مالكوهم من إنتشار "الرذائل المشئومة". وفي هذا الوقت من القرن العشرين، مازال هنود بوتوسي يواصلون مضغ الكوكه ليقتلوا الجوع ويقتلوا أنفسهم ومازالوا يحرقون أمعاءهم بالكحول الخالص. أنه الانتقام العقيم للمحكوم عليهم. وفي المناجم البوليفية، مازال العمال يسمون أجرهم بإسم ميتا**.

---

* الكوكه: coca: نبات أمريكي يستخرج منه الكوكايين ويمضغ الهنود أوراقه لمقاومة التعب – م.

** راجع هامش ميتا: العمل الاجباري للهنود – م.

لأنهم منفيون في أرضهم، ومحكوم عليهم بالشتات الأبدي، فقد ظل هنود أمريكا اللاتينية يُدفعون نحو أفقر المناطق، نحو الجبال الجرداء أو أعماق الصحراوات، بقدر ما كانت تتسع حدود الحضارة السائدة. **لقد عاني الهنود ومازالوا يعانون من لعنة ثروتهم هم - وهذا هو مركب دراما كل أمريكا الجنوبية.** فحين تم اكتشاف المتع الذهبية لنهر بلوفيلدز Bluefields، في نيكاراجوا، أزيح هنود الكاركا بسرعة بعيداً عن أراضيهم علي الضفاف، وهذا أيضاً، هو تاريخ هنود كل الوديان الخصبة وأعماق الأرض الثرية من نهر الريوبرافو* وحتي الجنوب. فلم تتوقف أبداً مذابح الهنود التي بدأت مع كولومبس. وفي أوروجواي وفي باتاجونيا الأرجنتينية، أبيد الهنود، في القرن الماضي، من قبل الجنود الذين كانوا يبحثون عنهم ويحصدونهم في الغابات أو في الصحراء، حتي لايعوقوا التقدم المنظم لإقطاعيات تربية الماشية[٥٧]. وقد تعرض هنود الياكي، في ولاية سونورا المكسيكية، لحمام دم حتي يمكن لأراضيهم، الغنية بالموارد التعدينية والخصبة للزراعة، أن تباع دون مضايقات لمختلف الرأسماليين الأمريكيين الشماليين. ونُقل من بقوا منهم أحياء إلي مزارع يوكاتان. وهكذا، لم تتحول شبه جزيرة يوكاتان إلي مقبرة للهنود المايا الذين كانوا هم أصحابها فحسب، بل تحولت كذلك إلي مقبرة لهنود الياكي، الذين قدموا من بعيد: في أوائل القرن، كان ملوك البيتا* الخمسون يملكون أكثر من مائة ألف عبد هندي في مزارعهم. ورغم صلابتهم البدنية الاستثنائية، فهم جنس من العمالقة الجميلين، مات ثلثا هنود الياكي خلال العام الأول من العمل العبودي[٥٨]. وفي أيامنا، لاتستطيع ألياف البيتا أن تنافس بدائلها الصناعية إلاّ بفضل مستوى الحياة البالغ الإنخفاض الذى يحياه عمالها. لقد تغيرت الأمور، بالتأكيد، لكن ليس كثيراً كما يُعتقد، على الأقل بالنسبة للهنود فى يوكاتان: "أن شروط حياة هؤلاء العمال تشبه كثيراً العمل العبودى"، هذا مايقوله البروفسور أرتورو بونيا سانتشيث[٥٩] Arturo Bonilla Sánchez. وفى المنحدرات الإندينزية القريبة من بوجوتا، نجد أن الأجير الهندى مُلزم بالعمل أياماً بالمجان حتى يسمح له صاحب المزرعة بأن يزرع أرضه هو، فى الليالى التى يطلع فيها القمر: "كان أسلاف هذا الهندى يزرعون بحرية، دون أن يستدينوا، أرض السهل الخصبة، التى لم تكن تخص أحداً. وهو يعمل بالمجان حتى يضمن حق زراعة الجبل المجدب!"[٦٠].

* الريو براڤو: هو الحد الفاصل بين الولايات المتحدة والمكسيك حالياً وبعد نهاية حدود امريكا اللاتينية التى تضم أمريكا الوسطى - م.

ولاينجو، فى أيامنا، حتى الهنود الذين يعيشون معزولين فى أعماق الغابات. ففى أوائل هذا القرن، كان لايزال على قيد الحياة مئتان وثلاثون قبيلة فى البرازيل، ومنذ ذلك الحين إختفت تسعون منها، مُحيت من على ظهر الكوكب بفعل وبفضل الأسلحة النارية والميكروبات. العنف والمرض، هما الطلائع المتقدمة للحضارة: ومازال الاتصال بالرجل الأبيض، بالنسبة للهنود، هو اتصال بالموت. والمراسيم القانونية التى تحمى هنود البرازيل منذ عام ١٥٣٧ قد ارتدت ضدهم. فوفق نص كل الدساتير البرازيلية، فإنهم "السادة الأوّل والطبيعيون" للأراضى التى يشغلونها. لكن يحدث أنه كلما كانت هذه الأراضى البكر أكثر ثراءً كلما أصبح الخطر الذى يتهدد حياتهم أكثر حدة؛ وسخاء الطبيعة يحكم عليهم بالسلب والجريمة. وقد انفلت زمام مذبحة الهنود، فى السنين الأخيرة، بقسوة عاتية؛ لأن أكبر غابات العالم، المجال الاستوائى الشاسع المفتوح للأسطورة وللمغامرة، قد تحول بغتةً، إلى مشهد لحلم أمريكى جديد. وفى سياق الفتح، إنقض رجال وشركات من الولايات المتحدة على إقليم الأمازون كما لو كان غرباً بعيداً جديداً. و قد أشعل هذا الغزو الأمريكى الشمالى بصورة غير مسبوقة جشع المغامرين البرازيليين. يموت الهنود دون أن يتركوا أثراً وتباع الأراضى بالدولارات للمشترين الجدد. ويظهر الذهب والمعادن الوفيرة الأخرى، والخشب، والمطاط، هذه الثروات التى يجهل الهنود قيمتها التجارية، تظهر مرتبطة بنتائج كل واحد من التحقيقات القليلة التى أجريت. والمعروف أن الهنود قد تعرضوا لنيران المدافع الرشاشة من طائرات الهليكوبتر والطائرات الصغيرة، وأنهم قد عُرِّضوا لفيروس الجدرى، وألقى الديناميت فوق قراهم وأهدى إليهم السكر الممزوج بالاستركنين والملح بالزرنيخ. أما نفس مدير إدارة حماية الهنود، الذى عيّنه الدكتاتور كاستيلو برانكو لتقويم الإدارة، فقد إتّهم، بالأدلة، بإرتكاب إثنين وأربعين نوعاً مختلفاً من الجرائم ضد الهنود. وقد تفجرت هذه الفضيحة عام ١٩٦٨.

إن مجتمع الهنود، فى عصرنا، لايوجد فى الفراغ، خارج الإطار العام للإقتصاد الأمريكى اللاتينى. حقيقة" أن هناك قبائل برازيلية مازالت حبيسة الغابة، وتجمعات فى الألتيبلانو معزولة تماماً عن العالم، وجيوب للهمجية عند حدود فنزويلا، لكن الهنود، بشكل عام، مندمجون فى نظام الإنتاج وفى سوق الاستهلاك، ولو بصورة غير مباشرة. إنهم يشاركون، بوصفهم ضحايا، فى نظام اقتصادى وإجتماعى يقومون فيه بدور شاق هو دور أكثر من يقع عليهم الاستغلال بين المستغلين، يشترون ويبيعون جزءاً كبيراً من

الأشياء القليلة التى يستهلكونها وينتجونها، عن طريق وسطاء أقوياء وجشعين يتقاضون الكثير ويدفعون القليل؛ وهم أجراء فى المزارع الضخمة، وأرخص الأيدى العاملة، وجنود فى الجبال، يقضون أيامهم وهم ينتجون للسوق العالمية أو يصارعون مُخضعِيهم. وفى بلدان مثل جواتيمالا، على سبيل المثال، يشكّلون عصب الحياة الاقتصادية القومية: فعاماً إثر عام، وبشكل دورى، يهجرون أراضيهم المقدسة، الأراضى المرتفعة، المزارع الضئيلة بحجم جثة، ليقدّموا مائتى ألف يدٍ عاملة فى حصاد البن، والقطن، والسكر فى الأراضى المنخفضة. ينقلهم المقاولون فى سيارات نقل، مثل المواشى، وليست الحاجة هى التى تقرر دائماً: فأحياناً يقرّر الروم. يدفع المقاولون أجر فرقة موسيقية من عازفى الاكسيلوفون ويديرون الكحول القوى: وحين يفيق الهندى من سكرته، تكون الديون فى صحبته. وسوف يدفعها بالعمل فى الأراضى الحارة التى لايعرفها، من حيث يعود فى ختام بضعة شهور، ربما ببعض الدريهمات فى جيبه، وربما مصاباً بالسل أو الملاريا. ويتعاون الجيش بكفاءة فى مهمة إقناع المتوانين[٦١]. إن نزع ملكية الهنود – أى إغتصاب أراضيهم وقوة عملهم – قد نتج ومازال ينتج موازياً للإحتقار العرقى، الذى يتغذى بدوره على الانحطاط الموضوعى للحضارات التى دمرها الفتح. وقد أحالت نتائج الفتح وكل الزمن الطويل من الإذلال التالى له الهوية الثقافية والاجتماعية التى كان الهنود قد بلغوها إلى أشلاء. ورغم ذلك فإن هذه الهوية المسحوقة هى الوحيدة الباقية فى جواتيمالا[٦٢]. وهى باقية فى المأساة. ففى أسبوع الآلام، تفسح مواكب خلفاء المايا المجال لتبدّيات مفزعة للماسوكية الجماعية. فهم يجرجرون الصلبان الثقيلة، ويشاركون فى ضرب المسيح بالسياط خطوة خطوة خلال الصعود الذى لاينتهى إلى الجلجلة؛ مع عواءات الألم، يتحول موت المسيح ودفنه إلى عقيدة الموت الذاتى والدفن الذاتى، فناء الحياة الجميلة البعيدة المنال. وينتهى أسبوع آلام هنود جواتيمالا دون بعث.

■ ڤيلاريكا دى أورو بريتو: پوتوسى الذهب

إن حمى الذهب، التى تواصل فرض الموت أو العبودية على هنود الأمازون، ليست جديدة فى البرازيل، كذلك ليس جديداً الدمار الذى تحدثه.

خلال قرنين من الزمان بدءاً من اكتشاف أمريكا، ظلت تربة البرازيل تضنّ، بعناد،

بالمعادن على ملاكها البرتغاليين. وغطى إستغلال الخشب، "الپالوبرازيل"*، الفترة الأولى من استعمار السواحل، وسرعان ما أقيمت مزارع ضخمة للسكر فى الشمال الشرقى. لكن بخلاف أمريكا الأسبانية، بدت البرازيل خاليةً من الذهب والفضة. لم يكن البرتغاليون قد وجدوا هناك حضارات هندية ذات مستوىً راق من التطور، بل وجدوا قبائل همجية ومتفرقة. كان الهنود يجهلون المعادن؛ وكان على البرتغاليين أن يكتشفوا، لحسابهم الخاص، المواقع التى ترسّبت فيها رواسب الذهب فى الأراضى الشاسعة التى أخذت تنفتح أمام الفتح، عبر هزيمة وإبادة الهنود.

كان الروّاد bandeirantes فى إقليم ساو پاولو قد عبروا المنطقة الشاسعة بين السيرا دى مانتيكيرا ومصب نهر ساو فرنسيسكو، ولاحظوا أن مجارى وضفاف مختلف الأنهار والجداول التى تجرى هناك تحتوى على آثار ذهب رسوبى بكميات صغيرة مرئية. كان المطر المتساقط منذ آلاف السنين قد برى عروق الذهب من الصخور ورسّبه فى الأنهار، وفى قيعان الوديان، وفى منخفضات الجبال. وتحت طبقات الرمل، أو الطين، أو الطمى، كان بطن التربة الصخرى يقدم شذرات من الذهب من السهل استخراجها من حصى cascalho الكوارتز؛ وأخذت طرق الاستخراج تأخذ فى التعقد بقدر ماتستنفد الكميات الأكثر سطحية. هكذا دخل التاريخ، فجأة، إقليم ميناش چيرايش: واستخرجت أكبر كمية ذهب اكتشفت حتى ذلك الحين فى العالم فى أقل مدى زمنى.

"هنا كان الذهب غابة"، هكذا يقول الشحاذ، الآن، ونظرته تمسح أبراج الكنائس، "كان هناك ذهب فى الطرقات، وكان ينمو مثل الغاب"، إنه الآن فى الخامسة والسبعين من عمره ويعتبر نفسه من تقاليد ماريانا (ريبيراو دوكارمو)، تلك المدينة المنجمية الصغيرة القريبة من أورو بريتو، التى تبقى، مثل أورو بريتو، خارج الزمن. يقول لى الشحاذ: "الموت أكيد، لكن ساعته غير مؤكده. ولكل واحد زمنه المرقوم"، يبصق فوق الدرج الحجرى ويرفع رأسه: "كانت النقود تزيد عن حاجتهم"، يحكى وكأنه قد رآهم. "لم يعرفوا أين يضعون النقود ولهذا كانوا يقيمون كنيسة بجوار أخرى".

فى زمن آخر، كانت هذه المنطقة أهم مناطق البرازيل. والآن ... "والآن لا"، يقول لى العجوز. "الآن لاتوجد هنا أى حياة. هنا لايوجد شباب. فالشباب يمضون". يسير حافياً، إلى جوارى، بخطوات بطيئة تحت شمس الغروب الدافئة: "أترى؟ هناك، فى واجهة الكنيسة، يوجد الشمس والقمر. هذا يعنى أن العبيد كانوا يعملون نهاراً وليلاً. هذا

* الپالوبرازيل: خشب صلب داكن اشتهرت به البرازيل وتستخرج منه أصباغ حمراء وأرجوانية – م.

المعبد أقامه الزنوج؛ وذاك أقامه البيض. وتلك دار المونسنيور أليبيو، الذى مات فى سن التاسعة والتسعين تماماً".

خلال القرن الثامن عشر، فاق إنتاج البرازيل من المعدن المرغوب الحجم الكلى للذهب الذى استخرجته إسبانيا من مستعمراتها خلال القرنين السابقين[٦٤]. وتقاطر المغامرون والباحثون عن الثروة. كان سكان البرازيل عام ١٧٠٠ ثلاثمائة ألف؛ وبعد ذلك بقرن من الزمن، فى ذروة سنوات الذهب، كان السكان قد تضاعفوا إحدى عشرة مرة. وهاجر إلى البرازيل ما لايقل عن ثلاثمائة ألف برتغالى خلال القرن الثامن عشر. "عدد من السكان ... أكبر من العدد الذى جلبته إسبانيا إلى كل مستعمراتها الأمريكية"[٦٥]. ويُقَدّر إجمالى عدد العبيد السود المجلوبين من إفريقيا، منذ إكتشاف البرازيل وحتى إلغاء العبودية بنحو عشرة ملايين: وإذا كانت الأرقام الدقيقة للقرن الثامن عشر غير متاحة، فلابد من الأخذ فى الاعتبار أن دورة الذهب كانت تمتص أيدٍ عاملة من العبيد بكميات ضخمة.

كانت سلفادور دى باهيا Salvador de Bahia هى العاصمة البرازيلية خلال دورة السكر المزدهرة فى الشمال الشرقى، لكن "العصر الذهبى"، لمناش چيرايش نقل المحور الإقتصادى والسياسى للبلاد إلى الجنوب وحوّل ريو دى چانيرو Río de Janeiro، ميناء الإقليم، إلى العاصمة الجديدة للبرازيل إبتداءً من عام ١٧٦٣. وفى المركز الدينامى للإقتصاد المنجمى الصاخب، نبتت المدن، تلك المعسكرات التى ولدت فى "الرواج" ونمت بغتةً فى دوار الثروة السهلة، "ملاجئ المجرمين، والصعاليك، والأشرار" – حسب الكلمات المهذبة لأحد المسئولين الاستعماريين فى تلك الفترة. كانت ڤيلا ريكا دى أورو بريتو* قد بلغت مرتبة المدينة عام ١٧١١؛ ولأنها ولدت وسط شلال أصحاب المناجم، فقد كانت زبدة حضارة الذهب. وقد وصفها سيماو فيرّيرا ماتشادو Simão Ferreira Machado ، بعد ثلاث وعشرين سنة، فقال أن سلطة تجار أورو بريتو فاقت بما لايقاس سلطة أكثر التجار ازدهاراً فى لشبونه: "إلى هنا، مثلما صوب ميناء، تتجه وتوضع فى دار النقود كميات الذهب الضخمة لكل المناجم. وهنا يعيش أفضل الناس ثقافة، سواء العلمانيون أو الدينيون. هذا هو مقر كل النبالة ومقر قوة العسكريين. إنها، بفضل موقعها الطبيعى، رأس أمريكا بأسرها؛ وبفضل قوة ثرواتها، فإنها الجوهرة الثمينة للبرازيل". وفى عام

* ڤيلاريكادي أو روبريتو: تعني حرفياً المدنية الغنية ذات الذهب الأسود، وذلك لأن الذهب المستخرج منها يتحول لونه إلي اللون الأسود لدي تعرضه للهواء الرطب، بسبب وجود الفضة مختلطة مع الذهب – م.

١٧٣٢، عرف كاتب آخر لتلك الفترة، هو فرنسيسكو تافاريش دى بريتو، أورو بريتو بأنها "بوتوسى الذهب"[٦٦].

وكانت تصل إلى لشبونه بإستمرار شكاوى وإحتجاجات على الحياة الخاطئة فى أورو بريتو، وسابارا Sabará، وساو چواو ديل ريى São Jóaod'El Rei، وريبيراو دو كارمو Ribeiráo do Carmo، وكل مقاطعة المناجم المائجة. كانت الثروات تأتى وتضيع فى غمضة عين. وقد اشتكى الأب أنتونيل من أن هناك الكثيرين من أصحاب المناجم على استعداد لدفع ثروة مقابل زنجى يجيد العزف على البوق ولدفع ضعف ذلك من أجل عاهرة خلاسية، "ليغرق معها فى الخطايا المتصلة والمخزية"، لكن ذوى العباءة الدينية لم يكونوا يتصرفون بطريقة أفضل: إذ يمكن أن نستخلص من المراسلات الرسمية لتلك الفترة شواهد عديدة ضد "اللاهوتيين المنحلّين" الذى يشوّهون الإقليم. وكانوا يتهمون باستخدام حصانتهم لتهريب الذهب داخل الأيقونات الخشبية الصغيرة للقديسين. وفى عام ١٧٠٥، كان يتم التأكيد على أنه ليس فى ميناش جيرايش قس واحد مستعد للإهتمام بالدين المسيحى للناس، وبعدها بست سنوات بلغ الأمر بالتاج إلى حد منع إقامة أى فرقة دينية فى المقاطعة المنجمية.

وانتشرت، على أية حال، الكنائس الجميلة المشيّدة والمزينة على الطراز الباروكى الأصلى الذى يميز الإقليم. فقد جذبت ميناش جيرايش أفضل حِرَفيّى العصر. من الخارج كانت المعابد تبدو هادئة، صافية؛ لكن الداخل، رمز الروح القدس، كان يتلألأ بالذهب الخالص فى المذابح، وروافدها، وفى الأعمدة، وفى الصور المرسومة بالنقش الغائر؛ لم يكن الناس يضنّون بالمعادن النفيسة، حتى تبلغ الكنائس "أيضاً ثروات السماء"، كما نصح الراهب ميجيل دى ساو فرنسيسكو عام ١٧١٥. كانت الخدمات الدينية باهظة الثمن جداً، لكن كل شئ كان غالياً بصورة خيالية فى المناجم. ومثلما حدث فى بوتوسى، فقد اندفعت أورو بريتو لتبديد ثروتها المفاجئة. وأتاحت المواكب والعروض استعراض الملابس والحلى ذات الفخامة الباذخة. وفى عام ١٧٣٣، دام أحد الأعياد الدينية أكثر من أسبوع. ولم تكن المواكب تجرى فقط على الأقدام، وعلى صهوة الخيول، أو فى عربات مزدهية بالعاج، والحرائر والذهب، فى حلل تفوق الخيال والتصور، بل كانت تقام كذلك مسابقات فى المبارزة، ومصارعات ثيران، ورقص فى الشوارع على أنغام الصفارات، وموسيقى القرب، والجيتارات[٦٧].

كان أصحاب المناجم يحتقرون زراعة الأرض وقد عانى الإقليم من نوبات المجاعة

فى قلب الرفاهية، حوالى عامى ١٧٠٠ و ١٧١٣: واضطر أصحاب الملايين لأكل القطط، والكلاب، والفئران، والنمل، والصقور. كان العبيد يستنفدون قواهم وأيامهم فى مصافى الذهب. كتب لويس جومش فيريرا[٦٨]: "هناك يعملون، وهناك يأكلون، وهناك عادةً ينامون؛ ولما كان يتصبّبون عرقا حين يعملون، وأرجلهم دائما على الأرض الباردة، على الأحجار أو فى الماء، وحين يستريحون أو يأكلون، تنغلق مساماتهم ويتجمدون بحيث يكونون عرضةً لكثير من الأمراض الخطيرة، مثل الأمراض الحادة للجنب، والسكته، والرعشة، والشلل والالتهاب الرئوى، وكثير غيرها". كان المرض بركةً من السماء تعجل بالموت. وكان ضباط العصا capitáes do mato فى ميناش جيرايش يتقاضون مكافآت ذهبية مقابل الرؤوس المقطوعة للعبيد الهاربين.

كان يطلق على العبيد اسم "قطع جزر الهند" حين يقاسون، ويوزنون، ويحملون على السفن فى لواندا؛ ومن يبقونَ على قيد الحياة بعد عبور المحيط، يتحولون فى البرازيل إلى "أيدى وأقدام" السيد الأبيض. كانت أنجولا تصدّر العبيد وسن الفيل مقابل الثياب، والمشروبات، والأسلحة النارية؛ لكن أصحاب مناجم أورو بريتو كانوا يفضلون الزنوج القادمين من ساحل ويدا Whydah الصغير، على شاطئ غينيا، لأنهم كانوا أنشط، ويتحملون لفترة أكثر قليلاً، ولديهم قوى سحرية لإكتشاف الذهب. وكان كل صاحب منجم يحتاج، بالإضافة إلى ذلك، إلى عشيقة سوداء على الأقل من ويدا حتى يحالفه الحظ فى الاستكشافات[٦٩]. ولم يزد انفجار الذهب استيراد العبيد فحسب، بل إنه كذلك امتص جزءاً كبيراً من اليد العاملة السوداء المشغولة فى مزارع السكر والتبغ فى أقاليم البرازيل الأخرى، بحيث بقيت دون يد عاملة. وقد حظر مرسوم لعام ١٧١١ بيع العبيد الذين يعملون فى أعمال زراعية بهدف خدمة المناجم، باستثناء أولئك الذين يبدون "شذوذاً فى الطبع". كان جوع أورو بريتو للعبيد لايشبع. وكان الزنوج يموتون بسرعة، وفى أحوال استثنائية فقط كانوا يتحملون سبع سنوات متصلة من العمل. حقاً: قبل عبور الأطلنطى، كان البرتغاليون يعمّدونهم جميعاً. وفى البرازيل، كانوا ملزمين بحضور القدّاس، رغم أنه كان من المحظور عليهم دخول المحراب أو الجلوس على المقاعد.

وعند منتصف القرن الثامن عشر كان كثير من أصحاب المناجم قد إنتقلوا إلى سيرًا دو فريو Serra do Frio بحثاً عن الماس. كان قد إتضح أن الأحجار البللورية التى كان الباحثون عن الذهب يلقونها جانباً وهم يستكشفون مجارى الأنهار هى قطع ماس.

قدمت ميناش جيرايش ذهباً وماساً متزاوجين، وبنسب متساوية، وتحول معسكر تيجوكو المزدهر إلى مركز مقاطعة الماس وفيه، مثلما فى أورو بريتو، أخذ الأغنياء يلبسون وفق آخر موضة أوربية ويجلبون من ساحل المحيط الآخر الملابس، والأسلحة، وأفخر الأثاث: إنها أوقات الدوار والإسراف. وهناك عبدة خلاسية، هى فرنسيسكا داسيلفا، نالت حريتها بالتحول إلى عشيقة المليونير جواو فرناندس دى أوليفيرا، الحاكم الفعلى لتيجوكو، أما هى، التى كانت قبيحة وكان لديها طفلين، فقد تحولت إلى السيدة الآمرة[٧٠]. laxica que manda. ولما كانت لم تر البحر أبداً وأرادت أن يكون بقربها، صنع لها فارسها بحيرة صناعية ضخمة وضع فيها سفينة بطاقم بحارة وكل ما يلزم. وفوق سفوح جبل ساو فرنسيسكو شيّد لها قلعة، بها حديقة تضم النباتات الغريبة والشلالات الصناعية؛ وعلى شرفها كان يقيم الولائم الباذخة التى تسيل فيها أفضل الخمور، ويدور الرقص الليلى الذى لاينتهى وتقدم العروض المسرحية وحفلات الموسيقى. وحتى فى عام ١٨١٨، إحتلفت تيجوكو إحتفالاً رائعاً بزواج أمير البلاط البرتغالى. وقبل ذلك بعشر سنوات، دهش جون مو John Mawe، وهو إنجليزى زار أورو بريتو، لفقرها، فقد وجد منازل خاوية وبلاقيمة، وعليها لافتات تعرضها للبيع عبثاً، وأكل طعاماً قذراً وقليلاً[٧١]. وقبل ذلك بزمن كانت قد إنفجرت حركة التمرد التى تصادفت مع الأزمة فى مقاطعة الذهب. كان جوزيه جواكيم دا سيلفا اكسافيير José Joaquim da Silva Xavier، الشهير بلقب "تيرادنتس" Tiradentes، قد أُعدم ومُزّق إرباً، وكان المناضلون الآخرون من أجل الاستقلال قد رحلوا من أورو بريتو إلى السجن أو إلى المنفى.

■ مساهمة ذهب البرازيل فى تقدم إنجلترا

بدأ تدفق الذهب فى نفس لحظة توقيع البرتغال لإتفاقية ميثوين Methuen، مع إنجلترا، عام ١٧٠٣. وكانت هذه الاتفاقية بتتويجاً لسلسلة طويلة من الامتيازات حققها التجار الإنجليز فى البرتغال. ففى مقابل بعض الأفضليات للأنبذة البرتغالية فى السوق الانجليزية، فتحت البرتغال سوقها، وسوق مستعمراتها، أمام المصنوعات البريطانية. وبإعتبار عدم التكافؤ فى التطوّر الصناعى الذى كان قائماً عندئذ بالفعل، فإن هذا الإجراء كان يتضمن الحكم بالدمار على المصنوعات المحلية. ولم يكن ثمن المنسوجات الانجليزية يدفع بالخمور، بل بالذهب، بذهب البرازيل، وفى الطريق، بقيت معامل النسيج

البرتغالية مشلولة. ولم تكتف البرتغال بقتل صناعتها الخاصة وهى لاتزال فى البيضة، لكنها، بشكل عرضى، صفّت كذلك جراثيم أى نوع من التطور الصناعى فى البرازيل. فقط حظرت المملكة تشغيل أى معامل لتكرير السكر عام ١٧١٥؛ وفى عام ١٧٢٩، إعتبرت شق طرق مواصلات جديدة فى إقليم المناجم جريمة؛ وفى عام ١٧٨٥، أمرت بحرق معامل الغزل والنسيج البرازيلية.

أما إنجلترا وهولندا، بطلتا تهريب الذهب والعبيد، اللتان جمعتا ثروات ضخمة من التجارة غير المشروعة فى اللحم الأسود، فقد إقتنصتا بطرق غير مشروعة، ما يُقدّر بأكثر من نصف الذهب الخاص بضريبة "الخُمس الملكى" التى يجب أن يتلقاها التاج البرتغالى من البرازيل. لكن إنجلترا لم تكتف باللجوء إلى التجارة الممنوعة لتحويل إتجاه الذهب البرازيلى إلى لندن. فقد جربت الطرق المشروعة كذلك. فقد إنطوى إزدهار الذهب، الذى تضمن تدفق أعداد كبيرة من السكان البرتغاليين إلى ميناش جيرايش، على تنشيط حاد للطلب الاستعمارى على المنتجات الصناعية وأتاح، فى نفس الوقت، وسائل دفع ثمنها. وبنفس الطريقة التى كانت فضة بوتوسى تتوقف بها على أرض إسبانيا، كان ذهب ميناش جيرايش يمر فقط بالبرتغال. وتحولت المتروبول إلى مجرد وسيط. وفى عام ١٧٥٥، حاول المركيز دى بومبال، رئيس الوزراء البرتغالى، إحياء سياسة حماية، لكن الوقت كان متأخراً: فاستنكر أن يكون الانجليز قد فتحوا البرتغال دون مضايقات الفتح، وأنهم يزودون البرتغال بثلثى إحتياجاتها وأن البريطانيين يمثلون مالكى كل التجارة البرتغالية. لم تكن البرتغال تنتج شيئاً من الناحية العملية وأصبحت ثروة الذهب خرافية إذ أنه حتى العبيد السود الذين يعملون فى مناجم المستعمرة كانوا يرتدون ملابس يقدمها الانجليز[٧٢].

وقد أوضح سلسو فورتادو Celso Furtado[٧٣] أن انجلترا، التى كانت تنتهج سياسة واضحة بشأن التطور الصناعى، قد استخدمت ذهب البرازيل لدفع ثمن واردات أساسية من بلدان أخرى واستطاعت تركيز استثماراتها فى القطاع التصنيعى. وقد أمكن تطبيق تجديدات تكنولوجية سريعة وفعالة بفضل هذه الأريحية التاريخية للبرتغال. إنتقل المركز المصرفى لأوربا من أمستردام إلى لندن. وحسب المصادر البريطانية، فإن شحنات الذهب البرازيلى إلى لندن بلغت خمسين ألف رطل أسبوعياً فى بعض الفترات. وبدون هذا التراكم الهائل لإحتياطيات المعدن، لم تكن إنجلترا لتستطيع مواجهة نابليون، فيما بعد.

لم يتبق، فوق التربة البرازيلية، شئ من الدافع الدينامى للذهب، باستثناء المعابد والأعمال الفنية. وفى أواخر القرن الثامن عشر، ورغم أن الماس لم يكن قد نضب بعد، كانت البلاد منهكة. فلم يكن دخل الفرد بالنسبة للثلاثة ملايين برازيلى يتعدى خمسين دولاراً سنوياً بالقدرة الشرائية الراهنة، وفق حسابات فورتادو، وكان هذا أدنى مستوى خلال كل الفترة الاستعمارية. سقطت ميناش جيرايش بغته فى هاوية التحلل والخراب. وبشكل لايُصدَّق، يعرب كاتب برازيلى عن الاعتراف بالجميل ويصر على أن رأس المال الانجليزى الذى خرج من ميناش جيرايش "خدم الشبكة المصرفية الضخمة التى حبّذت التجارة بين الأمم وجعلت من الممكن رفع مستوى معيشة الشعوب القادرة على التقدم[٧٤]". وبعد أن حكم عليها بصورة قاسية بالفقر لصالح تقدم الغير، ظلت الشعوب "غير القادرة" معزولة ووجب عليها أن تكتفى بانتزاع غذائها من الأراضى الفقيرة التى تم استنزافها من المعادن والأحجار الكريمة. إحتلت زراعة الكفاف محل الإقتصاد التعدينى[٧٥]. وفى أيامنا، فإن حقول ميناش جيرايش، مثل حقول الشمال الشرقى، ممالك للاتيفونديا ولـ "كولونيلات الضياع"، وأوكار راكدة للتأخر. وبيع عمال المناجم إلى الضياع الضخمة للولايات أخرى شائع مثل تجارة العبيد التى يعانى منها أهالى الشمال الشرقى. وقد تجول فرنكلين دى أوليفيرا فى ميناش جيرايش منذ زمن قريب. فوجد منازل متهاوية من الخشب، وقرى دون ماء أو كهرباء، وعاهرات متوسط عمرهن ثلاثة عشر عاماً فى الطريق المؤدى إلى وادى چيكيتنيونيا، ومجانين وجوعى على جوانب الطرق. ويقص كل هذا فى كتابة الحديث بعنوان Atragédia da renovacáo brasileira. وقد قال هنرى جورسيكس Henri Gorceix، عن حق، أن ميناش جيرايش لها قلب من ذهب فى صدر من حديد[٧٦]، لكن تصدير رابع أكسيد الحديد الرائع منها يجرى، فى أيامنا، لحساب شركتى هانا ماينينج كومبانى .Hanna Mining Co وبيتلهم ستيل Bethlehem Steel، المتحدتان لهذا الغرض: وقد سلّمت المناجم عام ١٩٦٤، فى ختام حكاية شريرة. والحديد، فى الأيدى الأجنبية، لن يخلّف أكثر مما خلّفه الذهب.

تفجرّ الموهبة فقط هو الذى بقى كتذكار لدوار الذهب، إذا أغفلنا ثقوب الحفائر والمدن الصغيرة المهجورة. كذلك لم تستطع البرتغال أن تنقذ قوة أخرى سوى الثورة الجمالية. ودير مافرا Mafra، فخر الدوم جواو الخامس، قد أخرج البرتغال من الأنحطاط الفنى: فأبراجه ذات السبعة وثلاثين جرساً، وأنيته وشمعداناته المصنوعة من الذهب الخالص، لازالت شاهدة على ذهب ميناش جيرايش. أما كنائس ميناش التى نهبت

بدرجة كبيرة حتى أن من النادر أن نجد أشياءً مقدسة، ذات حجم يمكن نقله، قد بقيت فيها، فإنها ستبقى دوماً، شامخة فوق الأطلال الاستعمارية، بأعمالها الباروكية العظيمة، وواجهاتها ومنابرها، ولوحاتها، ومنصّاتها، وشخوصها البشرية، التى صممها، وقطعها، ونحتها، أنطونيو فرنسيسكو لشبوا Antônio Francisco Lisboa، الشهير باسم "أليجادينيو"، و "توليديتو" "Tullidito" و "Aleijadinho"، الأبن العبقرى لإحدى العبيد من أحد الحرفيين. كان القرن الثامن عشر يحتضر حين بدأ "الأليجادينيو" فى تشكيل مجموعة من الشخوص المقدسة الضخمة من الحجر، عند أقدام محراب يوم جيسوس دى ماتوسينيوس Bom Jesus de Matosinhos، فى كونجانياس دو كامبو Congonhas do Campo. كانت نشوة الذهب من شئون الماضى، وسميت الأعمال باسم **الأنبياء**، لكن لم تعد هناك أية أمجاد للنبوة. كانت الخيلاء والبهجة قد إختفيا تماماً ولم يبق مكان لأى أمل. لكن الشهادة الأخيرة، العظيمة مثل موكب دفن لحضارة الذهب العابرة تلك، التى ولدت لتموت، قد تركها للقرون التالية أعظم فنانى البرازيل موهبة فى كل تاريخها. وقد أنجز "الأليجادينيو" عمله العظيم، وقد شوهه الجذام وأكل جسده، وهو يقبض على الإزميل والمطرقة بيدين دون أصابع ويزحف على ركبتيه، كل فجر، متوجهاً إلى محترفه.

وتؤكد الأسطورة أنه فى كنيسة نوسا سنيورا داس مرسيش إى ميزيريكورديا Nossa Senhora des Mercêse Misericordia، فى ميناش جيرايش، مازال أصحاب المناجم الميتون يحتفلون بالقداس فى الليالى الباردة الممطرة. وحين يعود الكاهن، رافعاً يديه عند المحراب الكبير، تظهر عظام وجهة.



الهوامش

(1) J. H. Elliott, ***La Espána imperial***, Barcelona, 1955.

(2) L. Capitan y Henri Loin, ***El trabajo en América, antes y después de Colón***, Buenos Aires, 1948.

(3) Daniel Vidart, ***Ideología y rea lidad de América***, Montevideo, 1968.

(4) Luis Nicolau D'Olwer, ***Cronistas de las culturas precolombinas***, México, 1963.

وقد كرس المحامى أنطونيو دى ليون بينيلو مجلدين كاملين لتوضيح أن جنة عدن تقع فى أمريكا. ففى كتاب ***El Paraíso en el Nuevo Mundo*** **الفردوس فى العالم الجديد** (مدريد، ١٦٥٦)، أدرج خريطة لأمريكا الجنوبية يمكن أن تشاهد، فى مركزها، جنة عدن يرويها نهر الأمازون، ونهر الريودى لابلاتا، ونهر الأورينوكو، ونهر المجدلينا. وكانت الفاكهة المحرمة هى الموز. وأوضحت الخريطة الموضع الدقيق الذى أبحرت منه سفينة نوح، حين حدث الطوفان العظيم.

(5) J. M. Ots Capdequí, ***El Estado espànol en las Indias***, México, 1941.

(6) Earl J. Hamilton, ***American Treasure and the Price Revolution in Spain*** (1501 - 1650), MAssachusetts, 1934.

(7) Gonzalo Fernández de Oviedo, ***Historia generaly natural de las Indias***, Madrid, 1959.

وقد أصبح هذا التفسير مدرسة. ويدهشنى أن أقرأ فى آخر كتب التقنى الفرنسى رينيه ديمون René Dumon، وهو: **كوبا، هل هى إشتراكية؟** باريس، ١٩٧٠، مايلى: "لم تتم إبادة الهنود تماماً. فچيناتهم مازالت باقية فى كروموسومات الكوبيين. كانوا من العزوف عن الجهد الذى يتطلبه العمل المتواصل، حتى أن بعضهم إنتحروا قبل أن يقبلوا عمل السخرة ...".

(8) Guillermo Vàzquez Franco, ***La Conquista justificada***, Montevideo, 1968, y J. H. Elliott, op. cit.

(٩) طبقاً لما ذكره الرواة الهنود للأب برناردينودى ساهاجون Bernardino de Sahagún فى المخطوط الفلورنسى ***Códice Florentino***. إنظر

Miguel León-Portilla, ***Visión de los vencidos***, México, 1967.

(١٠) أثارت هذه المصادفات المذهلة الافتراض بأن آلهة الديانات الهندية كانوا فى الحقيقة أوربيين وصلوا إلى هذه البلاد قبل كولومبس بكثير. إنظر

Rafael Pineda Yañez, ***La isla y colón***, Buenos Aires, 1955.

(11) Jacquetta Hawkes, ***Prehistoria, en la Historia de la Humanidad***, de la UNESCO, Buenos Aires, 1966.

(12) Miguel Leon-Portilla, ***El revereso de la conquista, Relationes aztecas, mayas e incas***, México, 1964.

(13) Mignel Leon-Portilla, op. cit.

(14) Gustavo Adolfo Otero, ***Vida Social en el coloniajo***, La Paz, 1958.

(١٥) مؤلفون مجهولون فى تلاتيلولكو Tlatelolco ورواة ساهاجون، وردت فى المؤلف المذكور آنفاً لميجيل ليون – پورتيا.

(16) Darcy Ribeiro, ***Las Américas y la civilización***, tomo I: La civilizacion occidental y nosotras. Los pueblos testimonio, Buenos Aires, 1969.

(17) Mignel León-Partilla, ***op. cit.***

(18) ***Ibid.***

(١٩) من أجل إعادة تصوير ذروة پوتوسى، راجع المؤلف شهادات شهود الماضى التاليين:

Pedro Vicente Cañete y Domínguez, Potosí colonial: guía histórica, geográfica, política, civil y legal del gobierno e intendencia de la provincia de Potosí, La Paz, 1939; Luis Capoche, Relación general de la Villa Imperial de Potosí, Madrid, 1959; y Nicolas de Martínez Arzanz y Vela, Historia de la Villa Imperial de Potosí, Buenos Aires 1943. Además, Las Crónicas potosinas, de Vicente G. Quesada, París, 1890, y La ciudad única, de Jaime Molins, Potosí, 1961.

(20) Earl J. Hamilton, ***op. cit.***

(21) *Ibid.*

(٢٢) أورده جوستابو أنولفو أوتيرو، فى العمل المذكور آنفاً.

(23) J. H., Elliott, ***op. cit.***, y Eart J. Hamilton, ***op. cit.***

(24) Roland Mousnier, ***Los siglos XVI y XVII***, volumen IV de ***la Historia general de las civilizaciones***, de Maurice Crouzet, Barcelona, 1967.

(25) J. Vicens Vives, director, ***Historia social y económica de Españay America***, Volúmenes II y III, Barcelona, 1957.

(26) Jorge Abelards Ramos, ***Historia de la nación latinoamericana***, Buenos Aires, 1968.

(27) J. H. Elliott, ***op. cit.***

(٢٨) ولم تنقرض السلالة بعد. إذ أفتح إحدى مجلات مدريد فى أواخر عام ١٩٦٩، لأقرأ: توفيت دونيا تيريسا برتران دى ليس إى بيدال جوروسكى إى تشيكو دى جوثمان، دوقة البوكيرك ومركيزة الكانييس والبالباس، وبيكيها أرملها دوق البوكيرك، الدون بلتران الونسو أوسوريو إى دييث دى ريبيرا مارتوس إى فيجيروا، مركيز الكانييس، والبالباس، وكادريتا، وكوّيار، وكوبيرا، ومونتاوس، وكونت فوينسالدانيا، وجراخال، وويلما، وليديسما، ولا تورّى، وبيانوبيادى كانييدو، وبيًا أومبروسا، عظيم إسبانيا ثلاث مرات.

(29) John Lynch, ***Administación colonial española***, Buenos Aires, 1963.

(30) Ernest Mandel, ***Tratado de economía marxista***, México, 1969.

(31) Ernest Mandel, ***La teoría marxista de la acumulación primitiva y la industrialización del Tercer Mundo***, revista Amaru, núm. 6, Lima, Abril-junio de 1968.

(32) Paul Baran, ***Economóa polítca del crecimiento***, México, 1959.

(33) Celso Furtado, ***La economía latinoamericana desde la conquísta ibérica hasta la revolución, cubana***, Santiago de Chile, 1969, y México, 1969.

(34) J. Beaujeau- Garnier, ***L'Amérique Latine***, París, 1949.

(35) Sergio Bagú, ***EConmía de la sociedad colonial***, Ensayo de histria comparada de América Latina, Buenos Aires, 1949.

(36) Alexander von Humboldt, ***Ensayo sobre el Reino de la nveva España***, México, 1944.

(37) Sergio Bagú, ***op. cit.***

(38) André Gunder Frank, ***Capitalism and Underdevelopment in Latin America***, Nueva York, 1967.

(39) Álvaro Alonso- Barba, ***Arte de los metales***, Potosí, 1967.

(40) Gustavo Adolfo Otero, ***op. cit.***

(41) Fernando Carmona, prólogo a Diego López Rosada, ***Historia y pensamiento econónico de México***, 1968.

(42) D. Joseph Ribera Bernárdez, Conde Santiago dela Laguna, Descripción breve de la muy noble y léal ciudad de Zacatecas, en Gabriel Salinas de la Torre, Testimonios de Zacatecas, México, 1946.

وعلاوة على هذا العمل وعلى مقال همبولت، راجع المؤلف:

Luis Chávez Orozco, ***Revolución industrial - Revolución politica***, Biblioteca del Obrero y Campesino, México, s. f.; Lucio Marmolejo, Efemérides ***guanajuatenses, o datos para formar la historia de la ciudad de Guanajuato, Guanajuato***, 1883; José María Luis Mora, ***México y sus revoluciones, México***, 1965; y para los datos de la actualidad, ***La economía del Estad de Zacatecas y La economía del Estado de Guanajuato***, de la serie de investigaciones del Sistema Bancos de Comercio, México, 1968.

(43) John Collier, ***The Indians of America***, Nueva York, 1947.

(44) Según Darcy Ribeiro, ***Op.Cit.***, Con datos de Henny F. Dobyns, Paul Thompson y otros.

(45) Emilio Romero, ***Historia económica del Perú***, Buenos Aires, 1949.

(46) Enrique Finot, ***Nueva historia de Bolivia***, Buenos Aires, 1946.

(47) Obras Citadas.

(48) Antonello Gerbi, ***La disputa del Nuevo Mundo***, México, 1960, y Daniel Vidart, ***Op. Cit.***

(49) Lewis Hanke, ***Estudios sobre Fray Bartolomé de Las Casas y sobre la Lucha Por la Justicia en la Conquista española de América***, Caracas, 1968.

(50) J. M. Ots Capdequf, ***Op. Cit.***

(٥١) أحد أعضاء الإدارة الأمريكية الشمالية للحفاظ على التربة، حسب ما أورده جون كولير John Collier فى العمل المذكور آنفاً.

(52) Daniel Valcárcel, ***la rebelión de Túpac Amaru***, México, 1947.

(53) Alexander von Humboldt, ***Ansichten der Natur***, tomo II. Citado en Adolf Meyer - Abich y otros, Alejandro de Humboldt (1769 - 1969), Bad Godesberg, 1969.

(54) Tulio Halperin Donghi, ***Historia contemporánea de América Latina***, Madrid, 1969.

(55) Ernest Gruening, ***Mexico and its Heritage***, Nueva York, 1928.

(56) Alonso Aguilar Monteverde, ***Dialéctica de la econamia mexicana***, México, 1968.

(٥٧) كان آخر هنود التشاروا الذين بقوا على قيد الحياة، حوالى عام ١٨٣٢، بالاستيلاء على الثيران فى الريف البدائى فى شمال أوروجواى، قد عانوا من خيانة الرئيس فركتووسو ريبيرا. فبعد أن إبتعدوا عن الأدغال التى كانت تحميهم، مترجلين ونازعى السلاح بفعل وعود الصداقة الكاذبة، سحقوا فى موضع يسمى فم النمر. يحكى الكاتب إدواردو أثيبيدو دياّت (صحيفة لا إيبوكا، عدد ١٩ أغسطس ١٨٩٠) فيقول : « دق النفير نوبة قطع الرؤوس. واستدارت القبيلة يائسة، وأخذ فتيتهم الشجعان يسقطون الواحد تلو الآخر، مثل ثيران جريحة فى منبت الرقاب ». مات زعماء كثيرون. أما الهنود القلائل الذين استطاعوا كسر طرق النيران فقد انتقموا لأنفسهم بعد وقت قصير.

فحين كان يطاردهم شقيق ريبيرا، نصبوا له كميناً ومزقوه بالرماح مع جنوده. وجعل الزعيم سيبى رجاله «يكسون ببعض أعصاب الجثة طرف رمحه».

وفى الپاتاجونيا الأرچنتينية، فى أواخر القرن، كان الجنود يحصلون مكافآتهم عند تقديم كل خصيتين. وتسهل رواية سادة الأرض Losduénos de la tierra لدابيد بينياس David Vi´nas (بونيوس آيرس، ١٩٥٩) بمذبحة الهنود :

" لأن القتل كان مثل اغتصاب شخص. شيئاً طيباً. وحتى شيئاً يروق المرء : فقد كان لابد من العدو، وبالإمكان الصراخ، ويعرق المرء وبعدها يحس بالجوع ... كانت الطلقات قد أخذت تتباعد. بالتاكيد لابد أن هناك جسداً مشنوقاً فى واحد من هذه الأعشاش. جسد هندى مائل إلى الخلف، وبقعة دامية بين الفخذين ... ".

(58) John Kenneth Turner, ***México bárbaro*** Mécico, 1967.

(59) Arturo Bonilla Sánchez, ***Unproblema que se agrava : la subocupación rural, en Neolatifundismo y explotación, De Emiliano Zapata a Anderson Clayton & Co.***, varios autores, México, 1968.

(60) René Dumont, ***Tierras Vivas***, Problemas dela reforma agraria en el mundo, México, 1963.

(61) Eduardo Galeano, ***Guatemala, País Ocupado***, México, 1967.

(٦٢) آمن هنود المايا – كيتشيه بإله واحد، ومارسوا الصيام، والتوبه، والامتناع، والاعتراف، آمنوا بالطوفان وبنهاية العالم : ولم تحمل إليهم المسيحية تجديدات كبيرة. وقد بدأ التحلّل الدينى مع الاستعمار. فلم تستوعب الديانه الكاثوليكية إلا بعض الجوانب السحرية والطوطمية من ديانه المايا، فى جهد عبثى من أجل إخضاع العقيدة الهندية لإيديولوچية الفاتحين. وفتح سحق الثقافة الأصلية المجال أمام التوفيق بين العقائد، وهكذا تبدو فى الوقت الحاضر، مثلاً، دلائل على الارتداد بشان التطور الذى تم تحقيقة : « السيد فولكان يحتاج لحماً بشرياً محمصاً جيداً ».

Carlos Guzmán Bockler y Jean - Loup Herbert, ***Guatemala : una interpretación histórico - social***, México, 1970.

(٦٣) كان رواد bandeiras [حرفياً حملة الراية] ساو پاولو جماعات جواله ذات تنظيم شبه عسكرى وقوة متباينة. وقد لعبت بعثاتهم داخل الغابات دوراً هاماً فى استعمار عمق البرازيل.

(64) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(65) Celso Furtado, ***Formación económica del Brasil.*** México, 1959.

(66) C. R. Boxer, ***The Golden Age Of Brazil*** (1695 - 1750), California, 1969.

(67) Augusto de Lima Júnior, ***Vila Rica de Ouro Preto***, Sitese Histórica e descritiva, Belo Horizonte, 1957.

(68) C. R. Boxer, ***Op. Cit.***

(69) C. R. Boxer, ***Op. Cit.***

– فى كوبا كانت تنسب للنساء العبيد صفات طبية. وحسب شهادة إستيبان مونتيخو، «كان ثمة نوع من المرض يصيب البيض. كان مرضاً فى الشرايين وفى أعضاء الذكورة. وكان يزول بالزنجيات. كان من يصيبه ينام مع زنجيه فيشفى. هكذا كانوا يشفون التو.»

Miguel Barnet, ***Biografía de un cimarrón***, Buenos Aires, 1968.

(70) Joaquim Felício dos Santas, ***Memórias do Distrito Diamantino***, Rio de Janeiro, 1956.

(71) Augusto de Lima Júnior, ***Op. Cit.***

(72) Allan K. Manchester, ***British Preeminence in Brazil : its Rise and Fall***, Chapel Hill, Carolina del Norte, 1933.

(73) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(74) Augusto de Lima Júnior, ***Op. Cit.***

– ويحس المؤلف ببهجة غامرة بسبب «توسع الامبريالية الاستعمارية، التى يصفها جهلة اليوم، بتاثير من سادتهم الموسكوفيين، بانها جريمة».

(75) Roberto G. Simonsen, ***Hisória económica do Brasil*** (1500 - 1820), Sáo Paulo, 1962.

(76) Eponina Ruas, ***Ouro Preto. Sua história, seus templose monumentos***, Río de Janeiro, 1950.

الملك سكر وملوك زراعيون آخرون

■ المزارع ، واللاتيفونديات ، والقَدَر

كان البحث عن الذهب والفضة هو ، بلاشك، المحّرك الأساسى للفتح، لكن كريستوفر كولومبس أحضر، فى رحلته الثانية، أول جذور قصب السكر، من جزر الكناريا، وزرعها فى الأراضى التى تمثل اليوم جمهورية الدومينيكان، وابتهج الادميرال، حين أورقت النباتات بسرعة، بعد أن زرعت [1]. كان السكر، الذى يزرع على نطاق ضيق فى صقلية، وفى جزر مادييرا والرأس الاخضر، ويشترى فى الشرق بأسعار مرتفعة، كان صنفاً مرغوباً فية من جانب الأوربيين حتى أنه كان يمثل جزءاً من الدوطة فى جهاز الملكات، كان يباع فى الصيدليات، ويوزن بالجرام [2]. وخلال ما يقل قليلاً عن ثلاثة قرون بدءاً من اكتشاف امريكا، لم يكن ثمة، بالنسبة للتجارة الأوربية، ناتج زراعى أهم من السكر المزروع فى تلك الأراضى، إمتدت مساحات القصب على طول المنطقة الساحلية الرطبة الدافئة فى شمال شرقى البرازيل، وامتدّت، فيما بعد، في جزر الكاريبي - باربادوس، وجمايكا، وهايتي والدومينيكان، وجوادلوب، وكوبا، وبويرتوريكو - كما أصبحت فيراكروث وساحل بيرو مواقع مناسبة لاستغلال «الذهب الابيض» على نطاق واسع. وأنت فيالق ضخمة من العبيد من افريقيا لتقدم للملك سكر، قوة العمل الكبيرة والمجانية التى يتطلبها : هذا الوقود البشرى من أجل الاحتراق، وخُرّبت الأراضى بسبب ذلك النبات الأنانى الذى غزا العالم الجديد وأحرق الغابات، وأرهق الخصوبة الطبيعية وقضى على الرواسب العضوية التى راكمتها التربة. ونتج عن دورة السكر، فى أمريكا اللاتينية، أشكال من الرفاهية قاتلة مثل تلك التى نشأت فى پوتوسى، وأورو بريتو ، وثاكاتيكاس، وجوانا خواتو نتيجة فورات الذهب والفضة؛ وفى نفس الوقت ، فقد دفعت بقوة حاسمة، مباشرة، أو غير مباشرة، التطور الصناعى لهولندا، وفرنسا، وانجلترا، والولايات المتحدة.

كانت المزرعة الكبيرة التى ولدت نتيجة الطلب على السكر فيما وراء المحيط، مشروعاً تحركه رغبة صاحبه فى الكسب وموضوعة فى خدمة السوق الذى أخذت أوربا تطورّه على نطاق عالمى، الا أنها، فى بنيتها الداخلية، كانت بعض سماتها السائدة إقطاعية، إذا أ خذنا فى الاعتبار أنها مكتفية بذاتها لدرجة كبيرة، ومن ناحية أخرى، كانت

تستخدم يداً عاملة من العبيد ، هكذا إمتزجت ثلاثة عصور تاريخية متمايزة – هى المركنتيلية والإقطاعية والعبودية – فى وحدة إقتصادية وإجتماعية واحدة، لكن السوق الدولية هى التى كانت فى مركز تشكيلة السلطة التى تكاملت فى نظام المزارع منذ وقت مبكر.

إن المزرعه الاستعمارية، الخاضعة للإحتياجات الاجنبية والمموّلة من الخارج ، فى حالات كثيرة، تؤدى فى خط مستقيم الى لاتيفونديا عصرنا، وهذا واحد من الاختناقات التى تخنق التطور الاقتصادى لامريكا اللاتينية وأحد العوامل الاساسية فى هامشية وفقر الجماهير الامريكية اللاتينية. واللاتيفونديا الحالية، التى تعمل بقدر يكفى لمضاعفة عائدات اليد العاملة، تتمتع بإحتياطيات واسعة من الايدى العاملة الرخيصة، ولم تعد تعتمد على إستيراد العبيد الافارقة ولا على «الإقطاعة» الهندية، اذ يكفى اللاتيفونديا دفع أجور مياومة تبعث على السخرية، أو اعطاء مقابل عينى للخدمات، أو العمل المجانى مقابل حق العامل فى الانتفاع بقطعة أرض صغيرة؛ أنها تتغذى على انتشار قطع الارض الصغيرة ، الناتجة عن توسعها ذاته ، وعلى الهجرة الداخلية الدائمة لفيالق العمال التى تنتقل ، بفعل الجوع، على ايقاع الحصادات المتتالية.

لقد عملت البنية المختلطة للمزرعه، وكذلك تعمل اللاتيفونديا، وكأنها مصفاه لتبديد الثروات الطبيعية، اذ أنه بالتكامل فى السوق العالمية شهدت كل منطقة دورةً دينامية؛ ثم، وبفعل منافسة منتجات بديلة أخرى، أو بفعل انهاك التربة، أو بفعل ظهور مناطق أخرى ذات ظروف افضل ، يأتى التدهور. وزرع الفقر، وإقتصاد الكفاف، والركود هى الثمن الذى يتقاضاه، بمضى السنين، الدافع الإنتاجي الأصلي. فقد كان الشمال الشرقي أغني مناطق البرازيل، وهو اليوم افقرها؛ وفى باربادوس وهايتى تسكن أعشاش نمل بشرية محكوم عليها بالبؤس، وقد تحول السكر الى اهم مفاتيح سيطرة الولايات المتحدة على كوبا، وثمن ذلك هو الزراعه الاحادية و الافقار الذى لا يرحم للتربة. وليس السكر فقط. فهذا ايضاً هو تاريخ الكاكاو، الذى ولدّ ثروة أوليجاركية كاراكاس؛ والقطن فى مارانياو، ذى البهاء المباغت والسقوط المباغت. تاريخ مزارع المطاط فى الامازون، التى تحولت إلى مدافن لعمال الشمال الشرقى البرازيلى الذين جُندّوا مقابل دريهمات؛ تاريخ غابات الكبراتشو المُدمَّرة فى شمال الارجنتين وفى الباراجواى، تاريخ ضياع البيتا، فى يوكاتان، حيث أرسل هنود الياكى ليلاقوا الابادة. وهو ايضاً تاريخ البن الذى يتقدم مخلفاً وراءة صحراوات ، وتاريخ مزارع الفاكهة فى البرازيل، وفى كولومبيا، وفى

الاكوادور، وفى بلدان امريكا الوسطى السيئة الحظ. بقليل من الحظ أو بكثير منه، أخذ كل منتج يتحول الى قدر، إلى قدر عابر فى أحيان كثيرة، للبلدان، والاقاليم، والبشر. وقد إتبعت المناطق المنتجة للثروات التعدينية نفس المسارات، بالتأكيد. فبقدر ما يكون أحد المنتجات مطلوباً بدرجة أكبر فى السوق الدولية ، بقدر ما يزيد الشقاء الذى يجلبه للشعب الامريكى اللاتينى الذى يغلقه بتضحيته. أما المنطقة الاقل تضرراً من هذا القانون الحديدى، وهى منطقة الريودى لا بلاتا، التى القت فى تيارات السوق الدولية الجلود ثم اللحوم والصوف، فلم تستطع، رغم ذلك، أن تفلت من قفص التخلف.

■ إغتيال التربة فى الشمال الشرقى البرازيلى

كانت المستعمرات الاسبانية تقدم المعادن، فى المحل الاول، فقد اكتشفت فيها الكنوز والمناجم فى وقت مبكر جداً. وكان السكر، الذى يحتل المرتبة الثانية، يزرع فى سانتو دومينجو، ثم فى ڤيراكروث، وبعد ذلك فى ساحل البيرو وفى كوبا. وبالمقابل، كانت البرازيل هى اكبر منتج عالمى للسكر حتى أواسط القرن السابع عشر. وفى نفس الوقت، كانت مستعمرة البرتغال الامريكية هى السوق الاساسية للعبيد؛ فقد أبيدت اليد العاملة الهندية النادرة، بسرعة فى الاعمال الاجبارية، بينما يتطلب السكر فيالق ضخمة من الايدى العاملة لتنظيف واعداد الارض، ولزراعة، وحصد ونقل القصب، ثم أخيراً، عصره وتنقيته. وقد أزدهر المجتمع الاستعمارى البرازيلى، الذى يعد نتاجاً جانبياً للسكر، فى باهيا وبرنامبوكو Bernambuco ، حتى نقل اكتشاف الذهب نواة هذا المجتمع المركزية الى ميناش چيرايش.

منح التاج البرتغالى حق الانتفاع بالاراضى الى كبار ملاك الاراضى الاوائل فى البرازيل. فقد كان على مهمة الفتح أن تسير متوازية مع تنظيم الانتاج. تلقى إثنى عشر «نقيباً» فقط، بمقتضى خطاب منح، كل أراضى المستعمرة الشاسعه التى لم تكتشف[٣]. ليستغلوها فى خدمة الملك، إلا أن رؤوس الاموال الهولندية هى التى موّلت، لدرجة كبيرة، هذا الاستثمار الذى اصبح، فى نهاية المطاف هولندياً أكثر من كونه برتغالياً. ولم تكتف الشركات الهولندية بالمشاركة فى أقامة المعامل وفى استيراد العبيد؛ بل أنها، علاوة على ذلك، كانت تحصل على السكر الخام فى لشبونه، وتكرره فتحصل بذلك على أرباح بلغت ثلث قيمة المنتج [٤]. وتبيعه فى أوربا. وفى عام ١٦٣٠، غزت شركة

الهند الغربية الهولندية وفتحت الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل، حتى تتولى السيطرة المباشرة على المنتج. وكان من الضروري مضاعفة مصادر السكر، من أجل مضاعفه الارباح، ولذا قدمت الشركة للأنجليز في جزيرة باربادوس كل التسهيلات من أجل بدء الزراعه على نطاق واسع في جزر الأنتيل. جلبت الى البرازيل مستوطنين من الكاريبي حتى يكتسبوا، هناك في مستعمراتهم الجديدة، الخبرات التقنية اللازمه والقدرة على التنظيم. وحين طُرد الهولنديون أخيراً من الشمال الشرقي البرازيلي، في عام ١٦٥٤، كانوا قد وضعوا الأسس التي تمكّن باربادوس من الإندفاع في منافسة حامية ومدمرة. كانوا قد نقلوا زنوجاً وحذور قصب، وكانوا قد أقاموا معامل وزودوها بكل المستلزمات. وانخفضت الصادرات البرازيلية بعنف الى النصف، وانخفضت الى النصف اسعار السكر عند نهايات القرن السابع عشر، وفي هذه الاثناء، وخلال عقدين من الزمن، تضاعف عدد سكان باربادوس السود عشر مرات. كانت جزر الانتيل أقرب الى السوق الاوربية، وقدمت باربادوس أراض لم تنُهك بعد، وكانت تنتج بمستوى تقني أرقى. وكانت الاراضي البرازيلية قد أنهكت، وكان المدى الكبير لتمردات العبيد في البرازيل وظهور الذهب في الجنوب، الذي انتزع الايدي العاملة من المزارع، كاناً كذلك قد عجّلا بالازمة في الشمال الشرقي المنتج للسكر. وكانت أزمة حاسمة. ومازالت تمتد، زاحفة بشكل مؤلم من قرن الى قرن، حتى أيامنا.

كان السكر قد دمّر الشمال الشرقي. كان الشريط الساحلي الرطب، الذي تروية الامطار جيداً، يتمتع بتربة ذات خصوبة عالية، وغنية بالرواسب العضوية والاملاح المعدنية، وتغطيها الغابات من باهيا وحتى شيارا Cear'a . هذا الاقليم نو الغابات الاستوائية تحوّل، كما يقول جوزويه دي كاسترو، إلى اقليم من السافانا [٥]. هذا الاقليم الذي خلق طبيعياً لينتج الغذاء، أصبح اقليماً للجوع. حيث كان كل شئ ينبت بوفرة طاغية، خلفت لاتيفونديا السكر، المدمرة والكاسحة، صخوراً جدباء، وأراض مكنوسة، وتربة متآكلة. في البداية، كانت قد اقيمت مزارع للبرتقال والمانجو، «تركت لمصيرها وتقلصت الى حدائق صغيرة تحيط بمنزل مالك المعمل، مخصصة تماماً لاسرة المزارع الابيض» [٦]. كانت الحرائق التي تفسح الاراضي لزراعات القصب. تدمّر النباتات وتدمّر معها الكائنات الحية؛ فقد اختفت الغزلان، والدببة، وحيوانات التابير* والارانب،

* التابير : حيوان أمريكي يشبه الدب إلا أن سيقانه طويله ورأسه كبير وله خطم قصير. ذيله بالغ القصر وجسمه مغطي بالشعر القصير. يعيش في الغابات شبه الاستوائية ويجيد السباحة ويأكل النباتات .

وحيوان الباكا*، وحيوان التاتوه**. تمت التضحية بالكساء النباتي، بالزرع وبالحيوانات، على مذبح الزراعه الاحادية لقصب السكر. وسرعان ما أنهك التربة الانتاج الكثيف.

وفى أواخر القرن السادس عشر، كان فى البرازيل ما لايقل عن ١٢٠ معملاً، يمثلون رأس مال يناهز المليونين من الجنيهات، لكن اصحابها، الذين كانوا يملكون أفضل الاراضى، لم يكونوا يزرعون مواداً غذائية، بل كانوا يستوردونها، كما يستوردون تشكيلة واسعة من الأشياء الترفيّة، تأتى من وراء المحيط، مع العبيد وأكياس الملح. كانت الوفرة والرفاهية، كما هى العادة، مناظرتان لبؤس أغلبية السكان، التى كانت تعيش فى حالة مزمنه من سوء التغذية. إنتقلت تربية الماشية الى الصحراوات الداخلية، بعيداً عن شريط الساحل الرطب: أما السرتون Sertao ، فكان، برأسين من الماشية لكل كيلو متر مربع، يقدم (ومازال يقدم) اللحوم الصلبة عديمة المذاق، والنادرة دائماً.

من تلك العصور الاستعمارية ولدت العادة ، التى مازالت سارية، فى أكل الطين. إن نقص الحديد يولد فقر الدم؛ وتدفع الغريزة الاطفال فى الشمال الشرقى الى التعويض بالطين عن الاملاح التى لايجدونها فى غذائهم المعتاد ، الذى يتلخص فى دقيق المنيهوت ، والفاصوليا ، و اللحم القديد اذا واتاهم الحظ. وقديماً ، كان الاطفال الذين يمارسون هذه «الرذيلة الافريقية » يعاقبون بأن توضع على أفواههم كمامة أو بأن يعلّقوا فى سلة من الخوص على إرتفاع كبير من الارض (٧).

إن الشمال الشرقى البرازيلى ، فى الوقت الحاضر ، هو الاقليم الاكثر تخلفاً فى نصف الكرة الغربى (٨). وبوصفة معسكر اعتقال ضخم لثلاثين مليون شخص ، فإنه يعانى اليوم من تركة الزراعة الاحادية للسكر. بينما نبتت من أراضيه التجارة الاكثر ربحاً للاقتصاد الزراعى الاستعمارى فى امريكا اللاتينية . واليوم، نجد أن أقل من خمس المنطقة الرطبة فى برنامبوكو مخصصة لزراعة قصب السكر، بينما لا يستخدم الباقى فى أى شئ (٩): وأصحاب معامل التكرير المركزية الضخمة، الذين هم أكبر زارعى القصب، يسمحون لانفسهم بترف التبديد هذا، بإبقائهم لايتفونديا تهم الشاسعه غير

---

* الهاكا : حيوان بحجم الكلب، ذو ذيل وسيقان بالغة القصر، شعره غزير وضارب للحمرة واذناه صغيرتان ومستديرتان.

** التاتوه : أحد فصائل المدرّع : لرأسه وجسمه صفائح عظمية صغيرة مثل الدرع يستطيع أن ينكمش فيها إذا هوجم - م.

منتجة. وليست المناطق المجدبة وشبه المجدبة فى داخل الشمال الشرقى هى التى يأكل فيها الناس بشكل أسوأ، كما يعتقد خطأ، فالسرتون، صحراء الاحجار والشجيرات المتفرقة، والخضرة النادرة، يعانى من المجاعات الدورية : تضرب شمس الجفاف الحارقة الارض وتحولها الى مشهد من أرض القمر؛ وتجبر الناس على الهجرة وتبذر جوانب الطرق بصلبان الموتى، لكن الشريط الساحلى الرطب هو الذى يعانى من المجاعات الوبائية ، فهناك حيث الوفرة اكثر ما تكون وفرةً، نجد أن الشقاء ، فى أرض المتناقضات هذه، أكثر مايكون الشقاء: الاقليم الذى اصطفته الطبيعة لينتج كل الاغذية، ينكرها جميعاً : ومازال الشريط الساحلى يُعرف، وبالسخرية اللغة، باسم Zona da Mata، أى « منطقة الغابة » تكريماً للماضى البعيد والبقايا البائسة للغابات المتبقية من قرون السكر. ومازالت لا يتفوقيات انتاج السكر، بنية التبديد هذه، مستمرة، مما يجبر على جلب الاغذية من مناطق أخرى ، وخصوصاً من اقليم الوسط – الجنوبى للبلاد، بأسعار متزايدة .

وتكاليف المعيشة فى ريسيف هى أعلى تكاليف معيشة فى البرازيل، وتفوق معدلها فى ريودى جانيرو. والفاصوليا أغلى فى الشمال الشرقى منها فى إيبانيما Ipanema البلاج الفاخر على خليج كاريوكا، ونصف كيلو جرام من دقيق المنيهوت يساوى الاجر اليومى لعامل بالغ فى إحدى مزارع السكر، مقابل يوم عمل من شروق الشمس إلى غروبها : وإذا احتج العامل، فإن رئيس العمال يأمر بإحضار النجار ليأخذ مقاسات جسمه. وبالنسبة للملاك أو مديريهم ، مازال سارياً، فى مناطق واسعة، حق «الليلة الأولى» لكل فتاه. وثلث سكان ريسيف يحيا على هامش الحياه فى عشش الحضيض : وفى أحد الاحياء، وهو كازا أماريلا Casa Amarela ، يموت اكثر من نصف الاطفال الذين يولدون قبل أن يبلغوا عاماً من العمر(١٠). ودعارة الاطفال، لطفلات فى العاشرة أو الثانية عشرة يبيعهن آباؤهم، منتشرة فى مدن الشمال الشرقى. واجر يوم العمل فى بعض المزارع يقل عن أجور الهند المنخفضة. وقد أكد تقدير لمنظمة الاغذية والزراعة، وهى أحدى منظمات الامم المتحدة، فى عام ١٩٥٧، أنه فى ضاحية ڤيتوريا، بالقرب من ريسيف، يسبب نقص البروتينات «فى الاطفال فقداناً للوزن اكثر بنسبة ٤٠٪ مما يلاحظ عموماً فى أفريقيا». وفى عديد من المزارع ما زالت توجد السجون الخاصة، «لكن المسئولين عن جرائم الاغتيال بسبب سوء التغذية – كما يقول رينيه ديمون – لا يسجنون فيها، لانهم من يملكون المفاتيح»(١١).

وتنتج برنامبوكو الان أقل من نصف السكر الذى تنتجة ولاية ساو پاولو ، وبمحصول أقل لكل هكتار؛ ورغم ذلك ، تحيا برنامبوكو من انتاج السكر ويحيا علية سكانها المتركزون فى المنطقة الرطبة، بينما تضم ولاية ساو پاولو أقوى مركز صناعى فى أمريكا اللاتينية. فى الشمال الشرقى نجد أنه حتى التقدم ليس تقدمياً ، لأنه حتى التقدم فى أيدى قلة من الملاك. وغذاء الاقليات يتحول الى جوع الاغلبيات. ومنذ عام ١٨٧٠ ، جرى تحديث صناعة السكر بدرجة كبيرة، بإنشاء معامل التكرير المركزية الضخمة، ومن ثم «تقدم ابتلاع الارض من جانب اللاتيفونديات بصورة خطيرة، مما زاد من حدة البؤس الغذائى فى هذه المنطقة » [١٢]. وخلال عقد الخمسينات من القرن الحالى، زاد التصنيع الذى يجرى على قدم وساق، من استهلاك السكر فى البرازيل. ونال انتاج الشمال الشرقى دفعة كبيرة، لكن دون زيادة فى الانتاجية لكل هكتار. وجرى ضم أراض جديدة، ذات نوعية أقل، إلى مساحات قصب السكر، ومن جديد التهم السكر المساحات القليلة المكرسة لانتاج الاغذية. أما الفلاح الذى كان يزرع قطعة أرضه الصغيرة، والذى تحول الى عامل مأجور، فلم تتحسن أحواله بالوضع الجديد، اذ أنه لا يكسب نقوداً تكفى لشراء الاغذية التى كان ينتجها من قبل [١٣]. وكالعادة ، فإن التوسع وسّع من نطاق الجوع.

■ الهجوم باخطوة السريعة فى جزر الكاريبى

كانت جزر الأنتيل هى جزر السكر Sugar Islands : فقد إندرجت فى السوق العالمية بوصفها جزراً منتجة للسكر، وظلت محكوماً عليها بإنتاج السكر، حتى أيامنا، وهى بارباذوس، وجزر سوتابنتو، وترينيداد وتوباجو، وجوادالوب، وبويرتوريكو، وسانتو دومينجو (الدومينيكان وهايتى). ولأنها سجينة الزراعه الأحادية لقصب السكر فى اللاتيفونديات ذات الاراضى الشاسعه المنهكة، فإن هذه الجزر تعانى من البطالة والفقر: فالسكر يزرع على نطاق واسع، وعلى نطاق واسع يبعث لعناته. كذلك لاتزال كوبا تعتمد، بدرجة حاسمة ، على مبيعاتها من السكر، لكنها بدأ من الاصلاح الزراعى فى عام ١٩٥٩ بدأت عملية مكثفة لتنويع اقتصاد الجزيرة، مما وضع خاتمة للبطالة : فلم يعد الكوبيون يعملون خمسة أشهر بالكاد كل سنة، خلال الحصاد، بل يعملون بلا إنقطاع خلال البناء، المتصل والصعب بلاشك ، لمجتمع جديد.

قال كارل ماركس عام ١٨٤٨ : «قد تظنون أيها السادة ، أن انتاج البن والسكر هو القدر الطبيعي لجزر الهند الغربية، لكن منذ قرنين لم تكن الطبيعة، التي لا علاقة لها بالتجارة، قد زرعت هناك لا شجرة البن ولا قصب السكر» (١٤). أن التقسيم الدولي للعمل لم تقمة يد ونعمة الروح القدس، بل أقيم بفعل عمل البشر، أو بالادق، بسبب التطور العالمي للرأسمالية.

وفي الواقع، كانت باربادوس أول جزر الكاريبي التي زرع فيها السكر للتصدير بكميات ضخمة ، منذ ١٦٤١ ، رغم أن الإسبان كانوا قد زرعوا القصب قبل ذلك في الدومينيكان وفي كوبا . وكان الهولنديون ، كما رأينا ، هم الذين أدخلوا المزارع في الجزيرة البريطانية الصغيرة. وفي عام ١٦٦٦ كان في باربادوس بالفعل ثمانمائة مزرعه سكر وأكثر من ثمانين الف عبد، وبإحتلالها رأسياً وأفقياً باللاتيفونديات الوليدة، لم يكن حظ باربادوس بأفضل من حظ الشمال الشرقي البرازيلي .

قبلها، كانت الجزيرة تستفيد من الزراعة المتنوعة؛ فقد كانت تنتج ، في إطار الملكيات الصغيرة، القطن والتبغ، والبرتقال، والابقار والخنازير. والتهمت مزارع القصب المحاصيل الزراعية ودمّرت الغابات الكثيفة، بأسم ازدهار اتضح أنه مؤقت. وبسرعة، اكتشفت الجزيرة أن أراضيها قد انهكت، وأنه ليس لديها ما تطعم به سكانها، وأنها تنتج السكر بأسعار خارج المنافسة (١٥).

كان السكر قد إمتد الى جزر أخرى، نحو أرخبيل سوتابنتو Sotavento وجامايكا، وإلى جويانا، في التربة القاريّة. وعند أوائل القرن الثامن عشر، كان العبيد، في جامايكا، يفوقون عدد المستوطنين البيض بعشر مرات. وقد إنهكت أراضيها أيضاً خلال وقت قصير. وخلال النصف الثاني من القرن ، كان افضل سكر في العالم ينبت من التربة الإسفنجية لسهول ساحل هايتي، وهي مستعمرة فرنسية كانت تسمى حينئذ سان دومينج Saint Domingue . إلى الشمال وإلى الغرب، تحولت هايتي الى إسطبل للعبيد : فقد كان السكر يتطلب أيدي عاملة متزايدة. وفي عام ١٧٨٦ ، وصل الى المستعمرة سبعة وعشرون ألف عبد، وفي العام التالي أربعون ألفاً. وفي خريف عام ١٧٩١ إندلعت الثورة. وخلال شهر واحد ، هو سبتمبر، كانت مائتا مزرعة قصب قد أصبحت وقوداً للنيران. وتوالت الحرائق والمعارك دون توقف بينما مضى العبيد المتمردون يدفعون الجيوش الفرنسية نحو المحيط. وأخذت السفن تقلع محملة بفرنسيين يتزايدون بإطراد وسكر يقل باطراد. سفكت الحرب أنهاراً من الدم وخرّبت المزارع. وكانت حرباً

طويلة. وبقيت البلاد، التى تحولت الى رماد، مشلولة؛ وفى أواخر القرن سقط الانتاج من حالق، يقول ليكوفسكى «فى نوفمبر عام ١٨٠٣ أصبحت كل المستعمرة تقريباً، والتى كانت مزدهرة من قبل، مقبرة ضخمة من الرماد والحطام» (١٦). كانت ثورة هايتى قد تطابقت وليس فى الزمن فقط، مع الثورة الفرنسية، وعانت هايتى كذلك، بنفسها، من مقاطعة التحالف الدولى ضد فرنسا : فقد كانت انجلترا تتسيد البحار. لكنها فيما بعد عانت، بقدر ما أصبح استقلالها حتمياً، من مقاطعة فرنسا. فاستجابة للضغط الفرنسى، حظر كونجرس الولايات المتحدة التجارة مع هايتى ، فى عام ١٨٠٦. وفى عام ١٨٢٥ فقط ، اعترفت فرنسا باستقلال مستعمرتها السابقة ، لكن فى مقابل تعويض ضخم بالفعل. وفى عام ١٨٠٢ ، قبل وقت قصير من سقوط الجنرال توسان – لوفرتور Tous-saint - Louverture أسيراً ، وهو زعيم جيوش العبيد، كان الجنرال ليكلير Leclerc قد كتب الى زوج أخته نابوليون، من الجزيرة يقول: « هاك رأيى بشأن هذا البلد : يجب تصفيه كل زنوج الجبال، رجالاً ونساءً، مبقين فقط على الاطفال الاقل من اثنى عشر عاماً، ويجب ابادة نصف زنوج السهول والا نبقى على خلاسى واحد يحمل كتفية عسكرية (١٧). وقد انتقم خط الاستواء من ليكلير، حيث مات «بمزقة القئ الاسود» برغم الوصفات السحرية لبولين بونابرت (١٨)، دون أن يستطيع انجاز خطته، لكن التعويض النقدى اصبح صخرة ساحقة على ظهور أهل هايتى المستقلين الذين نجوا من حمامات الدم التى قامت بها البعثات العسكرية المتتالية التى أرسلت ضدهم. ولد البلد أطلالاً ولم يشف أبداً : وهو اليوم افقر بلدان امريكا اللاتينية.

وقد سببت أزمة هايتى ازدهار السكر فى كوبا ، التى تحولت بسرعة الى المورّد العالمى الاول له. كذلك نال الانتاج الكوبى من البن، وهو منتج آخر عليه طلب شديد فيما وراء المحيط، نال دفعة قوية بسقوط انتاج هايتى، لكن السكر كسب سباق الزراعه الاحادية : وفى عام ١٨٦٢ وجدت كوبا نفسها مضطرة لاستيراد البن من الخارج . وقد بلغ عضو حبيب من «السكروقراطية» * Sacarocracia الكوبية حد أن يكتب عن «المزايا الحقيقة التى يمكن الحصول عليها من شقاء الاخرين» (١٩). تلت الثورة فى هايتى اشد الاسعار خيالية فى تاريخ السكر فى السوق الاوربية، وفى عام ١٨٠٦ كانت كوبا قد ضاعفت، في آن واحد ، معامل التكرير والانتاجية.

* Sacarocracia : أرستقراطية السكر.

■ قلاع من السكر فوق أراضى كوبا المحروقة

سيطر الانجليز بصورة مؤقته على هافانا عام ١٧٦٢. حينئذ، كانت المزارع الصغيرة للتبغ وتربية الماشية هى أساس الاقتصاد الزراعى للجزيرة؛ وكانت هافانا، النقطه العسكرية القوية، تتمتع بتطور ملحوظ في الحرف، وكان بها معمل صهر مهم، يصنع المدافع، كما كان بها أول ترسانه فى أمريكا اللاتينية تصنع سفناً تجارية وحربية على نطاق واسع. وكانت أحد عشر شهراً كافية للمحتلين البريطانيين ليدخلوا الى الجزيرة كمية من العبيد كان يمكن أن تدخلها فى الظروف العادية فى خمس عشرة سنة، ومنذ ذلك الوقت صيغ الاقتصاد الكوبى حسب احتياجات السكر الخارجية : فالعبيد سينتجون السلعة المطلوبة المتجهة الى السوق العالمية ، أما عائدها السمين فسوف تتمتع به منذ ذلك الحين الاوليجاركية المحلية والمصالح الامبريالية.

ويصف مورينو فراخينالس Moreno Fraginals ، بتفاصيل بليغة، الازدهار العنيف للسكر خلال السنوات التالية للاحتلال البريطانى. كان الاحتكار التجارى الاسبانى قد تحطم؛ وكانت قد تحطمت ايضاً المعوقات أمام دخول العبيد. وامتص معمل التكرير كل شئ: الرجال والاراضى. كان عمال الترسانة ومعمل الصهر والحرفيون الصغار الذين لايحصون، والذين كان يمكن لإسهامهم أن يكون اساسياً لتقدم الصناعات، كانوا يمضون الى معامل التكرير؛ أما الفلاحون الصغار الذين يزرعون التبغ فى السهول أو الفواكه فى البساتين، فقد انضموا بدورهم الى انتاج السكر، بعد أن اصبحوا ضحايا لتدمير مساحات القصب الوحشى للتربة. وأخذ الانتاج الواسع يقلل من خصوبة التربة. تضاعفت فى الحقول الكوبية ابراج معامل التكرير وكان كل معمل يتطلب أراض تتزايد باستمرار. التهم اللهب سهول التبغ والغابات ودمّر المراعى. وفى عام ١٧٩٢ ، كان اللحم المقدّد، الذى كان قبلها بسنوات قليلة أحد مواد التصدير الكوبية، يأتى من الخارج بكميات كبيرة ، وستظل كوبا تستورده فيما يأتى من أيام [٢٠]. أصاب الخمول الترسانة ومعمل الصهر، وسقط انتاج التبغ فجأة؛ وكان يوم العمل لعبيد السكر يمتد الى عشرين ساعة. وفوق الاراضى التى يتصاعد منها الدخان تدعمت سلطة «أرستقراطية السكر» . وعند أواخر القرن الثامن عشر. وبينما الفرح العارم بالاسعار الدولية يبلغ السحاب، كانت المضاربة تبلغ عنان السماء : تضاعفت أسعار الاراضى عشرين مرة فى جونيس Guines ؛ وفى هافانا، كانت الفائدة الفعلية على النقود أعلى بثمانية اضعاف القيمة

الشرعية؛ وفى كل ارجاء كوبا كانت تعريفة احتفالات التعميد، والدفن، والقداسات تتزايد متناسبة مع إرتفاع الأسعار المنفلت الزمام للعبيد والثيران.

كان مؤرخو عصور أخرى يقولون أنه يمكن التجوال بطول كوبا، تحت ظلال النخيل الضخم والغابات الوارفة ، التى تتكاثر فيها اشجار الماهوجنى والارز ، والابنوس والداجام*. ومازال بامكان المرء أن يُعجب بأخشاب كوبا الثمينة فى موائد ونوافذ قصر الاسكوريال وفى ابواب القصر الملكى فى مدريد، لكن غزو القصب احرق، فى كوبا، بنيران مختلفة متتالية، أفضل الغابات البكر التى كانت تغطى أراضيها من قبل. وفى نفس السنوات التى كانت كوبا تدّمر فيها غاباتها، تحولت الى المشترى الاساسى لاخشاب الولايات المتحدة. إن الزراعة المكثفة للقصب، هذا النبات اللص ، لم تتضمن فقط موت الغابات، بل تضمنت كذلك، على المدى الطويل، «موت الخصوبة المدهشة للجزيرة»(٢١). سلّمت الغابات للنيران ولم يتأخر التآكل عن عض التربه العزلاء؛ وجفت آلاف الجداول. وفى الوقت الحاضر. نجد أن المحصول لكل هكتار فى مزارع السكر الكوبية يقل اكثر من ثلاث مرات عنه فى البيرو، ويقل اربع مرات ونصف عنه فى هاواى(٢٢). ويمثل الرى وإخصاب التربة مهمات ذات أولوية بالنسبة للثورة الكوبية. فالسدود المائية تتضاعف، بين كبيرة وصغيرة، بينما تشق القنوات فى الحقول وتنثر الأسمدة فوق الاراضى المرهقة.

تكونت الثروة الخادعة لـ «أرستقراطية السكر» فى الوقت الذى كانت تكرس فيه تبعيه كوبا، ذلك المصنع المتميز الذى ظل اقتصادة مريضاً بمرض السكر. ومن بين من دمروا أخصب الاراضى بوسائل وحشية كان هناك شخصيات ذات ثقافة أوربية راقية، تعرف كيف تميز لوحة أصلية لبروجل Brueghel وتستطيع شراءها؛ وكانوا خلال رحلاتهم المتكررة الى باريس يجلبون فازات إتروسكية وأوان إغريقية ، وأباريق فرنسية، واوحات ورقية صينية من عهد اسرة مينج، ومناظر طبيعية وصور اشخاص لاشهر الفنانين البريطانيين. وقد أدهشنى أن اكتشف، فى مطبخ إحدى ضياع هافانا، خزانه ضخمة، ذات شفرة سرية، كانت إحدى الكونتيسات تستخدمها لحفظ الاطباق. وحتى عام ١٩٥٩ لم تقم أى مصانع، بل قلاع من السكر : كان السكر يعيّن الدكتاتورات ويعزلهم، ويقدم العمل أو يحجبة عن العمال، ويحّدد ايقاع رقصات الملايين والأزمات المفزعة. إن مدينة ترينيداد هى، اليوم جثة متألقة. لكن عند منتصف القرن التاسع عشر،

* أحد أنواع الشجر التي تنبت في جزر الأنتيل - م.

كان فى ترينيداد خمسون معمل تكرير ، تنتج ٧٠٠ ألف ربع * من السكر. وتم بالعنف إخراج الفلاحين الفقراء الذين كانوا يزرعون التبغ ، وأصبحت المنطقة، التى كانت تربى الماشية كذلك، وكانت تصدر اللحوم، أصبحت تأكل اللحوم المجلوبة من الخارج. إزدهرت القصور الاستعمارية، ببواباتها ذات الظلال المتواطئة، وقاعاتها ذات الاسقف العالية، والنجف المزين بأمطار من البللور، والسجاجيد الفارسية، والصمت المخملى وفى الجو موجات موسيقى الرقص، والمرايا فى الصالونات تعكس صورة الفرسان ذوى خصلات الشعر والاحذية ذات المشبك. هنالك، الآن، شهادة الهياكل الضخمة من المرمر أو الحجر، وسمو ابراج الكنائس الصامته، والعربات التى زحفت عليها الاعشاب. وتُسمى ترينيداد الآن باسم «مدينة آل كان»، لأن من بقوا على قيد الحياة من البيض يتحدثون دائماً عن سلف ما كان لديه السلطة والمجد. لكن أزمة ١٨٥٧ أتت، وتدهورت اسعار السكر وسقطت معها المدينة، كى لا تقوم لها قائمة بعدها ابداً (٢٣).

وبعد قرن من الزمن، حين وصل محاربو عصابات السييرا ما يسترا الى السلطة، استمرت كوبا فى ممارسة قدرها المربوط بحصة السكر . « أن الشعب الذى يسلم بقاءة لمنتج واحد ، ينتحر»، هكذا كان قد تنبأ البطل القومى، خوسيه مارتى Jose Marti. وفى عام ١٩٢٠، بينما سعر السكر عند ٢٢ سنتاً للرطل، حطمت كوبا الرقم القياسى العالمى للصادرات لكل فرد، متخطية انجلترا كذلك، وحققت اكبر دخل للفرد فى أمريكا اللاتينية. لكن، فى نفس ذلك العام، فى ديسمبر، سقط سعر السكر الى اربع سنتات، وفى عام ١٩٢١ ، إنطلق اعصار الازمة : افلس العديد من معامل التكرير، اشترتها المصالح الامريكية الشمالية، كما أفلست كل البنوك الكوبية أو الاسبانية، بما فى ذلك البنك القومى ذاته. ولم ينج سوى فروع بنوك الولايات المتحدة (٢٤). هذا الاقتصاد التابع والقابل للأذى الذى كانه الاقتصاد الكوبى لم يكن باستطاعة الافلات، فيما بعد، من التأثير العنيف لأزمة عام ١٩٢٩ فى الولايات المتحدة : فقد وصل سعر السكر الى حد الانخفاض الى ما يقل كثيراً عن سنت واحد فى عام ١٩٣٢، وخلال ثلاث سنوات، انخفضت قيمة الصادرات الى الربع. أما نسبة البطالة فى كوبا فى تلك الآونه «فيصعب أن نجد نظيرها فى أى بلد آخر» (٢٥). كانت كارثة عام ١٩٢١ قد نتجت عن تدهور سعر السكر فى سوق الولايات المتحدة ، ومن الولايات المتحدة سرعان ما وصل قرض قيمته

* : وحدة وزن وكيل . في الوزن تساوي ١١,٥ كيلو جراماً وفي المكاييل تساوي ١٦,١ لتراً من الخمر أو ١٢,٦ لتراً من الزيت. والكلمة عربية الأصل – م.

خمسون مليوناً من الدولارات : وفى اعقاب القرض ، وصل الجنرال كرودر Crowder أيضاً؛ وتحت ذريعه تنظيم استخدام الاموال ، حكم كرودر البلاد فعلياً. وبفضل جهوده الحميدة وصلت دكتاتورية ما تشادو Machado الى السلطة عام ١٩٢٤، لكن الكساد الكبير لسنوات الثلاثينات جرف أمامه نظام الدم والنار هذا ، بعد أن شل كوبا الإضراب العام.

وما حدث مع الاسعار، تكرر مع حجم الصادرات. فمنذ عام ١٩٤٨ ، استعادت كوبا حصتها لتغطية ثلث السوق الامريكى الشمالى من السكر، بأسعار أقل من تلك التى كان يتقاضاها منتجو الولايات المتحدة ، لكنها أعلى وأكثر ثباتاً من أسعار السوق الدولية. وقبل ذلك كانت الولايات المتحدة قد خفضت الجمارك على واردات السكر الكوبى مقابل امتيازات مماثلة تمنح على دخول السلع الامريكية الشمالية الى كوبا. كل هذه الافضال دعمت التبعية . «الشعب الذى يشترى يأمر، والشعب الذى يبيع يخدم؛ لابد من موازنة التجارة من أجل ضمان الحرية؛ الشعب الذى يريد أن يموت ، يبيع لشعب واحد ، والذى يريد أن ينقذ نفسه يبيع لأكثر من واحد» ، هكذا قال مارتى وكرر التشى جيفارا فى مؤتمر منظمة الدول الامريكية، فى پونتادل إستى Punta Del Este ، عام ١٩٦١. كان الانتاج يُحدّد ، تعسفياً ، حسب إحتياجات واشنطن – واستمرار مستوى عام ١٩٢٥ ، وهو حوالى خمسة ملايين طن ، يمثل متوسط سنوات الخمسينات : وقد قفز الدكتاتور فولخنثيو باتيستا Fulgencio Batista إلى السلطة ، عام ١٩٥٢ ، فى اعقاب اكبر حصاد تحقق حتى ذلك الوقت ، أكثر من سبعة ملايين طن ، ومهمته ضبط الاوتار ، وفى العام التالى ، سقط الانتاج الى أربعة ملايين ، حسب طلب الشمال (٢٦).

■ الثورة فى مواجهة بنية العجز

إن القرب الجغرافى وظهور سكر البنجر ، الذى بدأ خلال حروب نابوليون ، فى حقول فرنسا والمانيا ، قد جعلا الولايات المتحدة الزبون الاساسى لسكر جزر الأنتيل. وفى عام ١٨٥٠ ، كانت الولايات المتحدة تسيطر فعلاً على ثلث تجارة كوبا ، وكانت تبيع لها وتشترى منها أكثر مما تفعل اسبانيا ، رغم أن الجزيرة كانت مستعمرة اسبانية ، وكان العلم ذو الخطوط والنجوم يرفرف على اشرعة أكثر من نصف السفن التى تصل الى هناك. وقد وجد رحالة اسبانى حوالى عام ١٨٥٩ ، فى قُرى كوبية نائية فى قلب

الريف ، وجد ماكينات خياطة مصنوعة فى الولايات المتحدة [٢٧]. وقد رصفت الشوارع الرئيسية فى هافانا بكتل جرانيت من بوسطن.

وحين أشرف ضوء القرن العشرين ، كتب فى صحيفة لويزيانا بلانتر Louisiana Planter : «قليلا قليلاً ، تنتقل كل جزيرة كوبا إلى ايدى مواطنين امريكيين شماليين ، وهذه هى ابسط وأضمن طريقة لتحقيق ضمها الى الولايات المتحدة». وفى مجلس الشيوخ الامريكى الشمالى كان يجرى الحديث فعلاً عن نجمة جديدة فى العلم؛ وبهزيمة اسبانيا ، حكم الجنرال ليونارد وود Leonard Wood الجزيرة. وفى نفس الوقت ، انتقلت الى ايدى الولايات المتحدة الفلبين وبويرتوريكو[٢٨].

« لقد سلّمت الينا بالحرب – هكذا قال الرئيس ماكينلى Mckinley مُدرجاً كوباً –، وبعون الرب وباسم تقدم البشرية والحضارة ، فإن واجبنا هو الاستجابة لهذه الثقة الكبيرة» . فى عام ١٩٠٢ ، اضطر توماس استرادا بالما Tomas Estrada Palma الى التخلى عن الجنسية الامريكية الشمالية التي كان قد تبنّاها في المنفي: فقد حوّلته قوات الاحتلال الأمريكية الشمالية الى أول رئيس لكوبا. وفى عام ١٩٦٠ ، أعلن سفير الولايات المتحدة السابق الى كوبا ، ايرل سميث Earl Smith ، أمام احدى لجان مجلس الشيوخ الفرعية أنه : «حتى صعود كاسترو الى السلطة، كان للولايات المتحدة في كوبا نفوذ لا يقاوم لدرجة أن السفير الأمريكي الشمالى كان الشخصية الثانية فى البلاد ، وأحياناً يكون أهم حتى من الرئيس الكوبى».

حين سقط باتيستا ، كانت كوبا تبيع سكرها كله فى الولايات المتحدة. وقبل ذلك بخمس سنوات ، كان محام ثورى شاب قد تنبأ بشكل صائب ، أمام من كانوا يحاكمونه بتهمه الهجوم على معسكر مونكادا ، بأن التاريخ سيبرئه؛ وقال فى مرافعته الرنانة : «أن كوبا تظل مصنعاً منتجاً للمواد الاولية ، وهى تصدر السكر لتستورد الملبّس» [٢٩]. كانت كوبا تشترى من الولايات المتحدة ليس فقط السيارات والآلات ، والمنتجات الكيماوية ، والورق والملابس، بل كذلك الأرز والفاصوليا ، الثوم والبصل ، الشحوم ، واللحوم والقطن. وكانت تأتى من ميامى أرغفة خبز مثلجة وحتى وجبات فاخرة من باريس. كان بلد السكر يستورد نحو نصف الفواكه والخضروات التى يستهلكها ، رغم أن ثلث سكانه المنتجين فقط كان لديهم عمل دائم ورغم أن نصف أراضى معامل السكر المركزية كانت امتدادات مقفره لاتنتج فيها الشركات شيئاً [٣٠]. كان ثلاثة عشر معملاً أمريكياً شمالياً يتصرفون فى أكثر من ٤٧ بالمائة من اجمالى مساحة السكر ويكسبون حوالى ١٨٠

مليوناً من الدولارات فى كل محصول. وكانت ثروات باطن الارض – النيكل، والحديد، والنحاس، والمنجنيز، والكروم، والتنجستن – تشكل جزءاً من الاحتياطيات الاستراتيجية للولايات المتحدة ، التى لم تكن شركاتها تكاد تستغل هذه المعادن الا حسب الطوارئ المتغيرة للجيش والصناعة الشمالية. كان فى كوبا، عام ١٩٥٨، عاهرات مسجّلات أكثر عدداً من عمال المناجم (٣١).

كان مليون ونصف من الكوبيين يعانون من البطالة الشاملة أو الجزئية ، حسب ابحاث سوريه وبينو Seuret & Pino التى يوردها نونييث خيمينث .

كان اقتصاد البلاد يتحرك على إيقاع الحصاد، أما القدرة الشرائية للصادرات الكوبية فيما بين ١٩٥٢ و١٩٥٦ فلم تتجاوز مستواها قبل ذلك بثلاثين عاماً (٣٢)، رغم أن الاحتياج الى العملات الصعبة كان أكبر بكثير. وخلال الثلاثينات ، حين دعمت الازمة تبعية الاقتصاد الكوبى بدل أن تساهم فى كسرها ، كان الامر قد بلغ حد فك مصانع أنشئت حديثاً من أجل بيعها الى بلدان أخرى. وحين انتصرت الثورة ، فى أول أيام عام ١٩٥٩ ، كان التطور الصناعى لكوبا شديد الفقر والبطء ، وكان اكثر من نصف الانتاج متركزاً فى هافانا وكانت المصانع القليلة ذات التكنولوجيا المتقدمة توجّه عن بعد من الولايات المتحدة. وهناك اقتصادى كوبى ، هو ريخينوبوتى Regino Boti ، هو أحد المشاركين فى وضع الاطروحات الاقتصادية لمحاربى العصابات فى السييرا ، يوردِ مثال أحد فروع شركة نسله التى كانت تنتج البانا مركزة فى بايامو : «فى حالة وقوع حادث ، كان الفنى يطلب كونكتيكت تليفونياً ويحدد أن الشئ الفلانى أو العلاّنى فى قسمه لايعمل. وفى الحال يتلقى التعليمات بالاجراءات التى عليه أن يتخذها فينفذها آلياً ... واذا لم تنجح العملية ، تصل بعد اربع ساعات طائرة تحمل فريقاً من الأخصائيين المؤهلين بدرجة عالية يصلحون كل شئ. وبعد التأميم ، لم يعد يمكن اجراء مكالمة تليفونية لطلب الانقاذ وقد رحل الفنيون النادرون الذين كان يمكنهم اصلاح الاعطال الثانوية» (٣٣). هذه الشهادة توضح بإقتدار الصعوبات التى واجهتها الثورة منذ انطلقت فى مغامرة تحويل المستعمرة الى وطن.

كانت سيقان كوبا مقطوعة نتيجة لوضع التبعية ولم يكن من السهل عليها أن تشرع فى السير بمفردها . كان نصف أطفال كوبا لا يذهبون الى المدارس عام ١٩٥٨، لكن الجهل ، كما أعلن فيديل كاسترو مرات عديدة ، كان أوسع وأخطر من الامية. وقد عبأت حملة عام ١٩٦١ جيشاً من الشباب المتطوعين لتعليم كل الكوبيين القراءة والكتابة

وأدهشت النتائج العالم : فكوبا تتمتع الآن ، حسب المكتب الدولى للتربية فى منظمة اليونسكو ، بأقل نسبة من الاميين وبأكبر نسبة من السكان فى المدارس ، الابتدائية والثانوية، فى أمريكا اللاتينية. ورغم ذلك ، فإن الميراث اللعين للجهل لا يتم تجاوزه بين عشية وضحاها – ولا خلال اثنى عشرة سنة . ونقص الكوادر التقنية الكفؤة ، وعدم كفاءة الادارة وسوء تنظيم الجهاز الانتاجى ، والخوف البيروقراطى من الخيال المبدع ومن حرية اتخاذ القرار ، ما زالت كلها تضع العوائق أمام تطور الاشتراكية. لكن رغم كل نظام العجز الذى صيغ خلال أربعة قرون ونصف من تاريخ الاضطهاد ، فإن كوبا تولد من جديد ، بحماس لا يتوقف : إنها تحسب قواها، وبهجتها واندفاعها، فى مواجهة العقبات.

■ السكر كان السكين ، والقاتل هو الإمبراطورية

« البناء فوق السكر ، هل هو أفضل من البناء فوق الرمال ؟» هكذا تساءل جان – بول سارتر عام ١٩٦٠ ، فى كوبا.

فى مرفأ ميناء جوايا بال Guayabal ، الذى يصدر السكر غير المعبأ ، تحلق الطيور البحرية فوق سقيفة ضخمة. أدخل وأتأمل ، مذهولاً ، هرماً مذهباً من السكر . ويقدر ما تتفتح فتحات التصريف ، من اسفل ، حتى تصب الانابيب الحمولة ، دون تعبئة، نحو السفن ، بقدر ما تسكب فتحة السقف شلالات جديدة من الذهب ، من السكر المنقول لتوّه من مطاحن معامل التكرير. يتسرب ضوء الشمس ويضفى عليه تلألؤاً . حوالى أربعه ملايين دولار هى قيمة هذا الجبل الدافئ الذى أحسّه ولا يبلغ بصرى حدوده. أفكر فى أنه تتلخص هنا كل بهجة ودراما هذا المحصول القياسى لعام ١٩٧٠ الذى اراد ، ولم يستطع، رغم المجهود الذي يفوق طاقة البشر، أن يبلغ عشرة ملايين طن. وتنزلق مع السكر، أمام بصرى، حكاية أطول بكثير. أفكر فى مملكة شركة فرنسيسكو شوجار كومبانى .Francisco Sugar Co ، وشركة ألين دولز. Allen Dulles ، حيث قضيت اسبوعاً استمع الى حكايات الماضى وأشهد مولد المستقبل: افكر فى خوسفينا ، إبنة كاريداد رودر يجث Caridad Radriguez ، التى تدرس فى قاعة كانت من قبل سجناً للمعسكر، فى نفس المكان بالضبط حيث سُجن والدها وعُذّب قبل أن يموت؛ فى انطونيو باستيداس Antonio Bastidas ، الزنجى ذى السبعين عاماً، الذى تشعلق

ذات فجر هذا العام بكلتا قبضتية فى رافعة الصفارة لأن المعمل قد تجاوز المستهدف له فى الخطة وصاح : «اللعنه !» «أنجزنا، اللعنة !» ولم يكن ثمة من ينتزع الرافعة من يديه المعروقتين بينما الصفارة، التى كانت قد ايقظت القرية ، توقظ كوبا كلها؛ حكايات فقدان المأوى، والرشاوى، والاغتيالات، الجوع والاعمال الغريبة التى تخلقها البطالة، الاجبارية خلال نصف كل عام : مثلاً ، صيد الصراصير بين الزراعات . وأفكر فى أن الشقاء له بطن منتفخة، الان أعرف ذلك. من ماتوا لم يموتوا عبثاً : أما نثيو رودر بحث Amancio Rodriguez ، مثلاً، الذى اخترقته رصاصات كاسرى الاضراب خلال احد الاجتماعات، والذى كان قد رفض بغضب شيكاً على بياض من الشركة، وحين ذهب رفاقة ليدفنوه ، اكتشفوا انه لم يكن لديه سراويل داخلية ولا جوارب يحملها فى تابوته ، أو بدرو بلاثا Pedro Plaza ، مثلاً ، الذى اعتقل وهو فى العشرين وقاد سيارة الجنود نحو الالغام التى كان قد زرعها بنفسة وتطايرت اشلاؤه مع السيارة والجنود. وأخرون كثيرون، فى هذه القرية وفى كل القرى الاخرى : قال لى عامل سكر عجوز : «هنا تكن العائلات حباً كثيراً للشهداء ، لكن بعد موتهم. فقبل ذلك كانوا مجرد احتجاجات» . أفكر فى أنه لم يكن من قبيل الصدفة أن يجند فيديل كاسترو ثلاثة أرباع مقاتليه من بين الفلاحين، عمّال السكر، وأن تكون مقاطعة أورينتى Oriente ، فى آن واحد ، أكبر منبع للسكر وللانتفاضات فى كل تاريخ كوبا. وأتفهم الحنق المتراكم : فبعد الحصاد الضخم لعام ١٩٦١ ، إختارت الثورة أن تنتقم من السكر. فقد كان السكر هو الذاكرة الحية للإذلال. فهل كان السكر قدراً ، كذلك؟ وهل تحول فيما بعد الى تكفير؟ وهل يمكنه الان أن يصبح رافعة ، منصة انطلاق للتطور الاقتصادى ؟ وأمام تزايد نفاذ الصبر المشروع ، هدمت الثورة مساحات قصب عديدة وأرادت فى غمضة عين ، تنويع الانتاج الزراعى : لم تقع فى الخطأ التقليدى لتقسيم اللاتيفونديات الى قطع أرض صغيرة غير منتجة ، لكن كل ضيعة اشتراكية تولت على الفور زراعة مزروعات تزداد تنوعا باستمرار. وكان لابد من الحصول على واردات واسعة النطاق من أجل تصنيع البلاد ، وزيادة الانتاجية الزراعية واشباع ضرورات استهلاكية كثيرة زادتها الثورة بدرجة كبيرة، عندما اعادت توزيع الثروة. وبدون الحصادات الكبيرة من السكر، من أين يمكن الحصول على العملات الصعبة اللازمة لتلك الواردات ؟ كذلك فإن تطوير صناعات التعدين، والنيكل بالدرجة الاولى، يتطلب استثمارات ضخمة ، يجرى توفيرها ، وقد تضاعف انتاج الاسماك ثمانى مرات بفضل نمو الاسطول ، مما استلزم كذلك استثمارات ضخمة؛ ويجرى تنفيذ خطط

ضخمة لانتاج الحمضيات، لكن السنوات التى تفصل بين البذار والحصاد تجبر على الصبر. عندئذ، اكتشفت الثورة أنها خلطت بين السكين وبين القاتل . فالسكر الذى كان عامل التخلف ، أخذ يتحول الى أداة للتنمية. لم يكن هناك حل سوى استخدام ثمار الزراعة الاحادية والتبعية، التى تولدت عن الحاق كوبا بالسوق العالمية، من أجل تحطيم ظهر الزراعة الاحادية والتبعية .

ذلك أن الارباح التى يقدمها السكر لم تعد تستخدم فى تدعيم بنية الخضوع [٣٤]. وقد زادت واردات الآلات والمنشئات الصناعية بنسبة حوالى أربعين فى المائة منذ عام ١٩٥٨ ؛ والعائد الاقتصادى الذى يولده السكر يُعبأ من أجل تطوير الصناعات الأساسية وحتى لا تبقى هناك أراض خالية ولاعمال محكوم عليهم بالبطالة. وحتى سقطت دكتاتورية باتيستا ، كان فى كوبا خمسة آلاف جرار زراعى وثلاثمائة الف سيارة. واليوم يوجد فيها خمسون الف جرار زراعى، رغم أنها تتلف بدرجة كبيرة بسبب أخطاء التنظيم الخطيرة ، ومن ذلك الاسطول من السيارات، التى هى موديلات فاخرة فى معظمها، لم يتبق سوى بضعة نماذج جديرة بمتحف الخردة. وقد نالت صناعة الاسمنت ومحطات الكهرباء دفعة مذهلة؛ واتاحت مصانع المخصبات الجديدة أن تستخدم اليوم خمسة اضعاف الاسمدة التى كانت تستخدم عام ١٩٥٨. أما السدود ، التى اقيمت فى كل مكان ، فتحتجز اليوم كمية من المياه تفوق اجمالى كميات المياه المخزونه عام ١٩٥٨ ثلاثاً وسبعين مرة [٣٥]. وزادت المساحة المروية بخطوات عملاقة. أما الطرق الجديدة، التى شُقت فى كل أرجاء كوبا ، فقد كسرت عزلة كثير من الاقاليم التى بدت وكأنها محكوم عليها بالعزلة الابدية. ومن أجل زيادة الانتاج الضئيل من ألبان ما شية اللبن ، جلبت الى كوبا ثيران من فصيلة هولشتين، وبالتلقيح الصناعى، أنجب منها ثمانمائة الف بقرة مهجنة.

وقد تحقق تقدم ضخم فى ميكنه قطع وغرس القصب ، على أساس الإبتكارات الكوبية ، إلى حد كبير، رغم أن ذلك ما زال غير كافٍ ويجرى ، بصعوبة ، وضع نظام جديد للعمل ليحل محل النظام القديم الذى فككته التغيرات التى أحدثتها الثورة. وقد أصبح قاطعوا القصب المحترفون، سجناء السكر ، من ذكريات الماضى : فبالنسبة لهم ايضاً ، تضمنت الثورة حرية أختيار اعمال أخرى أقل مشقة ، وبالنسبة لأبنائهم، تضمنت امكانية الدراسة ، من خلال المنح ، فى المدن. والثمن الحتمى لتحرير عمال القصب كان، بالتالى، اختناقات قاسية بالنسبة لاقتصاد الجزيرة. ففى عام ١٩٧٠ ،

كان لابد لكوبا أن تستخدم ثلاثة أضعاف العمال فى الحصاد ، وكان غالبيتهم متطوعين أو جنوداً أو عمالاً فى قطاعات اخرى، مما اضر بالانشطة الاخرى فى الريف والمدينة : أضيرت محاصيل منتجات أخرى ، وأضير ايقاع العمل فى المصانع. ويجب أن نأخذ فى الاعتبار، فى هذا الصدد ، أنه فى مجتمع اشتراكى ، بخلاف المجتمع الرأسمالى ، لم يعد العمال يتصرفون بدافع الخوف من البطالة أو بدافع الجشع. اذ يجب أن تعمل دوافع أخرى – منها التضامن ، والمسئولية الجماعية، واكتساب الوعى بالواجبات والحقوق التى تجعل الانسان يتجاوز الانانية. لكن وعى شعب بأكمله لا يتغير فى لحظة. وحينما استولت الثورة على السلطة، حسب ما يقوله فيديل كاسترو ، لم تكن غالبية الكوبيين حتى معادية للإمبريالية.

لقد أخذ الكوبيون يزدادون جذرية مع ثورتهم ، بقدر ما تجرى التحديات والاستجابات، والضربات المضادة بين هافانا وواشنطن ، وبقدر ما أخذت وعود العدالة الاجتماعية تتحول الى حقائق ملموسة. وقد أنشئت مائة وسبعون مستشفى جديد وعيادات شاملة عديدة وأصبح العلاج الطبى مجانياً؛ وتضاعفت ثلاث مرات كمية الطلبة المسجلين فى كل مستويات التعليم كما أصبح مجانياً؛ ويستفيد اليوم من المنح اكثر من ثلاثمائة الف طفل وشاب كما تضاعفت الاقسام الداخلية ورياض الاطفال. وهناك جزء كبير من السكان لا يدفعون ايجاراً لمساكنهم وقد أصبحت خدمات المياه ، والكهرباء، والتليفون ، والجنازات والعروض الرياضية كلها مجانية. وقد تضاعفت نفقات الخدمات الاجتماعية خمس مرات خلال سنوات قليلة. والان وقد اصبح لدى الجميع تعليم وأحذية، تتضاعف الاحتياجات بمتواليه هندسية بينما لا يستطيع الانتاج أن يتزايد إلا بمتواليه حسابية. إن ضغط الاستهلاك ، الذى اصبح الان استهلاك الجميع وليس استهلاك القلة، يجبر بدوره كوبا على زيادة صادراتها بسرعة ، ويظل السكر أكبر مصدر للموارد.

إن الثورة ، فى الحقيقة ، تعيش أوقاتاً شاقة ، صعبة ، للانتقال والتضحية. وقد انتهى الكوبيون انفسهم الى تأكيد ان الاشتراكية تبُنى بالإصرار وأن الثورة ليست نزهة على الاطلاق. وفى نهاية المطاف ، فإن المستقبل لن يكون من نصيب هذه الارض لو جاء هدية. بالتأكيد، هناك نقص فى منتجات مختلفة : وفى عام ١٩٧٠ ، هناك نقص فى الفاكهة والثلاجات ، والملابس: والطوابير ، الشائعة جداً، ليست فقط نتيجة لسوء تنظيم التوزيع. فالسبب الرئيسى للنقص هو الزيادة الجديدة فى المستهلكين : فالبلد الأن يخص الجميع والامر هنا يتعلق بنقص ذى دلاله مناقضة للنقص الذى تعانية بلدان

أمريكا اللاتينية الاخرى.

وفى نفس الاتجاه تعمل نفقات الدفاع. فكوبا مضطره لأن تنام وعيونها مفتوحة ، وهذا أمر باهظ التكلفة بدوره، بالتعبيرات الاقتصادية. هذه الثورة المُلاَحقة ، التى توجب عليها أن تتحمل الغزو والتخريب دون توقف. لا تسقط لأن شعبها المسلح – هذه الدكتاتورية الغريبة – يدافع عنها. فمنتزعى الملكية الذين نزعت ملكيتهم لا يقبلون ما حدث. وفى ابريل عام ١٩٦١ ، لم تكن الكتيبة التى رست فى بلايا خيرون Playa Giron مكونة فقط من الاعضاء السابقين فى جيش وبوليس باتيستا ، بل كان فيها أيضاً ملاك اكثر من ٣٧٠ ألف هكتار من الاراضى ، ونحو عشرة الاف عمارة ، وسبعين مصنعاً ، وعشر معامل تكرير سكر، وثلاثة بنوك ، وخمسة مناجم واثنى عشر كباريه. وقد منح دكتاتور جواتيمالا، ميجيل يديجوراس Miguel Ydigoras أعضاء الحملة معسكرات تدريب مقابل الوعود التى قدمها له الامريكيون الشماليون ، حسب اعترافة هو فيما بعد: نقود عداً ونقداً ، لم يدفعوها ابداً ، وزيادة فى حصة جواتيمالا من السكر فى سوق الولايات المتحدة.

وفى عام ١٩٦٥ ، قاسى بلد آخر منتج للسكر ، هو جمهورية الدومينيكان ، من غزو نحو أربعين الفاً من جنود المارينز * مستعدين «للبقاء الى أجل غير مسمى فى هذا البلد ، نظراً للاضطراب السائد» ، كما اعرب قائدهم ، الجنرال بروس پالمر Bruce Palmer . كان السقوط الحاد فى اسعار السكر أحد العوامل التى فجرت السخط الشعبى : هب الشعب ضد الدكتاتورية العسكرية ولم تتأخر القوات الامريكية الشمالية فى اعادة النظام. وقد خلّفوا أربعة آلاف قتيل فى المعارك التى شنها الوطنيون، جسداً لجسد ، بين نهر أوتاما والبحر الكاريبى ، فى حى بائس من أحياء سانتو دومينجو (٣٦). وقد قامت منظمة الدول الامريكية – التى تتمتع بذاكرة جحش ، لأنها لا تنسى ابداً أين تأكل – قامت بمباركة الغزو ودعمته بقوات جديدة. كان لابد من قتل جرثومة كوبا أخرى.

* المارينز : مشاة البحرية في الولايات المتحدة – م.

■ بفضل تضحية العبيد فى الكاريبى ، ولدت آلة جيمس وات ومدافع واشنطن

قال التشى جيڤارا أن التخلف هو قزم ذو رأس ضخمة وبطن منتفخة : لاتنسجم ساقاه الضعيفتان وذراعاه القصيرتان مع بقية جسمه. كانت هافانا تتلألأ ، وتنطلق فى شوارعها الفخمة زمارات السيارات الكاديلاك ، وفى أكبر كباريه فى العالم تتهادى ، على ايقاع ليكونا Lecuona ، أجمل النجمات Vedettes ؛ بينما فى الريف الكوبى ، كان واحد فقط من كل عشرة عمال زراعيين يشرب اللبن ، ويستهلك اللحوم أربعة فى المائة بالكاد ، وحسب مايذكره المجلس القومى للإقتصاد ، كان ثلاثة أخماس العمال الريفيين يتقاضون أجورا تقل عن تكاليف المعيشة بثلاث أو أربع مرات.

لكن السكر لم ينتج الأقزام فقط ، فقد انتج العمالقة أيضاً ، أو على الأقل ، أسهم بشدة فى تطور العمالقة ، فسكر خط الاستواء الأمريكى اللاتينى قدم دفعة قوية لتراكم رؤوس الاموال من أجل التطور الصناعى لإنجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وكذلك الولايات المتحدة فى نفس الوقت الذى شوّه فيه اقتصاد الشمال الشرقى البرازيلى واقتصاد جزر الكاريبى وكرّس الخراب التاريخى لإفريقيا. وكان العصب الرئيسى للتجارة ثلاثية الأطراف بين أوربا ، وإفريقيا ، وأمريكا ، هو تجارة العبيد الموجّهين إلى مزارع السكر . وقد قال أوجستو كوتشين Augusto Cochin : « إن تاريخ حبّة سكر هو درس كامل فى الاقتصاد السياسى ، والسياسة ، وكذلك الاخلاق».

كانت قبائل إفريقيا الغربية تعيش متحاربة فيما بينها ، حتى تزيد أرصدتها من العبيد ، من أسرى الحرب، وكانت واقعة تحت السيطرة الاستعمارية للبرتغال ، لكن البرتغاليين لم يكن لديهم سفن ولامنتجات صناعية يقدمونها لهذه القبائل فى حقبة إزدهار تجارة العبيد ، فتحولوا الى مجرد وسطاء بين قباطنة تجارة العبيد لدى القوى الاخرى وبين صغار الملوك الافارقة. وكانت انجلترا هى البطلة الاولى لشراء وبيع اللحم الآدمى ، حتى اصبح الامر لايناسبها. إلا أن الهولندين كانت لديهم تقاليد أقدم فى هذه التجارة ، لأن كارلوس الخامس كان قد أهداهم احتكار نقل العبيد الى امريكا قبل زمن من حصول انجلترا على حق إدخال العبيد الى مستعمرات الاخرين. أما بالنسبة لفرنسا، فقد كان لويس الرابع عشر ، الملك الشمس ، يشارك ملك اسبانيا مناصفة فى

أرباح شركة غينيا ، التى تأسست سنة ١٧٠١ ، لحلب العبيد الى امريكا ، وكانت لدى وزيره كولبير Colbert ، خالق التصنيع الفرنسى ، دوافع تجعله يؤكد أن تجارة العبيد «مطلوبة من أجل تقدم البحرية التجارية القومية» (٣٧).

قال آدم سميث أن اكتشاف أمريكا «رفع النظام المركنتيلى الى درجة من البهاء والمجد لم يكن ليبلغها أبداً بدون ذلك». ووفقاً لما يقوله سيرخيو باجو. فإن أعظم محرك لتراكم رأس المال المركنتيلى الأوربى كان العبودية الامريكية؛ وكان هذا الرأسمال ، بدوره «حجر الزاوية الذى تأسس عليه الرأسمال الصناعى الهائل للأزمنة المعاصرة» (٣٨). فقد كان لانبعاث العبودية الإغريقية – الرومانية فى العالم الجديد خصائص عجيبة : فقد ضاعف السفن ، والمصانع، والسكك الحديدية ، والبنوك فى بلدان لم تكن هى مصدر، ولا، باستثناء الولايات المتحدة، غاية العبيد الذين يعبرون المحيط. وبين مولد القرن السادس عشر ونهاية القرن التاسع عشر، عبر المحيط عدة ملايين من الافارقة ، لا يعرف عددهم؛ لكن المعروف أنهم كانوا أكثر بكثير من المهاجرين البيض، القادمين من أوربا، رغم أن من بقوامنهم على قيد الحياة كانوا أقل بكثير، بطبيعة الحال. ومن نهر البوتوماك الى نهر الريودى لابلاتا ، شيد العبيد منازل سادتهم ، وقطعوا الغابات ، وقطعوا وعصروا قصب السكر ، وزرعوا القطن ، وغرسوا الكاكاو ، وحصدوا البن والتبغ، ونقبوا مجارى الانهار بحثاً عن الذهب. كم هيروشيما تعادل إباداتهم المتعاقبة ؟ كما قال مزارع انجليزى من جامايكا ، « من الاسهل شراء الزنوج عن تربيتهم». ويحسب كايو برادو Caio Prado أنه حتى بدايات القرن التاسع عشر، كان قد وصل الى البرازيل ما بين خمسة وستة ملايين من الافارقة؛ حينئذ، كانت كوباً سوقاً ضخمة للعبيد تعادل ما كانه، من قبل ، كل نصف الكرة الغربى (٣٩).

هناك، حوالى عام ١٥٦٢ ، انتزع الكابتن جون هوكينز John Hawkins وهرّب ثلاثمائة زنجى من غينيا البرتغالية. وغضبت الملكة ايسابل ، وقالت «هذه المغامرة تستنزل انتقام السماء». لكن هوكينز أخبرها أنه فى مقابل العبيد ، حصل فى الكاريبى على حمولة من السكر والجلود. واللآلئ والزنجبيل. فعفت الملكة عن القرصان ، وتحولت الى شريكته فى التجاره. وبعد ذلك بقرن من الزمن ، كان دوق يورك يختم بالحديد المحمّى الحرفين الاولين من اسمه، DY ، على الإليه اليسرى أو على صدر الثلاثة آلاف زنجى الذين تقتادهم شركته سنوياً الى «جزر السكر». وكانت الشركة الملكية الافريقية، التى يظهر بين مساهميها الملك كارلوس الثانى، تعطى أرباحاً قيمتها ثلاثمائة فى المائة، رغم

أنه من بين ٧٠ ألف عبد شحنتهم بين عامى ١٦٨٠ و١٦٨٨ ، لم يبق حياً بعد عبور المحيط سوى ٤٦ ألفاً. فخلال الرحلة ، كان يموت أفارقة عديدون ضحية للأوبئة أو لسوء التغذية ، أو ينتحرون برفض الطعام ، أو يشنقون أنفسهم بسلاسلهم، أو يلقون أنفسهم من السفينة الى المحيط المزروع بزعانف اسماك القرش. وببطء لكن بحزم ، أخذت انجلترا تقوض هيمنة الهولنديين على تجاره العبيد. وكانت شركة بحر الجنوب South Sea Co. هى المستفيدة الاساسية من «حق الاقامة» الممنوح للإنجليز من اسبانيا ، وكان يرتبط بها ابرز شخصيات السياسة والتمويل فى انجلترا ، فقد كانت التجارة تفوق كل ما عداها ، واصابت بورصة الاوراق المالية في لندن بالجنون واشعلت مضاربة خرافية.

لقد رفع نقل العبيد ميناء بريستول، الذى كان مقراً لعمال الترسانة ، إلى مصاف ثانى مدن انجلترا، وحوّل ليفربول الى اكبر ميناء فى العالم. كانت السفن تقلع ومخازنها محمله بالاسلحة، والمنسوجات، والجن، والروم، والتوافه والزجاج الملون ، التى ستكون وسيلة دفع ثمن البضاعة البشرية فى أفريقيا، والتى سيكون ثمنها بدورها هو السكر، والقطن، والبن، والكاكاو من المزارع الاستعمارية الامريكية. وفرض الانجليز سيطرتهم على البحار. وعند أواخر القرن الثامن عشر، كانت افريقيا والكاريبى يوفران عملاً لمائه وثمانين ألف عامل نسيج في مانشستر؛ ومن شيفيلد كانت تأتي السكاكين، ومن برمنجهام، ١٥٠ الف بندقية سنوياً [٤٠]. وكان الزعماء الافارقة يتلقون بضائع الصناعه البريطانية ويسلمون حمولات العبيد الى قباطنه تجارة العبيد. وبهذه الطريقة، كانوا يحصلون على اسلحة جديدة وروم وفير من أجل جولات الإصطياد الجديدة في القري. كذلك كانوا يقدّمون العاج، والشموع، وزيت النخيل. وكان كثير من العبيد يأتون من الغابة ولم يروا البحر أبداً؛ وكانوا يحسبون هدير المحيط زئير وحش مغمور ينتظر أن يلتهمهم أو يعتقدون، حسب شهادة أحد تجار تلك الفترة ، وهم فى ذلك على حق بمعنى معين ، أنهم «سيقتادون مثل الكباش الى المذبح، لأن الاوربيين يقدرون لحمهم جداً [٤١]». ولم تكن السياط ذات السبع شعب تفيد كثيراً فى احتواء اليأس الانتحارى لدى الافريقيين.

كانت «الحُزَم» التى تنجو من الجوع ، والامراض ، وتكدُّس السفن ، تعُرَض فى الأسمال ، جلداً على عظم ، فى الميدان العام ، بعد أن تمر فى استعراض عبر الشوارع ذات الطراز الاستعمارى على أنغام موسيقى القرب. أما من يصلون الى الكاريبى وقد بلغ منهم الارهاق مبلغه فيمكن تسمينهم في مستودعات العبيد قبل جعلهم يلمعون تحت عيون المشترين؛ أما المرضي فيتركون ليموتوا فى المرافئ.

وكان العبيد يباعون نقداً أو بكمبيالات مدتها ثلاث سنوات. وكانت السفن تقلع عائدةً الى ليفربول حاملة مختلف المنتجات الاستوائية : وفى بدايات القرن الثامن عشر، كان ثلاثة أرباع القطن الذى تغزله صناعه النسيج الانجليزية يأتى من جزر الأنتيل ، رغم أن چورچيا ولويزيانا ستصبحان فيما بعد مصدرها الاساسى؛ وفى أواسط القرن، كان هناك مائة وعشرون مصنع لتكرير السكر فى انجلترا.

فى تلك الحقبة ، كان باستطاعه الانجليزى أن يعيش بحوالى سته جنيهات فى السنة؛ لكن تجار العبيد فى ليفربول كانوا يحصلون علي أرباح سنوية تزيد عن مليون ومائة ألف جنيه، إذا حسبنا فقط النقود التي يحصلون عليها من الكاريبى وبدون اضافة ارباح التجارة الاضافية ، وكانت عشر شركات كبيرة تتحكم فى ثلثى التجارة، وافتتحت ليفربول نظاماً جديداً لارصفة السفن؛ فقد ازداد بناء السفن ، وازدادت السفن طولا وحمولة . وكان الصاغة يقدمون «أقفالاً وأطواقاً من الفضة للزنوج والكلاب» ، وكانت السيدات الانيقات تظهرن بين الناس مصحوبات بقرد تكسوه سترة مطرزة وطفل عبد ، بعمامة وسروال فضفاض من الحرير. وقد وصف إحد الاقتصاديين فى ذلك الوقت تجارة العبيد بأنها «المبدأ الاساسى والرئيسى لكل ماعداها؛ مثل الزنبرك الرئيسى للماكينة الذى يحرك كل ترس من تروس المجموعة» . انتشرت البنوك فى ليفربول ، ومانشستر ، وبريستول ، ولندن ، وجلاسجو؛ وتراكمت أرباح شركة لويدز للتأمين بالتأمين على العبيد، والسفن، والمزارع. ومنذ وقت مبكر جداً ، كانت اعلانات صحفية لندن جازيت London Gazette تشير الى أن العبيد الفارين يجب أن يسلّموا الى شركة لويدز. وبأرصده تجارة العبيد أقيمت سكك حديد الغرب الانجليزية الضخمة وولدت صناعات مثل مصانع الاردواز فى ويلز . إن رأس المال المتراكم من التجارة الثلاثية – المنتجات المصنعة ، والعبيد ، والسكر – قد أتاح اختراع الآله البخارية : فقد دعم چيمس وات تجار كونوا ثرواتهم بهذه الطريقة. ويؤكد إريك ويليامز Eric Williams ذلك فى دراسته الموثقة حول هذا الموضوع.

وعند أوائل القرن التاسع عشر ، تحولت بريطانيا الى المحرك الاساسى للحملة ضد تجارة العبيد. فقد اصبحت الصناعة الانجليزية بحاجة الى اسواق دولية لها قوة شرائية أكبر، مما إضطرّها إلي تعميم نظام الأجور. علاوة علي ذلك، فإنه مع أقامة نظام الاسعار فى مستعمرات الكاريبى الانجليزية، استعاد السكر البرازيلى، الذى تنتجة الايدى العاملة من العبيد، بعض المزايا بسبب تكاليفه المنخفضة نسبياً (٤٢). إنطلقت

البحرية البريطانية تهاجم سفن تجارة العبيد، لكن التجارة ظلت تنمو لتزويد كوبا والبرازيل. وقبل أن تصل السفن الحربية الانجليزية الى سفن القراصنة، كان العبيد يلقون فى الماء : وفى الداخل لم تكن تتبقى سوى الرائحة ، وأوانى الطهى الساخنة ، وقبطان يموت من الضحك فى كمه . ورفع قمع الإتجار الاسعار وزاد الارباح بشكل كبير. وفى منتصف القرن ، كان التجار يعطون بندقية قديمة مقابل كل عبد قوى ينتزع من افريقيا ، ليعيدو بيعه فى كوبا بأكثر من ستمائة دولار.

كانت جزر الكاريبى الصغيرة أهم ، لانجلترا ، بكثير من مستعمراتها الشمالية. وقد حظرت على باربادوس ، وجامايكا ، ومونتسرات Montserrat أن تصنع بنفسها إبره أو حدوة حصان. وكان وضع نيو إنجلند مختلفاً تماماً ، مما سهل تطورها الاقتصادى ، وكذلك استقلالها السياسى.

ومن المؤكد أن تجارة الزنوج فى نيوإنجلندا كانت مصدر جزء كبير من رأس المال الذى سهل الثورة الصناعية فى الولايات المتحدة الامريكية . فعند منتصف القرن الثامن عشر، كانت سفن تجارة العبيد الشمالية تحمل من بوسطن، ونيوبورت، أو برفيدنس براميل مملوءة بالروم الى سواحل افريقيا؛ وفى افريقيا تستبدلها بالعبيد؛ وتبيع العبيد فى الكاريبى وتحمل المولاس من هناك الى ماساشوستس ، حيث يقطّر ويحوّل الى روم، لتكتمل الدورة. كان افضل روم فى جزر الانتيل ، وهو الوست إنديان روم West Indian Rum ، لا يصنّع فى جزر الانتيل .

وبرؤوس الاموال المجلوبة من تجارة العبيد هذه ، أقام الاخوة براون Brown ، من بروفيدنس ، فرن الصهر الذى أمد الجنرال جورج واشنطن بالمدافع من أجل حرب الإستقلال [٤٣]. أما مزارع السكر فى الكاريبى ، والمحكوم عليها بالزراعه الاحادية للقصب ، ، فلا تستطيع فحسب أن تعتبر نفسها المركز الفعال لتطور «المستعمرات الثلاث عشرة» بسبب الدفعة التى اعطتها تجارة العبيد لصناعه السفن ولمعامل تقطير نيوإنجلند . بل إنها كذلك كانت تمثل السوق الكبيرة لتطوير الصادرات من الاغذية ، والاخشاب، ومختلف الادوات الموجهة الى معامل التكرير، مما أتاح جدوى اقتصادية للاقتصاد الزراعى والصناعى الواعى لشمال الاطلنطى. وإلى حد كبير، كانت السفن المصنوعة فى ترسانات المستعمرين الشماليين تحمل الى الكاريبى اسماكاً طازجة ومدخنة، وشوفاناً وحبوباً، وفاصوليا ، ودقيقاً، وزبداً ، وجبناً ، وبصلاً ، وخيولاً وثيران، وشموعاً وصابون، ومنسوجات ، والواحاً من خشب الصنوبر والسنديان والارز من أجل

صناديق السكر (وقد نالت كوبا أول منشار بالبخار يصل الى امريكا الاسبانية لكنها لم تكن تملك الخشب الذى يقطعه) وأضلاع براميل وأطواقها ، وحلقات ، ومسامير.

هكذا جرى تفريغ الدم خلال كل هذه العمليات وتطورت البلدان المتطورة فى أيامنا، وتخلّفت البلدان المتخلفة.

■ قوس قزح هو طريق العودة إلى غينيا

فى عام ١٥١٨ ، كتب المحامى الونسو ثواثو Alonso Zuazu الى كارلوس الخامس من الدومينيكان يقول : «إن الخوف من أن يتمرد العبيد عبث؛ وثمة أرامل فى جزر البرتغال هادئات جداً ومعهن ثمانمائة عبد؛ الامر كله يتلخص فى كيف يُساسون. لقد وجدت عند وصولى بعض الزنوج العنيدين ، وآخرين هربوا الى الجبل؛ فجلدت بعضهم ، وقطعت آذان آخرين؛ ولم تعد تحدث متاعب» . وبعد أربع سنوات اندلعت أول انتفاضة للعبيد فى أمريكا : كان عبيد دييجو كولومبس Diego Colon ، إبن مكتشف امريكا ، هم أول من ثاروا وإنتهى بهم الامر الى أن علقوا فى المشانق فى ممرات معمل تكرير السكر [٤٤]. وتلت ذلك تمردات أخري في سانتو دومينجو ثم في كل جزر السكرّ بالكاريبي. وبعد قرنين من انتفاضة دييجو كولومبس، وفى الطرف الاخر لنفس الجزيرة، هرب العبيد الفارون الى اعلى مناطق هايتى وأعادوا اقامة الحياة الافريقية فى الجبال : اعادوا زراعه الغذاء، وعبادة الارباب، والعادات. ومازال قوس قزح ، فى الوقت الحاضر ، يشير الى طريق العودة الى غينيا بالنسبة لشعب تاهيتى. وفى سفينة ذات شراع ابيض ... فى جويانا الهولندية، عبر نهر كورانتين، ومازالت باقية منذ ثلاثة قرون تجمعات زنوج الدجوكا Djukas ، المنحدرين من سلالة العبيد الذين فروا عبر غابات سورينام. فى هذه القرى، ما زالت هناك «محاريب مماثلة لمحاريب غينيا، وتجرى رقصات وإحتفالات يمكن أن تتم فى غانا. وتستخدم لغة الطبول، الشديدة الشَبَه بطبول الأشانتى» [٤٥]. وقد وقع أول تمّرد كبير للعبيد فى جويانا بعد مائه عام من فرار زنوج الدجوكا : وقد استعاد الهولنديون المزارع وأحرقوا على نار هادئة زعماء العبيد. لكن قبل زمن من فرار زنوج الدجوكا ، كان عبيد البرازيل الابقين قد نظموا مملكة بالمارس Palmares الزنجية، فى الشمال الشرقى البرازيلى، وقاوموا ظافرين، طوال

القرن السابع عشر، حصار عشرات الحملات العسكرية التى جردها الهولنديون والبرتغاليون، الواحدة تلو الاخرى، لإسقاط هذه المملكة. كانت هجمات الاف الجنود بلاجدوى فى مواجهة تكتيكات محاربى العصابات التى جعلت هذا الملاذ الرحيب منيعاً ، حتى عام ١٦٩٣ . كانت مملكة بالمارس المستقلة – هذه الدعوة الى التمرد ، وراية الحرية – قد نظمت كدولة «على غرار الدول الكثيرة التى كانت توجد فى افريقيا خلال القرن السابع عشر» (٤٦). وامتدت من المناطق المجاورة لكابودى سانتو أجوستنييو Cabo De Santo Agostinho ، فى برنامبوكو Pernambuco ، حتى المنطقة الشمالية لنهر سان فرنسيسكو ، فى الاجواس Alagoas : وكانت تعادل ثلث اراضى البرتغال ويحوطها حزام كثيف من الغابات البدائية. وكان الزعيم الاعلى يختار من بين اكثرهم مهارة وحكمة: كان يحكم من يتمتع «بأوفر منزلة وسعادة فى الحرب أو فى القيادة» (٤٧). فى قمة حقبة مزارع السكر الكلية القدرة، كانت بالمارس هى الركن الوحيد فى البرازيل الذى تتطور فيه زراعه محاصيل متعددة. على هدى خبرتهم التى اكتسبوها بأنفسهم أو أكتسبها اسلافهم فى المراعى أو فى الغابات الاستوائية الافريقية، كان الزنوج يزرعون الذرة، والبطاطا ، والفاصوليا ، والمنيهوت ، والموز وأغذية اخرى. ولم يكن عثباً أن يبدو تدمير المزروعات كأنه الهدف الرئيسى للقوات الاستعمارية التى تحاول استعادة أولئك الرجال الذين هربوا من المزارع بعد أن عبروا المحيط والسلاسل فى اقدامهم.

كان وفرة الاغذية فى بالمارس تتناقض مع الندرة التى تعانى منها مناطق زراعه السكر الساحلية ، فى ذروة الرخاء. كان العبيد الذين ظفروا بحريتهم يدافعون عنها ببراعة وشجاعة لأنهم يقتسمون ثمارها : فقد كانت ملكية الأرض مشاعية ولم يكن في دولة الزنوج نقود. ولاتوجد فى تاريخ العالم أى ثورة عبيد ممتدة قدر إمتداد ثورة بالمارس. فقد دامت ثورة سبارتاكوس ، التى هزت أهم نظم العبودية فى العالم القديم ، ثمانية عشر شهراً» (٤٨). ومن أجل المعركة الفاصلة حشد التاج البرتغالى أكبر جيش شهدته البلاد حتى استقلال البرازيل بعد ذلك بزمن طويل.

وقد دافع عن آخر حصون بالمارس مالا يقل عن عشرة آلاف شخص؛ وقطعت رؤوس من بقوامنهم على قيد الحياه ، أو قُذف بهم من حالق، أو بيعوا لتجار ريودى جانيرو وبوينوس آيرس. وبعد عامين وقع الزعيم زومبى Zumbi ، بفعل الخيانة ، وهو من يعتبره العبيد خالداً. حوصر فى الغابة وقطعت رأسه. لكن التمردات استمرت. ولن يمر وقت طويل قبل أن يعود الكابتن بارتولوميو بوينو دو برادو Bartolomeu Bueno Do

Prado من نهر داس مورتش Das Mortes محملاً بغنائم الانتصار على انتفاضة جديدة للعبيد ، ويحضر معه ثلاثة الاف وتسعمائة زوج من الاذان محملة على ظهور الخيول.

كذلك جرت الانتفاضات فى كوبا. وكان بعض العبيد ينتحرون فى جماعات؛ ويسخرون بذلك من السيد «بإضرابهم الأبدى وفرارهم الذى لا ينتهى فى العالم الاخر» كما يقول فرناندو أورتيث Fernando Ortiz . وكانوا يعتقدون أنهم، بهذه الطريقة، يبعثون بجسمهم وروحهم ، فى إفريقيا. فكان السادة يشوهون الجثث، حتى يبعثوا خصياناً، أو مقطوعى اليد أو الرأس ، وعلى هذا النحو يتخلى الكثيرون عن فكرة الانتحار. وحوالى عام ١٨٧٠ ، حسب الرواية الحديثة لعبدٍ هرب فى شبابه الى جبال لاس پياس Las Villas ، لم يعد العبيد ينتحرون فى كوبا. ومن طريق حزام سحرى، «أخذوا يطيرون، يطيرون فى السماء ويبلغون أرضهم» أو يضيعون فى الجبال لان «أى شخص يتعب من الحياه. ومن يتعودون تكون روحهم رخوة. كانت الحياه فى الجبل افضل» (٤٩).

ظلت الآلهة الافريقية حيّة بين عبيد أمريكا مثلما بقيت حيةً، بفعل الحنين ، أساطير وخرافات الاوطان الضائعة. ومن الواضح أن الزنوج عبّروا بهذا النحو ، فى احتفالاتهم، وفى رقصهم ، وفى ضراعاتهم، عن ضرورة تأكيد هويّة ثقافية كانت المسيحية تنكرها. لكنهم لابد وأنهم قد تأثروا كذلك بحقيقة أن الكنيسة مرتبطة مادياً بنظام الاستغلال الذى يعانون منه.

وفى أوائل القرن الثامن عشر، بينما كان عبيد الجزر الانجليزية المدانون فى جرائم يموتون سحقاً بين رحى معاصر السكر ، وفى المستعمرات الفرنسية يُحرقون أحياء أو يعذبون مقيدين الى العجلات، صاغ الراهب الچزويتى أنطونيل Antonil نصائح رقيقة لاصحاب معامل السكر فى البرازيل ، حتى يتجنبوا مثل هذه التجاوزات : «لايجب أن يوافق المديرون بحال على الضرب بالشلوت خصوصاً فى بطن النساء الحوامل أو على ضرب العبيد بالهراوات، لأن الغضب يعمى عن الضرب بتعقل ويمكن أن يُجرح عبد كفء، يساوى مبلغاً كبيراً، فى رأسه، ونفقده» (٥٠). وفى كوبا ، كان رؤساء العمال يجلدون بسياطهم المصنوعه من الجلد أو القنب ظهور العبيد من النساء الحوامل اللاتى ترتكبن خطأ ، لكن بعد أن يطرحوهن على بطونهن، والبطن مستقرة فى حفرة، حتى لا يفسدوا «القطعة» الجديدة التى مازالت تتشكل. أما الكهنة، الذين يتلقون خمسة فى المائة من انتاج السكر كضريبة عشور، فقد منحوا غفرانهم المسيحى : فرئيس العمال يعاقب الخطاه مثل يسوع المسيح. وقد نشر القاصد الرسولى خوان برپينيا إى پيرنات Juan

Perpin`a y Pibernat عظاته للزنوج «ايها التعساء ! لا تفزعوا من أن تكون العقوبات التى عليكم أن تعانوها بوصفكم عبيداً كثيرة. فقد يكون جسدكم عبداً : لكن روحكم حرة لتطير ذات يوم الى دار المختارين السعيدة» (٥١).

إن رب المنبوذين ليس هو دائماً نفس رب النظام الذى يجعلهم منبوذين. ورغم أن الديانه الكاثوليكية تضم ، حسب المعلومات الرسمية ، نسبة ٩٤ فى المائة من سكان البرازيل ، فإن السكان الزنوج يحتفظون ، فى الواقع ، بتقاليدهم الافريقية حية كما تواصل الحياة عقيدتهم الدينية، متخفيةً في الأغلب خلف التصاوير المقدسة في المسيحية.(٥٢)، وتُصادف العقائد ذات الجذور الافريقية أنتشاراً واسعاً بين المضطهَدين – مهما كان لون جلدهم. ونفس الشئ يحدث فى جزر الانتيل. فآلهة الفودو Vudu` فى هايتى، وآلهة البيمبيه Bembe` فى كوبا والأومباندا Umbanda والكيمباندا quimbanda فى البرازيل ما زالت نفس الآلهة، برغم التحولات التى طرأت، بدرجة أو بأخرى، على الطقوس والآلهة الاصلية، عند انتقالها الى الاراضى الامريكية. وفى الكاريبى وفى اقليم باهيا Bahia ينشدون الاناشيد الاحتفالية بلغات الناجو Nago ، واليوروبا Yoruba، والكونغو Congo ، وغيرها من اللغات الافريقية. وفى ضواحى المدن الضخمة جنوبى البرازيل، فى المقابل ، تسود اللغة البرتغالية ، لكن نبتت من شاطئ غرب افريقيا آلهة الخير والشر التى عبرت القرون لتتحول الى الاشباح المنتقمة للمنبوذين، أولئك البشر المهانين الذين يتضرعون فى ڤافيلات Favelas * ريودى جانيرو صارخين :

ياقوة باهيا ،
أيتها القوة الإفريقية ،
أيتها القوة الإلهية ،
تعالى .

* ڤافيلا Favela : هى الأحياء البائسة من عشش الصفيح، وعادةً ما تشكل ما يسمى بحزام الفقر حول المدن الكبيرة وتضم الهامشيين وقاع السلم الإجتماعى – م.

■ تعالى لتساعدينا.

بيـــع الفلاحـين

فى عام ١٨٨٨ إلغى الرق فى البرازيل ، لكن لم يتم الغاء اللاتيفوندیا وفى نفس هذا العام كتب أحد الشهود من شيارا Ceara` يقول : « ظلت سوق الماشية الادمية مفتوحة طالما استمر الجوع ، فهناك دائماً كثير من المشترين. وكان من النادر أن يتصاعد دخان ولايجذب عدداً كبيراً من اهالى شيارا » (٥٣). وقد هاجر نصف مليون من أهالى الشمال الشرقى إلي منطقة الأمازون، سعياً وراء سراب المطاط، حتي مطلع القرن؛ ومنذ ذلك الحين استمرت الهجرة ، بدافع نوبات الجفاف الدورية التى دمرت السرتون وبدافع الموجات المتتالية لتوسع لاتيفونديات السكر لمنطقة القصب .

وفى عام ١٩٠٠ هجر شيارا أربعون الفاً من ضحايا الجفاف. وسلكوا الطريق المعتادة حينئذ : طريق الشمال باتجاه الغابة. وقد تغير المسار فيما بعد ، ففى أيامنا يهاجر سكان الشمال الشرقى الى وسط وجنوب البرازيل. وقد قذف جفاف عام ١٩٧٠ بأفواج من الجوعى على مدن الشمال الشرقى. فنهبوا القطارات والمتاجر؛ وهم يضرعون الى القدس خوسيه صارخين أن يسقط المطر. إنطلق «المجلودون » الى الطرق. وتنقل برقية فى ابريل عام ١٩٧٠ أن : شرطة ولاية برنامبوكو اعتقلت يوم الاحد الماضى، فى بلدية بيليم دوسان فرنسيسكو Bele`n do Sa`o Franciso ، ٢١٠ فلاحاً سوف يباعون لملاك زراعيين من ولاية ميناش جيرايش بسعر ثمانية عشر دولاراً للرأس» (٥٤). والفلاحون من پاراييا Paraiba وريو جراندى دونورتى Rio Grande do Norte ، وهما اشد الولايات تضرراً من الجفاف. وفى يونيو ، نقلت البرقيات تصريحات رئيس الشرطة الفيدرالية : فإداراته لا تملك بعد الوسائل الفعالة من أجل وضع نهاية لتجارة العبيد ، ورغم أنه خلال الشهور الاخيرة بدأت عشر عمليات تحقيق ، مازال بيع عمال الشمال الشرقى مستمراً للملاك الاغنياء فى المناطق الاخرى من البلاد.

تضمّن رواج Boom المطاط وصعود البن فيالق ضخمة من عمال الشمال الشرقى. لكن الحكومة كذلك تستفيد من هذا الفيضان من الايدى العاملة الرخيصة ، فهو جيش احتياطى ضخم من أجل الاشغال العامة الكبيرة . ومن الشمال الشرقى قدم ، مُساقين كالماشية ، الرجال العراه الذين شيدوا فى يوم وليلة مدينة برازيليا فى قلب الصحراء. هذه المدينة ، أحدث مدينة فى العالم ، يحوطها الان حزام فقر عريض : فبعد انتهاء

عملهم ألقى الكاندانجو Candangos الى الاحياء الهامشية. وفى هذه الاحياء يعيش على فضلات العاصمة المتلألئة ثلاثمائة الف من اهالى الشمال الشرقى ، مستعدون على الدوام لأى خدمة.

والان يفتح العمل العبودي لأهالي الشمال الشرقي الطريق العظيم عبر الامازون ، الذى سيقسم البرازيل الى قسمين ، مخترقاً الغابة حتى الحدود مع بوليفيا. كما تتضمن الخطة مشروعاً للاستيطان الزراعى من أجل مد «حدود الحضارة». فسوف ينال كل فلاح عشر هكتارات من الارض ، اذا نجى من صنوف الحمّى الاستوائية فى الغابات. وفى الشمال الشرقى هناك ستة ملايين من الفلاحين المعدمين ، بينما يملك خمسة عشر الف شخص نصف المساحة الاجمالية. ولا يطبق الاصلاح الزراعى فى الاقاليم المأهولة فعلاً ، حيث يظل حق اللاتيفونديين فى الملكية مقدساً ، بل يطبق فى قلب الغابة. ويعنى هذا أن «المجلودين» من الشمال الشرقى سوف يفتحون الطريق أمام توسع اللاتيفوندية فوق مساحات جديدة. بدون رأس مال، وبدون وسائل عمل، ماذا تعنى عشرة هكتارات على بعد ألفين أو ثلاثة آلاف كيلو متر من مراكز الاستهلاك ؟ ويستخلص من هذا أن الاهداف الحقيقة للحكومة مختلفة تماماً : هى تقديم أيد عاملة للاتيفونديين الامريكيين الشماليين الذى اشتروا أو اغتصبوا نصف الاراضى شمالى نهر الريو نجرو Rio Negro وكذلك لشركة يونايتيد ستيتس ستيل United States Steel Co. ، التى تلقت من يد الجنرال جرّاستازو ميديش Garrastazu` M'edici المنابع الثرية للحديد والمنجنيز فى الامازون(٥٥).

■

دورة المطاط : كاروزو يفتتح مسرحاً ضخماً في قلب الغابة

يُقدّر بعض المؤلفين أن ما لا يقل عن نصف مليون من أهالى الشمال الشرقى قد راحوا ضحية للأوبئة ، والملاريا ، والسُّل أو مرض البرى برى خلال فترة إزدهار المطاط. «أن هذا الكوم المشئوم من العظام ، كان هو ثمن صناعة المطاط» (٥٦). دون أى رصيد من الڤيتامينات ، كان فلاحو الاراضى الجافة يقومون بالرحلة الطويلة صوب الغابة الرطبة ، وهناك، فى مزارع المطاط المليئة بالبرك ، كانت تنتظرهم الحُمى . ثم يمضون مزدحمين

في مستودعات السفن في ظروف تجعل الكثيرين ينهارون قبل أن يصلوا؛ على هذا النحو ، كانوا يستبقون مصيرهم القريب. وكان آخرون لا يبلغون حتى حد ركوب السفن. وفي عام ١٨٧٨ ، ومن بين سكان شيارا الثمانمائة الف، مضى صوب الامازون ١٢٠ ألفاً، لكن لم يصل الى هناك سوى اقل من نصفهم؛ وأخذ الباقون يتساقطون، بفعل الجوع أو المرض ، في طرق السرتون أو في ضواحي فورتاليزا Fortaleza (٥٧). وقبلها بعام ، كانت قد بدأت واحدة من كوارث الجفاف السبعة الكبرى بين تلك التي اصابت الشمال الشرقي خلال القرن الماضي .

وليست الحمى وحدها ما ينتظرهم؛ فكذلك ينتظرهم في الغابة نظام عمل شديد الشبه بالعبودية. كان الاجر يُدفع عيناً – في شكل لحم مجفف ، ودقيق منيهوت، وسكر أسمر ، وروم – حتى يسدد جامع المطاط (سرينجيرو) Seringuiro ديونه ، وهي معجزة نادراً ما تحدث. وكان هناك اتفاق بين اصحاب الشركات على الا يعطوا عملاً للعمال الذين ما زالت عليهم ديون؛ وكان الحرس الريفيون، الموزعين علي حواف الأنهار، يطلقون النار على الفارين. كانت الديون تتراكم فوق الديون، فإلى الدين الاصلي مقابل جلب العامل من الشمال الشرقي ، يضاف الدين مقابل أدوات العمل، المنجل، والسكين، والدلاء ، ولما كان العامل يأكل، بل يشرب في المقام الاول، فلم يكن الروم شحيحاً في مزارع المطاط ، فقد كان الدين الذي يتراكم عليه يكبر بقدر أقدميته في العمل. ولأنهم أميون، كان أهالي الشمال الشرقي يعانون دون دفاع من أحابيل التلاعب في حسابات المديرين.

كان بريستلي Priestley قد لاحظ، حوالي عام ١٧٧٠ ، أن المطاط يمحوا آثار القلم الرصاص من الورق. وبعد ذلك بسبعين سنة ، اكتشف تشارلز جودييير Charles Goodyear والانجليزي هانكوك Hancock في وقت واحد ، طريقة تقسية المطاط ، التي تمنحه اللدونة وتجعله لا يتأثر بتغيرات الحرارة. وفي عام ١٨٥٠ ، كانت اطارات السيارات تكسى فعلاً بالمطاط. وفي نهاية القرن، ظهرت صناعة السيارات في الولايات المتحدة وأوربا، وولد معها استهلاك الاطارات الهوائية بكميات كبيرة. وتصاعد الطلب العالمي على المطاط تصاعداً رأسياً. كانت شجرة المطاط تقدّم للبرازيل ، عام ١٨٩٠ ، عشر أرباح الصادرات؛ وبعد عشرين سنه، زادت النسبة الى اربعين بالمائة ، مما جعل المبيعات تكاد تبلغ مستوى البن ، رغم أن البن كان ، حوالي عام ١٩١٠ ، في اوج ازدهاره. وكان معظم انتاج المطاط يأتي في ذلك الحين من اقليم أكرى Acre ، الذي

انتزعته البرازيل من بوليفيا فى ختام حملة عسكرية خاطفة (٥٨).

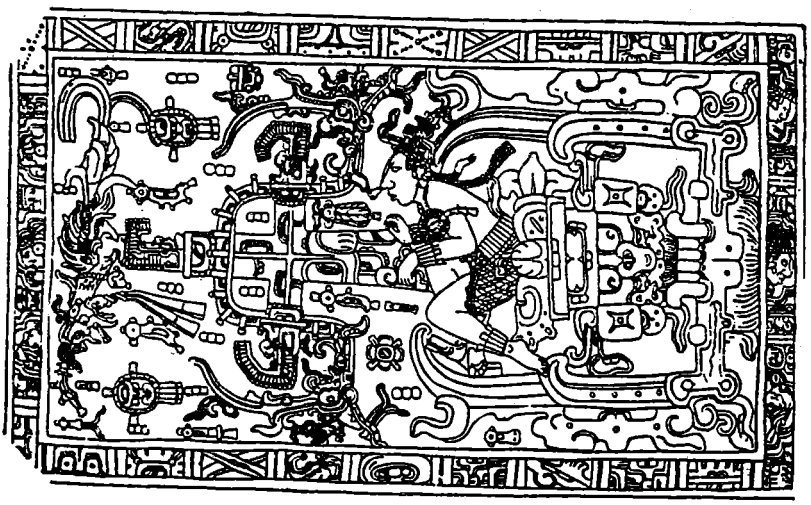
وبالاستيلاء على اكرى ، سيطرت البرازيل على مجمل الاحتياطيات العالمية من المطاط تقريباً؛ كانت الاسعار الدولية فى ذروتها وبدا أن الاوقات الطيبة ستستمر الى الابد ، ولم يتمتع جامعو المطاط Seringueiros بتلك الاوقات ، بالتأكيد ، رغم أنهم هم من يخرجون كل شروق من أكواخهم، وعده أوعية مربوطة بخيوط على ظهورهم، ويتسلقون الاشجار، أشجار Hevea Brasiliensis الضخمة ، لكى يجرحوها. كانوا يقطعون عدة جروح ، فى الجذع وفى الاغصان السميكة القريبة من القمة؛ وكانت العصارة تنساب من الجروح ، وهى عصارة بيضاء لزجة تملأ الأوعية فى ساعتين. وفى المساء ، تُطبخ أقراص المطاط المستوية ، التى ستتراكم بعد ذلك فى ادارة المزرعة. وكانت الرائحة الحمضية والمنفّرة للمطاط تملأ مدينة ماناوس Manaus ، العاصمة العالمية لتجارة الناتج. فى عام ١٨٤٩ كان تعداد سكان ماناوس خمسة آلاف؛ وخلال ما يزيد قليلاً عن نصف قرن زاد الى سبعين الفاً، وشيد اقطاب المطاط هناك دورهم الضخمة ذات المعمار الباذخ و المليئة بالاخشاب الثمنية من أورينتى Oriente ، والخزف المطلى بالمينا من البرتغال ، والاعمدة المرمرية من كارّارا Carrara ، والموبيليات الفرنسية. وكان اثرياء الغابة الجدد يجلبون أغلى الاغذية من ريودى جانيرو؛ وكان افضل مصممى الموضة فى أوربا يفصلون بزاتهم وفساتينهن؛ وكانوا يرسلون أبناءهم ليدرسوا فى المدارس الانجليزية، ويعد مسرح الامازون ، وهو بناء باروكى ضخم سئ الذوق، اكبر رمز لدوار تلك الثروات فى أوائل القرن : وقد غنى التينور كاروزو من أجل سكان ماناوس ليلة الافتتاح، مقابل مبلغ خيالى، بعد أن صعّد فى النهر خلال الغابة. أما باڤلوڤا Pavlova ، راقصة الباليه التى كان من المفروض أن ترقص ، فلم تستطع تجاوز مدينة بيليم ، لكنها أرسلت اعتذاراتها.

وفى عام ١٩١٣ ، وبضربة واحدة ، حلت الكارثة بالمطاط البرازيلى، فالسعر العالمى، الذى كان قد وصل الى اثنى عشر شلناً قبل ثلاث سنوات ، هبط الى الربع. وفى عام ١٩٠٠ ، كان اقليم أورينتى قد صدّر أربعة أطنان فقط من المطاط؛ وفى عام ١٩١٤ ، صبت مزارع سيلان وماليزيا اكثر من سبعين الف طن فى السوق العالمية ، وبعد خمس سنوات كانت صادراتها قد بلغت أربعمائة الف طن. وفى عام ١٩١٩ ، كانت البرازيل ، التى تمتعت بالاحتكار الفعلى للمطاط ، لا تقدم سوى ثمن الاستهلاك العالمى ، وبعد نصف قرن ، أخذت البرازيل تشترى من الخارج أكثر من نصف المطاط الذى تحتاجه.

فما الذى حدث ؟ حوالى عام ١٨٧٣ ، كان هنرى ويكهام Henry Wickham وهو انجليزى يملك غابات مطاط فى منطقة نهر الريو تاباجوس Tapajos ، معروفاً بجنون هواية النباتات ، وقد أرسل رسوماً وأوراقاً من شجرة المطاط الى مدير حديقة كيو Kew، فى لندن. فتلقى أمراً بالحصول على كمية جيدة من البذور ، وهى الحبوب التى تحتويها شجرة الـ Hevea Brasiliensis داخل ثمارها الصفراء. وكان لابد من تهريبها ، لأن البرازيل كانت تفرض عقوبات قاسية على تهريب البذور، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً : فقد كانت السلطات تفتش المراكب تفتيشاً دقيقاً. ومن ثم، دخلت احدى سفن شركة انمان لاين Inman Line نحو داخل البرازيل لمسافة الفين من الكيلو مترات اكثر من المعتاد، وكأن ذلك بدافع المتعه. وعند عودتها ، ظهر بين طاقمها هنرى ويكهام. كان قد أنتقى افضل البذور، بعد أن ترك الثمار تجف فى أحدى قرى الهنود، وأحضرها داخل قمرة مغلقة ، ملفوفة فى أوراق الموز ومعلقة بخيوط من السقف حتى لا تبلغها الفئران على سطح السفينة. وكانت بقية السفينة خالية ، وفى بيليم دو باراه Bele`m do Par`a ، فى مواجهة مصب النهر ، دعى ويكهام المسئولين الى مأدبة كبيرة. كان الانجليزى مشهوراً بأنه مهووس. وكان معروفاً فى كل الامازون بأنه يجمع الاوركيد. وأوضح أنه يحمل ، بتكليف من ملك انجلترا ، مجموعة من ابصال الاوركيد النادرة من أجل حديقة كيو. وشرح أن النباتات بالغة الحساسية ، ولهذا يحفظها فى قمرة مغلقة بإحكام، وفى درجة حرارة خاصة : واذا فتحها، فسوف تموت الزهور. وهكذا، وصلت البذور، سليمة، الى مرافئ ليفربول. وبعد اربعين سنه ، غزا الانجليزى السوق العالمية بمطاط الملايو. هذه المزارع الاسيوية، المنظمة بطريقة عقلانية على أساس شتلات كيو الخضراء أزاحت، دون صعوبة ، الانتاج البرازيلى .

تحولت الرفاهية الأمازونية الى دخان ، وعادت الغابة لتنغلق على نفسها. وهاجر الباحثون عن الثروات الى مناطق اخرى؛ وتم تفكيك المعسكر الفاخر. طبعاً بقى على قيد الحياه ، كيفما اتفق ، العمال ، الذين كانوا قد سيقوا من أنحاء نائية ليوضعوا فى خدمة المغامرة الاجنبية. الاجنبية كذلك ، بالنسبة للبرازيل ذاتها ، التى لم تفعل سوى الاستجابة لغناء حوريات الطلب العالمى على المادة الاولية، دون أن تشارك بأقل القليل فى تجارة المطاط الحقيقية : فى التمويل، والتسويق، والتصنيع، والتوزيع. واصبحت الحورية خرساء ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، واكتسب مطاط الامازون دفعه عابرة جديدة. كان اليابانيون قد احتلوا ماليزيا وكانت القوات المتحالفة بحاجة يائسه

إلى امدادات المطاط. كذلك إهتزت الغابة البيروانية بدورها، خلال أربعينات، بفعل المتطلّبات العاجلة من المطاط [٥٩]. وفي البرازيل، حشدت ما تسمى باسم «معركة المطاط» من جديد فلاحي الشمال الشرقي. ووفق تقرير قدم في الكونجرس حين انتهت «المعركة»، كان الموتى في هذه المرة خمسون الفاً ، هزمتهم الأوبئة والجوع ، وبقوا ليتعفنوا بين مزارع المطاط.



■ مزارعو الكاكاو يشعلون سيجارهم بأوراق عملة من فئة خمسمائة ألف ريس

خلال زمن طويل، وحدّت فنزويلا نفسها بالكاكاو، وهو النبات الامريكى الأصل. يقول رانخل Rangel «نحن الفنزويليين قد صُنعنا لنبيع الكاكاو ولنوزع، فى ارضنا ، التوافه الاجنبية» (٦٠) . وتشكّل أوليجاركيات الكاكاو ، مع المرابين والتجار «ثالوثا مقدساً للتأخر» ، وبالاضافة الى الكاكاو ، وكجزء من حاشيته، توجد تربية الماشية فى السهول ، والنيلة ، والسكر، والتبغ ، وكذلك بعض المناجم؛ لكن الكاكاو العظيم (جران كاكاو) Gran Cacao كان هو الاسم الذى عمد به الشعب ، عن حق ، أوليجاركية كاراكاس الاستعبادية . فعلى حساب عمل الزنوج ، أثرت هذه الاوليجاركية عن طريق امداد أوليجاركية المناجم المكسيكية والمتروبول الاسبانى بالكاكاو. ومنذ عام ١٨٧٣ ، أفتتح فى فنزويلا عصر البن؛ ومثل الكاكاو ، يتطلب البن أراض منحدرة أو سهولاً دافئة ، ورغم دخول هذا المتطفل الجديد ، واصل الكاكاو توسّعه ، بكل الطرق ، وغزا أراضى كاروبانو Car`upano الرطبة ، وظلت فنزويلا بلداً زراعياً ، محكوماً عليه بصليب التدهور الدورى فى أسعار البن والكاكاو؛ وكلا المنتجين يمدان العواصم التى تتيح الحياة الطفيلية، حياة الاسراف، لملاكهما، وتجارهما، والمرابين. وظل ذلك حتى عام ١٩٢٢ ، حتى تحولت البلاد فجأه الى منبع للبترول. ومنذ ذلك الحين ، تحكم البترول فى حياة البلاد . وجاء تدفق الثروة الجديدة ليبرر، بعد تأخير إستمر أكثر من أربعة قرون، توقعات المكتشفين الاسبان : اذ أنهم فى بحثهم دون طائل عن الملك الذى يستحم فى الذهب ، كانوا قد بلغوا من الجنون حداً جعلهم يحسبون أن احدى قرى ماركايبو هى فينيسيا ، وهو سراب تدين له فنزويلا بإسمها ، كما اعتقد كولومبس أن الفردوس الارضى يستقر فى خليج باريا Paria (٦١).

وخلال العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر، انفتحت شهية الأوربيين والامريكيين الشماليين لتناول الشيكولاته. وأعطى تطور الصناعة دفعه قوية لمزارع الكاكاو فى البرازيل وحفز الانتاج فى المزارع القديمة فى فنزويلا وإكوادور، فى البرازيل، دخل الكاكاو بقوة الى الساحة الاقتصادية فى نفس الوقت مع المطاط، ومثل المطاط، أتاح عملاً لفلاحى الشمال الشرقى. كانت مدينة سلفادور، فى باهيا كل القديسين Bahia de

Todos Las Santos ، واحدة من أهم مدن أمريكا، كعاصمة للبرازيل وللسكر، وولدت فى ذلك الحين كعاصمة للكاكاو . وإلى الجنوب من باهيا، من الريكونكافو Riconcavo حتى ولاية إسبيريتو سانتو (الروح القدس) Espirito Santo ، بين أراضى الشريط الساحلى المنخفضة وسلسلة الجبال الساحلية، تواصل المزارع فى أيامنا، تقديم المادة الخام لجزء كبير من الشيكولاتة التى يستهلكها العالم. ومثل قصب السكر، جلب الكاكاو معه الزراعة الاحادية ، وحرق الغابات ، ودكتاتورية الاسعار الدولية، والفاقة المتصلة للعمال . أما ملاك المزارع، الذين يعيشون فى بلاچات ريودى چانيرو ويعتبرون تجاراً أكثر من كونهم زراعاً، فيحظرون تخصيص شبر واحد من الارض لمزروعات أخرى. ويدفع المديرون الاجور عيناً فى العادة، لحماً قديداً ، ودقيقاً، وفاصوليا؛ وحين يدفعون الاجور نقداً، يتلقى الفلاح مقابل يوم عمل كامل أجراً يعادل ثمن لتر من البيرة، ولابد له أن يعمل يوماً ونصف يوم اذا اراد شراء علبة لبن مجفف.

لقد تمتعت البرازيل لزمن معقول بأفضال السوق الدولية. ورغم ذلك، وجدت فى افريقيا منافسين اقوياء منذ ذروة الرواج. فمع حلول عقد العشرينات، كانت غانا قد إحتلت المركز الاول: فقد طور الانجليز مزارع الكاكاو على نطاق واسع، وبأساليب حديثة، فى هذا البلد الذى كان عندئذ مستعمرة تسمى ساحل الذهب، وتراجعت البرازيل الى المركز الثانى، وإلى المركز الثالث بعدها بسنوات، كمورّد عالمى للكاكاو ، لكن كان ثمة أكثر من فترة لم يكن أحد خلالها ليستطيع أن يصدق أن مصيراً متواضعاً ينتظر الاراضى الخصبة جنوبى باهيا. هذه الاراضى التى كانت بكراً طوال الفترة الاستعمارية، أخذت تضاعف الثمار: كان الاجراء يقطعون الثمار بضربات السكاكين ويجمعون البذور، ويحملونها فى العربات حتى تقودها الحمير الى الاجران، وأصبح من الضرورى قطع المزيد من الغابات، وفتح ثغرات جديدة، وغزو أراض جديدة بحد السكين وطلقات الرصاص. ولم يكن الاجراء يعرفون شيئاً عن الاسعار أو الاسواق. ولم يكونوا حتى يعرفون من الذى يحكم البرازيل: وحتى سنوات قريبة كان هناك عمال فى الفازندات* Fazendas مقتنعون أن الدون بدرو الثانى، الامبراطور، مازال على العرش. وكان سادة الكاكاو يفركون ايديهم : فهم يعرفون، أو يعتقدون انهم يعرفون. تزايد الاستهلاك وزادت معه الاسعار والارباح. كان ميناء إليّوس Ilheus ، حيث يشحن

* Fazenda : هو الأسم البرازيلى للمزرعة الضخمة، اللاتيفوندية عادة. والفازنديرو Fazendeiro هو صاحب المزرعة – م.

كل الكاكاو تقريباً، يسمى «ملكة الجنوب» ، ورغم أنه يرقد الآن فى سبات، فقد بقيت فيه القصور الفليظة التى أنشأها الفازنديرو Fazendeiros (أصحاب المزارع) بنوق باذخ وسقيم. وقد كتب جورج أمادو Jorge Amado عدة روايات حول هذا الموضوع. هكذا يصف مرحلة ارتفاع للأسعار : «كانت إليوّس ومنطقة الكاكاو تسبح فى الذهب، وتستحم فى الشمبانيا، وتنام مع فرنسيات قادمات من ريودى چانيرو . وفى «التريانون»، أكثر كباريهات المدينة أناقة ، كان الكولونيل مانيكا دانتاس يشعل سيجاره بأوراق عملة من فئة خمسمائة ألف ريبس ، مكرراً حركة كل الفازنديرو الأثرياء فى البلاد فى موجات الرواج السابقة للبن ، والمطاط ، والقطن ، والسكر» [٦٢] مع ارتفاع الاسعار. كان الانتاج يزيد ، ثم تنخفض الاسعار. وأصبح عدم الاستقرار اكثر حدة وأخذت الارض تغير مالكيها. وبدأ زمن «المليونيرات الشحاذين» : ترك رواد المزارع مكانهم للمصدرين ، الذى تمكنوا من إمتلاك الارض بممارسة الإقراض.

وحتى نذكر مثالاً واحداً ، فإنه فى أقل من ثلاث سنوات ، بين عام ١٩٥٩ و ١٩٦١ ، أنخفض السعر العالمى لبذور الكاكاو البرازيلى بمقدار الثلث. وفيما بعد ، فإن من المؤكد أن الاتجاه الى الارتفاع فى الاسعار لم يستطع أن يفتح أبواب الامل. وتعزو اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية (CEPAL) عمراً قصيراً لمنحنى الارتفاع [٦٣]. فكبار مستهلكى الكاكاو – وهم الولايات المتحدة ، وانجلترا ، وألمانيا الاتحادية ، وهولندا ، وفرنسا – يثيرون المنافسة بين الكاكاو الافريقى وذلك الذى تنتجه البرازيل وإكوادور ، حتى يأكلوا شيكولاتة رخيصة. ويثيرون على هذا النحو ، بتحكمهم فى الاسعار كما يفعلون ، فترات من الكساد تدفع الى الطرقات العمال الذين يطردهم الكاكاو . ويبحث العاطلون عن أشجار ينامون تحتها وعن موزات خضراء يراوغون بها جوعهم : ولايأكلون، بالتأكيد ، الشيكولاتات الأوربية الفاخرة التى تستوردها البرازيل بصورة غير معقولة من فرنسا ومن سويسرا ، والبرازيل ثالث منتج عالمى للكاكاو.

ويتزايد سعر الشيكولاتة باستمرار ، بينما ينخفض سعر الكاكاو ، نسبياً ، باستمرار . وفيما بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، زادت مبيعات إكوادور من الكاكاو بأكثر من ثلاثين فى المائة فى الحجم ، لكنها لم تزدد فى قيمتها سوى بنسبة خمسة عشر بالمائة. والخمسة عشر بالمائة الباقية هدية من إكوادور للبلدان الغنيّة ، التى أرسلت اليها فى نفس الفترة منتجاتها المصنّعة ، بأسعار متزايدة. ويعتمد اقتصاد الاكوادور على مبيعات الموز ، والبن ، والكاكاو، وهى ثلاث أغنية معرضة بقسوة لتقلبات الاسعار.

وحسب البيانات الرسمية ، فإنه من بين كل عشرة إكوادوريين يعانى سبعة من سوء تغذية أساسى وتعانى البلاد من واحد من أكثر معدلات الوفيات ارتفاعاً فى العالم.

■ أذرع رخيصة من أجل القطن

تحتل البرازيل المركز الرابع فى انتاج القطن فى العالم؛ وتحتل المكسيك المركز الخامس. وفى المجموع ، يأتى من أمريكا اللاتينية أكثر من خمس القطن الذى تستهلكه صناعه النسيج فى كوكب الارض باسره. وعند نهايات القرن الثامن عشر ، تحول القطن الى أهم المواد الاولية بين أحتياجات أوربا الصناعية؛ وضاعفت انجلترا مشترياتها من هذه الخيوط الطبيعية خمسة أضعاف ، خلال ثلاثين عاماً . إن المغزل الذى إخترعه أركرايت Arkwright فى نفس الوقت الذى سجل فية وات Watt آلته البخارية ، وإختراع النول الآلى الذى صنعه كارترايت Cartwright فيما بعد ، أسهمت كلها فى إعطاء دفعه حاسمة لصناعة النسيج وفتحت أمام القطن ، وهو نبات كان موطنه أمريكا ، أسواقاً نهمةً وراء البحار. إن ميناء ساولويزدى مارانياو Sao Luiz de Maranhao ، الذى كان غارقاً فى قيلولة إستوائية طويلة لايقطعها بالكاد سوى قاربين فى السنه ، قد استيقظ بحدة بفعل نشوة القطن : تدفق العبيد السود الى مزارع شمال البرازيل وكانت تغادر الميناء كل عام ما بين مائة وخمسين ومائتي سفينة محملة بمليون رطل من المادة الخام اللازمة لصناعة النسيج. ومع مولد القرن الماضى ، قدمت أزمة الاقتصاد المنجمى للقطن أيد عاملة وفيرة من العبيد؛ مع نضوب الذهب والماس من الجنوب ، بدا أن البرازيل تنبعث من جديد فى الشمال. وإزدهر الميناء ، وأنتج شعراء بالدرجة الكافية لكى يطلق عليه اسم أثينا البرازيل [٦٤]. لكن الجوع أتى الى اقليم مارانياو ، مع الرخاء ، حيث لم يكن أحد يشغل نفسه بزراعة الاغذية. وفى بعض الفترات لم يكن ثمة ما يؤكل سوى الارز [٦٥]. وكما بدأت هذه الحكاية ، فإنها انتهت : فقد حل الانهيار فجأه . فقد نتج عن انتاج القطن على نطاق واسع فى مزارع جنوبى الولايات المتحدة ، على أراض ذات نوعية أفضل وبوسائل ميكانيكية لحلج وتعبئة الناتج ، أن انخفضت الاسعار الى الثلث وخرجت البرازيل من المنافسة. وحلت مرحلة ازدهار جديدة بسبب حرب الانفصال*، التى قطعت الامدادات الامريكية الشمالية ، لكنها لم تستمر طويلاً. وفى القرن العشرين،

* يشار بها إلى إنسحاب الولايات الجنوبية من إتحاد الولايات المتحدة مما أثار حرباً أهلية عام ١٨٦١ - م.

فيما بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٩ ، تزايد الانتاج البرازيلى من القطن بمعدل مثير : فمن ١٢٦ ألف طن أصبح ٣٢٠ الفاً . وعندئذ حلت كارثة جديدة : فقد أدخلت الولايات المتحدة فوائضها الى السوق الدولية وتدهور السعر .

والفوائض الزراعية الامريكية الشمالية، كما هو معروف، هى نتيجة الدعوم القوية التى تقدمها الدولة للمنتجين؛ بأسعار إغراق Dumping وكجزء من برامج المعونات الخارجية ، تدفقت الفوائض وأغرقت العالم. هكذا ، كان القطن هو ناتج التصدير الاساسى للباراجواى حتى أخرجته المنافسة المدمرة للقطن الامريكى الشمالى من الاسواق ، فانخفض انتاج الباراجواى ، منذ عام ١٩٥٢ ، الى النصف. وهكذا فقدت أورجواى السوق الكندى لأرزها. وهكذا فقد قمح الارجنتين ، وهو البلد الذى كان يمكن أن يصبح مستودع غلال للكوكب بأسره ، فقد وزناً حاسماً فى الاسواق الدولية. ولم يمنع الإغراق Dumping الامريكى الشمالى للاسواق بالقطن ، شركة أمريكية هى شركة أندرسون كلايتون وشركاه Anderson Clayton and Co. ، من الاستيلاء على إمبراطورية هذا المنتج فى أمريكا اللاتينية ، وكذلك لم يمنع أن تشترى الولايات المتحدة ، من خلالها ، قطناً مكسيكياً لكى تعيد بيعه لبلدان أخرى.

وما زال قطن أمريكا اللاتينية باقياً في الأسواق الدولية، في وضع سئ، بفضل تكاليف انتاجة البالغة الانخفاض ، وحتى الارقام الرسمية ، التى هى أقنعه للحقيقة، تنم عن أجر العمل البائس. ففى مزارع البرازيل، تتبادل أجور الجوع مع عمل الاقنان؛ وفى جوا تيمالا ، يتفاخر الملاك بأنهم يدفعون أجوراً تبلغ تسعه عشر كتزالاً فى الشهر (والكتزال يساوى الدولار اسمياً) وهم أنفسهم يقرون ، وكأن هذا ليس كافياً ، بأن الجزء الاكبر من هذه الاجور يقدم عيناً مقابل مواد يحدّدون هم سعرها [٦٦]. وفى المكسيك ، فأن الاجراء الذين يتحولون من محصول الى محصول ويتقاضون دولاراً ونصف فى اليوم لا يعانون من البطالة فقط ، بل يعانون كنتيجة لذلك ، من سوء التغذية ، لكن وضع عمال القطن فى نيكاراجوا أسوأ من ذلك بكثير ، أما السلفادوريين الذين يزودون بالقطن مصانع النسيج اليابانية فيستهلكون سعرات حرارية وبروتينات أقل مما يفعل جياع الهند. ويمثل القطن ثانى مصدر للعملات الاجنبية فى اقتصاد البيرو ، وقد لاحظ خوسيه كارلوس مارياتيجى Jose Carlos Mariategui أن الرأسمالية الاجنبية ، فى بحثها الدائم عن أراض ، وأيدى عاملة ، وأسواق ، نحت الى السيطرة على الزراعات التصديرية للبيرو، من خلال توقيع الحجز استيفاءً للديون العقارية على ملاك الأراضى المدينين [٦٧].

وحين وصلت الى السلطة عام ١٩٨٦ الحكومة الوطنية للجنرال بيلاسكو البارادو Velasco Alvarado ، كان يزرع اقل من سدس أراضى البلاد القابلة للاستغلال المكثف ، وكان الدخل لكل فرد للسكان أقل من دخل الفرد فى الولايات المتحدة خمس عشرة مرة ، وكان استهلاك السعرات الحرارية بين أقل المعدلات فى العالم، لكن انتاج القطن ظل، مثل انتاج السكر، تحكمه المعايير الغريبة عن البيرو والتى شجبها ماريانيجى. كانت أفضل الاراضى، وهى اراضى الزراعة الساحلية ، فى أيدى شركات أمريكية شمالية أو فى أيدى ملاك أراضى لم يكونوا وطنيين سوى بالمعنى الجغرافى، مثلما هى حال بورجوازية ليما، كانت خمس شركات ضخمة – من بينها اثنتان أمريكيتان شماليتان : هما شركة أندرسون كلايتون وشركة جريس Grace – تسيطر فيما بينها على تصدير القطن والسكر وتمتلك كذلك «مجمعاتها الزراعية – الصناعية» الخاصة للانتاج. وكانت مزارع السكر والقطن الساحلية ، والتى يفترض أنها مراكز الرفاهية والتقدم مقابل لايتفونديات الجبل، كانت تدفع للأجراء أجور جوع حتى صادرها الاصلاح الزراعى لعام ١٩٦٩ وسلمها للعمال على هيئة مزارع تعاونية. ووفقاً لما تذكرة اللجنة الامريكية المشتركة للتطور الزراعى ، فإن دخل كل واحدة من عائلات أجراء الساحل لم يكن يتجاوز خمسة دولارات شهرياً(٦٨).

وتحتفظ شركة أندرسون كلايتون وشركاه بثلاثين شركة تابعه لها فى أمريكا اللاتينية ، ولا تعمل فقط فى بيع القطن ، بل اضافة الى ذلك، وعلى سبيل الاحتكار الافقى ، لديها شبكة تشمل تمويل وتصنيع القطن ومشتقاته كما تنتج الاغذية على نطاق واسع. وفى المكسيك ، على سبيل المثال، تمارس بكل السبل سيطرتها على انتاج القطن ، رغم أنها لا تملك أرضاً؛ وفى قبضة يدها ، بالفعل ، العمال المكسيكيون الثمانمائة الف الذين يجمعونه. وتشترى الشركة بسعر بالغ الانخفاض تيلة القطن المكسيكى الممتازة ، لأنها تمنح قروضاً مسبقة للمنتجين مع إلزامهم بأن يبيعوا لها المحاصيل بالثمن الذى تفتح به هى السوق. ويضاف الى مقدمات النقود تقديم الاسمدة، والبذور، والمبيدات، وتحتفظ الشركة بحق الإشراف على أعمال التسميد، والبذار، والحصاد. وتحدد الثمن الذى يروقها من أجل حلج القطن. وتستخدم البذور فى مصانع الزيت والدهون والشحوم التى تملكها. وخلال السنوات الاخيرة ، فإن كلايتون ، «غير مكتفية بالسيطرة كذلك على تجارة القطن ، قد ظهرت حتى فى مجال انتاج الحلوى و الشيكولاته ، واشترت مؤخراً شركة لوكسوس Luxus المعروفة» (٦٩).

وشركة آندرسون كلاتيون ، فى الوقت الحاضر ، هى الشركة الاساسية المصدرة للبن فى البرازيل. ففى عام ١٩٥٠ إهتمت بهذه التجارة ، وبعد ثلاث سنوات ، كانت قد انتزعت مكان الصداره فيها من الامريكان كوفى كوربوريشن American Coffee Corporation . وهى أول منتج للأغذية فى البرازيل كذلك ، وتتدرج بين اقوى خمس وثلاثين شركة فى البلاد.

■ أذرع رخيصة من أجل البن

هناك من يؤكدون أن البن يكاد يعادل فى أهميته البترول فى السوق الدولية. وعند بداية عقد الخمسينات ، كانت أمريكا اللاتينية تقدم أربعه أخماس البن يستهلك فى العالم؛ وخلال الاعوام التالية ، فإن منافسة البن من نوع روبوستا Robusta ، الوارد من أفريقيا، ونوعيتة ادنى لكن سعره أقل ، قد خفضت من مساهمة أمريكا اللاتينية. ورغم ذلك، فإن سدس العملات الصعبة التى يحصل عليها الاقليم من الخارج تأتى، حالياً من البن. وتؤثر تقلبات الاسعار على خمسة عشر بلداً تقع جنوبى نهر الريو براڤو. والبرازيل هى اكبر منتج فى العالم؛ وتحصل من البن على نحو نصف عائداتها من التصدير. وتعتمد السلڤادور ، وجواتيمالا، وكوستاريكا ، وهايتى بدرجة كبيرة كذلك على البن ، الذى يقدم علاوة على ذلك ، ثلثى العملات الصعبة لكولومبيا.

وقد جلب البن معه التضخم الى البرازيل؛ ففيما بين عام ١٨٢٤ و ١٨٥٤ ، تضاعف سعر الرجل، ولم يستطيع قطن الشمال ولاسكر الشمال الشرقى ، بعد أن انقضت دورات الرخاء ، دفع ثمن أولئك العبيد الباهظى الثمن . فإنتقلت البرازيل نحو الجنوب. وبالاضافة الى اليد العاملة من العبيد ، إستخدم البن الايدى العاملة من المهاجرين الاوربيين، الذين كانوا يوردون الى الملاك نصف محاصيلهم، فى نظام مناصفة ما زال يسود الى اليوم فى داخل البرازيل. والسياح الذى يخترقون اليوم غابات تيجوكا Tijuca لكى يسبحوا فى مياه الشاطئ يجهلون أن فى الجبال المحيطة بريو دى چانيرو، كانت هناك مزارع بن ضخمة منذ أكثر من قرن. وعبر سفوح الجبال ، واصلت المزارع ، باتجاه ولاية ساوباولو ، مجزرتها المطلقة العنان للرواسب العضوية فى الاراضى البكر الجديدة. وعند نهاية القرن كان لا يتفونديو زراعة البن قد أصبحوا يشكلون النخبة الاجتماعية الجديدة للبرازيل ، وقد بروا اقلامهم وأجروا حساباتهم : فإتضح أن أجور

الكفاف أرخص من شراء واطعام العبيد النادرين. فألغيت العبودية عام ١٨٨٨ ، وبذلك ظهرت اشكال مختلطة من العبودية الاقطاعية والعمل المأجور ما زالت باقية فى ايامنا. ومنذ ذلك الحين ، ستصاحب فيالق من الاجراء «الاحرار» جولات البن. تحول وادى نهر بارايبا Paraiba الى اغنى مناطق البلاد ، لكنه سرعان ما دمره هذا النبات القاتل الذى، بزراعته بنظام مدمر، ظل يخلف وراءه غابات محروقة ، وموارد طبيعية ناضبة ، وتدهوراً شاملاً. دمر التاكل، بلا رحمة ، الاراضى التى كانت بكراً ، ومن نهب الى نهب، أخذ يترك نتائجة، مضعفاً النباتات وجاعلاً لها قابلة لأذى الاوبئة. وغزت لا يتفوندية البن الهضبة القرمزية الواسعة شرقى ساو پاولو؛ وبأساليب استغلال أقل وحشية ، حولتها الى «بحر من البن» وواصلت تقدمها نحو الغرب. وبلغت ضفاف نهر البارانا Parana ، وأمام سافانا اقليم الماتو جروسّو Mato Grosso ، استدارت نحو الجنوب لكى تنتقل ، خلال السنوات الاخيرة ، نحو الغرب من جديد ، متخطية حدود الباراجواى .

وفى الوقت الراهن ، نجد أن ساوپاولو هى أكثر ولايات البرازيل تطوراً ، لأنها تضم المركز الصناعى للبلاد ، لكن ما زال هناك الكثيرون من «الرعايا المقيمين» الذين يدفعون ايجار الارض بعملهم وعمل ابنائهم. وخلال السنوات المزدهرة التي أعقبت الحرب العالمية الأولي، فرض جشع أصحاب مزارع البن الالغاء الكامل للنظام الذى كان يسمح لعمال المزارع بأن يزرعوا الاغنية لحسابهم. والان ، لا يمكنهم عمل ذلك الا مقابل ايجار يدفعونه بأن يعملوا دون أجر. و بالاضافة الى ذلك ، يعتمد اللاتيفوندى على المستوطنين الذين يؤجرون الارض بعقود، فيسمح لهم بزراعات مؤقتة ، لكن ذلك مقابل أن يزرعوا مزارع بن جديدة لصالحه. وبعد أربع سنوات ، حين تتلون الحبوب الصفراء فوق العضون ، تتضاعف قيمة الارض ، ويكون على المستوطن أن يرحل.

وفى جواتيمالا ، ما زالت مزارع البن تدر عائداً أقل من مزارع القطن. وفى الاراضى الجنوبية ، يقول الملاك أنهم يدفعون خمسة عشر دولاراً شهرياً مقابل عمل الاف الهنود الذين يهبطون كل عام من هضبة الالتيبلانو نحو الجنوب ، لكى يبيعوا قوة أذرعهم فى الحصاد. وتملك الضياع شرطتها الخاصة، وهناك مثلما شرح لي أحدهم، «يكون الرجل أرخص من قبره»؛ ويتعهد جهاز القمع باستمرار ذلك. والموقف اسوأ من ذلك فى اقليم بيرابات العليا Alta Verapaz . فهناك ليس ثمة سيارات شحن ولا عربات، لأن اصحاب الضياع لا يحتاجونها : فنقل البن على ظهر الهندى ارخص.

وبالنسبة لاقتصاد السلفادور ، هذا البلد الصغير الواقع فى قبضة حفنة من

العائلات الاوليجاركية ، يتمتع البن بأهمية اساسية : فالزراعة الاحادية تضطر البلاد لاستيراد الفاصوليا من الخارج ، وهن المصدر الوحيد للبروتين للتغذية الشعبية ، وكذلك الذرة ، والخضروات ، وغيرها من الاغذية التى كانت البلاد تنتجها تقليدياً. وربع السلفادوريين يسقطون ضحية نقص الفيتامينات. أما هايتى ، فلديها اعلى معدل للوفيات فى امريكا اللاتينية ؛ واكثر من نصف سكانها من الاطفال يعانى من الانيميا . والاجر الرسمى ، فى هايتى ، يدخل فى نطاق الروايات الخيالية؛ ففى مزارع البن ، يتراوح الاجر الفعلى بين سبعه وخمسة عشر سنتاً من الدولار يومياً .

وفى كولومبيا ، أرض الاراضى المنحدرة ، يتمتع البن بالهمينة. ووفقاً لما ذكره تقرير نشرتة مجلة تايم Time عام ١٩٦٢ ، لا يتقاضى العمال سوى نسبة خمسة بالمائة، من خلال أجورهم ، من الثمن الاجمالى الذى يحققه البن خلال رحلته من الغصن الى شفاه المستهلك الامريكى الشمالى (٧٠).

وبعكس البرازيل ، فإن بن كولومبيا لا ينتج ، فى أغلبه، فى اللاتيفونديات ، بل فى مينيفونديات (قطع أرض صغيرة) تميل الى التفتت باستمرار ، ففيما بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٠ ، ظهرت مائة الف مزرعة جديدة ، ذات مساحات ضئيلة فى غالبيتها ، تقل عن هكتار واحد. والمزارعون الصغار والصغار جداً ينتجون ثلاثة أرباع البن الذى تصدره كولومبيا و ٩٦ بالمائة من المزارع مينيفونديات (٧٢) . فى الاعلانات ، يبتسم خوان بالديس Juan Valdes ، ولكن تفتت الملكيات يخفض مستوى معيشة الزراع ، ذوى الدخول المتضائلة ، ويسهل مناورات الاتحاد القومى لمنتجى البن، الذى يمثل مصالح الملاك الكبار والذى يتحكم فعلياً فى تسويق المنتج. وقطع الارض الاقل من هكتار واحد تدر دخلاً يتيح الجوع : مائة وثلاثون دولاراً ، فى المتوسط ، سنوياً (٧٣).

■ أسعار البن تقذف المحاصيل فى النار وتحدّد إيقاع الزيجات

ما هذا ؟ هل هو رسم مخ لشخص مجنون ؟ فى عام ١٨٨٩ كان البن يساوى سنتين وارتفع بعد سته أعوام الى تسعه سنتات؛ وبعد ذلك بثلاث سنوات انخفض الى اربعة سنتات وبعد خمسة اعوام انخفض الى سنتين إثنين. وكانت تلك فترة نموذجية (٧٣). أن

الخطوط البيانية لاسعار البن ، مثلها مثل أسعار كل النواتج الاستوائية ، تشبه دائماً الخطوط البيانية الاكلينيكية لداء الصرع ، لكن الخط يهبط بحدة دائماً حين تسجّل قيمة التبادل للبن فى مقابل الآلات والنواتج الصناعية. وقد احتج كارلوس بيراس ريستريبو Carlos Lleras Restrepo ، رئيس كولومبيا عام ١٩٦٧ : فى هذه السنه كان على بلاده أن تدفع سبعة وخمسين كيساً من البن مقابل شراء سيارة جيب ، وفى عام ١٩٥٠ كان الثمن سبعة عشر كيساً. وفى نفس الوقت ، أجرى وزير الزراعة فى ساو پاولو ، هربرت ليفى Herbert Levi ، حسابات أكثر درامية : فمن أجل شراء جرار زراعى عام ١٩٦٧ ، كانت البرازيل تحتاج ثلاثمائة وخمسين كيساً من البن ، لكن قبل أربع عشرة سنة كانت تكفى لذلك سبعون كيساً فقط. وكان الرئيس چيتوليو فارجاس Getulio Vargas قد مزق قلبه برصاصة ، عام ١٩٥٤ ، ولم تكن اسعار البن غريبة على المأساه : «جاءت أزمة انتاج البن – هكذا كتب فارجاس فى وصيته – وتم تحديد قيمة منتجنا الاساسى. فكرنا فى الدفاع عن اسعاره وكان الرد ضغطاً عنيفاً على اقتصادنا ، إلى درجة أن نجد انفسنا مضطرين للتسليم». أراد فارجاس أن يكون دمه ثمناً للانقاذ.

ولو كان محصول عام ١٩٦٤ من البن قد بيع ، فى سوق أمريكا الشمالية ، بأسعار عام ١٩٥٥ ، لكانت البرازيل قد تلقت مائتى مليون دولار اكثر. فانخفاض سنت واحد فى سعر البن يتضمن خسارة مبلغ ٦٥ مليوناً من الدولارات بالنسبة لمجموع البلدان المنتجة. ومنذ عام ١٩٦٤ ، وحيث أن السعر استمر فى الانخفاض حتى عام ١٩٦٨ ، تزايدت كمية الدولارات التى اغتصبها البلد المستهلك للبن ، وهو الولايات المتحدة ، من البرازيل، وهو البلد المنتج ، لكن ، لصالح من هذا ؟ لصالح المواطن الذى يشرب القهوة ؟ فى يوليو من عام ١٩٦٨. كان سعر البن البرازيلي في الولايات المتحدة قد إنخفض بنسبة ثلاثين بالمائة بالمقارنة مع يناير من عام ١٩٦٤ . ورغم ذلك ، لم يدفع المستهلك الامريكى الشمالى ثمناً أقل للبن ، بل اشتراه اغلى بنسبة ثلاثة عشر بالمائة . أذن فقد نال الوسطاء، بين عامى ٦٤ و٦٨ ، هذه الثلاثة عشر وتلك الثلاثين بالمائة: كسبوا من كلا الطرفين. وفى نفس هذا المدى الزمنى ، قلت الاسعار التى يتلقاها المنتجون البرازيليون مقابل كل كيس من البن بنسبة النصف [٧٤]. ومن هم الوسطاء؟ تستحوذ ست شركات أمريكية شمالية على أكثر من ثلث البن الذى يخرج من البرازيل ، وتستحوذ ست شركات أمريكية شمالية على أكثر من ثلث البن الذى يدخل الولايات المتحدة : إنها الشركات المسيطرة عند كلا طرفى العملية [٧٥]. وشركة اليونايتيد فروت United Fruit (التى

اصبحت تسمى يونا يتيد براندز Uinted Brands بينما اكتب هذه السطور) تمارس احتكار بيع الموز من امريكا الوسطى، وكولومبيا، وإكوادور، وفى نفس الوقت تحتكر استيراد وتوزيع الموز فى الولايات المتحدة. وبنفس الطريقة ، فإن الشركات الامريكية هى التى تتحكم فى تجارة البن، وتشارك البرازيل فقط بوصفها مورداً وبوصفها ضحيةً. والدولة البرازيلية هى التى تتولى المخزون Stocks ، حين يجبر الانتاج الزائد على تكويم الاحتياطيات .

ألا توجد إذن اتفاقية دولية للبن من أجل تثبيت الاسعار فى السوق ؟ لقد نشر المركز الدولى لمعلومات البن فى واشنطن ، عام ١٩٧٠ ، وثيقة مسهبة تستهدف اقناع المشرعين حتى تصادق الولايات المتحدة ، فى سبتمبر ، على سريان القانون التكميلى المتعلق بالمعاهدة. ويؤكد التقرير أن المعاهدة قد أفادت الولايات المتحدة بالدرجة الاولى ، وهى التى تستهلك أكثر من نصف البن الذى يباع فى العالم . ومازال شراء حبات البن صفقة طيبة . وفى سوق امريكا الشمالية ، فإن الارتفاع المضحك فى سعر البن (لصالح الوسطاء، كما رأينا) كان أقل بكثير من الارتفاع العام فى تكاليف المعيشة وفى المستوى الداخلى للأجور؛ وقد أرتفعت قيمة صادرات الولايات المتحدة، فيما بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٦٩ ، بنسبة السدس ، وفى نفس الفترة ، أنخفضت قيمة واردات البن ، بدل أن ترتفع. ويجب ، علاوة على ذلك ، أن نضع فى الاعتبار أن البلدان الامريكية اللاتينية تنفق العملات الصعبة المتضائلة التى تحصل عليها من بيع البن ، فى شراء هذه المنتجات الامريكية الشمالية الباهظة الثمن.

إن البن يفيد من يستهلكونه أكثر ممن ينتجونه. وفى الولايات المتحدة وأوربا يولّد أرباحاً وفرص عمل ويعبئ رؤوس أموال كبيرة؛ أما فى امريكا اللاتينية ، فإنه يقدم أجور جوع ويزيد من حدة التشوه الاقتصادى للبلاد الموضوعة فى خدمته. فى الولايات المتحدة ، يتيح البن عملاً لأكثر من ستمائة الف شخص : والامريكيون الشماليون الذين يزرعون ويبيعون البن الامريكى اللاتينى يكسبون أجوراً أعلى بما لا يقاس من البرازيليين ، أو الكولومبيين ، أو الجواتيماليين ، أو السلفادوريين ، أو الهايتيين الذين يبذرون ويحصدون البذور فى المزارع. ومن جهة أخرى ، تخبرنا اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية CEPAL ، رغم غرابة ذلك ، بأن البن يلقى بثروة اكبر فى خزائن الدول الاوربية ، مما يترك من ثروة فى أيدى البلدان المنتجة . وبالفعل ، فإنه ، « فى عامى ١٩٦٠ و ١٩٦١ ، تصاعدت الاعباء المالية الاجمالية المفروضة من بلدان السوق الاوربية

على البن الامريكى اللاتينى الى نحو سبعمائة مليون دولار ، بينما لم تبلغ دخول البلدان المورّدة (بالنسبة لسعر التسليم على السفينة F.O.B. لنفس الصادرات) سوى ستمائة مليون دولار» (٧٦). إن البلدان الغنية ، التى تدعو الى التجارة الحرة، تطبق أشد سياسات الحماية ضد البلدان الفقيرة : إنهم يحولون كل ما يلمسونه الى ذهب بالنسبة لهم وإلى صفيح بالنسبة للآخرين – بما فى ذلك نفس انتاج الدول المتخلفة. والسوق الدولية للبن شديد ة الشبه بالخدعه بحيث أن البرازيل قبلت مؤخراً فرض رسوم عالية على صادراتها من البن السريع الذوبان لكى تحمى، حماية معكوسة، مصالح الصناع الامريكين الشماليين لنفس المنتج. والبن السريع الذوبان الذى تنتجه البرازيل أرخص وأفضل فى النوعية من ذلك الذى تنتجه الصناعة المزدهرة للولايات المتحدة، لكن من الواضح أنه فى نظام المنافسة الحرة ، هناك البعض ممن هم اكثر حرية من الاخرين.

فى هذه المملكة من العبث المُنظّم تتحول الكوارث الطبيعية الى بركات من السماء للبلدان المنتجة. فتجاوزات الطبيعة ترفع الاسعار وتسمح بتحريك الاحتياطيات المتراكمة. وقد حكمت موجات الصقيع الحادة التى دمرت محصول عام ١٩٦٩ فى البرازيل بالخراب على الكثير من المنتجين ، وبالاخص على أكثرهم ضعفاً ، لكنها دفعت الى أعلى الاسعار الدولية للبن وخففت بشدة من المخزون البالغ ستين مليون كيس – تعادل ثلثى الدين الخارجى للبرازيل – التى كانت الدولة قد راكمتها للمحافظة على الاسعار. فالبن المخزون ، الذى كانت نوعيته تسوء ويفقد قيمته باطراد ، كان يمكن أن ينتهى به الامر إلي الالقاء فى النيران . ولن تكون هذه أول مرة. فبسبب أزمة عام ١٩٢٩ ، التى خفضت الاسعار وقلصت الاستهلاك ، وأحرقت البرازيل ٧٨ مليون كيس بن : وهكذا أحرقت ألسنه اللهب جهد مائتى الف شخص خلال خمسة محاصيل (٧٧). كانت تلك أزمة نمطية لاقتصاد إستعمارى : وقد جاءت من الخارج . وقد أثار الانخفاض المفاجئ فى أرباح المزارعين ، والمصدرين للبن خلال الثلاثينات ، بالاضافة الى احتراق البن ، اشتعالاً فى النقود ، هذه هى الآلية المعتادة فى امريكا اللاتينية من أجل «اشتراكية الخسائر» للقطاع التصديرى : اذ يعوض فى العملة القومية ، من خلال خفض قيمتها ، ما يتم فقده فى العملات الصعبة .

لكن ليس لازدهار الاسعار نتائج أفضل. فإنه يطلق عنان زراعات أكبر ، وزيادة فى الانتاج ، وتضاعفاً فى المساحة المخصصة لزراعة المنتج السعيد الحظ. ويعمل الحافز بطريقة إرتدادية Boomerang ، لأن الوفرة فى المنتج تخفض الاسعار وتثير

الكارثة . وهذا ما حدث عام ١٩٥٨ ، فى كولومبيا، حين تم جمع محصول البن الذى بذُر بحماس كبير قبلها بأربع سنوات وتكررت الدورات المماثلة على طول تاريخ هذا البلد : فكولومبيا تعتمد على البن وعلى سعره الخارجى الى درجة أنه ، «فى انتيوكيا Antioquia ، يستجيب المنحنى البيانى للزواج بشدة لمنحنى اسعار البن. وهذا أمر نمطى بالنسبة لبنية تابعة : فحتى اللحظة المواتية لاعلان الحب فى أحد تلال انتيوكيا تتقرر فى بورصة نيويورك» (٧٨).

■ عشر سنوات أدمت كولومبيا

فى سنوات الاربعينات ، كتب الاقتصادى الكولومبى ذو المكانه لويس إدواردو نييتو أرتيتا Luis Eduardo Nieto Arteta دفاعاً عن البن. فقد حقق البن ما لم تبلغة أبداً ، فى الدورات الا قتصادية السابقة للبلاد ، لا المناجم ولا التبغ ، ولا النيلة ولا الكينا : حقق مولد نظام ناضج وتقدمى. كانت مصانع النسيج وغيرها من الصناعات الخفيفة قد ولدت، وليس بمحض الصدفة ، فى المقاطعات المنتجة للبن : أنتيوكيا Antioquia، وكالداس Caldas ، ووادى كاوكا Valle Del Cauca وكونديناماركا Cundinamarca. كانت ديمقراطية صغار المنتجين الزراعيين ، المكرسين لانتاج البن ، قد حولت الكولومبيين الى «رجال معتدلين وعاقلين». قال « أن أهم فرضية من أجل اضفاء الاعتيادية على اداء الحياة السياسية الكولومبية كانت هى تحقيق استقرار اقتصادى فريد. وقد انتجها البن، وأنتج معها الهدوء والتعقل» (٧٩).

وبعد زمن يسير، أنفجر العنف، وفى الواقع ، لم تكن مدائح البن قد قطعت، كأنما بفعل السحر ، التاريخ الطويل من الانتفاضات والقمع الدامبين فى كولومبيا . وفى هذه المرة ، وخلال عشر سنوات ، بين ١٩٤٨ و ١٩٥٧ ، شملت الحرب الفلاحية المزارع الصغيرة والكبيرة و الصحراوات والاراضى المزروعة، الوديان والغابات والقفار الانديزية ، وطردت الى المنفى جماعات بأكملها، وولدت جماعات حرب عصابات ثورية وعصابات مجرمين وحولت البلاد بأسرها الى جبانه : ويُقَدّر أنها أودت بحياة مائة وثمانين الف شخص (٨٠). وتصادف حمّام الدم مع فترة انتشاء اقتصادى للطبقة المسيطرة : فهل من المشروع ان نخلط بين رخاء طبقة ورفاهية بلد من البلدان؟

بدأ العنف بإعتباره مواجهة بين الليبراليين والمحافظين، لكن دينامية الحقد الطبقى

أخذت تؤكد باستمرار طابع الصراع الطبقي. كان خورجي اليسر جايتان Jorge Eliecer Gaitan ، الزعيم الليبرالي الى الذى كانت أوليجاركية حزبه ذاته ، بين الاحتقار والخشية ، تسمية باسم «الذئب» أو «الوغد» "El Lobo o El Badulaque" ، كان قد اكتسب مكانة شعبية كبيرة وهدد النظام القائم؛ وحين اغتالوه بالرصاص ، انطلق الاعصار .

وكانت البداية مداً بشرياً ساحقاً فى شوارع العاصمة ، و«مذبحة بوجوتا» * العفوية ، وعلى الفور انتقل العنف الى الريف ، حيث كانت العصابات التى ينظمها المحافظون تأتى، منذ زمن، باذرةً بذور الرعب. انفجر الحقد الذى ظل الفلاحون يمضغونه طويلاً ، وبينما الحكومة تبعث شرطة وجنوداً ليقطعوا خصيات الرجال، ويشقوا بطون النساء الحوامل أو يطوحون الاطفال فى الهواء ليخترقوهم بالسونكى تحت شعار «ألا يتركوا حتى البذرة»، كان دكاتره الحزب الليبرالى قابعين فى بيوتهم دون أن يغيروا من سلوكهم الجيد أو من اللهجة الفروسية لبياناتهم أو كانوا يمضون الى المنفى، فى أسوأ الاحوال. وكان الفلاحون هم من دفنوا الموتى. بلغت الحرب درجات من القسوة التى لا تصدّق، تدفعها رغبة فى الانتقام نمت مع الحرب نفسها. وظهرت اساليب جديدة للموت : ففى «موضة رباط العنق »، كان اللسان يظل معلقاً من القفا. وجرت أعمال الاغتصاب، واشعال الحرائق، والنهب؛ كان الرجال تقطع اطرافهم أو يحرقون احياء، ويسلخون أو يقطعون أرباً ببطء؛ وكانت الفصائل تحرق القرى والمزارع؛ واصطبغت الانهار باللون الاحمر؛ وكان قطاع الطرق يمنحون الاذن بالحياة مقابل جزية تدفع نقداً أو بأحمال بن وطردت قوات القمع أو طاردت عدداً لا يحصى من العائلات التى هربت الى الجبال بحثاً عن ملاذ : وفى الغابات ، كانت النساء تلدن. أما زعماء حرب العصابات الاوائل ، الذين حركتهم ضرورة الثأر دون آفاق سياسية واضحة ، فقد انطلقوا يدمرون من أجل التدمير ، ويخنقون بالدم والنار دون غايات أخرى. وأما أسماء ابطال العنف (الملازم غوريلا Gorila ، والظل السئ Malasombra ، والكندور Condor والجلد الاحمر Pielroja ، ومصاص الدماء El Vampiro ، الطير الاسود Avenegro ، ورعب السهول El Terror del Llano) فلا توحى بملحمة الثورة لكن لهجة التمرد

* من هول المذبحة التي جرت قبل ذلك في بوجوتا عام ١٩٢٨ أصبح لها إسم خاص منسوب إلي أسم العاصمة هو "Bogotazo" وتطلق كذلك علي كل مذبحة بهذه البشاعة وقد أشار جارثيا ماركث إلي هذه المذبحة في روايته الشهيرة "مائة عام من العزلة" – م.

الاجتماعى انطبعت فى الابيات التى تغنيها الجماعات :

أنا فلاح قح ،
ولم أبدأ العراك ،
لكن إذا أرادوا ضجيجاً
فسوف يرقصون على أقبح الأنغام.

وبالفعل ، كان الرعب دون تمييز قد ظهر كذلك ، مختلطاً بمطالب العدالة ، فى الثورة المكسيكية بقيادة إميليانو ثاباتا و پانشو بيًا * Emiliano Zapata y Pancho villa . أما فى كولومبيا ، فقد كان الغضب ينفجر بأية طريقة ، لكن ليس صدفة أنه من ذلك العقد من العنف ولدت جماعات حرب العصابات السياسية اللاحقة، التي رفعت ألوية الثورة الإجتماعية، ووصلت إلي حد إحتلال، والسيطرة على مناطق واسعه من البلاد. هاجر الفلاحون، الذين حاصرهم القمع، إلى الجبال وهناك نظموا العمل الزراعى والدفاع الذاتى. وظلت ما تدعى «الجمهوريات المستقلة» فى تقديم الملاذ للمطاردين بعد أن وقع المحافظون والليبراليون، فى مدريد، إتفاق السلام. حل زعماء كلا الحزبين ، فى جو من الانخاب والحمامات، مشكلة تتابعهم فى السلطة فى سبيل الوفاق الوطنى وعندئذ بدأوا، متفقين، جهد «التطهير» ضد بؤر إزعاج النظام. وفى عملية واحدة فقط، من أجل القضاء على متمردى ماركيتاليا Marquetalia ، أطلقت مليون ونصف مليون قذيفة ، وقذفت عشرون الف قنبلة وتمت تعبئة سته عشر الف جندى، أرضاً وجواً (٨١).

فى ذروة العنف كان ثمة ضابط يقول : «لا تأتونى بحكايات. إئتونى بآذان» . السادية والقمع ووحشية الحرب ، هل يمكن تفسيرها باسباب مرضية ؟ هل كانت نتيجة للسوء الطبيعى لابطالها ؟ هناك رجل قطع يدى قسيس ، وأشعل النار فى جسده وفى منزله ثم مزقه والقاه فى قناه، لكنه صاح ، حين انتهت الحرب : « لست مذنباً. لست مذنباً. دعونى وحدى». كان قد فقد عقلة ، لكن كان لديه عقل بمعنى معين : فرعب العنف لم يفعل سوى أن أوضح للعيان رعب النظام. لأن البن لم يجلب معه السعادة والتآلف، كما تنبأ نييتو أرتيتا. حقيقةً أنه بفضل البن نشطت الملاحة فى نهر ماجدالينا Magdalena وولدت خطوط السكك الحديدية والطرق وتراكمت رؤوس أموال صنعت بعض الصناعات،

* القائدان الشهيران للثورة المكسيكية. ويعرفان خطأ (نتيجة خطأ في نطق الأسماء) باسمي زاباتا وڤيلا - م.

لكن النظام الاوليجاركى والتبعية الاقتصادية لمراكز السلطة الخارجية لم تتضح هشاشتهما خلال عملية صعود البن، بل على العكس ، أصبحا اكثر قهراً بما لا يقاس بالنسبة للكولومبيين، وحين وصل عقد العنف الى نهايته، نشرت الامم المتحدة نتائج بحثها بشأن التغذية فى كولومبيا . ومنذ ذلك الحين ، لم يتحسن الوضع على الاطلاق : كان ٨٨ بالمائة من تلاميذ المدارس فى بوجوتا يعانون من نقص الثيتامينات ، و ٧٨ بالمائة يعانون من نقص الأريبوفلافين * وكان أكثر من نصفهم يزنون أقل من المعتاد؛ وبين العمال يصيب نقص الثيتامينات ٧١ بالمائة وبين فلاحى وادى تنسا Tensa، يصيب ٧٨ بالمائة (٨٢). وبين الاستبيان نقصاً بارزاً فى الاغذية الوقائية – اللبن ومشتقاته، والبيض، واللحم ، والسمك ، وبعض الفواكة والخضروات – التى تحمل فى مجموعها البروتينات والثيتامينات والأملاح» ، أن المأساه الاجتماعية لا تتكشف فقط فى وميض طلقات الرصاص. فالإحصائيات تشير الى أن معدل جرائم القتل فى كولومبيا أعلى منه فى الولايات المتحدة سبع مرات ، لكنها تشير كذلك الى أن ربع الكولومبيين فى سن العمل يفتقر الى عمل ثابت . ويدخل الى سوق العمل كل عام مائتان وخمسون الف شخص؛ ولا تخلق الصناعة فرص عمل جديدة وفى الريف لا تحتاج بنيه المزارع الضخمة والمزارع الضئيلة الى المزيد من الاذرع : بل على العكس، فإنها تطرد باستمرار عاطلين جدداً نحو ضواحى المدن. وفى كولومبيا أكثر من مليون طفل لا يجدون مدرسة . لكن هذا لا يمنع النظام من الابقاء على ترف الحفاظ على واحد وأربعين جامعة مختلفة ، عامة أو خاصة ، وبكل منها كلياتها وأقسامها المتنوعة ، من أجل تعليم ابناء النخبة والطبقة المتوسطة التى تشكل أقلية (٨٣).

* Arriboflavinosis : نقص مادة الأريبو فلافين. وهى المادة التى تحدث النمو فى فيتامين ب المركب – م.

■ العصا السحرية للسوق الدولية توقظ امريكاالوسطى

بلغت اراضى امريكا الوسطى منتصف القرن الماضى دون مضايقات شديدة . فعلاوة على الاغذية الموجهة الى الاستهلاك، كانت امريكا الوسطى تنتج حشرة القرمز والنيلة ، برؤوس اموال قليلة ، وايد عاملة قليلة، وباقل مايمكن من المشاغل. فحشرة القرمز ،وهى حشرة تولد وتنمو دون مشاكل على السطح الشوكى للصبار، كانت تتمتع، مثلها مثل النيلة ، بطلب مستمر من صناعة النسيج الاوربية . وقد اصاب الموت الكيميائى كلا الصبغين الطبيعيين حين اخترع الكيميائيون الالمان ، حوالى عام ١٨٥٠، اصباغ الانيلين وغيرها من الاصباغ الرخيصة لصبغ الاقمشة . وبعد ثلاثين عاما من هذا الانتصار للمعامل على الطبيعة ، جاء دور البن . وتحولت امريكا الوسطى . فمن مزارعها الحديثة الميلاد كان يأتى ، حوالى عام ١٨٨٠ مايقل قليلا عن سدس الانتاج العالمى من البن . ومن خلال هذا الناتج ، انضم الاقليم بصورة نهائية الى السوق الدولية . وتلا المشترين الانجليز المشترون الالمان والامريكيون الشماليون؛ وبعث المستهلكون الاجانب الحياة فى برجوازية البن المحلية ، التى صعدت الى السلطة السياسية من خلال الثورة الليبرالية لخوستو روفينو باريوس Justo Rufino Barrios فى بداية عقد السبيعنات من القرن التاسع عشر. وايقظ التخصص فى الزراعة ، والمفروض من الخارج، نهم امتلاك الارض والبشر: لقد ولدت اللاتيفوندية الراهنة، فى امريكا الوسطى، تحت رايات حرية العمل .

هكذا إنتقلت الى الملكيات الخاصة مساحات كبيرة مقفرة ، كانت تخص الكنيسة او الدولة او لا تخص احدا ، وجرى الاستنزاف المحموم للتجمعات الهندية . كان الفلاحون الذين يرفضون بيع اراضيهم يُجنّدون بالقوة فى الجيش. وتحولت المزارع الى ساحات لجثث الهنود. تم احياء المراسيم الاستعمارية من جديد، مثل التعبئة الاجبارية للأيدى العاملة والقوانين ضد التشرد. وكان العمال الهاربون يطاردون بالرصاص؛ وحدثت الحكومات الليبرالية علاقات العمل وادخلت نظام الاجور، لكن الاجراء تحولوا الى ملكية خاصة لاصحاب شركات البن الجدد. ولم يحدث فى اى لحظة، طوال القرن المنصرم منذ ذلك الحين، ان انعكست فترات ارتفاع الاسعار على مستوى الاجور، التى ظلت مقابلا لا يُشبع من جوع دون ان تترجم اسعار البن الافضل ابدا الى زيادات فى الاجور . وكان احد العوامل التى منعت تطور سوق استهلاك داخلية فى بلدان امريكا الوسطى[٨٤]،

ومثلما حدث فى كل مكان، ثبّطت زراعة البن فى توسعها المطلق العنان ، زراعة الاغذية الموجهة للسوق الداخلية. كذلك قدر لهذه البلدان ان تعانى من النقص المزمن فى الارز، والفاصوليا، والذرة ، والقمح ، واللحوم. وبقيت بالكاد زراعة كفاف بائسة، فى الاراضى المرتفعة والمدمرة حيث طردت اللاتيفوندية الهنود عند تملكها للاراضى المنخفضة ذات الخصوبة الاكبر . وفى الجبال، بزراعة قطع أرض ضئيلة بالذرة والفاصوليا التى لا غنى عنهما حتى لايسقطوا ميتين، يحيا الهنود جزءا من السنة ثم يؤجرون قوة عملهم خلال الحصاد للمزارع. وهم يمثلون احتياطيات الايدى العاملة للسوق الدولية. ولم يتغير الوضع : فالمزارع الكبيرة والصغيرة تشكل، معا ، وحدة نظام يرتكز على الاستغلال غير الانسانى للايدى العاملة الهندية . وبوجه عام ، وعلى الاخص فى جواتيمالا ، تبدو هذه البنية لامتلاك قوة العمل متوحدة مع نظام كامل للاحتقار العرقى : اذ يعانى الهنود من الاستعمار الداخلى للبيض و المولّدين، الذى تباركه الثقافة السائدة ايديولوجيا، على نفس النحو الذى تعانى فيه بلدان امريكا الوسطى من الاستعمار الاجنبى . (٨٥)

ومنذ بداية القرن، ظهرت كذلك، فى هندوراس، وجواتيمالا، وكوستاريكا، اراضى زراعة الموز ومن اجل نقل البن الى الموانى ، كان قد ولدت بعض خطوط السكك الحديدية بتمويل من راس المال القومى . وسيطرت الشركات الامريكية الشمالية على هذه السكك الحديدية واقامت غيرها ، من اجل نقل الموز فقط من المزارع ، وذلك فى نفس الوقت الذى فرضت فيه احتكار خدمات الضوء الكهربائى ، والبريد ، والبرق ، والهاتف ، وغيرها من الخدمات العامة التى لاتقل اهمية ، بالاضافة الى احتكار السياسة : وفى هندوراس " يساوى البغل اكثر مما يساوى نائب فى البرلمان " وفى كل امريكا الوسطى يمارس سفراء الولايات المتحدةالرئاسة اكثر مما يفعل الرؤساء . وقد ابتلعت شركة اليونايتيد فروت منافسيها فى انتاج وبيع الموز، وتحولت الى اكبر لاتيفوندى فى امريكا الوسطى، كما احتكرت فروعها النقل بالسكك الحديدية والنقل البحرى ؛ واصبحت مالكة للموانى ، وامتلكت جمارك وشرطة خاصة بها . واصبح الدولار ، فعليا ، هو العملة القومية فى امريكا الوسطى .

■ فليصعد القراصنة إلى السفن

فى المفهوم الجيو- بوليتكى للإمبريالية ، لا تعدو أمريكا الوسطى ان تكون ملحقا طبيعيا للولايات المتحدة . وحتى ابراهام لنكولن Abraham Lincoln ، الذى فكر هو الآخر فى ضم اراضيها ، لم يستطع الافلات من متطلبات " المصير الواضح " للقوة العظمى على المساحات المجاورة لها (٨٦).

وعند منتصف القرن الماضى ، قام القرصان ويليام ووكر William Walker ، الذى كان يعمل باسم المصرفيين مورجان و جاريسون Morgan & Garrison ، قام بغزو امريكا الوسطى على راس عصابة من القتلة يسمون انفسهم " الكتيبة الامريكية للخالدين " . وبدعم نشيط من حكومة الولايات المتحدة سرق ووكر ، وقتل ، واحرق ، واعلن نفسه رئيسا ، فى حملات متالية ، على نيكاراجوا ، والسلفادور ، وهندوراس . واعاد العبودية الى الاراضى التى قاست من احتلاله المدمر ، مواصلا بهذه الطريقة العمل الانسانى لبلاده فى الولايات التى كانت قد اغتصبت ، قبل قليل ، من المكسيك .

وعند عودته، استقبل فى الولايات المتحدة كبطل قومى. ومنذ ذلك الحين، جرت احداث الغزو ، والتدخلات ، والقصف ، والقروض الاجبارية والمعاهدات الموقعة فى ظل المدافع . وفى عام ١٩١٢ اكد الرئيس ويليام هـ . تافت William H.taft انه : "ليس بعيدا ذلك اليوم الذى تحدد فيه ثلاثة اعلام ذات خطوط ونجوم، امتداد اراضينا فى ثلاثة مواقع على مسافة متساوية : واحد فى القطب الشمالى ، واخر فى قناة بنما ، والثالث فى القطب الجنوبى . سيكون كل نصف الكرة الغربى ملكنا ، مثلما هو ملكنا معنويا ، بفضل تفوقنا العرقى " (٨٧) . وقال تافت ان طريق العدل المستقيم فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة " لا يستبعد بأية طريقة تدخلا نشيطا من اجل ضمان تسهيلات امام الاستثمارات المربحة لبضائعنا و رأسمالينا " . وفى نفس الحقبة ، تذكر الرئيس الاسبق تيدى روزفلت Teddy Roosevelt بصوت عال اقتطاعه الناجح لاراضى تخص كولومبيا فقال : " لقد اخذت القناة " ، هكذا قال الرجل المتباهى الحائزعلى جائزة نوبل للسلام ، وهو يحكى كيف جعل بنما دولة مستقلة (٨٨) . وقد تلقت كولومبيا ، بعد ذلك بقليل ، تعويضا قيمتة خمسة وعشرين مليون دولار : هى ثمن بلد ، ولد حتى يتاح للولايات المتحدة طريق للمواصلات بين المحيطين .

سيطرت الشركات على أراضٍ، وجمارك، وخزائن، وحكومات؛ كان جنود المارينز

Marines يقومون بالانزال فى كل مكان من اجل "حماية حياة و مصالح المواطنين الامريكيين الشماليين"، وهو العذر المماثل لذلك الذى سيستخدموه، عام١٩٦٥، لكى يمحوا بالماء المقدس اثار جريمة الدومينيكان. وكان العلم يلف بضائع اخرى. فقد لخص القومندان سميدلى د . بطلر Smedley Butler الذى كان على رأس الكثير من الحملات، نشاطه ، عام ١٩٣٥ ، بعد ان احيل الى الاستيداع بقوله : " لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاماً واربعة اشهر فى الخدمة العاملة ، كعضو فى القوة العسكرية الاكثر حيوية لهذا البلد : فى سلاح مشاة البحرية . وخدمت فى كل الرتب ، من رتبة ملازم ثان الى جنرال فرقة. وخلال كل هذه الفترة قضيت اغلب الوقت اقوم بمهام قاتل اجير من الدرجة الاولى من اجل الاعمال الضخمة ، من أجل وول ستريت والمصرفيين . وبعبارة واحدة ، كنت قاتلا اجيرا فى خدمة الرأسمالية ... هكذا ، على سبيل المثال ، فى عام ١٩١٤ ، ساعدت على جعل المكسيك ، وخصوصا تامبيكو Tampico ، فريسة سهلة امام المصالح البترولية الامريكية الشمالية . وساعدت على جعل هايتى وكوبا اماكن محترمة لتحصيل الربع من جانب الناشيونال سيتى بنك National City Bank... وفى ١٩٠٩ – ١٩١٢ ، ساعدت على تطهير نيكاراجوا من اجل الشركة المصرفية الدولية براون برادرز Brown Brothers. وفى عام ١٩١٦ حملت الضوء الى جمهورية الدومينيكان، باسم مصالح السكر الامريكية الشمالية . وفى عام ١٩٠٣، ساعدت على " تهدئة " هندوراس لصالح شركات الفواكه الامريكية الشمالية " [٨٩] فى الاعوام الاولى من القرن الحالى ، كان الفيلسوف ويليام جيمس قد اصدر حكما لا يعرفه سوى القليلين: " ان البلاد قد تقيأت مرة واحدة والى الابد اعلان الاستقلال ..." لكى نورد مثالا واحدا، فقد احتلت الولايات المتحدة هايتى لمدة عشرين عاما ، وهناك ، فى هذا البلد الزنجى الذى كان مشهد اول ثورة ظافرة للعبيد، ادخلوا الفصل العنصرى ونظام العمل الاجبارى، وقتلوا ألفا وخمسمائة عامل فى احدى عمليات القمع (حسب تحقيق مجلس الشيوخ الامريكى الشمالى عام ١٩٢٢) ، وحين رفضت الحكومة المحلية تحويل البنك القومى الى فرع للناشيونال سيتى بانك فى نيويورك، اوقفوا دفع رواتب الرئيس و وزرائه، حتى يعيدوا التفكير فى الامر [٩٠].

وتكررت حكايات مماثلة فى بقية جزر الكاريبى وفى كل امريكا الوسطى، التى هى

المجال الجيو- بوليتيكى للـ Mare Nostrum (*) للامبراطورية، بالايقاع المتبادل بين **العصا الغليظة** Big Stick او " ديبلوماسية الدولار " .

ذكر **القران** الموز بين اشجار الجنة، لكن جعل جواتيمالا و هندوراس، وكوستاريكا، وبنما، وكولومبيا، واكوادور **مزارع موز** يسمح بالشك فى انها احدى اشجار جهنم . ففى كولومبيا، جعلت شركة اليونايتيد فروت من نفسها مالكة لاكبر لاتيفوندیا فى البلاد حين اندلع، عام ١٩٢٨ ، اضراب ضخم فى الساحل الاطلنطى. وتمت تصفيةعمال الموز بالرصاص ، امام محطة سكة حديد . تم فرض مرسوم رسمى يقول ان : "رجال قوات الامن يرخص لهم بالعقاب بالسلاح ..." وبعد ذلك لم تعد ثمة ضرورة لفرض أى مرسوم يمحو المذبحة من الذاكرة الرسمية للبلاد (٩١) وقد حكى ميجيل انخل استورياس Miguel Angel Asturias عملية فتح ونهب امريكا الوسطى . **فالبابا الاخضر** EL Papa verde كان هو ماينوركيث Minor Keith ، الملك غير المتوج للاقليم بأسره، وابو شركة اليونايتيد فروت، وملتهم البلاد. " لدينا مرافىء، وسكك حديدية، وأراضٍ، ومبان، وجداول- يعدد الرئيس؛ الدولار يتداول، ويجرى الحديث بالانجليزية، ويخفق علمنا ..." " لم يكن باستطاعة شيكاجو ان تحس باقل من الفخر بهذا الابن الذى مضى بزوج من المسدسات وعاد ليطالب بمكانه بين اباطرة اللحم ، وملوك السكك الحديدية ، وملوك النحاس ، وملوك اللبان " (٩٢).

وفى رواية **الشارع الثانى والاربعين الموازى** 42 nd parallel رسم جون دوس باسوس John dos Passos السيرة الذاتية اللامعة لكيث، السيرة الذاتية للشركة : " فى أوربا والولايات المتحدة. بدأ الناس يأكلون الموز، وهكذا حطموا الغابات عبر امريكا الوسطى لبذر الموزواقامة السكك الحديدية من اجل نقل الموز، وفى كل عام كانت سفن شراعية تابعة للجريت وايت فليت Great White Fleet تمضى صوب الشمال مكدسة بالموز، وهذه هى حكاية الامبراطورية الامريكية الشمالية فى الكاريبى وحكاية قناة بنما وقناة نيكاراجوا المستقلة **والمارينز** والمدرعات والخناجر..." .

اصبحت الارض منهكة مثل العمال : فقد كانوا يسرقون من الارض الرواسب العضوية ومن العمال رئاتهم، ولكن كان ثمة دائما أراضٍ جديدة تستغل وعمال جدد

---

* Mare Nostrum : تعنى حرفياً «بحرنا» وهى التعبير الذى كان الرومان يطلقونه على البحر الأبيض المتوسط بإعتباره بحراً مغلقاً للإمبراطورية الرومانية. والمقصود أن الكاريبى بحر مغلق لإمبراطورية الولايات المتحدة - م.

يبادون . وكان الدكتاتوريون، الشخصيات البارزة فى الاوبريت، يسهرون على رفاهية اليونايتيد فروت والسكين بين اسنانهم . وفيما بعد، اخذ انتاج الموز فى التناقص وعانت قدرة الشركة الكلية من عدة ازمات، لكن امريكا الوسطى لاتزال، فى ايامنا، محرابا للكسب امام المغامرين رغم ان البن ، والقطن ، والسكر قد أنزلوا الموز من مكانه المتاز. وفى عام ١٩٧٠ ، نجد ان الموز هو المصدر الرئيسى للعملات الصعبة لهندوراس وبنما، ولاكوادور، فى امريكا الجنوبية . وعند عام ١٩٣٠، كانت امريكا الوسطى تصدر سنويا ٣٨ مليون عنقود موز وكانت اليونايتيد فروت تدفع سنتيما على سبيل الضريبة على كل عنقود. ولم تكن هناك طريقة لحصر دفع الضريبة الطفيفة (التى زادت قليلا بعد ذلك)، ولا توجد طريقة بعد، لان اليونايتيد فروت مازالت اليوم تصدر وتستورد ما شاءت على هامش الجمارك الرسمية . اما الميزان التجارى وميزان المدفوعات للبلاد فانهما من اعمال الخيال التى يتولاها تقنيّو الخيال البارع .

■ أزمة الثلاثينات :

« قتل نملة جريمة أكبر من قتل رجل »

كان البن يعتمد على السوق الأمريكية الشمالية ، على طاقة استهلاكها ، وعلى اسعارها؛ وكان الموز تجارة أمريكية شمالية من اجل أمريكيين شماليين . وفجأة ، تفجرت ازمة ١٩٢٩ . وجعل انهيار Crack بورصة نيويورك أربطة الرأسمالية العالمية تطقطق ، لكنه سقط على الكاريبى مثل كتلة هائلة من الصخر فى بركة صغيرة . سقطت أسعار البن والموز رأسيا، وسقط رأسيا كذلك حجم المبيعات. إحتدم طرد الفلاحين بعنف محموم، وانتشرت البطالة فى الريف وفى المدن ، وثارت موجة من الاضرابات؛ وانخفضت بحدة القروض ، والاستثمارات، والانفاق العام ، وانخفضت مرتبات موظفى الدولة الى مايقرب من النصف فى هندوراس، وجواتيمالا ، ونيكاراجوا [٩٣]. ووصل طاقم الدكتاتوريين دون ابطاء لسحق الغليان؛ واستهلت حقبة سياسة حسن الجوار فى واشنطن، لكن كان من الضرورى احتواء التحريض الاجتماعى، الذى يمور فى كل مكان، بالدم والنار ولنحو عشرين عاملا اكثر قليلا بالنسبة للبعض ، واقل قليلا بالنسبة لاخرين ـ بقى فى السلطة خورخى اوبيكو Jorge Ubico فى جواتيمالا، ومكسمليليانو

ارناندث مارتينث Marximiliano Hernandez Martínez في السلفادور، وتيبورثيو كارياس Tiburcio Carias في هندوراس ، واناستاسيو سوموثا Anastasio Somoza في نيكاراجوا .

وحركت ملحمة اوجستو ثيسار ساندينو Augusto Cesar Sandino مشاعر العالم . وادى النضال الطويل لزعيم مقاتلى العصابات فى نيكاراجوا الى المطالبة بالارض والى اشعال الغضب الفلاحى. فخلال سبع سنوات، ظل جيشه الصغير من العراه يقاتل، فى ان واحد، ضد الغزاة الامريكيين الشماليين الاثنى عشر الفا وضد قوات الحرس الوطن. وكانوا يصنعون القنابل اليدوية بعلب السردين المليئة بالحصى، وكانت البنادق من طراز سبرينجفيلد تسقط الاعداء، والسكاكين متوفرة؛ وكانت صارية العلم غصنا لم يُشذَّب وبدل الاحذية كان الفلاحون يستخدمون رباطا من الجلد يسمى كايتى Caite لكى يتحركوا فى الجبال الوعرة. وعلى موسيقى اديليتا Adelita ، كان مقاتلو العصابات ينشدون : (٩٤)

فى نيكاراجوا ، ايها السادة ،
يضرب الفارُّ القط .

لم تكن طاقة نيران مشاة البحرية و لا القنابل التى تقدمها الطائرات بكافية لسحق ثوار لاس سيجوبياس Las Segovias . كذلك لم تكن كافية تلك الاختلاقات التى نشرتها فى العالم كله وكالتا اسوشيتيد برس و يونايتيد برس، اللتان كان مراسلاهما فى نيكاراجوا امريكيان شماليان يسيطران على جمارك البلاد .(٩٥) وفى عام ١٩٣٢، تنبأ ساندينو قائلا : " لن اعيش وقتا طويلا ". وفى العام التالى، مع فيض سياسة حسن الجوار الامريكية الشمالية، تم الاحتفال بالسلام. فقد دعى الرئيس زعيم مقاتلى العصابات الى اجتماع حاسم فى ماناجوا. وفى الطريق سقط ميتا فى كمين . والمح القاتل ، اناستاسيو سوموثا، فيما بعد إلى ان الاغتيال تم بامر من السفير الامريكى الشمالى ارثر بليس لين Arthur Bliss Lane . ولم يتباطأ سوموثا، الذى كان قائدا عسكريا حينئذ، فى الاستيلاء على السلطة. وحكم نيكاراجوا طوال ربع قرن بعده تلقى ابناؤه المنصب، بالوراثة. وقبل ان يتقلد وشناح الرئاسة ، كان سوموثا قد انعم على نفسه بصليب الشجاعة ، ونوط الاستحقاق ، ووسام الجدارة الرئاسى. وبعد ان اصبح

فى السلطة، نظم عدة مذابح و احتفالات ضخمة ، جعل جنوده فيها يتنكرون فى زى الرومان، بصنادل وخوذات؛ وتحول الى اكبر منتج للبن فى البلاد، فى ٤٦ مزرعة، كما كرس نفسه لتربية الماشية فى ٥١ مزرعة اخرى . ورغم ذلك ، لم ينقصه الوقت ابدا حتى يبذر بذور الرعب كذلك. وخلال فترة حكمه الطويلة ، لم يقاس، والحق يقال، من الضيق ، وكان يتذكر ببعض الاسى سنوات شبابه ، حين كان عليه ان يزيف نقودا ذهبية حتى يستطيع ان يتسلى .

كذلك اندلعت التوترات فى السلفادور كنتيجة للازمة. كان نحو نصف عمال مزارع الموز فى هندوراس سلفادوريين اضطر الكثير منهم للعودة الى بلادهم، حيث لم يكن ثمة عمل لاحد. وفى اقليم ايثالكو Izalco ، جرت انتفاضة فلاحية كبيرة عام ١٩٣٢، انتشرت بسرعة الى كل غرب البلاد. فارسل الدكتاتورمارتينث الجنود، المزودين بمعدات حديثة ، ليحاربوا ضد"البلشفيك "، وقاتل الهنود بالسكاكين ضد الرشاشات واختتم هذا الفصل بعشرة الاف قتيل . كان مارتينث، ذلك الساحر النباتى ومحب اللاهوت، يؤكد ان " قتل نملة جريمة اكبر من قتل رجل، لان الرجل يبعث بعد موته، بينما تموت النملة نهائيا"[٩٦] وكان يقول ان "فيالق غير منظورة " تحميه وتخبره بكل المؤامرات وكان يمارس الاتصال بالتخاطر المباشر عن بعد برئيس الولايات المتحدة . وكانت ساعة ذات بندول، فوق الطبق، تبين له ما اذا كان الطعام مسموما؛ وتشير له، على الخريطة، إلى الاماكن التى يختبئ فيها الاعداء السياسيون وكنوز القراصنة . وكان من عادته ان يرسل بطاقات تعزية الى أباء ضحاياه وكانت الغزلان ترعى فى فناء قصره. وقد حكم حتى عام ١٩٤٤ .

جرت المذابح فى كل مكان. وفى عام ١٩٣٣ ، اعدم خورخى اوبيكو رميا بالرصاص مئة من القادة النقابيين، والطلابيين، والسياسيين، فى الوقت الذى اعاد فيه تطبيق القوانين المناهضة " لتشرد" الهنود . كان يجب على كل هندى ان يحمل دفترا تسجل فيه ايام عمله ؛ واذا لم تعتبر هذه الايام كافية، كان يسدد ماعليه منها فى السجن او قاصما ظهره فوق الارض، مجانا، خلال نصف عام. وفى الساحل غير الصحى للمحيط الهادى، يتقاضى العمال الذين يعملون خائضين فى الطين حتى ركبهم ثلاثين سنتا فى اليوم، وقد اوضحت اليونايتيد فروت ان اوبيكو قد اجبرها على خفض الاجور. وفى عام ١٩٤٤، قبل قليل من سقوط الدكتاتور، نشرت مجلة الريدرز دايجست Readers Digest مقالا ملتهبا من المديح: فقد تجنب نبى صندوق النقد الدولى هذا التضخم

يخفض الاجور، من دولار واحد الى خمسة وعشرين سنتيما يوميا، فى انشاء طريق الطوارى العسكرى، ومن دولار الى خمسين سنتيما يوميا ، فى اعمال القاعدة الجوية فى العاصمة . وفى هذه الفترة، منح اوبيكو سادة البن وشركات الموز الترخيص بالقتل : " سيعفى من المسئولية الجنائية ملاك المزارع ..." كان المرسوم يحمل رقم ٢٧٩٥وتجدد عام ١٩٦٧ ، خلال حكم الحكومة الديمقراطية والتمثيلية لمينديث مونتينجرو Mendez Montenegro .

ومثل كل طغاة الكاريبى، كان اوبيكو يظن نفسه نابليون. وعاش محاطا بتماثيل نصفية للامبراطور الذى كان له، حسب قوله، نفس ملامحه. وكان يؤمن بالانضباط العسكرى : فقد صبغ بالصبغة العسكرية مستخدمى البريد واطفال المدارس و الأوركسترا السيمفونى . كان اعضاء الاوركسترا يعزفون وهم مرتدين الزى الرسمى ، المقطوعات التى يختارها اوبيكو بالاسلوب والالات التى يحدّدها، وذلك مقابل تسعة دولارات شهريا . واعتبر ان المستشفيات من اجل المخنثين، بحيث كان المرضى يتلقون العلاج على ارض الممرات والدهاليز، اذا كان من نصيبهم شقاء ان يكونوا فقراء بالاضافة الى كونهم مرضى .

■ من أطلق العنف فى جواتيمالا ؟

فى عام ١٩٤٤، سقط اوبيكو من فوق منصته، اكتسحته رياح ثورة ذات طابع ليبرالى تزعمها بعض الضباط الشباب والجامعيين من الطبقة المتوسطة . وبدأ خوان خوسيه اريبالو Juan Jose Arevalo ، الذى اختير رئيسا، خطة تعليم نشطه واصدر قانونا للعمل لحماية عمال الريف والمدن. وولدت عدة نقابات؛ اما اليونايتيد فروت كومبانى، مالكة الاراضى الشاسعة، والسكك الحديدية والميناء، والمعفاه تقريبا من الضرائب والقيود، فلقد كفت عن كونهاكلية القدرة فى ممتلكاتها. وفى عام ١٩٥١، فى خطاب الوداع، كشف اريبالو النقاب عن انه كان عليه ان يحبط اثنتين وثلاثين مؤامرة موالتها الشركة. وواصلت حكومة خاكوبوا اربنث Jacobo Arbenz وعمقت دورة الاصلاحات . فقد كسرت الطرق وميناء سان خوسيه الجديد احتكار شركة الفواكه على المواصلات والتصدير. وبرأسمال قومى، ودون ان يمد يده الى اى بنك اجنبى، بدأ تنفيذ مشروعات تنمية عديدة افضت الى تحقيق الاستقلال. وفى يونيو عام ١٩٥٢، تم اقرار

الاصلاح الزراعي، الذى استفادت منه اكثر من مائة الف اسرة، رغم انه كان يسرىُ فقط على الاراضى غير المنتجة ويقضى بدفع تعويضات، على شكل سندات، للملاك الذين تنتزع ملكيتهم. كانت اليونايتيد فروت لاتزرع سوى ثمانية بالمائة من اراضيها الممتدة بين كلا المحيطين .

طرح الاصلاح الزراعى " تطويرالاقتصاد الرأسمالى الفلاحى والاقتصاد الرأسمالى فى الزراعةبوجه عام "، لكن حملة دعاية دولية مسعورة انطلقت ضد جواتيمالا: "الستار الحديدى يسقط حول جواتيمالا "، هذا ماتصايحت به الاذاعات ، والصحف، واقطاب منظمة الدول الامريكية .[٩٧] ، وقام الكولونيل كاستيو ارماس Castrillo Armas، المتخرج من كلية فورت ليفنورث العسكرية، بولاية كانساس ، بدفع القوات المدربة، و المزودة لهذا الغرض فى الولايات المتحدة، ضد بلاده ذاتها. وساند الغزو قصف الطائرات من طراز اف- ٤٧، التى يقودها طيارون امريكيون شماليون. وبعد ذلك بتسع سنوات، قال داويت أيزنهاور Dwight Eisenhower " [٩٨] كان علينا ان نتخلص من حكومة شيوعية صعدت الى السلطة". وكشفت تصريحات السفير الامريكى الشمالى فى هندوراس امام لجنة فرعية لمجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة ، فى ٢٧ يوليو ١٩٦١ ، ان العملية التحريرية لعام ١٩٥٤ قد نفذها فريق إشترك فيه، بالاضافة اليه هو نفسه، السفراء لدى جواتيمالا، وكوستا ريكا، ونيكاراجوا. وقد ارسل اليهم الن دلاس Allen Dulles ، الذى كان الرجل الاول فى وكالة المخابرات المركزية C.I.A فى ذلك الحين، ارسل اليهم برقيات تهنئة على العمل الذى تم انجازه. وقبل ذلك، كان الن الطيب قد شارك فى مجلس ادارة اليونايتيد فروت كومبانى . وشغل كرسيه ، بعد عام من الغزو، مدير اخر فى وكالة المخابرات المركزية ، هو الجنرال والتر بيديل سميث Walter Beedell Smith، وكان فوستر دلاس Foster Dulles ، شقيق الن، قد ظهر نافذ الصبر فى مؤتمر منظمة الدول الامريكية الذى بارك الحملة العسكرية ضد جواتيمالا. وبالصدفة، كانت مسودات عقود شركة اليونايتيد فروت قد حُررت، فى زمن الدكتاتور اوبيكو، فى مكتبه للمحاماه .

وترك سقوط اربنث علامة من اللهب على التاريخ اللاحق للبلاد. فنفس القوات التى قصفت مدينة جواتيمالا، وبويرتو باريوس وميناء سان خوسيه عند غروب يوم ١٨ يونيو ١٩٥٤، هى الموجودة فى السلطة اليوم. وتلت التدخل الاجنبى عدة دكتاتوريات وحشية، تشمل فترة حكم خوليو ثيسار ميندث مونتينجرو (١٩٦٦ - ١٩٧٠) ، الذى اسبغ على

الدكتاتورية ديكور نظام ديمقراطي. وقد وعد مونتينجرو بإجراء اصلاح زراعي، لكنه اقتصر على توقيع الترخيص لملاك الاراضي بحمل الاسلحة ، وباستخدامها. وكان الاصلاح الزراعي الذي اجراه أربينث قد تمزق اربا حين اتم كاستيو ارماس مهمته باعادة الاراضي الى اليونايتيد فروت و الملاك الاخرين الذين انتزعت ملكيتهم .

وكان عام ١٩٦٧ اسوأ اعوام دورة العنف التي استهلت في ١٩٥٤. وقد ابلغ قس كاثوليكي امريكي شمالي طرد من جواتيمالا، هو الاب توماس ملفيل Thomas Melville صحيفة **الناشيونال كاثوليك ريبورتر** National Catholic Reporter في يناير عام ١٩٦٨ انه : خلال مايزيد قليلا عن عام، اغتالت جماعات اليمين الارهابية اكثر من الفين وثمانمائة من المثقفين ، والقادة النقابيين ، والفلاحين الذين " حاولوا مقاومة مفاسد المجتمع الجواتيمالي". وقد اجرى الاب ملفيل حسابه على اساس معلومات الصحف، لكن احدا لم يبلغ ابدا عن غالبية الجثث : فقد كانوا هنودا بلا اسم و لا اصل معروف، ادرجهم الجيش، احيانا، كمجرد ارقام، في بيانات النصر على التخريب. وشكل الاضطهاد دون تمييز جزءا من الحملة العسكريةمن اجل " محاصرة وتصفية " حركات مقاتلي العصابات. وطبقا للقانون الجديد الساري ، لا يتحمل اعضاء اجهزة الامن مسئولية جنائية عن القتل، وتعتبر البيانات البوليسية او العسكرية براهين ثابته في المحاكمات. وقد اضفيت على اصحاب الضياع ومديريهم قانونيا صفة السلطات المحلية، مع حقهم في حمل الاسلحة وفي تشكيل اجهزة قمع . لم تدق اجهزة التيكرز في العالم معلنة اخبار المذبحة المنهجية، ولم يصل الى جواتيمالا الصحفيون المتشوقون الى الاخبار، ولم يستمع احد الى اصوات الادانة. ادار العالم ظهره، بينما كانت جواتيمالا تعاني من ليلة سان بارتولوميو الطويلة (*). بقيت قرية كاخون دل ريو Cajon del Rio بلا رجال، اما رجال قرية تيتوكي Tithuque فقد اخرجوا امعاءهم بالسكاكين كما سلخوا رجال قرية بييدرا بارادا Piedre Parada احياء واحرقوا احياء رجال قرية اجوا بلا نكادي ايبالا Agua Blanca de Ipala بعد ان اطلقوا الرصاص على سيقانهم؛ وفي قلب ميدان سان خورخي علقوا فوق رمح رأس فلاح متمرد. وفي ثيرو جوردو Cerro Gordo، ملأوا بالدبابيس حدقتي عين خايمي بيلا ثكيث، وتم العثور على جسد ريكاردو ميراندا وبه ثمانية و ثلاثين ثقبا اما رأس هارولد وسيلبا، بدون جسد هارولدو

* ليلة سان بارتولومير الطويلة : إشارة إلى المذبحة البشعه للبروتستانت في عهد شارل التاسع في فرنسا في ٢٣ أغسطس ١٥٧٢ - م.

سيلبا، فقد عثر عليه على قارعة الطريق المؤدى الى سان سلفادور؛ وفى لوس ميكسكوس Los Mixcos قطعوا لسان ارنستو تشينشيا Ernesto Chinchilla ؛ وفى نبع اوخو دى اجوا Ojo de Agua، حاكت الطلقات الاخوة اوليبا ألدانا وايديهم مقيدة خلف ظهورهم واعينهم معصوبة؛ وتحولت جمجمة خوسيه جوثمان الى لغز من القطع الصغيرة المتناثرة على ارض الطريق ؛ ومن ابار سان لوكاس ساكا تيبيكث San Lucas Sacatepequez كان يخرج بدل الماء موتى؛ وكان الرجال يصبحون وقد فقدوا ايديهم او اقدامهم فى ضيعة ميرافلورس Miraflores. وكانت الاعدامات تعقب التهديدات او يخترق الموت الرقاب، دون انذار؛ وفى المدن، كانت علامة الصليب الاسود ترسم على أبواب المحكوم عليهم. وعند خروجهم تطلق عليهم الرشاشات ، و تقذف جثثهم من اعالى الجبال.

ولم يتوقف العنف بعدها. فطوال زمن الاحتقار والغضب الذى استهل عام ١٩٥٤ ، كان العنف و مازال افرازا طبيعيا لجواتيمالا. وظلت الجثث تظهر واحدة كل خمس ساعات ، فى الانهار او على جوانب الطرق ووجوهها دون ملامح ، فقد شوهها التعذيب، بحيث لايمكن التعرف عليها ابدا. كذلك استمرت، على نطاق اوسع، المذابح الاكثرخفاء : مذابح البؤس اليومية. وقد شجب قس مطرود اخر، هو الاب بليز بونبين Blase Bonpane ، فى الواشنطن بوست، عام ١٩٦٨، هذا المجتمع المريض : "من بين الستين الف شخص الذين يموتون كل عام فى جواتيمالا، هناك ثلاثون الفا من الاطفال. ومعدل وفيات الاطفال فى جواتيمالا اعلى من مثيلتها فى الولايات المتحدة اربعين مرة .

■ أول إصلاح زراعي في أمريكا اللاتينية : قرن ونصف من الهزائم من أجل خوسيه أرتيجاس

بالحراب او بضربات السكين، كان المحرومون هم الذين قاتلوا فعلا، عند مطلع القرن التاسع عشر، ضد السلطة الاسبانية فى ريف أمريكا. ولم يعوّضهم الاستقلال : بل خان آمال من نورفواد ماهم. وحين حلّ السلام، بدأ زمن الشقاء من جديد. كان ملاك الارض وكبار التجار يزيدون ثرواتهم ، بينما ينتشر فقر الجماهير الشعبية . وفى نفس الوقت ، وعلى ايقاع مؤتمرات السادة الجدد لأمريكا اللاتينية، تناثرت أراضى نواب الملك الاربعة التابعة للامبراطورية الاسبانية إرباً وولدت بلدان كثيرة كشظايا للوحدة

القومية المفتته. كانت فكرة " الامة " التى بعثها النبلاء الامريكيون اللاتين شديدة الشبه بصورة ميناء نشيط، يقطنه العملاء التجاريون و المصرفيون للامبراطورية البريطانية، مع لاتيفونديات و مناجم فى المؤخرة. كان فيلق الطفيليين الذين تلقوا انباء حرب الاستقلال وهم يرقصون رقصات المينويت فى صالونات المدن، يشربون نخب حرية التجارة فى كؤوس من الكريستال البريطانى. واصبحت الموضة هى الشعارات الجمهورية الزاعقة للبرجوازية الاوربية : وضعت بلادنا نفسها فى خدمة الصناعيين الانجليز والمفكرين الفرنسيين. لكن، اى " برجوازية قومية " كانت برجوازيّتنا، المكونة من ملاك الاراضى، وكبار المهربين ، والتجار و المضاربين ، والسياسيين المرتدين الفراك والدكاترة دون جذور؟ سرعان ما اصبح لدى امريكا اللاتينية دساتيرها البرجوزية، التى تلمع ببريق الليبرالية، لكن لم يكن لديها، بالمقابل، برجوازية خلاقه، من الطراز الاوربى او الامريكى الشمالى، تطرح على نفسها كمهمة تاريخية تطور الرأسمالية القومية الفتية. فقد ولدت برجوازيات هذه البلاد كمجرد ادوات للرأسمالية العالمية، كقطع مزدهرة من الالة العالمية التى تدمى المستعمرات واشباه المستعمرات. كان برجوازيو واجهات العرض، المرابون والتجار، الذين احتكروا السلطة السياسية، لا يتمتعون بادنى اهتمام فى حفز صعود الصناعات المحلية، التى ماتت وهى جنينية حين فتح التبادل الحر الابواب امام شلال البضائع البريطانية. اما شركاؤهم، ملاك الاراضى، فلم يكونوا بدورهم مهتمين بحل " المسألة الزراعية "، الا بقدر ما يناسبهم . وتدعم نظام اللاتيفونديا على اساس الاستنزاف ، طوال القرن التاسع عشر . كان الاصلاح الزراعى راية مبكرة ، فى الاقليم .

احباط اقتصادى، واحباط اجتماعى، واحباط قومى : تلى الاستقلال تاريخ من الخيانات، وظلت أمريكا اللاتينية ، التى تمزقها حدودها الجديدة، محكوما عليها بالزراعة الاحادية و بالتبعية . وفى عام ١٨٢٤ ، اصدر سيمون بوليفار مرسوم تروخيو Decreto de Trujillo من اجل حماية هنود البيرو واعادة تنظيم نسق الملكية الزراعية هناك: ولم تمس بنوده القانونية على الاطلاق امتيازات الاوليجاركيه البيروانية، التى ظلت كما هى برغم النوايا الطيبة للمحرر، وظل الهنود فى استغلالهم كما كانوا. وفى المكسيك كان ايدالجو و موريلوس Hidalgo Y Morelos قد هزما قبل ذلك، وكان لابد ان ينقضى قرن من الزمان قبل ان تزدهر من جديد ثمار تعاليمهما في تحرير البسطاء والاستيلاء على الاراضى المغتصبة .

وإلى الجنوب، جسد خوسيه ارتيجاس الثورة الزراعية . فهذا الزعيم الثائر الذى لطخ سمعته وشوهه التاريخ الرسمى، تزعم الجماهير الشعبية فى الاراضى التى تشكل الان اورجواى، و المقاطعات الارجنتينية سانتا فى، و كورينتس، وانتر ريوس، وميسيونس، و كوردوبا، خلال الحقبة البطولية بين عامى ١٨١١ و ١٨٢٠ اراد ارتيجاس ان يضع الاسس الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية لوطن كبير فى حدود نيابة الملك السابقة فى الريو دى لا بلاتا ، وكان اهم و اوضح الزعماء الفيدراليين الذين قاتلوا ضد المركزية التصفوية لميناء بوينوس ايرس. وقد ناضل ضد الاسبان والبرتغاليين واخيرا سُحقت قواته بفعل الكماشة التى قام بها ريو دى جانيرو و بوينوس ايرس، اداتا الامبراطورية البريطانية، وبفعل الاوليجاركيه التى خانته، وفاء لاسلوبها، فور ان شعرت بدورها بان برنامج المطالب الاجتماعية للزعيم خيانة لها .

سار الوطنيون خلف أرتيجاس، والحراب فى ايديهم . كانوا فى غالبيتهم من الفلاحين الفقراء ، والجاوشو الخشنين ، والهنود الذين استعادوا احساسهم بالكرامة فى النضال ، والعبيد الذين كسبوا حريتهم بالانضمام الى جيش الاستقلال . اشعلت ثورة الفرسان الرعاه المراعى . وجاءت خيانة بوينوس ايرس ، التى تركت فى ايدى السلطة الاسبانية والقوات البرتغالية ، عام ١٨١١ ، الاراضى التى تكون اليوم اورجواى ، لتسبب رحيلا جماعيا للسكان نحو الشمال . تحول الشعب المسلح الى شعب فى المسيرة ؛ رجال ونساء ، عجائز و اطفال، تركوا كل شى مقتفين خطى الزعيم، فى قافلة لاتنتهى من الحجيج . وفى الشمال، على نهر اورجواى، نصب ارتيجاس معسكره، بالخيول والعربات وفى الشمال ، اقام حكومته، بعد وقت قصير. فى عام ١٨١٥ ، كان ارتيجاس يسيطر على اقاليم شاسعة من معسكر بوريفيكاثيون Purificacion ، فى بايساندو Paysandu " ماذا تظنّونني رأيت ؟ " ــ قص رحالة انجليزى ــ[٩٩] " كان فخامة السيد الحامى لنصف العالم الجديد جالسا على رأس ثور، بجور نار مشتعلة فى الأرض الطينية لبيته، وهو ياكل لحما من الاناء ويشرب الجين فى قرن بقرة ! وكان يحيط به دسته من ضباطه المهلهلين ..." ، ومن كل مكان كان يأتى، على ظهر الخيول المسرعة، جنود، وقواد، ومستكشفين . وكان ارتيجاس يُملى المراسيم الثورية لحكومته، وهو يمر بيديه على ظهره. وكان اثنان من الكتبه ــ لم يكن ورق الكربون موجودا ــ يدونان الملاحظات . هكذا ولد اول اصلاح زراعى فى امريكا اللاتينية، وطبق خلال عام كامل فى " المقاطعة الشرقية " ، التى تشكل اليوم اورجواى، حتى تمزق اربا

نتيجة غزو برتغالي جديد، حين فتحت الاوليجاركيه ابواب مونتفيديو للجنرال ليكور Lecor وحيّته كمحرر وقادته بكل التكريم الى تسبيحه شكر، تكريما للغازي، امام مذبح الكاتدرائية. وقبل ذلك، كان ارتيجاس قد اصدركذلك قانونا للجمارك يفرض ضريبة كبيرة على استيراد البضائع الاجنبية المنافسة لصناعات و حرف البلاد. المتطورة بشكل ملحوظ في بعض الاقاليم التي تشكل اليوم جزءً من الارجنتين والتي كانت ضمن الاقاليم الخاضعة للزعيم، وذلك في الوقت الذي اطلق فيه استيراد لوازم الانتاج الضرورية للتنمية الاقتصادية وفرض ضريبة لا تذكر على المواد الامريكية ، مثل عشب الباراجواي وتبغ الباراجواي [١٠٠] ، وقد قام من دفنوا الثورة كذلك بدفن قانون الجمارك .

كان القانون الزراعي لعام ١٨١٥ ــ ارض حرة ، رجال احرار ــ " اكثر التشريعات تقدما و مجدا " [١٠١] من بين تلك التشريعات العديدة التي شهدتها الاورجواي. وقد اثرت افكار كامبو مانس Campomanes و خوبيانوس Jovellanos في الدورة الاصلاحية لكارلوس الثالث، دون شك، في تشريع ارتيجاس ، لكن هذا الاخير نشأ، بشكل حاسم، كاستجابة ثورية للحاجة القومية الى استعادة الإزدهار الاقتصادي والعدالة الاجتماعية . فقد سن مبدأ نزع ملكية و توزيع اراضي " الأوربيين السيئين والأمريكيين الاسوأ " الذين هاجروا بسبب الثورة ولم تغفر لهم الثورة ذلك. تمت مصادرة اراضي الاعداء دون تعويض، وكان الاعداء يملكون، وهذه معلومة هامة، الاغلبية الساحقة من اللاتيفونديات. ولم يكن الابناء يدفعون ثمن ذنوب ابائهم : فقد قدم لهم القانون نفس مايقدمه للوطنيين الفقراء. وكانت الاراضي توزع وفق مبدأ ان " الاكثر شقاء سيتمتعون باكبر الامتيازات ". وكان للهنود، في مفهوم ارتيجاس، " الحق الاساسي ". كان المعنى الجوهري لهذا الاصلاح الزراعي يتمثل في منح الاستقرار في الأرض لفقراء الريف، ويحول الى فلاح ذلك الجاوشو المعتاد على حياة التجوال في الحرب وعلى المهام السرية والتهريب في وقت السلم. وسوف تأتي الحكومات التالية لحوض نهر البلاتا لتقضي بالدم و النار على الجاوشو، وتضمّه بالقوة الى اجراء المزارع الضخمة، لكن ارتيجاس اراد ان يجعله مالكا : " بدأ العمل الشريف يروق للجاوشو المتمردين، فأقاموا البيوت والحظائر، وزرعوا اول محاصيلهم " [١٠٢].

انهى الغزو الاجنبي كل شيء . رفعت الاوليجاركية رأسها وانتقمت ، وفيما تلا ، لم يعترف التشريع بتوزيعات الاراضي التي قام بها ارتيجاس . وبدءاً من ١٨٢٠ وحتى

نهاية القرن ، تم ، بالرصاص ، اجلاء الوطنيين الفقراء الذين استفادوا من الاصلاح الزراعي . ولم يحتفظوا " بارض اخرى خلاف ارض قبورهم " . ومهزوما ، مضى ارتيجاس الى باراجواى ليموت وحيدا فى ختام منفى طويل من التقشف والصمت . واصبحت صكوك الملكية التى اصدرها لا تساوى شيئا : فقد اكد مدعى الحكومة ، برناردو بوستامانتى Benardo Bustamante على سبيل المثال، انه يتضح من اول نظرة "انعدام القيمة الذى يميز الوثائق المشار اليها". وفى نفس الوقت، كانت حكومته تستعد، وقد تمت استعادة " النظام " ، للاحتفال باول دستور لاورجواى المستقلة ، المنتزعة من الوطن الكبير الذى قاتل من اجله ارتيجاس ، عبثا .

كان قانون عام ١٨١٥ يحتوى على اجراءات خاصة من اجل تجنب تراكم الاراضى فى ايد قليلة . وفى ايامنا ، يرسم ريف اورجواى مشهد صحراء : اذ تحتكر خمسمائة اسرة نصف الاراضى الاجمالية وكذلك ، بوصفها كوكبه السلطة ، تسيطر على ثلاثة ارباع رأس المال المستثمر فى الصناعة وفى البنوك [١٠٣] تتراكم مشاريع الاصلاح الزراعى ، بعضها فوق بعض ، فى المقبرة البرلمانية، بينما يخلو الريف من السكان : يضاف العاطلون الى العاطلين و يتضاءل باستمرار عدد الاشخاص الذين يعملون فى اعمال زراعية ، حسب السجل الدرامى لتعدادات السكان المتتالية . و تحيا البلاد على انتاج الصوف واللحم، لكن فى مراعيها، فى ايامنا، ترعى اغنام و ابقار اقل مما كانت عند بداية القرن. وينعكس تأخر اساليب الانتاج فى العائدات المنخفضة لتربية الماشية – التى تتم حسب مزاج الثيران والخراف فى الربيع ، وحسب الامطار الموسمية وحسب الخصوبة الطبيعية للتربة – وكذلك فى الانتاجية الضئيلة للمحاصيل الزراعية. ولا يبلغ انتاج اللحم لكل حيوان ولا حتى نصف ماتحصل عليه فرنسا او المانيا ، ونفس الشىء بالنسبة للبن بالمقارنة مع نيوزيلندا، والدنمارك ، وهولندا، وتنتج كل عنزة من الصوف مايقل كيلو جراما عما تنتجه فى استراليا، ويغل الهكتار من القمح مايقل ثلاث مرات عن غلته فى فرنسا، وفى الذرة ، تفوق غلّة الفدان فى الولايات المتحدة مقابلها فى اورجواى سبع مرات [١٠٤]. ويقضى كبار الملاك الذين يهربون ارباحهم الى الخارج، يقضون الصيف فى بونتا دل استى Punta del Este وطبقا لتقاليدهم الخاصة، لايقيمون فى الشتاء كذلك فى لاتيفونديا تهم، التى يزورونها بالطائرة بين الحين والاخر: ومنذ قرن من الزمان، حين تأسست الجمعية الزراعية، كانت عناوين ثلثى اعضائها فى العاصمة . والانتاج الواسع النطاق، الذى هو من عمل الطبيعة والاجراء الجوعى، لا

يتضمن وجع الرأس .

ومن المؤكد انه ينتج ارباحاً. فدخول و ارباح الرأسماليين من مربى الماشية تبلغ ما لا يقل عن ٧٥ مليون دولار فى العام فى الوقت الحاضر [١٠٥] الارباح الانتاجية منخفضة، لكن المكاسب عالية جدا، بسبب التكاليف البالغة الانخفاض . ارض بلا بشر، وبشر بلا ارض : فاللاتيفونديون الكبار يستخدمون، جزءا من العام فقط، شخصين بالكاد لكل الف هكتار. وفى القرى، على حافة المزارع الضخمة، تتكوّم، بائسة، الاحتياطيات المتاحة دوما من الايدى العاملة . والجاوشو ذو السمات الفولكلورية، الذى يمثل موضوعا للوحات والقصائد، لا يشبه كثيرا الاجير الذى يعمل، فى الواقع ، فى الاراضى الضيقة والغربية. تحتل الأخفاف المتهرئة مكان الاحذية الجلدية الطويلة الرقبة، ويحل حزام عادى او مجرد حبل احيانا، محل الاحزمة الضيقة ذات النقوش الذهبية والفضية. ومن ينتجون اللحم فقدوا الحق فى اكله : فالكريول نادرا ماينالون الشواء الكريولى التقليدى، ذلك اللحم الطرى الشهى الذى تذهّبه ألسنة اللهب . ورغم ان الاحصائيات الدولية تبتسم عارضة متوسطات خداعة، فالحقيقة هى ان" الشوربة " وهى طعام مطهو من الشعرية و فضلات النبائح، يشكل الغذاء الاساسى، المفتقر الى البروتين ، للفلاحين فى اورجواى [١٠٦].

■ أرتيميو كروث و ميتة إميليانو ثاباتا الثانية

بعد قرن بالضبط من قانون أرتيجاس للاراضى، طبّق اميليانو ثاباتا Emiliano Zapata ، فى اقليمه الثورى جنوب المكسيك ، اصلاحا زراعيا جذريا .

قبل خمس سنوات ، كان الدكتاتور بورفيريو دياث Porfiro Diaz قد احتفل ، فى احتفالات ضخمة، بالعيد المئوى الاول لصيحة دولوريس[*] : كان السادة مرتدى معاطف الفراك، الذين يمثلون المكسيك الرسمى، يجهلون بصورة أوليمبية المكسيك الحقيقي، الذين كان بؤسه يغذى بهاهم. فى جمهورية المنبوذين ، لم تكن دخول العمال قد زادت سنتا واحدا منذ الانتفاضة التاريخية للقس ميجيل ايدالجو Miguel Hidalgo. وفى عام ١٩١٠ ، كان مايزيد قليلا على ثمانمائة لايتفوندى ، الكثير منهم اجانب،

* صيحة الاستقلال التي أطلقها ميجيل ايدالجو، قس دولورس (بإقليم جوانا خواتو) في ١٦ سبتمبر ١٨١٠ وطرح توزيع الأرض والغاء الضرائب – م.

يمتلكون كل الاراضى القومية تقريبا . كانوا سادة مدن، يعيشون فى العاصمة او فى اوربا و نادرا مايزورون مركز لاتيفونديا تهم ، حيث ينامون مُتمترسين خلف جدران عالية من الحجر الداكن تدعمها اركان قوية (١٠٧). وعلى الجانب الاخرمن الجدران، فى اماكن فرق العمل ، كان الاجراء يتكومون فى جحور من الطين النىء. كان اثنا عشر مليونا من الاشخاص، من بين عدد اجمالى للسكان يبلغ خمسة عشر مليونا ، يعتمدون على الاجور الزراعية ؛ وكان الاجراء يتقاضون اجرهم بالكامل تقريبا من محلات الضياع، مترجما، باسعار خيالية، الى فاصوليا، ودقيق، و روم. وكان السجن، والمعسكر، والكنيسة يتولون النضال ضد العيوب الطبيعية للهنود، الذين، حسب قول احد اعضاء أسره بارزة فى ذلك العصر ، كانوا يولدون "ضعافا ، وسكيرين، ولصوصاً. كانت العبودية ، حيث العامل مقيّد بديون تورث أو بعقد شرعى ، هى النظام الفعلى للعمل فى مزارع القنّب فى يوكاتان Yucatan ، وفى سهول التبغ فى الباى ناثيونال Valle Nacional ، وفى غابات الاخشاب والفواكه فى تشياباس Chiapas وتاباسكو Tabasco وفى مزارع المطاط، والبن، وقصب السكر، والتبغ ، والفواكه فى بيراكروث Veracruz ، وأواكساكا Oaxaca وموريلوس Morelos . وقد استنكر جون كينيث تيرنر John Kennerth Turner ، الكاتب الامريكى الشمالى ، فى شهادته عن زيارته (١٠٨). أن «الولايات المتحدة قد حولت بورفيريو دياث فعلياً الى نائب ملك سياسى، وبالتالى ، حولت المكسيك الى مستعمرة عبده». كانت رؤوس الأموال الامريكية الشمالية تحصل، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على ارباح سمينة من ارتباطها بالدكتاتورية، قال تيرنر «إن الحاق المكسيك بأمريكا الشمالية ، والذى كثيراً ما يتشدق به وول ستريت ، ينفذ و كأنه إنتقام».

فى عام ١٨٤٥ ، كانت الولايات المتحدة قد ضمت الاراضى المكسيكية في تكساس وكاليفورنيا، حيث أعادت العبودية باسم الحضارة، وفى الحرب خسرت المكسيك كذلك الاراضى التى تشكل الآن ولايات كولورادو ، وأريزونا ، ونيومكسيكو ، ونيفادا ، ويوتاه. أكثر من نصف البلاد. وتعادل الاراضى المغتصبة المساحة الحالية للأرجنتين . «المكسيك البائسة ! – هكذا يقال منذ ذلك الحين – بعيدة جداً عن الربّ وقريبة جداً من الولايات المتحدة» أما بقية أراضيها الممزقة فقد عانت فيما بعد من غزو الاستثمارات الامريكية الشمالية فى النحاس، وفي البترول، وفى السكر، وفى المصارف ، وفى النقل، فشركة الامريكان كورديج ترست American Cordage Trust ، وهى أحد فروع شركة ستاندارد أويل Standard Oil ، ليست غريبة على الاطلاق عن ابادة هنود المايا واليا كى فى

مزارع القنب فى يوكاتان ، معسكرات الاعتقال حيث كان الرجال والاطفال يباعون ويشترون كالحيوانات ، لأن هذه كانت الشركة التى تملك اكثر من نصف القنب المنتج وكان يناسبها أن تحصل على التيلة بأسعار رخيصة. وفى أحيان أخرى ، كان استغلال قوة عمل العبيد مباشراً ، كما إكتشف تيرنر. وحكى مدير أمريكى شمالى أنه كان يدفع ثمن جماعات الاجراء المقيدة بسعر خمسين بيسو للرأس ، «ونبقيهم طالما تحملوا ... وخلال أقل من ثلاثة أشهر ندفن أكثر من نصفهم» (١٠٩).

وفى عام ١٩١٠ حانت ساعة تصفية الحساب. إنتفضت المكسيك بالسلاح ضد بورفيريو ديّاث. ومنذ ذلك الحين، ترأس زعيم فلاحى الانتفاضة فى الجنوب : هو إميليانو ثاباتا، أكثر قادة الثورة نقاءً ، وأكثرهم إخلاصاً لقضية الفقراء ، وأكثرهم حماساً فى رغبته فى الخلاص الاجتماعى .

كانت العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر زمناً للاستنزاف الوحشى بالنسبة للتجمعات الفلاحية فى كل المكسيك؛ كانت قرى ونجوع موريلوس تقاسى من الاصطياد المحموم للأراضى ، والمياه ، والايدى العاملة التى كانت مزارع قصب السكر تلتهمها فى توسعها. كانت مزارع القصب الضخمة تسيطر على حياة الولاية وكان إزدهارها قد بعث الى الحياة معامل تكرير حديثة ، ومعامل تقطير ضخمة وشبكات سكك حديدية من أجل نقل المنتج. وفى قرية أنينيكويلكو Anenecuilco ، حيث عاش ثاباتا وإلى حيث كان ينتمى جسداً وروحاً ، كان الفلاحون المستنزفون ينسبون الى انفسهم سبعه قرون من العمل المتصل على أراضيهم : فقد كانوا هناك قبل أن يصل هرنان كورتيس. وكان من يحتجون بصوت عال يساقون الى معسكرات الاعتقال القسرية فى يوكاتان. ومثلما فى كل ولاية موريلوس ، التى كانت أراضيها الخصبة فى أيدى سبعة عشر ملاكاً ، كان الفلاحون يعيشون أسوأ مما يعيش خيول البولو التى يدللها اللاتيفونديون فى إصطبلاتهم الفاخرة . وقرر قانون صدر عام ١٩٠٩ إنتزاع أراض جديدة من أصحابها الشرعيين وأشعل التناقضات الاجتماعية الملتهبة فعلاً.

وتحول إميليانو ثاباتا الى مقاتل عصابات ، هذا الفارس القليل الكلام ، الشهير لأنه كان أفضل مروّض فى الولاية والذى يحترمه الجميع بالاجماع لأمانته وشجاعته . و «ملتصقين بذيل جواد الزعيم ثاباتا» ، شكل رجال الجنوب بسرعة جيش تحرير (١١٠).

سقط ديّات ، ووصل فرنثيسكو ماديرو Francisco Madero الى الحكم ، على عنان الثورة. ولم تتأخر وعود الاصلاح الزراعى فى التبخر الى بخار تشريعى. وفى يوم

زواجه، اضطر ثاباتا الى قطع الحفل : فقد أرسلت الحكومة قوات الجنرال بيكتوريانوأويرتا Victoriano Huerta لسحقه . تحول البطل الى «قاطع طريق» ، وفق ما ذكره دكاترة المدينة. وفي نوفمبر عام ١٩١١، أعلن ثاباتا خطة أيالا Ayala ، بينما يعلن: «أنا مستعد للنضال ضد كل شئ وضد الجميع» . أعلنت الخطة أن «الغالبية الساحقة من قرى ومُواطني المكسيك لم يعودوا يمتلكون أكثر من الأرض التى يطأونها» ودعت الى التأميم الشامل لممتلكات اعداء الثورة ، وأعادة الارض التى إغتصبها سيل اللاتيفونديين الى أصحابها الشرعيين ، ونزع ملكية ثلث أراضى الملاك المقيمين ، تحولت خطة أيالا الى قطب لا يقاوم جذب الآلاف والآلاف من الفلاحين الى صفوف الزعيم الزراعى. وشجب ثاباتا «النفاق السئ الصيت» الذى يحول الامر كله الى مجرد تغيير أشخاص فى الحكومة : فلم تقم الثورة من أجل هذا.

دام الصراع نحو عشر سنوات ، ضد ديّاث ، وضد ماديرو ، ثم ضد ويرتا ، القاتل، وفيما بعد ضد بينو ستيانو كارّانزا Venustiano Carranza . وكان زمن الحرب الممتد كذلك فترة للتدخلات الامريكية الشمالية المستمرة : فقد تولى جنود المارينز عمليتى إنزال وعدة عمليات قصف، ودبر الموظفون الديبلوماسيون عدة مؤامرات سياسية كما نظم السفير هنرى لين ويلسون Henry Lane Wilson بنجاح جريمة الرئيس ماديرو ونائبة. ولم تغير التبدلات المتتابعة فى السلطة ، على أية حال ، من عنف الاعتداءات ضد ثاباتا وقواته ، لانها كانت تعبيراً غير مُقَنّع عن الصراع الطبقى فى عمق الثورة القومية: كانت الخطر الحقيقى. كانت الحكومات والصحف تطنطن ضد «الجموع المخّربة» لجنرال ولاية موريلوس ، وأرسلت الجيوش الثوية ، الواحد تلو الآخر، ضد ثاباتا. كانت الحرائق والمذابح ، وتخريب القرى ، تجرى المرة تلو المرة ، دون جدوى. كان الرجال ، والنساء ، والاطفال يموتون رمياً بالرصاص أو شنقاً بإعتبارهم «جواسيس لثاباتا» وكانت المذابح تتلو اعلانات النصر: كان التطهير ناجحاً. لكن سرعان ما تعود النيران لتوقد فى المعسكرات الثورية المتنقلة فى جبال الجنوب. وفى مناسبات عدّة ، شنت قوات ثاباتا هجمات مضادة بنجاح حتى مشارف العاصمة. وبعد سقوط نظام ويرتا ، قام إمليانو ثاباتا وبانشو بيّا Pancho Villa ، «أتيلا الجنوب» و«سنطور الشمال» ، بدخول مدينة المكسيك منتصرين وإقتسموا السلطة لفترة وجيزة ، وعند نهاية عام ١٩١٤ ، بدأت دورة قصيرة من السلم أتاحت لثاباتا أن يطبق ، فى موريلوس ، اصلاحاً زراعياً أكثر جذرية من ذلك الذى أعلنته خطة أيالا. وقد أثر مؤسس الحزب

الاشتراكى وبعض المناضلين الفوضويين – النقابيين بدرجة كبيرة فى هذه العملية : فقد جعلوا ايديولوجية زعيم الحركة اكثر راديكالية ، دون أن يجرحوا جذوره التقليدية ، وقدموا له قدرة تنظيمية لاغنى عنها.

طرح الاصلاح الزراعى «التدمير من الجذور وإلى الابد لاحتكار الارض الجائر ، من أجل تحقيق حالة اجتماعية تضمن تماماً الحق الطبيعى لكل إنسان فى مساحة الارض الضرورية لاقامة اوده وأود اسرته» . اعيدت الارض الى الجماعات والافراد المنهوبين على أساس قانون نقل الملكية لعام ١٨٥٦ ، وحددت حدود قصوى للأراضى حسب المناخ والجودة الطبيعية للأرض وأعلنت ممتلكات أعداء الثورة ممتلكات عامة. وكان هذا البند السياسى الاخير ، مثلما فى إصلاح أرتيجاس الزراعى، يتمتع بمعنى اقتصادى واضح : فالاعداء هم اللاتيفونديون. تشكلت مدارس تقنية ، ومصانع للأدوات، ومصرفاً للتسليف الزراعى؛ وتم تأميم معامل التكرير والتقطير ، التى تحولت الى خدمة عامة. ووضع نظام للديمقراطية المحلية فى أيدى الشعب منابع السلطة السياسية والحاجة الاقتصادية. ولدت وأنتشرت المدارس الثاباتية ، وتنظمت مجالس شعبية للدفاع ولتطوير المبادئ الثورية ، إكتسبت ديمقراطية أصيلة شكلها وقوّتها. كانت البلديات وحدات نووية للحكومة وكان الناس يختارون سلطاتهم ومحاكمهم ، وشرطتهم، وكان على الزعماء العسكريين أن يخضعوا لإرادة السكان المدنيين المنظمين. لم تكن ارادة البيروقراطيين والجنرالات هى التى تفرض نظم الانتاج والحياة. وارتبطت الثورة بالتقاليد وعملت «فى انسجام مع العادة ومع أعراف كل قرية .... ، بمعنى أنه ، اذا كانت قرية معينة تريد النظام المشاعى فسوف ينُفّذ ذلك ، واذا شاءت قرية أخرى تفتيت الارض للتعرف على ملكياتها الصغيرة ، فسوف يتم ذلك» (١١١).

وفى ربيع عام ١٩١٥ ، كانت كل حقول موريلوس مزروعه ، بالذرة والاغنية الاخرى اساساً. بينما كانت مدينة المكسيك تعانى، بسبب نقص الاغذية، من خطر المجاعه الوشيكة. كان بينو ستيانو كارانثا قد تولى الرئاسة وأصدر بدوره، إصلاحاً زراعياً لكن قواده لم يتباطئوا فى امتلاك مكاسبه؛ وفى عام ١٩١٦ هجموا، بأسنان مسنونه، على كويرنا باكا، عاصمة موريلوس، وعلى بقية المقاطعات الثاباتية. وأصبحت الزراعات، التى عادت تعطى ثمارها ، والمعادن، والجلود ، وبعض الآلات، أصبحت كلها غنيمة ممتازة للضباط الذى تقدموا وهم يحرقون كل شئ يصادفهم ويعلنون ، فى نفس الوقت، «عملاً لاعادة البناء والتقدم».

وفى عام ١٩١٩ ، أودت خدعة حربية وخيانة بحياة إميليانو ثاباتا. فقد أفرغ كمين من ألف رجل بنادقهم فى جسده. مات فى نفس عمر التشى جيفارا. وعاشت اسطورته: الجواد القسطلى اللون الذى انطلق يخب وحيداً ، صوب الجنوب ، عبر الجبال. وليست الاسطورة فقط. فقد إستعدّت موريلوس كلها «لاستكمال عمل المصلح، والانتقام لدم الشهيد، وإقتفاء مثال البطل» ورن الصدى فى البلاد بأسرها. ومر الزمن، ومع رئاسة لاثارو كارديناس Lazaro Cardenas (١٩٣٤-١٩٤٠) استعادت تقاليد ثاباتا حياة وقوة من خلال تطبيق الاصلاح الزراعى فى البلاد كلها. تم خلال فترة حكمه بالدرجة الاولى، نزع ملكية ٦٧ مليون هكتار تسيطر عليها الشركات الاجنبية أو القومية وتلقى الفلاحون، علاوة على الارض، قروضاً، وتعليماً، ووسائل لتنظيم العمل. كان اقتصاد وتعداد البلاد قد بدءا صعودهما المتسارع؛ تضاعف الانتاج الزراعى بينما جرى تحديث وتصنيع البلاد بأسرها. نمت المدن واتسعت، امتداداً وعمقاً، السوق الاستهلاكية.

لكن القومية المكسيكية لم تؤد الى الاشتراكية ، وبالتالى، وكما حدث فى بلدان اخرى لم تقفز القفزة الحاسمة بدورها ، فلم تحقق بإقتدار أهدافها فى الاستقلال الاقتصادى والعدالة الاجتماعية. كان مليون من الموتى قد قدّموا دمهم ، خلال سنوات الثورة والحرب الطويلة ، « إلى هويتزيلو بوتشتلى Huitzilo Pochtli أشد قسوة وغلظة ونهماً من ذلك الذى عبده أسلافنا : هذا الإله هو التطور الرأسمالى للمكسيك ، فى الشروط التى يفرضها الخضوع للإمبريالية» (١١٢). وقد بحثت دراسات عديدة مؤشرات تدهور الرايات القديمة ، ويؤكد ادموندو فلورس (١١٣). Edmundo Flores ، فى دراسة نشرت حديثاً أنه، « فى الوقت الحاضر، فإن ٦٠ فى المائة من إجمالى سكان المكسيك دخلهم يقل عن ١٢٠ دولاراً سنوياً ويعانون من الجوع» ، وهناك ثمانية ملايين من المكسيكيين لا يستهلكون عملياً سوى الفاصوليا، وعجة الذرة والفلفل الحار (١١٤). ولا يكشف النظام تناقضاته العميقة فحسب حين يسقط خمسمائة طالب صرعى فى مذبحة تلاتيلولكو Tlatelolco . فبإستخدام ارقام رسمية ، يصل الونسو اجيلار Alonso Aguilar إلى نتيجة أنه يوجد فى المكسيك نحو مليونين من الفلاحين دون أرض ، وثلاثة ملايين طفل لا يتلقون تعليماً ، ونحو أحد عشر مليوناً من الاميين وخمسة ملايين من الحفاه (١١٥). تتفتت الملكية الجماعية لفلاحى الإخيدو * باستمرار ، وإلى جانب تضاعف المزارع البالغة الصغر ، التى تفتت نفسها ، ظهرت لايتفوندية من نوع جديد وبرجوازية زراعية تكرس نفسها

* الإخيدو : الأرض الشاعيه لهنود المكسيك - م.

للزراعة التجارية على نطاق واسع. وملاك الاراضى والوسطاء القوميّون الذين كسبوا مركزاً مسيطراً بالتلاعب بنص وروح القوانين هم ، بدورهم ، خاضعون ، وفى كتاب حديث يُعتبرون متُضمّنين فى عبارة «وشركاه» التى تكمل اسم شركة أندرسون كلايتون (١١٦). وفى نفس الكتاب يقول إبن لاثارو كارديناس أن « اللاتيفوندیات المتنكرة ، قد أقيمت ، بصورة تفضيلية ، فى الاراضى ذات النوعية الافضل ، فى أكثرها انتاجية ».

وقد أعاد الروائى كارلوس فوينتس Carlos Fuentes ، بدءاً من الاحتضار، رسم حياه كابتن فى جيش كارانثا يشق طريقه ، بالرصاص وبقوة الاصرار، فى الحرب وفى السلم (١١٧). هذا الرجل ، أرتيميو كروث ، ذو الاصل الشديد التواضع ، يخلف وراءه ، بمرور السنين ، مثالية وبطولة الشباب : يغتصب الأراضى ، يؤسس ويضاعف الشركات، يجعل من نفسة نائباً فى البرلمان ، ويتسلق ، فى جهد لامع ، نحو القمم الاجتماعية ، مراكماً الثروة ، والسلطة ، والمكانة على أساس الأعمال ، والرشوة ، والمضاربة ، وضربات الجسارة الضخمة ، وقمع الهنود بالدم والنار. وتشبه صيرورة الشخصية صيرورة الحزب الذى ، نتيجة العجز الجبار للثورة المكسيكية ، يحتكر فعلياً الحياة السياسية للبلاد فى أيامنا. كلاهما سقط إلى أعلى.

■ اللاتيفونديا تضاعف الأفواه وليس الخبز

إن الانتاج الزراعى للفرد فى أمريكا اللاتينية أقل اليوم مما كان عشية الحرب العالمية الثانية. مضت ثلاثون عاماً طويلة : وخلال هذه المدة ، تزايد انتاج الغذاء فى العالم بنفس النسبة التى انخفض بها فى بلادنا. وتعمل بنية التأخر فى الريف الامريكى اللاتينى كذلك كبنية للتبديد : تبديد قوة العمل ، والارض المتاحة ، ورؤوس الأموال، والانتاج، وفى المحل الأول، تبديد الفرص التاريخية المراوغة للتنمية. فاللاتيفونديا وقريبتها الفقيرة، المينيفونديا (المزرعة الصغيرة)، تمثلان، فى كل بلدان امريكا اللاتينية تقريباً، عنق الزجاجة الذى يخنق النمو الزراعى وتطور الاقتصاد بأكمله. ويسم نظام الملكية ميسمه على نظام الانتاج : فالواحد ونصف فى المائة من الملاك الزراعيين الامريكيين اللاتين يملكون نصف اجمالى الاراضى القابلة للزراعة وتنفق امريكا اللاتينية، سنوياً ، أكثر من خمسمائة مليون دولار على شراء اغذية من الخارج يمكنها أن

تنتجها دون صعوبة فى أراضينا الشاسعة والخصبة. وهناك بالكاد خمسة بالمائة من إجمالى المساحة خاضعة للزراعة : وهى أدنى نسبة فى العالم ، وبالتالى، أعلى تبديد [١١٨]. بعلاوة على ذلك ، فإن العائدات بالغة الانخفاض ، فى الاراضى القليلة المزروعة. وفى أقاليم عديدة ، تنتشر المحاريث الخشبية اكثر من الجرارات الزراعية . ولا تستخدم الا بشكل استثنائى ، التقنيات الحديثة ، التى يتضمن انتشارها ليس ميكنه الاعمال الزراعية فحسب ، بل كذلك تدعيم وحفز التربة عن طريق الاسمدة ، والمبيدات ، والبذور المخصبة ، ومبيدات الاعشاب ، والرى الصناعى [١١٩]. تشمل اللاتيفونديا ، مثل الملك الشمس أحيانا ، كوكبة سلطة تقوم ، اذا استخدمنا التعبير الموفّق لماثا ثابالا Maza Zavala [١٢٠]. بمضاعفة الجوعى وليس الخبز. وبدل امتصاص اليد العاملة ، تطردها اللاتيفونديا : ففى خلال أربعين عاماً ، أنخفض عمال الريف الامريكيين اللاتين بأكثر من عشرين بالمائة ، وثمة أكثر مما يجب من التكنوقراطيين المستعدين للتأكيد ، بأستخدام ميكانيكى لوصفات جاهزه على أن هذا مؤشر على التقدم: مؤشر على اتساع المدن المتسارع ، وعلى الانتقال الجماعى للسكان الريفيين . فالعاطلون ، الذين يتقيأهم النظام بلا توقف ، يزحفون ، بالفعل ، على المدن ويوسّعون ضواحيها. لكن المصانع، التى تفرز بدورها عاطلين بقدرما تزداد تحديثاً ، لاتقدم ملاذاً لهذه الايدى العاملة الفائضة وغير المؤهلة. أما أوجه التقدم التكنولوجى للريف، حين تحدث ، فإنها تزيد من حدة المشكلة. تزداد أرباح ملاك الاراضى ، بإدخال وسائل أحدث لاستغلال ممتلكاتهم ، لكن أذرعاً اكثر تظل دون عمل وتتسع الهوّة التى تفصل بين الاغنياء والفقراء. وإدخال المعدات الميكانيكية ، مثلاً ، يلغى فرص عمل زراعية أكثر مما يخلق ، والامريكيون اللاتين الذين ينتجون ، فى يوميات عمل من مطلع الشمس الى مغيبها ، الاغذية ، يعانون ، عادة ، من سوء التغذية : ودخولهم بائسة ، أما الريع الذى يولده الريف فينفق فى المدن أو يهاجر الى الخارج ، والتقنيات الافضل التى تزيد من الناتج الضئيل للأرض لكنها لا تمس نظام الملكية القائم ، لا تمثل بركة بالنسبة للفلاحين، رغم انها تساهم فى التقدم العام. اذ لا تزيد أجورهم ولا مشاركتهم فى المحاصيل. الريف يشعّ فقراً للكثيرين وثراءً لاقل القليلين. تحلق الطائرات الخاصة فوق الصحراوات البائسة ، ويتضاعف البذخ العقيم فى المنتجعات الضخمة وتمور أوربا بالسياح الامريكيين اللاتين المنتفخين بالنقود، الذين يهملون زراعة اراضيهم لكنهم لا يهملون تثقيف روحهم. هذا ما كان ينقصهم.

يعزو پول بيروش Paul Bairoch الضعف الاساسى لاقتصاد العالم الثالث الى حقيقة أن متوسط إنتاجيته الزراعية لا تبلغ إلا نصف المستوى الذى بلغته ، عشية الثورة الصناعية ، البلدان المتطورة الآن (١٢١). وفى الواقع ، فإن الصناعة تتطلب، حتى تتوسع بصورة متناسقة، زيادة اكبر بكثير فى انتاج الاغذية والمواد الاولية الزراعية. الاغذية لأن المدن تكبر وتأكل؛ والمواد الأولية، من أجل المصانع ومن أجل التصدير ، بحيث تقل الواردات الزراعية وتزداد المبيعات الى الخارج وتولّد العملات الصعبة التى يتطلبها النمو. ومن ناحية أخرى ، فإن نظام اللاتيفونديات والمزارع الصغيرة يتضمن ضيق سوق الاستهلاك الداخلية ، التى تفقد الصناعة الوليدة موطئ قدمها اذا لم تتسع. وأجور الكفاف فى الريف وجيش الاحتياطى من العاطلين الذى يزداد عدده باستمرار، يتآمران فى هذا الاتجاه : فالمهاجرون من الريف ، الذين يطرقون ابواب المدن، يدفعون المستوى العام لأجور العمال الى الانخفاض.

ومنذ أعلن التحالف من أجل التقدم ، للرياح الاربعة ، ضرورة الاصلاح الزراعى، لم تكف الاوليجاركية والتكنوقراط عن تدبيج القوانين. عشرات القوانين، سمينه، ونحيفة، عريضة ، وضيقة ، ترقد على رفوف برلمانات كل بلدان امريكا اللاتينية ، لم يعد الاصلاح الزراعى موضوعاً ملعوناً : وقد تعلّم السياسيون أن أفضل طريقة لعدم تنفيذه تتلخص فى ذكره باستمرار . والعمليات المتزامنه لتركز وتفتت ملكية الارض تواصل مسارها، بصورة اوليمبية ، فى غالبية البلدان. ورغم ذلك ، بدأت الاستثناءات تشق طريقها .

فالريف ليس فقط موضعاً لبذر بذور الفقر : لأنه ، أيضاً ، موضع لبذور بذور الثورات ، رغم أن التوترات الاجتماعية الحادة تختفى عادة ، وتتقنع بقناع التسليم البادى للجماهير. فالشمال الشرقى للبرازيل ، على سبيل المثال ، يثير الدهشة للوهلة الاولى باعتباره ملاذاً للقدرية ، يقبل سكانه الموت جوعاً بشكل سلبى كما يقبلون قدوم الليل فى نهاية كل نهار. لكن ليس بعيداً فى الزمان ، فى نهاية الامر ، الانفجار الغيبى لسكان الشمال الشرقى الذين حاربوا بجوار مسيحيهم ، ورسلهم الغريبين ، رافعين الصليب والبنادق ضد الجيوش ، حتى يجلبوا الى هذه الارض مملكة السماوات ، كذلك ليست بعيدة موجات العنف الصاخبة للكانجاسيرو Cangaceiros : فالمتعصبون وقطاع الطرق، اليوتوبيا والانتقام، حفروا مجرى الاحتجاج الاجتماعى، الذي ما زال أعمى ، للفلاحين اليائسين (١٢٢). وفيما بعد ، سوف تستعيد جيوش الفلاحين، وتعمّق،

هذه التقاليد النضالية.

لم تتباطأ الدكتاتورية العسكرية التي اغتصبت السلطة فى البرازيل عام ١٩٦٤ فى إعلان اصلاحها الزراعى. والمعهد البرازيلى للاصلاح الزراعى ، كما أوضح باولو شيلينج ، هو حالة فريدة فى العالم : فبدل أن يوزع الارض على الفلاحين ، يكرس نفسه لطردهم ، حتى يعيد الى اللاتيفونديين المساحات التى غزتها عفواً أو نزعت ملكيتها الحكومات السابقة ، وفى عامى ١٩٦٦ و١٩٦٧ ، وقبل أن تطبق الرقابة على الصحف بحزم أكبر ، تعودت الصحف أن تنقل حوادث السلب ، والحرائق ، والاضطهاد التى كانت قوات الشرطة العسكرية تقوم بها بأمر من المعهد المزدحم بالعمل . وهناك اصلاح زراعى آخر جدير بأن يؤلف فيه كتاب ، هو ذلك الذى صدر فى إكوادور عام ١٩٦٤ . فلم توزع الحكومة سوى الاراضى غير المنتجة ، فى نفس الوقت الذى سهلت فيه تركيز الاراضى ذات النوعية الافضل فى أيدى كبار ملاك الاراضى. وكان نصف الاراضى التى وزّعت فى الاصلاح الزراعى بفنزويلا ، ابتداءً من عام ١٩٦٠ ، من أراضى الملكية العامة؛ لم تمس المزارع التجارية الضخمة وتلقى اللاتيفونديون الذين نزعت ملكيتهم تعويضات بلغ من ارتفاعها أن حققوا ارباحاً رائعه وأشتروا أراض جديدة فى مناطق أخرى.

كان الدكتاتور الارجنتينى خوان كارلوس اونجانيا Juan Carlos Ongania على وشك التعجيل بسقوطه قبل عامين من حدوثه، حين حاول عام ١٩٦٨ ، تطبيق نظام جديد للضرائب على الملكية الزراعية. كان المشروع ينوى فرض ضرائب على «السهول العارية» اكثر من الاراضى المنتجة. أطلقت الاوليجاركية المحصنة صرختها الى عنان السماء ، وعبأت سيوفها الخاصة فى رئاسة الاركان وكان على أونجانيا أن ينسى نواياه الهرطيقة. وتتمتع الارجنتين ، مثلها مثل أورجواى ، بسهولة خصبة طبيعياً سمحت لها، مع المناخ المعتدل ، بالتمتع برفاهية نسبية فى امريكا اللاتينية. لكن التاكل يعّض بأنيابه بلا رحمة السهول الشاسعة المهجورة التى لا تستخدم لافى الزراعة ولا فى الرعى، ونفس الشئ يحدث بالنسبة لجزء كبير من ملايين الهكتارات المخصصة للتربية الكثيفة للماشية. ومثلما فى حالة الاورجواى ، لكن بدرجة أقل ، فأن هذا الاستغلال المكثف يكمن فى قاع الازمة التى اصابت الاقتصاد الارجنتينى فى الستينات. ولم يظهر اللايتفونديون الارجنتينيون اهتماماً كافياً بإدخال التجديدات التقنية فى حقولهم. ومازالت الانتاجية منخفضة ، لأن من المناسب أن تظل كذلك؛ فقانون الربح أقوى من كل

القوانين. وتوسيع الملكيات ، من خلال شراء حقول جديدة ، أكثر ربحية وأقل خطراً من تطبيق الوسائل التى تتيحها التكنولوجيا الحديثة من أجل الانتاج المكثف (١٢٣).

فى عام ١٩٣١ ، عارضت الجمعية الزراعية الجرار الزراعى بالحصان :

«أيها الزراع مربّو الماشية ! - صاح مديروها - إن العمل بالحصان فى المهام الزراعية يعنى حماية مصالحكم الخاصة ومصالح البلاد!» ، وبعد عشرين عاماً ، أصرّت فى مطبوعاتها : « من الاسهل - قال أحد العسكريين المعروفين - أن يصل العلف الى معدة حصان من أن يصل السولار الى خزان عربة نقل ثقيلة» (١٢٤). وطبقاً لبيانات اللجنة الاقتصادية لامريكيا اللاتينية CEPAL ، فإن لدى الارجنتين ، بالتناسب مع هكتارات المساحة القابلة للزراعة ، جرارات زراعية أقل من فرنسا ست عشرة مرة ، وأقل من المملكة المتحدة تسع عشرة مرة . وتستهلك البلاد ، نسبياً كذلك، أسمدة أقل من المانيا الغربية مائة وأربعين مرة (١٢٥). ونواتج القمح ، والذرة ، والقطن فى الزراعة الارجنتينية أقل بكثير من نواتجها فى البلاد المتطورة.

وقد تحدّى خوان دومينجو بيرون Juan Domingo Peron مصالح أوليجاركية ملاك الاراضى فى الارجنتين ، حين فرض قانون الاجير وشرط الحد الادنى للاجر الزراعى. وفى عام ١٩٤٤ ، أكدت الجمعية الزراعية : « فى تحديد الاجور لابد من تحديد مستوى معيشة الاجير العادى. وإحتياجاته المادية محدودة جداً فى بعض الاحيان بحيث أن ما يزيد عليها يجلب مصائر اجتماعية قليلة الاهمية» . ما زالت الجمعية الزراعية تتحدث عن الأجراء وكأنهم حيوانات، والتأمل العميق بصدر الاحتياجات الاستهلاكية الضئيلة للعمال يعطينا، رغم انفنا ، مفتاحاً جيداً لفهم حدود التطور الصناعى الارجنتينى : فالسوق الداخلية لا تتسع ولا تتعمق بدرجة كافية. وسياسة التطور الاقتصادى التى دفعها بيرون نفسه لم تكسر ابداً بنية التخلف الزراعى. وفى يونيو عام ١٩٥٢ فى خطاب القاه من على مسرح كولومبس ، أنكر بيرون أنه يهدف الى اجراء إصلاح زراعى ، وقد علقت الجمعية الزراعية ، رسمياً ، على هذا الخطاب بقولها: «كان تمييزاً رائعاً».

وفى بوليفيا ، وبفضل الاصلاح الزراعى لعام ١٩٥٢ ، تحسنت التغذية بصورة ملحوظة فى مناطق ريفية واسعة من هضبة الالتيبلانو ، لدرجة أنه ثبتت تغيرات فى طول قامة الفلاحين. ورغم ذلك ، فإن مجمل سكان بوليفيا ما زالوا يستهلكون بالكاد ستين بالمائة من البروتينات وعشرين بالمائة من الكالسيوم الضروريين فى الوجبة الدنيا ، وفى المناطق الريفية نجد أن العجز أكثر حدةً بكثير من هذه المتوسطات. ولا يمكن القول ،

بحال ، أن الاصلاح الزراعى قد فشل ، لكن توزيع الاراضى المرتفعة لم يكف لمنع بوليفيا من أن تنفق ، فى أيامنا ، خمس عملاتها الصعبة على استيراد اغذية من الخارج.

أما الاصلاح الزراعى الذى طبقته ، منذ ١٩٦٩ ، حكومة بيرو العسكرية، فيبدو أنه تجربة فى التغيير العميق. وبالنسبة لنزع ملكية بعض اللاتيفونديات التشيلية من جانب حكومة ادوارد وفراى Eduardo Frei ، فمن الانصاف الاعتراف بأنه فتح الطريق امام الاصلاح الزراعى الجذرى الذى يعلنه الرئيس الجديد سلبادور أليندى Salvador Allende ، بينما أكتب هذه الصفحات .

■ مستعمرات الشمال الثلاث عشرة وأهمية ألاّ نولد مهمّين

فى أمريكا اللاتينية ، كان التملك الخاص للأرض يسبق دائماً زراعتها النافعة. وأكثر الملامح تخلفاً فى نظام الحيازة السارى حالياً لم تنشأ من الازمات، بل إنها ولدت خلال الفترات ذات الرفاهية البالغة؛ وعلى العكس، هدأت فترات الكساد الاقتصادى من نهم اللاتيفونديين للاستيلاء على مساحات جديدة. وفى البرازيل ، على سبيل المثال ، جعل تدهور السكر والاختفاء الفعلى للذهب والماس من الممكن أن يصدر ، فيما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٥٠ ، تشريع يضمن ملكية الارض لمن يشغلها ويجعلها تنتج. وفى عام ١٨٥٠ ، فإن صعود البن باعتباره «منتجاً ملكاً» جديداً ، حدّد إصدار قانون الاراضى ، الذى صيغ وفق رغبات السياسيين والعسكريين فى النظام الاوليجاركى ، من أجل انكار ملكية الارض على من يُفلحونها ، بقدر ما أخذت تنفتح ، نحو الجنوب ونحو الغرب ، الاتساعات الشاسعة الداخلية للبلاد. هذا القانون «أخذ يكتسب التدعيم والإقرار منذ ذلك الحين عن طريق تشريع مفصّل، يجعل الشراء هو الشكل الوحيد للحصول على الارض ويخلق نظاماً لتوثيق العقود يجعل من غير العملى تقريباً أن يستطيع عامل أن يقنن ملكيته ... »(١٢٦).

أما التشريع الامريكى الشمالى لنفس الفترة فقد طرح الهدف المقابل ، من أجل حفز الاستعمار الداخلى للولايات المتحدة. أخذت تصر عربات الرواد الذين مضوا

يوسعون الحدود ، على حساب مذابح السكان الاصليين ، صوب أراضى الغرب البكر : وكان قانون لينكولن لعام ١٨٦٢ ، قانون هومستيد HomestedAct ، يضمن لكل عائلة ملكية قطع أرض ذات ٦٥ هكتارا . ويلتزم كل مستفيد بزراعة قطعة أرضه خلال فترة لا تقل عن خمس سنوات (١٢٧). استعمرت الملكية العامة بسرعة مذهلة. تزايد السكان وانتشروا مثل بقعة زيت هائلة على الخريطة . جذبت الارض المتاحة ، الخصبة والمجانية تقريباً ، الفلاحين الاوربيين مثل قطب مغناطيس لا يقاوم : كانوا يعبرون المحيط وكذلك جبال أبالاتشى* باتجاه السهول المفتوحة. هكذا ، كان مزارعون أحرار هم من احتلوا الاراضى الجديدة فى الوسط وفى الغرب. وبينما البلاد تزداد فى المساحة وفى السكان، خلقت مصادر للعمل الزراعى وفى نفس الوقت تولدت سوق داخلية ذات قدرة استيعاب ضخمة ، هى الكتلة الضخمة من المزارعين الملاك ، من اجل الحفاظ على اندفاع التطور الصناعى .

وبالمقابل ، فإن العمال الزراعيين الذين ، منذ أكثر من قرن من الزمن ، قد زحزحوا بحماس حدود البرازيل الداخلية، لم يكونوا وليسوا عائلات من الفلاحين الاحرار يبحثون عن قطعه أرض تكون ملكهم ، كما يلاحظ ريبيرو Ribeiro ، بل إنهم أجراء تعاقدوا على خدمة اللاتيفونديين الذين سارعوا بامتلاك المساحات الضخمة الخاوية. لم تكن الصحراوات الداخلية ابداً فى متناول السكان الريفيين، مالم يكن على هذا النحو. لصالح آخرين، ظل العمال يفتحون البلاد، بضربات السكين ، عبر الغابات. والنتيجة أن الاستيطان هو مجرد امتداد للمساحة اللاتيفوندية. وفيما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، استوعب ٦٥ لايتفونديا برازيلياً رُبع الاراضى الجديدة التى اندرجت فى الزراعة (١٢٨).

يبين هذان النظامان المتعارضان للاستيطان الداخلى واحداً من أهم الفروق بين نموذجى التطور فى الولايات المتحدة وفى امريكا اللاتينية. لماذا يكون الشمالى غنياً والجنوب فقيراً ؟ إن نهر الريو براڤو يحدد اكثر بكثير من مجرد حدود جغرافية. وهذا التفاوت العميق فى أيامنا ، الذى يبدو أنه يؤكد نبؤة هيجل حول الحرب الحتمية بين امريكا وامريكا اخرى ، هل ولد نتيجة التوسع الامبريالى للولايات المتحدة أم أن له جذور اقدم ؟ فى الحقيقة ، أنه الى الشمال وإلى الجنوب قد تولدت فى رحم الاستعمار نفسه، مجتمعات قليلة الشبه جداً وفى خدمة أهداف ليست واحدة (١٢٩). لم يعبر حجاج ماى

* جبال أبالاتشي Appalachian : (مشتقه من أسمْ هنود الأبالاتشي Apalache) : سلسلة جبال تقع شرقي أمريكا الشمالية. وتمتد من ولاية كيبيك في كندا، حتي شمال آلاباما. وتنقسم إلي عدة جبال تحمل أسماء مستقلة – م.

فلاور May Flower البحر من أجل الاستيلاء على كنوز اسطورية ولا من أجل سحق الحضارات الهندية الغير موجودة فى الشمال ، بل من أجل أن يستقروا مع عائلاتهم ويعيدوا انتاج نظام الحياة والعمل الذى كانوا يمارسونه فى اوربا ، فى العالم الجديد . لم يكونوا جنوداً للحظ ، بل رواداً ، ولم يأتوا للغزو ، بل للإستيطان : أسسوا «مستعمرات استيطانيه» . مؤكد أن العملية اللاحقة طورت ، جنوب خليج ديلاوير Delaware ، إقتصاد مزارع عبودية مماثلة لتلك التى نشأت فى امريكا اللاتينية ، لكن مع فارق أن مركز الثقل فى الولايات المتحدة كان راسخاً منذ البداية فى مزارع ومعامل نيو إنجلند، حيث ستخرج الجيوش المنتصرة فى حرب الانفصال فى القرن التاسع عشر. إن مستوطنى نيو إنجلند، النواة الاصلية للحضاره الامريكية الشمالية ، لم يتصرفوا أبداً كوسطاء استعماريين للتراكم الرأسمالى الاوربى؛ فمنذ البداية ، عاشوا فى خدمة تطورهم الخاص وتطور أرضهم الجديدة. كانت مستعمرات الشمال الثلاث عشرة بمثابة متنفسٌ لجيش الفلاحين والحرفيين الاوربيين الذين كان تطور المتروبول يدفعهم خارج سوق العمل. شكل عمال أحرار قاعدة ذلك المجتمع الجديد على هذا الجانب من البحر .

وفى المقابل ، اعتمدت اسبانيا والبرتغال على وفرة هائلة من اليد العاملة الخاضعة فى أمريكا اللاتينية. تلى عبودية الهنود النقل الجماعى للعبيد الافارقة. وعلى طول القرون ، كان هناك دائماً فيلق ضخم من الفلاحين العاطلين المتاحين لنقلهم الى مراكز الانتاج : وجدت المناطق المزدهرة دائماً الى جانب المناطق المتدهورة ، على ايقاع ازدهار وسقوط صادرات المعادن النفيسة أو السكر ، وأمدت المناطق المتدهورة باليد العاملة المناطق المزدهرة. هذه البنية ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر، وفى الوقت الحاضر أيضاً تتضمن مستوىً منخفضاً من الاجور، بسبب الضغط الذى يمارسة العاطلون على سوق العمل، وتحبط نمو سوق الاستهلاك الداخلية . لكن بالاضافة الى ذلك، وبخلاف بيوريتانيىّ الشمال ، فإن الطبقات المسيطرة فى المجتمع الاستعمارى الامريكى اللاتينى لم تتجه ابداً الى التطور الاقتصادى الداخلى. كانت مكاسبها تأتى من الخارج؛ وكانت أكثر إرتباطاً بالسوق الاجنبية من ارتباطها بإقليمها ذاته. ولِدَ ملاك الاراضى وأصحاب المناجم والتجار للقيام بهذه الوظيفة : امداد أوربا بالذهب، والفضة، والاغذية. كانت الطرق تنقل الحمولة فى اتجاه واحد : صوب الميناء وأسواق ما وراء البحار. وهذا أيضاً هو المفتاح الذى يفسر توسع الولايات المتحدة كوحدة قومية وتمزّق

امريكا اللاتينية : فلم تكن مراكز انتاجنا مرتبطة فيما بينها ، بل تشكل مروحة مركزها بعيد جداً .

لقد نالت مستعمرات الشمال الثلاث عشرة ، إن أمكننا القول ، نعمة الشقاء. ولقد بيّنت خبرتها التاريخية الاهمية الفائقة لعدم ولادتها مهمة . لأنه فى شمال أمريكا لم يكن ثمة ذهب ولا فضة ، ولا حضارات هندية ذات تركزات سكانية كثيفة منظمة فعلاً من أجل العمل ، ولا أرض استوائية ذات خصوبة مدهشة فى الشريط الساحلى الذى استعمره الهجاج الانجليز .

لقد أظهرت الطبيعة أنها بخيلة ، وكذلك التاريخ : لم تكن هناك معادن ولا أيدى عاملة من العبيد لانتزاع المعادن من أحشاء الارض. وكان ذلك من حسن حظها. وفيما عدا ذلك ، ومن ماريلاند الى نوفاسكوشيا ، مروراً بنيو إنجلند ، انتجت مستعمرات الشمال ، بفضل المناخ وخصائص التربة ، ما كانت تنتجه بالضبط الزراعة البريطانية ، أى أنها لم تقدم الى المتروبول ، كما أوضح باجو [١٣٠]، انتاجاً تكميلياً. وكان الوضع مختلفاً تماماً فى جزر الانتيل وفى المستعمرات الايبيرية فى القارة. فمن الاراضى الاستوائية نبت السكر ، والتبغ ، والقطن، والنيلة، والتربنتينة؛ كانت جزيرة واحدة من جزر الكاريبى أهم بالنسبة لانجلترا ، من وجهة النظر الاقتصادية ، من مستعمرات الولايات المتحدة الثلاث عشرة مجتمعة .

تفسر هذه الظروف صعود وتدعيم الولايات المتحدة ، كنسق مستقل اقتصادياً ، لا يستنزف نحو الخارج الثروة المتولدة فى صدره. كانت الروابط التى تربط المستعمرة بالمتروبول واهية جداً؛ وفى باربادوس أو جامايكا ، بالمقابل، لم يكن يعاد استثمار رؤوس أموال سوى تلك التى لا غنى عنها لاحلال العبيد بقدر ما يستهلكون ، لم تكن العوامل العرقية ، كما يتضح ، هى التى حددت تطور البعض وتخلف الاخرين : فلم تكن جزر الانتيل البريطانية اسبانية فى شئ أو برتغالية فى شئ. والحقيقة هى أن عدم الاهمية الاقتصادية للمستعمرات الثلاث عشرة اتاحت التنويع المبكر لصادراتها واشعلت التطور القوى للصناعات. وتمتع التصنيع الامريكى الشمالى ، منذ ما قبل الاستقلال ، بحوافز وضروب حماية رسمية. وأبدت إنجلترا مرونة ، فى نفس الوقت الذى حظرت فيه بحسم أن تصنع جزرها الأنتيلية ولودبوساً.

الهوامش

(1) Fernando Ortiz, ***Contrapunteo Cubano del Tabaco y el azúcar***, La Habana, 1963.

(2) Caio Prado Júnior, ***Historia económica del Brasil***, Bueuos Aires, 1960.

(3) Sergio Bagú, ***Economía de la sociedad colonial***, Ensayo de historia comparada de América Latina, Buenos Aires, 1949.

(4) Celso Furtado, ***Formación económica del Brasil***, México - Buenos Aires, 1959.

(5) Josué de Castro, ***Geagrafía da Fome***, São Paulo, 1963.

(6) ***Ibid.***

(٧) المرجع السابق : أرجع رحالة أنجليزى، هو هنرى كوستر، عادة أكل الطين إلى إختلاط الأطفال البيض بالأطفال السود «الذين يُعدونهم بهذه الرذيلة الأفريقية».

(٨) يعانى الشمال الشرقى، بطرق عديدة، من نوع من الاستعمار الداخلى لصالح الجنوب الصناعى، وفى داخل الشمال الشرقى، نجد أن أقليم السرتون خاضع بدوره لمنطقة السكر التى يزودها بالإمدادات، بينما تعتمد اللاتيفونديات السكرية على معامل تصنيع المنتج. وتمر مؤسسة سيد المعمل Senhor de engenho القديمة بأزمة، فمعامل التكرير المركزية قد التهمت المزارع.

(٩) طبقاً لأبحاث معهد جواكيم نابوكو للأبحاث الإجتماعية Instituto Joaquim Nabuco de Pesquisas Sociais ، فى برنامبوكو Pernambuco ، أورده كيت سيمز تيلور Kit Sims Taylor فى :

El nordeste brasiléno : azucar y Plusvalía, Monthly Review, núm 63, Santiago de Chile, Junio de 1969.

(10) Franklin de Oliveira, ***Revolucoón y contrarrevolución en el Brasil***, Buenos Aires, 1965.

(11) René Dumont, ***Tierras vivas***. Problemas de la reforma agraria en el mundo, México, 1963.

(12) Josué de Castro, ***Op. Cit.***

(13) Celso Furtado, ***Dialética do desen volvimento***, Río de Janeiro, 1964.

(14) Karl Marx, ***Discurso sobre el libre cambio***, en Miseria de la Filosofia, Moscú, s. f.

(15) Vincent T. Harlow, ***A History of Barbados***, Oxford, 1926.

(16) Tadeusz Lepkowski, ***Haití***, tomo I, La Habana, 1968.

(17) ***Ibid.***

(١٨) هناك رواية رائعة لأليخو كاربنتييه Alejo Carpentier ، هى مملكة هذا العالم (مونتفيديو، ١٩٦٦)، تدور حول هذه الفترة الرائعة من حياة هايتى. وتتضمن إعادة خلق كاملة لجولات بولين وزوجها فى الكاريبى.

(19) أورده Manuel Moreno Fraginals, ***El ingenio***, La Habana, 1964.

(٢٠) كانت قد بدأت بالفعل مصانع نبح وتمليح اللحوم فى الريودى لابلاتا. فقد كانت الأرجنتين وأوروجواى، اللتان لم تكونا فى ذلك الحين توجدان منفصلتين ولا تحملان بعد هذين الاسمين، كانتا قد عدلتا إقتصادهما على أساس التصدير الواسع للحوم المجففة والمملحة، والجلود، والشحوم، والدهون. وكانت البرازيل وكوبا، مركزا العبيد الكبيران فى القرن التاسع عشر، سوقين ممتازين للحم المقدّد، وهو غذاء رخيص، سهل النقل والتخزين، ولايتعفن فى الحرارة الاستوائية. ولازال الكوبيون يطلقون إسم «مونتفيديو» على اللحم المقدّد، لكن أوروجواى كفت عن بيعه لكوبا عام ١٩٦٥، وانضمت بذلك للمقاطعة التى فرضتها منظمة الدول الأمريكية على كوبا. وعلى هذا النحو، فقدت أوروجواى، بحمق، آخر سوق بقى لها لهذه السلعة. وكانت كوبا، فى أواخر القرن الثامن عشر، هى أول سوق تفتح أمام لحم أوروجواى، الذى يشحن فى شرائح رقيقة مجففة.

- José Pedro Barrán y Benjmín Nahum, ***Historia rural del Uruguay moderno (1851 - 1885)***, Montevideo, 1967.

(21) Manuel Moreno Fraginals, ***Op. Cit.***

– حتى وقت قريب، كان يجوب نهر ساجوا أناس يسمون Palanqueros أو ملتقطو الجذوع. «يحملون قضيباً طويلاً بطرف حديدى. وبهذا القضيب يجرحون مجرى النهر حتى يلتقطوا جذع شجرة ... وهكذا، يوماً بعد يوم، يخرجون من قاع النهر بقايا الأشجار التى قطعها السكر. إنهم يعيشون على جثث الغابة».

(22) Celso Futado, ***La economía latinoamericana desde la Conquista ibérica hasta la Revolucion Cubana***, Santiago de Chile, 1969, México, 1969.

(٢٣) لاحظ مورنيو فراخينالس، ببراعة، أن أسماء معامل التكرير التى ولدت خلال القرن التاسع عشر كانت تعكس تقلبات منحنى السكر : الأمل، الأمل الجديد، الجسور، الصدفة، الطامح، الفتح، الثقة، النجاح الطيب، الضائقة، العذاب، نزع الوهم. وكان ثمة أربعة معامل تحمل، بصورة تنبوئية، إسم، نزع الوهم.

(24) René Dumont, ***Cuba (intento de crítica constructiva)***, Barcelona, 1965.

(25) Celso Furtado, ***La economía latinoamericana ..., Op. Cit.***

(٢٦) صرح مدير برنامج السكر فى وزارة زراعة الولايات المتحدة بعد الثورة بفترة. فقال : «منذ أن خرجت كوبا من الساحة، لم نعد نعتمد على حماية هذا البلد، الذى يعد أكبر مصدّر عالمى، حيث كان دائماً يملك إحتياطيات لتلبية إحتياجات سوقنا، حين يكون ذلك ضرورياً» :

- Enrique Ruiz Garcia, ***América Latina : Anatomía de una revolución***, Madrid, 1966.

(27) Leland H. Jenks, ***Nuestra colonia de cuba***, Buenos Aires, 1960.

(٢٨) أصبحت بويرتوريكو، وهى مصنع سكر آخر، سجينة. فمن وجهة النظر الأمريكية الشمالية، ليس مواطنو بويرتوريكو صالحين بما يكفى لكى يحيوا فى وطن خاص بهم، لكنهم بالمقابل، صالحين بما يكفى لكى يموتوا فى جبهة فيتنام بإسم وطن ليس وطنهم. وبالحساب بالنسبة لعدد السكان، فإن «الولاية الحرة المتحدة » لبويرتوريكو لها جنود يحاربون فى جنوب شرق آسيا أكثر من أى ولاية أخرى من الولايات المتحدة. ومواطنو بويرتوريكو الذين يقاومون الخدمة العسكرية الالزامية فى فيتنام يرسلون لقضاء خمس سنوات فى سجون أتلانتا. وتضاف إلى الخدمة العسكرية فى صفوف الولايات المتحدة أنواع أخرى من الإذلال موروثة من غزو عام ١٨٩٨ ويباركها القانون

(قانون كونجرس الولايات المتحدة). ولبويرتوريكو تمثيل رمزى فى الكونجرس الأمريكى الشمالى، دون تصويت ودون صوت، عملياً. وفى مقابل هذا الحق، تتمتع بوضع المستعمرة : فقد كان لبويرتوريكو، حتى الاحتلال الأمريكى، عملة خاصة بها وكانت تقيم علاقات تجارية مزدهرة مع الأسواق الرئيسية. والعملة اليوم هى الدولار والتعريفات الجمركية لجماركها تتحدد فى واشنطن، حيث يتقرر كل ماله علاقة بالتجارة الخارجية والداخلية للجزيرة. ونفس الشئ يجرى بالنسبة للعلاقات الخارجية، والنقل، والاتصالات، والأجور، وظروف العمل. والحكمة الفيدرالية للولايات المتحدة هى التى تحاكم البويرتوريكيين؛ والجيش المحلى يضمه جيش الشمال. والصناعة والتجارة فى أيدى المصالح الأمريكية الشمالية الخاصة. وقد شاء نزع الصبغة القومية أن يصبح مطلقاً عن طريق الهجرة : فقد دفع البؤس أكثر من مليون بويرتوريكى إلى البحث عن حظ أفضل فى نيويورك، والثمن هو تفتت هويتهم القومية. وهناك، يشكلون بروليتاريا ثانوية تتزاحم فى أشد الأحياء فظاعة.

(29) Fidel Castro, :*A revolución cubana* (discursos), Buenos Aires, 1959.

(30) A. Nú´nez Jiménez, ***Geografía de Cuba***, La Habana, 1959.

(31) René Dumont, ***Op. Cit.***

(32) Dudley Seers, Andrés Bianchi, Richard Jolly y Max Nolff, ***Cuba, the Economic and Social Revolutioon,*** Chapel Hill, Carolina del Norte, 1964.

(33) K. S. Karol, ***Les guérrilleros au Pouvoir***, L'itinéraire Politique de la révolution cubaine, París, 1970.

(٣٤) يتولى سعر السكر الثابت، الذى تضمنه الدول الاشتراكيه، دوراً حاسماً فى هذا الصدد. ويلعب نفس الدور كذلك كسر الحصار المفروض من قبل الولايات المتحدة، وقد أصبح هذا الحصار حطاماً من خلال التبادل التجارى المكثف مع اسبانيا وغيرها من دول أوربا الغربية. ويقدم ثلث الصادرات الكوبية دولارات، أى، عملات صعبة يمكن تحويها إلى البلاد؛ ويخصص الباقى للتبادل مع الاتحاد السوفيتى ومنطقة الروبل. ويتضمن نظام التجارة هذا بدوره صعوبات معينة : فالتوربينات السوفيتة للمحطات الكهربية – الحرارية ذات نوعية ممتازة، مثل كل المعدات الثقيلة التى ينتجها الاتحاد السوفيتى، لكن لا يحدث نفس الشئ بالنسبة السلع الاستهلاكية للصناعات الخفيفة والمتوسطة.

(35) Informe de Cuba a la Conferencia Regional de la FAO. Versión de Prensa Latina, 13 de octubre de 1970.

(٣٦) كان إلسوورث بانكر Ellswarth Bunker ، رئيس شركة ناشيونال شوجار ريفينيخ كومباني، هو المبعوث الخاص لليندون چونسون الى الدومينيكان بعد التدخل العسكرى. وتم إنقاذ مصالح الناشيونال شوجار فى هذا البلد تحت نظرة بانكر الساهرة: انسحبت قوات الاحتلال ليتركوا فى السلطة، فى أعقاب إنتخابات ديمقراطية جداً، خواكين بالاجير Joaquín Balaguer ، الذى كان الذراع اليمنى لتروخيو Trujillo طوال فترة دكتاتوريته الوحشية. وكان سكان سانتو دومينجو قد حاربوا فى الشوارع وفى البيوت، بالعصى، والسكاكين، والبنادق، ضد الدبابات، ومدافع البازوكا، وطائرات هليكوبتر القوات الأجنبية، مطالبين بعودة الرئيس المنتخب دستورياً، خوان بوش Juan Bosch ، إلى السلطة، بعد أن أسقطه انقلاب عسكرى. ان التاريخ، المتهكم، يتلاعب بالنبوءات. ففى اليوم الذى استهل فيه خوان بوش رئاسته الوجيزة، بعد ثلاثين سنة من طغيان تروخيو، حمل ليندون چونسون Lynlon Johnson ، الذى كان فى ذلك الوقت نائباً لرئيس الولايات المتحدة، حمل إلى سانتو دومينجو التهانى الرسمية لحكومته: كان ذلك بمثابة سيارة اسعاف.

(37) L. Capitan y Henri Lorin, ***El trabajo en América, antes y después de Colon,*** Buenas Aires, 1948.

(38) Sergio Bagú, ***Op. Cit.***

(39) Daniel P. Mannix y M. Cowley, ***Historia de la trata de negros,*** Madrid, 1962.

(40) Eric Williams. ***Capitalism and Slavery***, Chapel Hill, Carolina del Norte, 1944.

(41) Daniel P. Mannix y M. Cowley, ***Op. Cit.***

(٤٢) لم يكن أول قانون يحظر العبودية صراحة فى البرازيل برازيلياً. بل كان إنجليزياً، وليس ذلك من قبيل الصدفة. وقد صوّت عليه البرلمان البريطانى فى ٥ أغسطس عام ١٨٤٥ :

- Osny Duarte Pereira, ***Quem Faz as leis no Brasil*** ?, Río de Janeiro,

1963.

(43) Daniel P. Mannix y M. Cowley, ***Op. Cit.***

(44) Fernando Ortiz,***Op. Cit.***

(45) Philip Reno, ***El drama de la Guayana británica.*** Un pueplo desde la esclavitud a la lucha por el socialismo. Monthly Review. núm. 17/18, Buenos Aires, enero - Febrero de 1965.

(46) Edison Carneiro, ***O quilombo dos palmares***, Río de Janeiro, 1966.

(47) Nina Rodrigues, ***Os aficanos no Brasil***, Riode Janeiro, 1932.

(48) Décio de Freitas, ***A guerra dos escravos***, inédito.

(٤٩) كان إستيبان مونتيخو Esteban Montejo قد تجاوز عمره قرناً من الزمان حين حكى قصته ليجيل بارنت : Mignel Barnet ***(Biografia de un cimarrón,*** Buenos Aires, 1968.

(50) Roberto C. Simonsen, ***História econo^mica do Brasil*** (1500 - 1820) São Paulo, 1962.

(٥١) Manuel Moreno Fraginals, ***Op. Cit.*** : فى يوم خميس العهد، قرر الكونت دى كاسا بايونا Conde de Casa Bayona أن يتواضع أمام عبيده. وفى فورة حماسه المسيحى، غسل أقدام أثنى عشر عبداً واجلسهم ليأكلوا معه على مائدته. وكان ذلك هو العشاء الأخير حرفياً. ففى اليوم التالى، تمرد العبيد وأشعلوا النار فى المعمل. وقد علقت رؤوسهم فوق إثنتى عشرة حربة، فى وسط معمل التكرير.

(52) Eduardo Galeano, ***Los dioses y los diablos en las favel as de Río***, en Amaru, núm. 10, Lima,; unio de 1969.

(53) Roddfo Teófilo, ***Historia de se^ca do Ceará*** (1877 - 1880), Río de Janeiro, 1922.

(٥٤) وكالة فرانس بريس، بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٧٠. وفى عام ١٩٣٨، كان تجوال راعى بقر عبر الدروب المتكلسة للسرتون Sertão ، وراء كتابة واحدة من أفضل الروايات فى تاريخ البرازيل الأدبى.

ولم يتوقف سوط الجفاف الذى يجلد لا يتفونديات تربية الماشية فى داخل البلاد، والخاضعة بدورها لمعامل تكرير السكر على الشريط الساحلى، كذلك لم تتغير نتائجة. ما زال عالم حيوات يابسة Vidas secas سليماً لم يمس : البيغاء يقلد نباح الكلب، لأن أصحابه لم يعودوا يستخدمون صوتهم الانسانى تقريباً.

- Graciliano Ramos, ***Vidas secas***, La Habana, La Habana, 1964.

(55) Paulo Schilling, ***Un nuevo genocidio***, en Marcha, núm. 1.501, Montevideo, Julio 10 de 1970.

وفى اكتوبر عام ١٩٧٠، إستنكر أساقفة پارا Pará أمام رئيس البرازيل الاستغلال الوحشى لعمال الشمال الشرقى من جانب الشركات التى تشق الطريق عبر الأمازون. وتطلق عليها الحكومة «عمل القرن».

(56) Aurélio Pinheiro, ***A margem do Amazonas***, São Paulo, 1937.

(57) Rodolfo Teófilo, ***Op. Cit.***

(٥٨) إقتطع من بوليڤيا نحو مائتى الف كيلو متر مربع. وفى عام ١٩٠٢، تلقت تعويضاً عبارة عن مليونين من الجنيهات الاسترلينية وخطاً حديدياً يتيح لها الوصول إلى نهرى مادێرا Madeira والأمازون.

(٥٩) فى أوائل القرن، قدمت الجبال التى تكسوها أشجار المطاط للپيرو الوعود بأن تصبح إلدورادو جديدة. وقد كتب فرنثيسكو جارثيا كالديرون Francisco Garía Calderón فى **البيرو المعاصرة** ***El Perú Contemporáneo*** ، حوالى عام ١٩٠٨، أن المطاط هو ثروة المستقبل الضخمة. وفى رواية الدار الخضراء La casa verde (برشلونة، ١٩٦٦)، يعيد ماريو بارجاس ليوسا تشكيل المناخ المحموم في إيكيتوس وفي الغابة، حيث كان المغامرون ينهبون الهنود وينهبون بعضهم بعضاً. وقد إنتقمت الطبيعة، فقد كان لديها الجذام وغيره من الأسلحة.

(60) Domingo Alberto Rangel, ***El proceso del capitalismo contemporáneo en Venezuela***, Caracas, 1968.

(61) Domingo Alberto Rangel, ***Capital y desarrollo***, Tomo I : La Venezuela agraria, Caracas, 1969.

(٦٢) يطلق لقب «كولونيل» بسهولة فى البرازيل على اللاتيفوندبين التقليديين، وبالتالى، على كل الشخصيات الهامة. والفقرة الواردة مقتبسة من رواية جورج أمادو، سان جورج قديس إلّيوس São Jorge des Ilhéus (مونتفيديو، ١٩٤٦). وفى المقابل فإنه «حتى الصبية لم يكونوا يلمسون ثمار الكاكاو. كانوا يحسون بالخوف من تلك الثمار الصفراء، ذات النواة الصلبة، التى تجعلهم سجناء حياة الثمار واللحم القديد هذه». اذ أنه، فى العمق، «كان الكاكاو هو السيد الأكبر الذى يخشاه حتى الكولونيل». (جورج أمادو، كاكاو، بونيوس آيرس، ١٩٣٥). وفى روايه أخرى، هى : جابرييلا، قرنفل وقرفة Gabriela, clavo y canela ، تتحدث إحدى الشخصيات عن اليوّس عام ١٩٢٥، رافعة اصبعاً مؤكداً : «لا توجد حالياً، فى شمال البلاد، مدينة ذات تقدم أسرع». واليوم، ليست اليوس حتى ظل ما كانت.

(٦٣) فى إشارة إلى إرتفاعات الاسعار بالنسبة للكاكاو والبن، تقول اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية التابعة للأمم المتحدة (CEPAL) أن لها «سمة عابرة نسبياً وأنها تتبع «بدرجة كبيرة فترات فواصل بين المحاصيل».

- CEPAL, ***Estudio económico de América Latina***, 1969. tomo II : La economia de América Latina en 1969, Santiago de Chile, 1970.

(64) Roberto C. Simonsen, ***Op. Cit.***

(65) Caio Prado Júnior, ***Formacáo do Brasil contempor^aneo***, Sáo Paulo, 1942.

(66) Comité Interamericano de Desarrollo Agrícola, ***Guatemala. Tenencia de la Tierra y deasrrollo socioeconómico del sector agrícola***, Washington, 1965.

(68) Comité Interameri cano de Desarrollo Agrícola, Perú. ***Tenencia de la Tierra y desarrollo socioeconómico del sector agrícola***, Washington. 1966.

(69) Alonso Agúilar M. y Fermando Carmana, ***México : riqueza y miseriay*** México, 1968.

(70) Mario Arrubla, ***Estudios Sobre el subdesarrollo colombiano***, Medellín, 1969 :

ويقسم الثمن على النحو التالى : ٤٠ فى المائة من أجل الوسطاء، والمصدرين والمستوردين؛ و ١٠بالمائة من أجل ضرائب كلتا الحكومتين، و١٠ فى المائة من أجل متعهدى النقل؛ وه بالمائة للدعاية التي يقوم بها المكتب الأمريكي للبن، في واشنطن؛ و ٣٠ بالمائة من أجل ملاك المزارع، وه بالمائة لأجور العمال.

(71) Banco Cafetero, ***La industria Cafetera en Colambia***, Bogotá 1962.

(72) ***Panorama económico Lastinoamericano***, núm. 87, La Habana, septiembrede 1963.

(73) Pierre Monbeig, ***Pionniers et planteurs de Sáo Paulo***, París, 1952.

(74) Datos del Banco Central, Instituto Brasileiro do Café y FAO, Revista Fator, núm 2, Río de Janeiro, Noviembre - diciembre de 1968.

(75) Cid Silveira, طبقاً للتحقيق الذى أجرته لجنة التجارة الفيدرالية : ***Café : um drama na economia nacional***, Río de Janeiro, 1962.

(76) CEPAL, ***El comercio internacional y el desarrollo de América Latina***, México - Buenos Aires, 1964.

(77) Roberto. C. Simonsen, ***Op. Cit.***

(78) Mario Arrubla, ***Op. Cit.***

(79) Luis Eduardo Nieto Arteta, ***Ensayos sóbre economío colombiana***, Medellín. 1969.

(80) Germán Guzmán Campos, Orlando Fals Borda y Eduardo Uma´na Luna, ***La Violencia en Colombia.*** Estudio de un Proceso social, Bogotá, 1963 - 64.

(81) Germán Guzman, ***La violencia en colombia*** (parte descriptive), 1986.

(82) Naciones Unidas, Análisis y proyecciones del desarrollo económico, III, en ***El desarrollo económico de Colombio***, Nneva York, 1957.

(٨٣) وجد الاستاذ خرمان راما أن بعض هذه المعاهد الاكاديمية الموقرة تحتفظ فى مكتبتها، كاهم

تراث ثقافي، بالمجموعة المجلدة من المختار من ريدرز دايجست :

- Germán W. Rama, ***Educación y movilidad social en colombia***, Revista "ECO" núm. 116, Bogotá, diciembre de 1969.

(84) Edelberto Torres - Rivas, ***Procesos y estructuras de una sociedad dependiente*** (Centroamérica), Santiogo de Chile, 1959.

(85) Carlos Guzmán Bocklery Jean - Loup Herbert, ***Guatemala: una interpretación histórico - social***, México, 1970.

(86) Darcy Ribeiro, ***Las Américas y la Civilización***, tomo III : Los Pueplos trasplantados. Civilizacion y desarrollo, Buenos Aires, 1970.

(87) Gregorio Selser, ***Diplomacia, garróte y dólares en América Latina***, Buenos Aires, 1962.

(88) Claude Julien, ***L' Empire Americain***, París, 1968.

(89) Publicado en Common Sense, noviembre de 1935. V. Leo Huberman, ***Man's Worldly Goods. the story of the wealth of Nations***, Nueva York, 1936.

(90) William Krehm, ***Democracia y tiranías en el Caribe***, Buenos Aires, 1959.

(٩١) هذا هو موضوع رواية الباروثيبيدا ساموديو Álvara Cepeda Samudio، الدار الكبيرة La casa grande (بونيوس آيرس، ١٩٦٧)، وكذلك يشغل أحد فصول رواية مائة عام من العزلة (بونيوس آيرس، ١٩٦٧) لجابرييل جارثيا ماركت : «من المؤكد أنه كان حلماً»، أصرّ المسئولون.

(٩٢) تضم المجموعة روايات الريح القوية Viento Fuerte ، والهاپا الأخضر، وعيون المدفونين Los ojos de los enterrados ، وهى الثلاثية التى نشرت فى بونيوس آيرس فى الخمسينيات. وفى الريح القوية، تقول إحدى الشخصيات، وهى المستر بيلى، بصورة تنبؤية : «لو أننا بدل أن ننشئ مزارع جديدة، إشترينا من المنتجين الخاصين فاكهتهم، فسوف

نكسب الكثير نحو المستقبل». وهذا هو ما يجرى حالياً فى جواتيمالا : فاليونايتيد فروت - وهى الآن يونايتيد براندر - تمارس إحتكارها للموز من خلال آليات التسويق، الأكثر كفاءة والأقل خطراً من الانتاج المباشر. ويجدر بالذكر أن إنتاج الموز إنخفض بحدة خلال عقد الستينات، بدءاً من لحظة أن قررت اليونايتيد فروت بيع و / أو تأجير مزارعها فى جواتيمالا، والتى كان يتهددها خطر فورات التحريض الإجتماعى.

(93) Edelberto Torres - Rivas, ***Op. cir.***

(94) Gregrio Selser, ***Sandino, general de Hombres Libres***, Buenos Aires, 1959.

(95) Carleton Beals, ***América ante América***, Santiago de Chile, 1940.

(96) William Krehm, ***Op. Cit.***

- وقد قضى كريم سنوات طويلة فى أمريكا الوسطى كمراسل لمجلة «تايم» الأمريكية الشمالية.

(97) Eduardo Galeano, ***Guatemala, País ocupado***, México, 1967.

(٩٨) خطاب أمام جمعية باعة الكتب الأمريكية، فى واشنطن، فى ١٠ يونيو ١٩٦٣. أورده

- David Wise y Thomas Ross, ***El gobierno invisible***, Buenas Aires, 1966.

(99) J. P. y G. P. Robertson, ***La Argentina en la época de la Revolucion***. cartas sóbre el Paraguuay, Bueuas Aires, 1920.

(100) Washington Reyes Abadie, Óscar H. Bruschera y Tabaré Melogno, ***El Ciclo Artiguista***, tomo IV, Montevideo, 1968.

(101) Nelson de la Torre, Julio C. Rodrí guez y Lucía Sala de Touron, ***Artigas: tierra y revolución***, Montevideo, 1967.

(102) Nelson de la torre, Julio C. Rodríguez y Lucía Sala de Touron, ***Op. Cit.*** De los mismos autores, ***Evolución económica de la Banda Oriental***, Montevideo, 1967, y Estructura económico - Social de la Colonia, Montevideo, 1968.

(103) Vivian Trías, ***Reforma agraria en el Uruguay***. Montevideo, 1962.

– ويقدم هذا الكتاب سجلاً للأوليجاركية الأورجوايية، عائلة عائلة.

(104) Eduardo Galeano, ***Uruguay : Promise and Betrayal, en Latin Amerıca : Reform or Revolution?***, ed. Por. J. Petras y M. Zeitlin, Nueva York, 1968.

(105) Instituto de Eonomaía, ***El proceso económico del Uruguay***, contribución al estudio de su evolución y perspectivas, Montevideo, 1969 :

– فى فترات إزدهار الصناعة القومية، التى تحميها وتدعمها الدولة بشدة، كان جزء كبير من أرباح الريف يتجه نحو المصانع الوليدة. وحين دخلت الصناعة دورة الأزمة الطاحنة، تحولت أرباح رأسمال تربية الماشية إلى وجهات أخرى. نبتت من الشقاء القومى أكثر قصور پونتادل إستى بذخاً ولاجدوى، وأطلقت المضاربة المصرفية، فيما بعد، حمّى من يصطادون فى مياة التضخم العكرة. لكن رؤوس الأموال هربت، فى المحل الأول : رؤوس الأموال والأرباح التى ينتجها البلد، عاماً إثر عام. وفيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٦، حسب البيانات الرسمية، طارت من أورجواى ٢٥٠ مليوناً من الدولارات باتجاه المصارف الآمنه فى سويسرا والولايات المتحدة . وكذلك البشر، البشر من الشباب، هبطوا من الريف إلى المدينة، منذ عشرين عاماً، ليقدموا أذرعهم للصناعة النامية، واليوم يمضون، برا أو بحراً، نحو الخارج. وواضح أن حظهم مختلف. فرؤوس الأموال تُستقبل بأذرع مفتوحة؛ أما المهاجرون فينتظرهم مصير صعب ، المنفى والنوم فى العراء، المغامرة غير المضمونة. وأروجواى عام ١٩٧٠، الذى يرتجف نتيجة أزمة ساحقة، لم يعد الواحة الاسطورية للسلام والتقدم الذى وعدوا به المهاجرين الأوربيين، بل بلداً مضطرباً يحكم بالهجرة على نفس سكانه. ينتج العنف ويصدر البشر، بصورة طبيعية مثلما ينتج ويصدّر اللحم والصوف.

(106) German Wettstein y Juan Rudolf, ***La sociedad rural***, en la colección Nuestra Tierra, núm. 16, Moonteviseo, 1969.

(107) Jesús Silva Herzog, ***Breve historia de la Revolución mexicana***, Méxiico Buenas Aires, 1960.

(108) John Kenneth Turner, ***México Bárbaro***, publicado en Estados Unidos en 1911; México, 1967.

(109) John Kenneth Turner, *Op. Cit.*

- كانت المكسيك هى البلد المفضل لإستثمارات أمريكا الشمالية : وكان يتجمع فيها عند نهاية القرن أقل قليلاً من ثلث رؤوس أموال الولايات المتحدة المستثمرة فى الخارج. وفى ولاية شيهواهوا Chi-huahua وغيرها من الأقاليم الشمالية، كان ويليام راندولف هيرست William Randolph-hearst ، المواطن كين الشهير فى فيلم ويلز، يمتلك أكثر من ثلاثة ملايين هكتار.

- Fernando Carmona, ***El drama de América Latina***. El caso de México, México, 1964.

(110) John Womack Jr, ***Zapata y la Revolución mexicana***, México, 1969.

(111) John Womack Jr., ***Op. Cit.***

(112) Fernando Carmona, ***Op. Cit.***

(113) Edmundo Flores, Adónde va la economía de México?, en Comercio exterior, vol xx, núm. 1, México, enero de 1970.

(114) Ana María Flores, ***La magnitud del hambre en México***, México, 1961.

(115) Alonso Aguilar M. y Fernand Carmona, ***Op. Cit.***

- راجع كذلك لنفس المؤلفين مع

- Guillermo Monta´no y Jorge Carrión, ***El milagro Mexicano***, México, 1970.

(116) Rodolfo Stavenhagen, Fernando Paz Sánchez, Cuauhtémoc, Cárdenas y Arturo Bonilla, ***Neolatifundismo y explotación. De Emiliano Zapata a Anderson Clayton & Co.***, México, 1968.

(117) Carlos Fuentes, ***La muerte de Artemio Cruz***, México, 1962.

(118) FAO, ***Anuario de la producción***, vol. 19, 1965.

(119) Alberto Baltra Cortés, ***Problemas del subdesarrollo económico latinoamericano***, Buenos Aires, 1966.

(120) D.F. Maza Zavala, ***Explosión demográfica y crecimiento económico,*** Caracas, 1970.

(121) Paul Bairoch, ***Diagnostic de L'évolution économique du Tiers Monde***, 1900 - 1966, Paris, 1967.

(122) Rui Facó, ***Cangaceiros e fanáticos***, Rio de Janeiro, 1965.

(١٢٣) يمثل السهل المصنّع، من وجهة نظر الرأسمالي مربي الماشية، نقلاً لرأس المال إلى استثمار أغلى، وأكثر مخاطرة، وأقل ربحاً في نفس الوقت من الاستثمار التقليدي في الماشية الكثيفة. وهكذا تدخل المصلحة الخاصة للمنتج في تناقض مع مصلحة المجتمع في مجموعه : فنوعية الماشية وربحيتها لا يمكن زيادتهما، عند نقطة معينة، الاّ من خلال زيادة خصوبة التربة. والبلاد تحتاج إلى أن تنتج الأبقار لحماً أكثر والأغنام صوفاً أكثر، لكن أصحاب الأرض يكسبون أكثر مما يكفي عند مستوى الربحية الحالي. والنتائج التي توصل إليها معهد الإقتصاد في جامعة أورجواي (العمل المذكور آنفاً) يمكن تطبيقها، بمعنى معين، على الأرجنتين أيضاً.

(124) Dardo Cúneo, ***Comportamiento y crisis de la clase empresaria***, Buenos Aires, 1967.

(125) CEPAL, ***Estudio económico de América Latina***, Santiago de Chile, 1964 y , 1966, y El uso de fertilizantes en América Latina, Santiago de Chile, 1966.

(126) Darcy Ribeiroo, ***Las Américas y La civilización***, tomo II : Loa pueblos nuevos, Buenos Aires, 1969.

(127) Edward C. Kirkland, ***Historia económica de Estados Unidos***, México, 1941.

(128) Celso Furtado, ***Um Projeto para o Brasil***, Río de Jabneiro, 1969.

(١٢٩) إن لويس هانكه Lenis Hanke والمؤلفون الآخرون لكتاب : هل للأمريكتين تاريخ مشترك؟ Do the Americas Have a Common History? (نيويورك، ١٩٦٤)، يطلقون العنان لخيالهم، عبثاً، في محاولة إيجاد أوجه تماثل بين العمليتين التاريخيتين للشمال والجنوب.

(130) Sergio Bagú, ***Op. Cit.***

المنابع الدفينة للسلطة

■ إقتصاد أمريكا الشمالية يحتاج إلى معادن أمريكا اللاتينية كما تحتاج الرئتان إلي الهواء

كان رواد الفضاء قد طبعوا أول آثار اقدام آدمية على سطح القمر، وفى يوليو عام ١٩٦٩ أعلن والد المشروع ، وريرنر فون براون Werner Von Braun ، للصحافة أن الولايات المتحدة تعتزم إقامة محطة فضائية بعيدة، لأغراض قريبة جداً: «من هذه المنصة الرائعة للمراقبة - أعلن - سيمكننا فحص كل ثروات الارض: آبار البترول المجهولة ، ومناجم النحاس والزنك ... »

يظل البترول هو الوقود الرئيسى لعصرنا، ويستورد الأمريكيون الشماليون سبُع البترول الذى يستهلكون، ومن أجل قتل الڤيتناميين، يحتاجون إلى طلقات، وتحتاج الطلقات إلى نحاس: والولايات المتحدة تشترى خارج حدودها خُمس النحاس الذى تستهلكة، ويثير نقص الزنك قلقاً متزايداً باستمرار: ويأتى من الخارج نحو نصفه، ولا يمكن صنع الطائرات بدون الألومنيوم، ولا يمكن صنع الألومنيوم بدون البوكسيت: ولا تكاد الولايات المتحدة تملك بوكسيت. ومراكز تعدينها الضخمة - بيتسبرج، وكليڤلاند، وديترويت - لا تجد الحديد الكافى فى مناجم مينسوتا ، التى قاربت على النضوب ، كذلك لا تجد منجنيزاً فى الاراضى القومية: والاقتصاد الامريكى الشمالى يستورد ثلث الحديد وكل المنجنيز الذى يحتاجه، ومن أجل انتاج محركات الدفع النفاث، لا يجدون فى باطن أرضهم نيكل ولا كروم، ولتصنيع أنواع الصلب الخاصة، لابد من التنجستن: ويستوردون رُبعه.

هذا الاعتماد ، المتزايد، على الامدادات الاجنبية، يحدد تطابقاً متزايداً أيضاً، بين مصالح الرأسماليين الامريكين الشماليين فى أمريكا اللاتينية، وبين الامن القومى للولايات المتحدة. يبدو الاستقرار الداخلى للقوة الاعظم فى العالم وثيق الارتباط بالاستثمارات الامريكية الشمالية جنوبى نهر الريو براڤو. ونصف هذه الاستثمارات تقريباً مخصص لاستخراج البترول ولاستغلال الثروات التعدينية، «التى لا غنى عنها بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة فى السلم مثلما فى الحرب»[1] ويحدد رئيس المجلس

الدولى للغرفة التجارية للبلد الشمالى الأمر على النحو التالى: «تاريخياً، فإن أحد الاسباب الرئيسية لاستثمار الولايات المتحدة فى الخارج هو تنمية الموارد الطبيعية، وخصوصاً المعادن، وبوجه أخص، البترول. ومن البديهى تماماً أن دوافع هذا النوع من الاستثمارات لا يمكن الآ أن تزيد. فإحتياجاتنا من المواد الأولية تتزايد باستمرار بقدر تزايد السكان وارتفاع مستوى المعيشة. وفى نفس الوقت، فإن مواردنا المحلية تنضب... »[٢] إن المعامل العلمية للحكومة، والجامعات، والشركات الضخمة تفوق الخيال بالمعدل المحموم لاختراعاتها وإكتشافاتها، لكن التكنولوجيا الجديدة لم تجد وسيلة للإستغناء عن المواد الأساسية التى تقدمها الطبيعة ، والطبيعة وحدها .

وفى نفس الوقت، تضعف الاجابات التى يستطيع أن يقدمها باطن الاراضى القومية على تحدى النمو الصناعى للولايات المتحدة [٣].

■ باطن الأرض أيضاً ينتج إنقلابات ، وثورات ، وحكايات جاسوسية ، ومغامرات في الغابة الأمازونية:

فى البرازيل ، أسقطت مناجم الحديد الرائعة فى وادى پاراوپيبا Paraopeba رئيسين، هما جانيو كوادروس Janio Quadros وجواو جولارت Joao Goulart ، قبل أن يتنازل عنها، بود، لشركة هانا ما ينتج كومبانى .Hanna Mining Co الماريشال كاستيلو برانكو Castelo Branco، الذى قفز الى السلطة عام ١٩٦٤، وقبل بضع سنوات، كان صديق آخر سابق لسفير الولايات المتحدة، هو الرئيس أوريكو دوترا Eurico Dutra (٤٦ - ١٩٥١)، قد منح شركة بيتلهم ستيل Bethlehem Steel، الاربعين مليون طن من المنجنيز التى يضمها منجم ولاية أمابا Amapa، الذى يعد أحد أكبر المناجم فى العالم، وذلك مقابل حصول الدولة على أربعة بالمائة من دخول التصدير؛ ومنذ ذلك الحين، أخذت بيتلهم تنقل هذه الجبال الى الولايات المتحدة بحماس يثير الخوف من أنه بعد خمس عشرة سنة من الآن لن يتبقى لدى البرازيل منجنيز يكفى لامداد صناعتها التعدينية. وبخلاف ذلك، فإنه من بين كل مائة دولار تستثمرها بيتلهم فى استخراج المعادن، تتمتع ثمانية وثمانون دولاراً بكرم الحكومة البرازيلية: إعفاءات من الضرائب بإسم «تنمية الاقليم»، وكما يتضح، لم تفد بشئ

تجربة الذهب المفقود فى منياش چيرايش - «ذهب أبيض، ذهب أسود، ذهب عفن»، كما كتب الشاعر مانويل باندير: فالبرازيل تواصل استنزاف نفسها مجاناً من المصادر الطبيعية للتنمية [٤]. وقد سيطر الدكتاتور رينيه بارينتوس Rene Barrintos، من جانبه، على بوليڤيا عام ١٩٦٤ ، وبين المذابح المتتالية لعمال المناجم ، منح شركة اخوان فيليبس Philips Brothers امتياز منجم ماتيلده Matilde ، الذى يحتوى على رصاص ، وفضة ، وكميات كبيرة من الزنك بدرجة نقاوة تفوق درجة نقاوة المناجم الامريكية الشمالية اثنتى عشرة مرة . وصرّح للشركة بنقل الزنك الخام ، لتنقيته فى مصانع تكريرها بالخارج ، مقابل أن تدفع للدولة ما لايقل عن واحد ونصف بالمائة من قيمة بيع المعدن [٥]. وفى البيرو ، عام ١٩٦٨ ، فقدت بشكل غامض الصفحة رقم أحد عشر من الاتفاق الذى وقعّه الرئيس بيلاوندى تيري Belaúnde Terry مع إحدي الشركات التابعة لشركة إستاندارد أويل ، وقد اسقط الجنرال بيلاسكو البارادو Velasco Alvarado الرئيس ، وأمسك بأعنّة البلاد ، وأمم ابار ومعمل تكرير الشركة ، وفى فنزويلا ، بحيرة البترول الكبيرة لشركتى استاندارد أويل وجالف ، تستقر أكبر بعثة عسكرية أمريكية شمالية فى امريكا اللاتينية. والانقلابات المتكررة فى الارجنتين تقع قبل أو بعد كل امتياز بترولى ، ولم يكن النحاس بعيداً بحال عن المساعدة العسكرية غير المتناسبة التى كانت تتلقاها تشيلى من البنتاجون حتى الانتصار الانتخابى لقوى اليسار بزعامة سلبادور الليندى؛ فقد كانت الاحتياطيات الامريكية الشمالية من النحاس قد انخفضت بأكثر من ستين فى المائة فيما بين عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٩، وفى عام ١٩٦٩، فى مكتبه بها ڤانا، أخبرنى التشى جيفارا أن كوبا فى عهد باتيستا لم تكن بلداً للسكر فقط : فالمناجم الكوبية الضخمة للنيكل والمنجنيز توضح أفضل، فى تقديره، غضب الامبراطورية الاعمى ضد الثورة. ومنذ هذه المحادثة ، تقلصت احتياطيات الولايات المتحدة من النيكل الى الثلث: أمّمت الشركة الامريكية الشمالية نيكرو - نيكل Nicro-Nickel وهدد الرئيس جونسون Johnson شركات التعدين الفرنسية بمقاطعة شحناتهم الى الولايات المتحدة اذا إشتروا المعدن الكوبى.

وكانت المعادن وثيقة الصلة بسقوط حكومة الاشتراكى تشيدى جاجان Cheddi Jagan ، الذى كان قد حصل من جديد فى أواخر عام ١٩٦٤ ، على غالبية الاصوات فيما كان يسمى حينذاك بأسم جوايانا البريطانية. والبلاد التى تحمل اليوم اسم جويانا هى رابع منتج عالمى للبوكسيت وتحتل المركز الثالث بين منتجى المنجنيز الامريكيين

اللاتين. وقد تولت وكاله المخابرات المركزية دوراً حاسماً فى إسقاط چاجان. وقد اعترف أرنولد زاندر ، أكبر مديرى الاضراب الذى قام بمهمة الاستفزاز والذريعة لإنكار النصر الانتخابى لچاجان ووضع الشراك أمامه، اعترف علناً ، بعد ذلك، بأن نقابته كانت قد تلقت فيضاً من الدولارات من إحدى مؤسسات وكالة المخابرات المركزية بالولايات المتحدة[٦]. وضمنت الحكومة الجديدة الا تتعرض للخطر مصالح شركة الومنيوم كومبانى أوف أمريكا Aluminium Company Of America فى جويانا: واستطاعت الشركة أن تواصل الحصول على البوكسيت، دون مشاكل، وأن تواصل بيعه لنفسها بنفس اسعار عام ١٩٣٨، رغم أن سعر الالومنيوم قد تضاعف منذ ذلك الحين[٧].لم يعد العمل معرضاً للخطر. بينما يساوى بوكسيت اركنساس ضعف قيمة بوكسيت جويانا. لا تملك الولايات المتحدة الا القليل جداً من البوكسيت فى اراضيها؛ وبالمقابل، فإنها بأستخدام مادة أولية أجنبية ورخيصة جداً، تنتج نحو نصف الالومنيوم المصنع فى العالم.

من أجل تزويد نفسها بالجزء الاكبر من المعادن الاستراتيجية التى تعتبر ذات قيمة حاسمة لقدرتها الحربية، تعتمد الولايات المتحدة على المصادر الاجنبية. «إن محرك الدفع النفاث، والتوربينى الغازى، والمفاعلات النووية لها اليوم تأثير ضخم على الطلب على المعادن التى لا يمكن الحصول عليها الاّ فى الخارج»، هذا ما يقوله ماجدوف فى هذا الصدد[٨]. إن الحاجة الملحة الى المعادن الاستراتيجية، التى لاغنى عنها من أجل ضمان القوة العسكرية والذرّية للولايات المتحدة، تبدو مرتبطة بوضوح بعمليات شراء الارض الواسعة، بوسائل خداعية بشكل عام، فى منطقة الأمازون البرازيلية. ففى خلال عقد الستينات ، قامت شركات امريكية شمالية عديدة، يقودها من أيديها المغامرون والمهربون المحترفون، بالفقر فى إندفاع Rush محموم على هذه الغابة الهائلة. قبل ذلك وبفضل اتفاق عقد عام ١٩٦٤، حلقت طائرات القوات الجوية للولايات المتحدة فوق الاقليم وصورته كله.

استخدمت اجهزة قياس وميض لتحديد مناجم المعادن المشعة عن طريق ارسال موجات ضوئية ذات كثافة متغيرة، وأجهزة قياس كهرومغناطيسية لعمل صور بالاشعة لباطن الارض الغنى بالمعادن غير الحديدية وأجهزة قياس مغناطيسية لاكتشاف وقياس الحديد. ووضعت البيانات والصور التى تم الحصول عليها خلال مسح اتساع وعمق ثروات اقليم الامازون الخفية، وضعت بين أيدى الشركات الخاصة المهتمة بالموضوع، وذلك بفضل المساعى الحميدة لإدارة المسح الچيولوچي Geological Survey لحكومة

الولايات المتحدة [٩]. فى هذا الاقليم الشاسع تم التحقق من وجود الذهب، والفضة، والماس، والچبسيت، والهيماتيت، والمجنتيت، والتنتالوم، والتيتانيوم، والثوريوم، واليورانيوم، والكوراتز، والنحاس، والمنجنيز، والرصاص، واكاسيد السلفات، وأكاسيد البوتاسيوم، والبوكسيت، والزنك، والزركونيوم، والكروم، والزئبق. يبلغ من صفاء السماء وانفتاحها من الغابة البكر لما توجروسّو Mato Grosso حتى سهول جنوبى جوياس Goias أنه يمكن رؤية الشمس الساطعة ونصف دسته من البروق والرعود البعيدة فى نفس الوقت، حسب ما أبدته مجلة تـايم من نشوة فى طبعتها الاخيرة الامريكية اللاتينية عام ١٩٦٧.

كانت الحكومة قد قدمّت اعفاءات ضريبية وإغراءات أخرى من أجل استعمار المساحات البكر لهذا الكون السحرى والبدائى. وحسب ما تقولة مجلة تايم، كان الرأسماليون الاجانب قد اشتروا، قبل ١٩٦٧، بسعر سبعة سنتات للفدان، مساحة تفوق مجموع أراضى كونكتيكت، وورد أيلاند، وديلاوير، ومساشوستس، ونيوها مبشاير. قال مدير الوكالة الحكومية لتنمية الامازون: «يجب أن نبقى الابواب مفتوحة جيداً أمام الاستثمار الاجنبى، لأننا نحتاج الى أكثر مما يمكننا الحصول عليه» ولتبرير المسح الجوى من جانب الطيران الامريكى الشمالى، كانت الحكومة قد أعلنت من قبل أنها تفتقر الى الموارد. هذا هو المعتاد فى أمريكا اللاتينية: **يجرى دائماً تسليم الموارد باسم نقص الموارد.**

وقد استطاع الكونجرس البرازيلى إجراء تحقيق انتهى بتقرير ضخم حول الموضوع [١٠]. يعدد التقرير حالات بيع أو إغتصاب لأراضى مساحتها عشرون مليون هكتار، تمتد بطريقة غريبة بحيث أنها، حسب ما تقول لجنة التحقيق، «تكون حزاماً يعزل الامازون عن بقية البرازيل». ويظهر «الاستغلال غير المشروع لمعادن ثمينة جداً» فى التقرير بإعتباره واحداً من الدوافع الاساسية للرغبة الامريكية الشمالية العارمة فى فتح حدود جديدة داخل البرازيل. وتؤكد شهادة هيئة وزارة الحربية، التى يضمّها التقرير، على «مصلحة الحكومة الامريكية الشمالية نفسها فى الاحتفاظ، تحت سيطرتها، بأمتداد واسع من الاراضى لاستخدامها فيما بعد، سواء لاستغلال المعادن، خصوصاً المعادن المشعه، أو كقاعدة لاستيطان موجّه»، ويؤكد مجلس الامن القومى: «مما يثير الشك حقيقة أن المساحات المحتلة، أو التى فى سبيلها الى الاحتلال، من جانب عناصر أجنبية، تتطابق مع الاقاليم الخاضعة لحملات تعقيم البرازيليات بواسطة

الاجانب». وبالفعل، وحسب ما تقول صحيفة كورّيو دامانيا Correio Da Manha فإن «أكثر من عشرين بعثة تبشيرية أجنبية، من الكنيسة البروتستانتية للولايات المتحدة أساساً، تحتل الامازون، وتستقر فى أغنى النقاط بالمعادن المشعة، والذهب، والماس... وتنشر على نطاق واسع موانع الحمل، من قبيل العوازل التى توضع فى الرحم، وتعلم الانجليزية للهنود الذى يلقنون مبادئ الدين ... ويطوّق مناطقهم عناصر مسلحة بحيث لا يستطيع أحد النفاذ اليها»[١١]. وغنى عن الذكر أن الامازون هى أكبر المناطق اتساعاً بين كل صحراوات الكوكب التى يسكنها الانسان ، وقد تم تطبيق تحديد النسل فى هذه المساحة الهائلة الخالية ، من أجل تجنب المنافسة الديموجرافية للبرازيليين القليلين جداً الذين يعيشون ويتجددون فى أركان نائية من الغابة أو من الأراضى المستوية الشاسعة.

ومن جانبه، أكّد الجنرال ريوجراند ينوكرويل Riograndino Kruel أمام لجنه التحقيق البرلمانية، أن «حجم تهريب المواد التى تحتوى على ثوريوم ويورانيوم يبلغ رقماً فلكياً هو مليون طن »، وقبل ذلك ببعض الوقت، فى سبتمبر عام ١٩٦٦، كان كرويل، رئيس الشرطة الفيدرالية، قد شجب «التدخل غير المناسب والمنهجى» لأحد قناصل الولايات المتحدة فى المحاكمة التى تجرى ضد أربعة مواطنين أمريكيين شماليين متهمين بتهريب معادن ذرية برازيلية. وفى رأيه، فإن ضبط أربعين طناً من المعدن المشع معهم يكفى لإدانتهم. وبعد قليل، هرب ثلاثة من المهربين من البرازيل بطريقة غامضة. لم يكن التهريب ظاهرة جديدة، رغم أنه تكثف بشكل كبير. إذ تفقد البرازيل كل عام أكثر من مائة مليون من الدولارات، نتيجة التهريب غير المشروع للماس الخام فقط[١٢]. لكن التهريب لا يصبح ضرورياً، فى الواقع، إلا بدرجة نسبية. فالامتيازات القانونية تنتزع من البرازيل بارتياح ثرواتها الطبيعية المذهلة. وحتى لاتورد سوى مثال واحد آخر، فإن حزاماً ضخماً، هو أكبر منجم للنيوبيوم فى العالم، ويقع فى أراكسا Araxa، يتبع أحد فروع شركة النيوبيوم كوربوريشن Niobium Corporation، فى نيويورك. ومن النيوبيوم تأتى عدة معادن تستخدم، بسبب مقاومتها لدرجات الحرارة العالية، فى انشاء المفاعلات النووية، والصواريخ، وسفن الفضاء، والاقمار الصناعية، أو الطائرات النفاثة، وبجانب ذلك، تستخرج الشركة كذلك مع النيوبيوم، كميات كبيرة من التنتالوم، والثوريوم، واليورانيوم، والبيروكلورو والمعادن النادرة بدرجة نقاوة عالية.

■ كيميائى ألمانى يهزم المنتصرين فى حرب الپاسيفيكى

أن حكاية النترات، صعودها وسقوطها، تكشف عن الدوام الوهمى لفترات الرخاء الامريكى اللاتينى فى السوق العالمية: **اللفحة العابرة دوماً للأمجاد والثقل الباقى دوماً للكوارث.**

عند أواسط القرن الماضى ، كانت نبوءات مالتوس السوداء تحوم فوق العالم القديم . كان السكان الاوربيون يتزايدون بصورة تسبب الدوار وكان لابد من منح حياة جديدة للتربة المُنهكة حتى يمكن لانتاج الغذاء أن يزداد بنسبة مماثلة، وقد كشف الجوانو* Guano عن خصائصة المخصبة للارض فى المعامل البريطانية؛ وبدءاً من عام ١٨٤٠ بدأ تصديره على نطاق واسع من الساحل البيروانى. كانت طيور البحر والنوارس، التى تتغذى على أسراب السمك الوفيرة التى تجلبها التيارات التى تلعق الضفاف، كانت قد ظلت تراكم، فوق الجزر والجزر الكبيرة، منذ اوقات سحيقة، جبالاً من الفضلات الغنية بالنتروجين، والنوشادر، والفوسفات، والاملاح القوية: وظل الجوانو نقياً على سواحل بيرو التى لا يبللها المطر[١٣]. وبعد قليل من الانتشار الدولى للجوانو، اكتشفت الكيمياء الزراعية أن الخصائص المخصبة للنترات اكبر، وفى عام ١٨٥٠، كان استخدامه كسماد فى الحقول الاوربية قد اصبح استخداماً كثيفاً جداً، كانت أراضى القارة العجوز المخصصة لزراعة القمح، والتى أنهكها التأكل، تتلقى فى نهم شحنات نترات الصودا القادمة من مناجم النترات البيروانية فى تاراباكا Tarapaca، ثم من مقاطعة انتوفاجاستا Antofagasta البوليفية[١٤]. بفضل النترات والجوانو، اللذان يرقدان على سواحل الباسيفيكى «يكادان أن يكونا فى متناول السفن القادمة للبحث عنهما»[١٥]، إبتعد شبح الجوع عن أوربا.

ظلت أوليجاركية ليما، التى لا مثيل لها فى ترفعها وبذخها، تغترف الثروة بكلتا يديها وتراكم رموز سلطتها فى القصور والاضرحة المرمرية من مرمر كارارا والتى شيدتها العاصمة وسط الصحراوات الرملية، تاريخياً، كانت عائلات ليما الكبرى قد إزدهرت على حساب فضة پوتوسى، والآن تحولت لتعيش على براز الطيور وعلى الندف البيضاء اللامعه لمناجم النترات.

---

* الجوانو : هو سماد طبيعى من ذرق الطيور البحرية ، أو من فضلات مصانع تعليب الاسماك - م.

إعتقدت البيرو أنها مستقلة، لكن انجلترا احتلت مكان اسبانيا، كتب مارياتيجى «أحست البلاد أنها غنية. وإستخدمت الدولة قروضها بلا حساب، عاشت فى البذخ، مرتهنة مستقبلها لمصادر التمويل الانجليزية»، وفى عام ١٨٦٨، حسب ما يقول روميرو Romero، كانت نفقات وديون الدولة قد فاقت بكثير قيمة المبيعات للخارج. كانت احتياطيات الجوانو تعتبر ضماناً للقروض البريطانية، وكانت أوربا تتلاعب بالاسعار؛ كان جشع المصّدرين يحُدث الدمار: فما راكمتة الطبيعة على الجزر طوال آلاف طويلة من السنين كـان يُبـدّد فى سنوات قليلة. وفى هذه الاثناء، وفى سـهـول النترات، كما يحكى برمودث، كان العمال يعيشون فى أخصاص «بائسة، أعلى بالكاد من الانسان، ومبنيّة بالاحجار، وكتل النترات والطين، وذات حجرة واحدة».

وسرعان ما امتد استغلال النترات ليشمل مقاطعة انتوفاجاستا البوليفية، رغم أن التجارة لم تكن بوليفية بل بيروانية، بل وتشيلية قبل كونها بيروانية. وحين حاولت حكومة بوليفيا فرض ضريبة على مناجم النترات التي تعمل في أراضيها، غزت كتائب جيش تشيلي المقاطعة لتظلّ فيها الى الابد. حتى ذلك الحين، كانت الصحراء تقوم بدور منطقة إمتصاص النزاعات الكامنة بين تشيلى، والبيرو، وبوليفيا. وقد أطلقت النترات عنان الحرب. اندلعت حرب الباسيفيكى عام ١٨٧٩ ودامت حتى عام ١٨٨٣. فالقوات المسلحة التشيلية ، التى كانت قد احتلت، عام ١٨٧٩، الموانى البيراونية لاقليم النترات، وهى موانى باتيوس Patillos، وايكيكى Iquique، وبيساجوا Pisagua، وخونين Junin، دخلت ليما منتصرة فى النهاية، وفى اليوم التالى استسلمت قلعة كاياو Callao . وسببت الهزيمة تمزيق البيروونزيفها. فقد الاقتصاد القومى مورديه الاساسيين، وأصاب الشلل القوى المنتجة، وانخفض سعر النقود، وتوقف الاقراض الخارجى[١٦]. ولم يجلب الانهيار معه، كما أوضح مارياتيجى، تصفية للماضى: فقد ظلت بينة الاقتصاد الاستعمارى سليمة لم تمس، برغم افتقارها الى مصادر البقاء. أما بوليفيا، فلم تنتبه، من جانبها، إلى ما فقدته فى الحرب: فقدت أهم منجم للنحاس فى العالم فى الوقت الحاضر، منجم تشوكيكاماتا Chuquicamata الذى يقع بالضبط فى مقاطعة أنتوفاجاستا، التى اصبحت تشيلية، لكن، ماذا عن المنتصرين؟

كانت النترات واليود تمثل خمسة بالمائة من دخول الدولة التشيلية عام ١٨٨٠؛ وبعد عشر سنوات، كان أكثر من نصف الايرادات المالية يأتى من تصدير النترات من الاراضى المفتوحة. وفى نفس الفترة، تزايدت الاستثمارات الانجليزية فى تشيلى اكثر

من ثلاث مرات: تحول اقليم النترات الى مصنع بريطانى[١٧]. استولى الانجليز على النترات باستخدام وسائل غير مكلفة . كانت حكومة البيرو قد صادرت معامل النترات فى ١٨٧٥ ودفعت ثمنها بسندات؛ ودهورت الحرب قيمة هذه السندات، بعد خمس سنوات، إلى عشر قيمتها، وإغتنم الفرصة بعض المغامرين الجسورين، مثل چون توماس نورث John Thomas North وشريكه روبرت هارفى Robert Harvey. وبينما التشيليون، والبيروانيون، والبوليفيون يتبادلون الطلقات فى ميدان المعركة، تفّرغ الانجليز لامتلاك السندات، بفضل قروض بنك بالبارايسو Valparaiso وغيره من البنوك التشيلية التى تقدم لهم القروض دون صعوبة. كان الجنود يحاربون من أجلهم، دون أن يعرفوا وعلى الفور، عوضت الحكومة التشيلية تضحية نورث، وهارفى، وإنجليس Inglis، وچيمس James، وبوش Bush، وروبرتسون Robertson، وغيرهم من رجال الأعمال المجتهدين: ففى ١٨٨١ طرحت إعادة مصانع النترات الى اصحابها الشرعيين، بعد أن إنتقل نصف السندات الى الايدى الساحرة للمضاربين البريطانيين. ولم يخرج من انجلترا ولا دانق لتمويل هذا النهب.

عند مستهل عقد التسعينات، كانت تشيلى توجّه الى انجلترا ثلاثة أرباع صادراتها ، وتتلقى من انجلترا نصف وارداتها تقريباً. كانت تبعيتها التجارية تفوق حينذاك التبعية التجارية التى تعانى منها الهند، كانت الحرب قد اسلمت تشيلى الاحتكار العالمى للنترات الطبيعية ، لكن ملك النترات كان چون توماس نورث. وكانت إحدى شركاته، وهى ليفربول نيترات كومبانى Liverpool Nitrate Company، تدفع أرباحاً قيمتها أربعون فى المائة. وكان هذا الشخص قد نزل من السفينة فى ميناء بالبارايسو، عام ١٨٦٦، وليس فى جيب بذلته الملوثة بالتراب سوى عشرة جنيهات استرلينيه؛ وبعد ثلاثين عاماً، كان الامراء والدوقات، ابرز السياسيين والصناعيون الكبار يجلسون على مائدة قصره فى لندن. كان نورث قد أخترع لنفسة لقب كولونيل واشترك ، كما يليق بفارس من نوعه، فى حزب المحافظين وفى فرقة كنت الماسونية. كان اللورد دورشستر Lord Dorchester، واللورد راندولف تشرشل، المركيز ستوكبول Stockpole يحضرون حفلاته الباذخة، التى كان نورث يرقص فيها متنكراً فى زى هنرى الثامن[١٨]. وفى هذه الاثناء، وفى مملكته النائية للنترات، لم يكن العمال التشيليون يعرفون الراحة يوم الاحد، وكانوا يعملون حتى ست عشرة ساعة يومياً ويتقاضون أجورهم على شكل بطاقات تفقد نحو نصف قيمتها فى متاجر الشركة.

وفيما بين عامى ١٨٨٦ و ١٨٩٠ ، وتحت رئاسة خوسيه مانويل بالماثيدا Jos'e Manuel Balmaceda، أنجزت دولة تشيلي، كما يقول راميرث نيكوتشيا «خطط التقدم الاكثر طموحاً فى تاريخها كله». حفز بالما ثيدا تطور بعض الصناعات، ونفذ مرافق عامة هامة، وجدد التعليم، واتخذ اجراءات لكسر احتكار شركة السكك الحديدية البريطانية - فى تاراباكا وتعاقد مع ألمانيا على أول وآخر قرض لم تتلقاه تشيلى من انجلترا خلال كل القرن الماضى. وفى عام ١٨٨٨، أعلن أن من الضرورى تأميم مناطق انتاج النترات من خلال تكوين شركات تشيلية، ورفض أن يبيع للانجليز أراضى انتاج النترات التى تملكها الدولة. وبعد ثلاث سنوات اندلعت الحرب الاهلية .

وسارع نورث وزملاؤه الى تمويل المتمردين [١٩]. وأغلقت السفن الحربية البريطانية الشواطئ التشيلية، بينما طنطنت الصحف فى لندن ضد بالماثيدا، «الدكتاتور من أسوأ طراز» و "السفاح". وقد انتحر بالماثيدا، بعد هزيمته، وأبلغ السفير الانجليزى وزاره خارجيته بأن : «الجالية البريطانية لا تخفى رضاها عن سقوط بالماثيدا، الذى يعتقد أن انتصاره كان سينطوى على أضرار جسمية بالمصالح التجارية البريطانية». وعلى الفور، تضاءلت استثمارات الدولة فى الطرق، والسكك الحديدية، وفى التوطين، والتعليم والاشغال العامة ، بينما الشركات البريطانية توسع ممتلكاتها.

عشية الحرب العالمية الاولى، كان ثلثا الدخل القومى لتشيلى يأتيان من تصدير النترات ، سهول انتاج النترات كانت اشد ضيقاً وغربة من أى وقت مضى. لم يكن الرخاء قد أفاد فى تطوير وتنويع البلاد، بل إنه، على العكس، قد زاد من حدة تشوهاتها البنيوية. كانت تشيلى بمثابة ملحق للاقتصاد البريطانى: لم يكن من حق أهم مورد للأسمدة للسوق الاوربية أن يحيا حياته الخاصة. وعندئذ، هزم كيميائى المانى، من معمله، الجنرالات الذين انتصروا، قبل سنوات ، فى ميادين القتال. فاستكمال طريقة هابر - بوش Haber - Bosch لانتاج النترات بالتقاط النيتروجين من الهواء، أزاح النترات بصورة حاسمة وأنتج السقوط الفجائى للاقتصاد التشيلى. كانت أزمة النترات هى أزمة تشيلى، كانت جرحاً عميقاً، لأن تشيلى كانت تعيش من النترات وللنترات - وكانت النترات فى ايد أجنبية.

فى صحراء تاماروجال Tamarugal الجافة، حيث توهجات الارض تحرق العين، كنت شاهداً على دمار تاراباكا. كان هنا مائه وعشرون مكتباً للنترات خلال فترة الازدهار، والآن لم يتبق سوى مكتب واحد يعمل، وفى سهول الپامپا ليس هناك لا رطوبة ولا

هوام، بحيث أنه لم تُبع فقط الآلات باعتبارها خردة، بل بيعت كذلك الواح سرو أوريجون التي كانت في أفضل البيوت، وألواح كربونات الزنك، وحتي المسامير والصواميل السليمة. نشأ عمال متخصصون فى فك قرى بأكملها: وكانوا وحدهم من يجدون عملاً فى هذه الاتساعات المهدمة أو المهجورة. شاهدت الاطلال والثقوب، والقرى الشبحية، وخطوط السكك الحديدية الميته لشركة نيترات ريلوايز، وأسلاك البرق التى صارت خرساء، وهياكل مكاتب النترات وقد مزقها قصف الاعوام، وصلبات الجبانات التى تضربها الريح فى الليل، والتلال المائلة الى البياض التى ظلت تشيدها مخلفات النترات بجوار الانفاق. «هنا كانت النقود تفيض واعتقد الجميع أن ذلك لن ينتهى أبداً»، هكذا حكى لى السكان الذين بقوا على قيد الحياة ، يبدو الماضى جنة» بالمقارنه مع الحاضر، وحتى أيام الاحد، التى لم تكن موجودة بالنسبة للعمال عام ١٨٨٩، والتى كسبوها فيما بعد بأذرع مفتوحه فى نضال الروابط، فإنهم يتذكرونها بكل بهائها: كل يوم أحد فى سهول البامبا المنتجة للنترات - حكى لى عجوز بالغ الشيخوخة - كان بالنسبة لنا عيداً قومياً، عيد الثامن عشر من سبتمبر كل اسبوع» أما ايكيكى Iquique، أكبر موانى النترات، «ميناء من الدرجة الاولى» حسب لقبة الرسمى، فقد كان مشهد اكثر من مذبحة للعمال، لكن كان يأتى الى مسرحه البلدى، المبنى على طراز الحقبة الجميلة Belle epoque، أفضل مغنى الاوبرا الاوربية قبل أن يذهبوا إلى سانتياجو.

■ أسنان من النحاس فى جسد تشيلى

لم يتأخر النحاس كثيراً فى احتلال مكان النترات كدعامة رئيسية للاقتصاد التشيلى ، بينما كانت الهيمنة البريطانية تفسح مكاناً لسيطرة الولايات المتحدة ، وعشية أزمة عام ١٩٢٩ ، كانت الاستثمارات الامريكية الشمالية قد ارتفعت فعلاً الى أكثر من أربعمائة مليون دولار ، مخصصة بكاملها تقريباً لاستغلال ونقل النحاس. وحتى الانتصار الانتخابى لقوى الوحدة الشعبية عام ١٩٧٠ ، ظلت المناجم الكبرى للمعدن الاحمر فى أيدى شركة أناكوندا كوبر ما ينينج كومبانى Anaconda Copper Minig Co. وشركة كونيكوت كوبر كومبانى Kennecott Copper Co.، وهما شركتان وثيقتى الصلة فيما بينهما بوصفهما جزئين من كونسورتيوم عالمى واحد. وخلال نصف

قرن، كانت كلتاهما قد اعادتا اربعة آلاف مليون من الدولارات الى بلدهما الام من تشيلى، دماً دفاقاً مهرّباً عبر مفاهيم مختلفة، وكانت قد حققنا، طبقاً لنفس أرقامهما المتضخمة، استثماراً إجمالياً لم يتجاوز ثمانمائة مليون، كلها تقريباً مصدرها هو الأرباح المنتزعة من البلاد[٢٠]. وظل النزيف يتزايد كلما ازداد الانتاج ، حتى جاوز المائة مليون دولار سنوياً خلال الفترة الاخيرة، كان ملاك النحاس هم ملاك تشيلى. وفى يوم الاثنين ٢١ من ديسمبر عام ١٩٧٠، تحدث سلبادور اليندى من شرفة قصر الحكومة لجموع متوقدة؛ فأعلن أنه وقعّ مشروع الاصلاح الدستورى الذى سيجعل تأميم الصناعة المنجمية الضخمة ممكناً. وقال أنه فى عام ١٩٦٩، حققت اناكوندا فى تشيلى أرباحاً قيمتها ٧٩ مليون دولار، تعادل ثمانين بالمائة من ارباحها فى العالم كله: ورغم ذلك، اضاف، فإن لاتاكوندافى تشيلى أقل من سدس استثماراتها الخارجية، إلا أن الحرب البكتريولوجية لليمين، حملة الدعاية التى تستهدف زرع الرعب من أجل تجنب تأميم النحاس وغيره من الاصلاحات الهيكلية التى اعلنها اليسار، كانت مكثفة تماماً مثلماً فى الانتخابات السابقة.

عرضت الصحف دبابات سوفيتية ثقيلة تحيط بقصر الرئاسة المسمى لامونيدا La Moneda؛ وعلى جدران سانتياجو ظهر محاربو العصابات الملتحين وهم يدفعون بالشباب الابرياء نحو الموت؛ وكان جرس الباب يرن فى كل منزل، وتشرح سيدة: «لحضرتك أربعة أطفال؟ سيذهب إثنان الى الاتحاد السوفيتى وإثنان الى كوبا». لكن كان كل هذا عبثاً: فالنحاس «يرتدى پونشو* ومهاميز» كما يعلن الرئيس اليندى : يعود النحاس ليصبح تشيلياً.

أما الولايات المتحدة، المغروسة السيقان فى شرك حروب جنوب شرق آسيا، فلم تخف استياءها الرسمى تجاه تتابع الاحداث فى جنوبى سلسلة جبال الانديز. لكن تشيلى ليست فى متناول حملة مباغتة لجنود المارينز، وفى نهاية الامر، فإن اليندى رئيس بكل شروط الديمقراطية التمثيلية التى يَعِظ بها البلد الشمالى رسمياً. أن الامبرياليه تمر بالمراحل الاولى لدورة جديدة حاسمة بدت علاماتها بوضوح فى الاقتصاد، فمهمتها كشرطى عالمى تزداد تكاليفاً وصعوبة. وماذا عن حرب الاسعار؟ يباع الانتاج التشيلى الان فى اسواق متنوعة وباستطاعته أن يفتح اسواقاً جديدة

* الپونشو Poncho : كلمة مأخوذة عن الاراوكانية وتعني دثاراً مربعاً من الصوف يوضع علي الاكتاف وله فتحه في المنتصف تنفذ منها الرأس بينما يغطي الجسم كله - م.

واسعة بين البلدان الاشتراكية، وتفتقر الولايات المتحدة الى الوسائل التى تمنع، على نطاق عالمى ، مبيعات النحاس التى يتأهب التشيليون لاستعادتها، والمؤكد أن وضع السكر الكوبى قبل اثنتى عشر عاماً كان مختلفاً تماماً، اذ أنه كان موجّهاً بكامله الى السوق الامريكية الشمالية ومعتمداً تماماً على الاسعار الامريكية الشمالية. حين كسب ادواردو فراى Eduardo Frei انتخابات عام ١٩٦٤ ارتفع سعر النحاس على الفور بارتياح ظاهر؛ وحين فاز أليندى بانتخابات عام ١٩٧٠، أخذ سعر النحاس، الذى كان يهبط، يزداد هبوطاً. لكن النحاس، المعرض عادةً لتقلبات شديدة الحدة فى اسعاره، قد تمتع خلال السنوات الاخيرة باسعار مرتفعه نسبياً ولما كان الطلب يفوق المعروض، فإن الندرة تمنع هبوط المستوى الى مستوى بالغ الانخفاض. ورغم أن الالومنيوم قد إحتل مكانه بدرجة كبيرة كموصل للكهرباء ، فإن الالومنيوم ايضاً يتطلب نحاساً، وبالمقابل لم يمكن العثور على بدائل أرخص وأكثر فعالية لتحل محله فى صناعة الصلب أو فى الصناعة الكيميائية، ومازال المعدن الاحمر هو المادة الاوليه الاساسية فى مصانع البارود، والنحاس الاصفر، والاسلاك [٢١].

على طول سفوح سلسلة الجبال ، تملك تشيلى أكبر احتياطيات النحاس فى العالم، ثلث الاجمالى المعروض حتى الآن. ويظهر النحاس التشيلى عادة مرتبطاً بمعادن أخرى، مثل الذهب، والفضة، والموليبدينوم. وهذا عامل اضافى لحفز استغلاله. وفيما عدا ذلك، فإن العمال التشيليين رخيصون بالنسبة للشركات: بتكاليف تشيلى البالغة الانخفاض، تمول شركتا أناكوندا وكينيكوت بصورة متزايدة تكاليفها المرتفعة فى الولايات المتحدة، بنفس الطريقة التى يدفع بها النحاس التشيلى ، عن طريق «النفقات فى الخارج» أكثر من عشرة ملايين دولار سنوياً للإبقاء على مكتب نيويورك. وفي عام ١٩٦٤، لم يكن متوسط الاجر فى المناجم التشيلية يبلغ ثمنُ الاجر الاساسى فى مصانع تكرير كينيكوت فى الولايات المتحدة ، رغم أن انتاجية العمال هنا وهناك كانت على نفس المستوى [٢٢]. لكن ظروف المعيشة لم تكن متساوية، ولاهي الآن. فعمال المناجم التشيليون، بوجه عام يعيشون فى قمرات ضيقة قذرة، معزولين عن اسرهم، التى تسكن بيوتاً بائسة فى الخارج؛ ومعزولين كذلك، بالطبع، عن الموظفين الاجانب، الذى يعيشون فى كون منفصل فى المناجم الكبرى، فى دول صغيرة داخل الدولة، حيث لا يتم الحديث الاّ بالانجليزية وتنشر حتى صحف من أجل استخدامها الخاص. وقد ازدادت انتاجية العمال، فى تشيلى، بقدر ما ميكنت الشركات وسائل الاستغلال. ومنذ عام ١٩٤٥، ازداد إنتاج

النحاس بنسبة خمسين بالمائة، لكن عدد العمال المشتغلين فى المناجم انخفض بنسبة الثلث.

سوف يضع التأميم نهاية لوضع الامور الذى اصبح لا يحتمل بالنسبة للبلاد، وسيتيح تجنب أن تتكرر، مع النحاس، تجربة النهب والسقوط فى الفراغ التى عانت منها تشيلى خلال دورة النترات، لأن الضرائب التى تدفعها الشركات لا تعوض بأية حال الانضباب الذى لا يلين للموارد التعدينية التى وهبتها الطبيعة لكنها لن تجدّدها. ومن ناحية أخرى، فقد انخفضت الضرائب، بالمعايير النسبية، منذ انشاء نظام الضرائب المتناقصة وفقاً لزيادات الانتاج، عام ١٩٥٥، ومنذ «إضفاء الطابع التشيلى» على النحاس والذى فرضته حكومة فراى. ففى عام ١٩٦٥، حول فراى الدولة الى شريك لشركة كينيكوت وسمح للشركات بمضاعفة أرباحها بما يقل قليلاً عن ثلاثة أضعاف وذلك من خلال نظام ضريبة مناسب لها تماماً. وتطبق الضرائب، فى النظام الجديد، على سعر متوسط قدرة ٢٩ سنتاً من الدولار للرطل، رغم أن السعر قد ارتفع ، بفعل الطلب العالمى الكبير الى ستين سنتاً. وخسرت تشيلى، من خلال الفرق فى الضرائب بين السعر الافتراضى والسعر الحقيقى، كمية ضخمة من الدولارات ، كما اعترف رادوميرو توميك ذاته Radomiro Tomic، وهو المرشح الذى اختارتة الديمقراطية المسيحية ليخلف فراى فى فترة الرئاسة التالية. وفى عام ١٩٦٩، عقدت الحكومة اتفاقاً مع اناكوندا لتشترى منها ٥١ فى المائة من الاسهم على دفعات نصف سنوية، وبشروط آثارت فضيحة سياسية جديدة وأعطت دفعة قوية لنمو قوى اليسار. كان رئيس أناكوندا قد قال لرئيس تشيلى قبل ذلك بقليل، حسب الرواية التى نشرتها الصحافة: «يا صاحب السعادة: ان الرأسماليين لايحتفظون بممتلكاتهم لدوافع عاطفية؛ بل لأسباب اقتصادية. من الشائع أن تحتفظ اسرة ما بدولاب ملابس لأنه كان يخص جداً من الاجداد ، لكن الشركات ليس لها أجداد. وبإمكان أناكوندا أن تبيع كل ممتلكاتها. إلا أن ذلك يعتمد على الثمن الذى تدفعونه لها».

■ عمّال مناجم القصدير ، تحت الأرض وفوقها

منذ أقل من قرن بقليل، كان رجل يكاد يموت من الجوع يصارع الصخور فى قلب فيافى هضبة الالتيبلانو البوليفية، انفجر الديناميت، وحتى اقترب ليلتقط قطع الاحجار

التى تناثرت نتيجة الانفجار ، ظل مشدوهاً. كان فى يدية قطع لامعة من أغنى عرق للقصدير فى العالم. وفى فجر اليوم التالى ، وكب حصانة الى هوانونى Huanuni. أكد تحليل العينات قيمة الاكتشاف، كان بالإمكان نقل القصدير من عرق المنجم الى الميناء مباشرة، دون حاجة للقيام بأى عملية تركيز. أصبح هذا الرجل ملك القصدير، وحين مات، أكدت مجلة فورتشون Fortune أنه كان واحداً من أغنى اصحاب الملايين المتعددى الملايين فى كوكبنا. كان إسمه سيمون باتينيو Simon Patino ومن أوربا. ظل لسنوات طويله يضع ويسقط الرؤساء والوزراء فى بوليفيا، ويخطط جوع العمال، وينظم مذابحهم، ويشعّب ويوسع ثروته الشخصية: كانت بوليفيا بلداً وجُد لخدمته.

وإبتداء من الايام الثورية لابريل عام ١٩٥٢ ، أممت بوليفيا القصدير. لكن تلك المناجم البالغة الثراء كانت قد اصبحت فقيرة فى ذلك الحين. وفى تل خوان ديل باىّ Tuan Del Valle، حيث اكتشف باتينيو الشظية الرائعه، كانت نقاوة القصدير قد إنخفضت مائة وعشرين مرة. ومن بين الـ ١٥٦ الف طن من الصخر التى تخرج كل شهر من أنفاق المنجم لايمكن الحصول الآعلى أربعمائة. ويبلغ مجموع طول الانفاق ، بالكيلو مترات، مسافة تفوق ضعف المسافة التى تفصل بين المنجم ومدينة لاباث: فالتل، من الداخل، عبارة عن عشرة نمل تثقبة ردهات، وممرات، وانفاق، ومداخن لانهائية. يكاد يتحول الى قشرة فارغة. وكل عام يفقد قليلاً من ارتفاعة، فالانهيار البطئ يأكل قمته: إنه يبدو عن بعد، مثل ضرس تالف.

لم يحصل انتينور باتينو Antenor Patino على تعويض معقول عن المناجم التى اعتصرها والده فحسب، بل حصل كذلك على السيطرة على سعر ووجهة القصدير الذى انتزعت ملكية. «مستر باتينيو هو الملك الدمث للقصدير البوليفى»، هكذا ستظل تقول أعمدة الاجتماعيات بعد سنوات طويلة من التأميم[٢٣]. فالتأميم، المكسب الرئيسى لثورة عام ١٩٥٢، لم يغير دور بوليفيا فى التقسيم الدولى للعمل. فقد استمرت بوليفيا تصّدر المعدن الخام، ويكرر كل المعدن تقريباً فى أفران ليفربول لشركة ويليامز، وهارفى، وشركاهما Willams, Harvey and Co.، التابعة لباتينيو. ليس تأميم مصادر انتاج أية مادة أولية كافياً، كما تبين التجربة المؤلمة، ويمكن لاى بلد أن يظل محكوماً عليه بالعجز كما كان الامر دائماً، رغم أنه اصبح اسمياً مالك باطن أرضه، لقد انتجت بوليفيا على طول تاريخها، معادن خاماً وخطباً بليغة. تتوافر البلاغة مع البؤس؛ ومنذ الازل، كرس الكتاب المبتذلون والدكاتره مرتدى معاطف

الفراك انفسهم لتبرئه المذنبين. فمن بين كل عشرة بوليفيين، لازال سته «لا يعرفون القراءة، ولا يتردد نصف الاطفال على المدرسة. وأخيراً، فى عام ١٩٧١، كان لابد لبوليفيا من امتلاك وتشغيل معمل صهر القصدير الخاص بها، الذى اقيم فى أورورو Oruro فى ختام تاريخ لا ينتهى من الخيانات، والتخريب، والمؤامرات، والدم المسفوك[٢٤]. هذا البلد الذى لم يستطيع، حتى الآن، أن ينتج سبائكة الخاصة، يمنح نفسة، بالمقابل، ترف الحفاظ على ثمانية كليات للحقوق تهدف الى تخريج مصاصى دماء الهنود.

يُحكى أنه، منذ قرن، أجبر الدكتاتور ماريانو ملجاريخو Mariano Melgarejo سفير انجلترا على شرب برميل كامل من الشيكولاتة، عقاباً له على احتقار كاس من نبيذ الذرة. وإقتيد السفير على ظهر حمار، وهو راكب بالمقلوب، عبر الشارع الرئيسى لمدينة لاباث. وأعيد الى لندن. ويقال أن الملكة فكتوريا الغاضبة، طلبت حينئذ خريطة لأمريكيا الجنوبية، ورسمت صليباً بالطباشير فوق بوليفيا ونطقت: "بوليڤيا غير موجودة". وبالفعل، بالنسبة للعالم، لم تكن بوليڤيا موجودة ولا وجدت بعدها: لم يكن نهب الفضة، وبعدها، استنزاف القصدير سوى ممارسة لحق طبيعى للبلدان الغنية، وفى نهاية المطاف، تدل علب الصفيح على الولايات المتحدة مثلماً يدل عليها شعار النسر أو رسم التفاحة. لكن علبة الصفيح ليست مجرد رمز من رموز البوب POP فى الولايات المتحدة: **لأنها كذلك رمز، رغم أنه غير معروف، لتسمم السليكون فى مناجم القرن العشرين أو هوانونى: علبة الصفيح تحتوى على قصدير، وعمال المناجم البوليفيون يموتون برئاتهم متعفنة لكى يستطيع العالم أن يستهلك القصدير الرخيص. بينما يحدد سعره نصف دسته من البشر.** ماذا تعنى، بالنسبة لمستهلكى الاطعمة المحفوظة ومضاربى البورصة، الحياة القاسية لعامل المنجم فى بوليفيا؟

يشترى الامريكيون الشماليون الجزء الاكبر من القصدير الذى يكرر فى كوكبنا: ومن اجل الحفاظ على الاسعار المنخفضة، يهددّون بشكل دورى، بأن يطرحوا فى السوق احتياطياتهم الضخمة من المعدن، المشتراه بأقل من سعرها بكثير، بأسعار «المساهمة الديمقراطية»، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. وطبقاً لبيانات منظمة الاغذية والزراعة FAO، يستهلك المواطن الامريكى الشمالى المتوسط لحماً ولبناً يفوق خمس مرات وبيضاً يفوق عشرين مرة ما يستهلكة المواطن البوليفى. وإستهلاك عمال

المناجم أقل بكثير من المتوسط القومى المنخفض. وفى جبانة كاتابى Catavi، حيث يبتهل العميان من أجل الموتى مقابل قطعة نقود، يؤلم المرء أن يجد، بين الشواهد الداكنه للبالغين، عدداً لا يحصى من الصلبان البيضاء تعلو المقابر الصغيرة. فمن بين كل طفلين يولدان فى المناجم، يموت واحد بعد أن يفتح عينيه بقليل. أما الآخر، الذى يظل على قيد الحياة، فسوف يكون عامل منجم حين يكبر بالتأكيد. وقبل أن يبلغ سن الخامسة والثلاثين، لن تكون له رئتان.

تطقطق جدران الجبانة. فتحت القبور، حفرت أنفاق لانهائية، أنفاق ذات فوهة ضيقة تسع بالكاد الرجال الذين يدخلون، مثل القوارض، بحثاً عن المعدن. وقد تراكمت مناجم جديدة للقصدير على السفوح عبر السنين؛ كوّمث أطنان فوق اطنان من الرواسب فى أكوام ضخمة رمادية أضافت، بهذه الطريقة، قصديراً إلي قصدير المشهد. وحين يسقط المطر، الذي يهطل بعنف من السحب القريبة، يرى المرء المتعطلين يتشبثون بالارض على طول يايا جوا Llallagua، حيث يسكر الرجال بصورة يائسة فى الحانات: أنهم يجمعون ويزنون عيار قطع الرصاص التى يحملها المطر. هنا، فإن القصدير اله من الصفيح يحكم البشرو الاشياء، ويوجد فى كل مكان. ولايوجد القصدير فحسب فى احشاء تل باتينيو القديم . فثمة قصدير، ينم عنه البريق الاسود لحجر القصدير، حتى فى الجدران الطينية للمعسكرات. كذلك يوجد قصدير فى الطين المصفّر الذى يتقدم مكتسحاً نفايات المنجم كما يوجد فى المياه التى تفيض، مسمّمة، من الجبل؛ يوجد قصدير فى الارض وفى الصخر، على السطح وفى باطن الارض، فى رمال وفى صخور مجرى نهر الريو سيكو Rio Seco. فى هذه الاراضى المجدبة والصخرية، على ارتفاع يقرب من اربعة آلاف متر، حيث لا ينبت العشب وحيث كل شئ ، بما فى ذلك البشر، له لون القصدير الداكن، يعانى البشر بصبر صومهم الاجبارى ولا يعرفون عيد العالم. فهم يعيشون فى معسكرات، مكوّمين فى منازل من حجرة واحدة ذات أرضية طينية؛ وتنفذ الريح القاطعة من الشقوق. ويكشف تقرير جامعى عن منجم كولكيرى Colquiri عن أنه، من بين كل عشرة شباب ذكور تم استبيانهم، ينام سنه فى نفس الفراش مع أخواتهم، ويضيف: «يحس كثير من الاباء باستياء حين يلاحظهم ابناؤهم خلال ممارسة الجنس». ولاتوجد حمامات، والمراحيض هى اعشاش عامة صغيرة تغطيها الاوساخ والذباب: ويفضل الناس الخرابا ، تلك الاماكن القفر المكشوفة، حيث يتغير الهواء على الاقل برغم وجود القمامة والبراز المتراكم والخنازير التى تلعب هانئة. وخدمة

الماء أيضاً جماعية: لابد من انتظار لحظة وصول الماء، والاسراع بعمل طابور، وتلقى الماء من الحوض العمومى فى أوعية البنزين والجرار. والطعام قليل وسئ، ويتكون من حبّات بطاطا، وشعرية، وأرز، وبطاطس مهروسة، وذرة مطحونة وبعض اللحم القديد.

كنا فى أعماق تل خوان ديل بايّ. كان العواء النفاذ للصفارة، التى تدعو العمال الى الوردية الاولى. قد دوّى فى المعسكر منذ عدة ساعات. كنا ونحن نتجول فى الانفاق، قد عبرنا من الحرارة الاستوائية إلى البرودة القطبية وإلى الحرارة من جديد، دون أن نخرج لحظة، خلال عدة ساعات، من نفس الجو المسموم. بأستنشاق ذلك الهواء الكثيف - من الرطوبة، والغازات، والتراب، والدخان -، كان بامكان المرء أن يدرك السبب فى أن عمال المناجم يفقدون، خلال سنوات قليلة ، حاستى الشم والذوق. كان الجميع يمضغون وهم يعملون، أوراق نبات الكوكا مع الرماد، وهذا بدوره يمثل جزءاً من عملية الابادة، لأن الكوكا، كما هو معروف، بإخمادها الجوع واخفائها التعب، تأخذ فى إخماد جهاز التنبيه الذى يعتمد عليه الكائن ليظل على قيد الحياة. لكن التراب كان أسوأ ما فى الامر. كانت الخوذات تبعث زحاماً من دوائر الضوء التى ترقش النفق الاسود وتتيح، فى مرورها، رؤية ستائر التراب الابيض الكثيف: تراب السليكا الذى لا مفر منه. يلفنا النفس القاتل للارض شيئاً فشيئاً. وبعد مرور عام تظهر أولى الاعراض، وخلال عشر سنوات ينتقل المرء الى الجبانة. فى داخل المنجم تستخدم أجهزة ثقب سويدية من أحدث طراز، لكن نظام التهوية وظروف العمل لم تتحسن مع مرور الزمن. على سطح الارض، يستخدم العمال المستقلون معاول وشواكيش ثقيلة تزن اثنى عشر رطلاً ليصارعوا الصخر، مثلما كانوا يفعلون بالضبط منذ مئة سنة، كما يستخدمون أوعية صحن ، ومصافى، ومناخل لتركيز المعدن فى الساحة. يكسبون دراهم قليلة ويعملون كالحيوانات. إلا أن الكثيرين منهم يتمتعون، على الاقل، بميزة الهواء الطلق. أما فى داخل المنجم، بالمقابل، فإن العمال سجناء محكوم عليهم، دون استئناف، بالموت خنقاً.

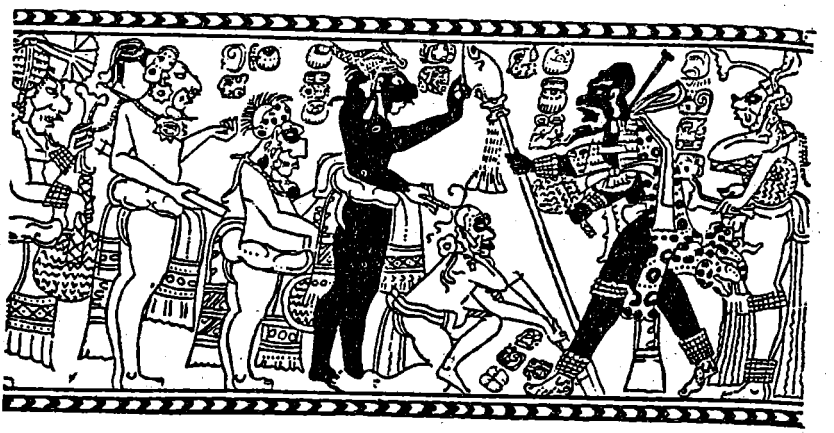
كان ضجيج المثاقيب قد هدأ والعمال يرتاحون بينما ننتظر انفجار اكثر من عشرين شحنة ديناميت، فالمنجم يهب ايضاً ميتات عاجلة وذات ضجيج: قد يأتى الموت بسبب الخطأ فى عدد الانفجارات، أو إذا تأخر الفتيل فى الاشتعال اكثر مما يجب. وقد يحدث ايضاً اذا انفصلت صخرة سائبة، يلطق عليها اسم توخو Tojo، وسقطت فوق الرأس. أو يحدث بجحيم المدافع الرشاشة : ففى ليلة عيد القديس خوان عام ١٩٦٧ جرت آخر

واحدة من سلسلة طويلة من المذابح. ففى الفجر اتخذ الجنود اماكنهم فى التلال، على ركبهم، وأطلقوا اعصاراً من الطلقات فوق المعسكرات التى تضيئوها مشاعل العيد[٢٥].لكن الموت البطئ الصامت هو تخصص المنجم . وتقيؤ الدم، والسعال، والاحساس بثقل من الرصاص فوق الظهر وبانقباض حاد فى الصدر هى العلامات التى تعلن عنه. وبعد التحليل الطبى تأتى المشارير البيروقراطية التى لا تنتهى. وهم يعطون مهلة ثلاثة اشهر لاخلاء المنزل.

هل قد توقفت ضجة المثاقيب وسرعان ما سيمسك الانفجار بذلك العرق المخزى بلون القهوة وشكل الافعى. عندئذ يمكننا الحديث. كانت كرة الكوكا تنفخ خد كل عامل ومن ملتقى الشفاه يجرى اللعاب المائل الى الاخضرار. ومر عامل، مسرعاً، وهو ينثر الطين بين قضبان الردهة الحديدية. قالوالى «هذا جديد، أرأيت؟ ينطلون الجيش الذى يرتديه وصداره الاصفر يبدو شاباً فتياً. لقد دخل الساعه فقط ويعمل بحماس. مازال كالبلطة، **مازال لا يحس**».

أما التكنوقراط والبيروقراطيون فلايموتون من التسمّم السليكوني، بل يعيشون عليه. والمدير العام للكوميبول Comibol، هيئة التعدين البوليفية، يتقاضى مائة ضعف ما يتقاضاه العامل. ومن تل ينحدر بشدة صوب مجرى النهر، عند أطراف ياياجوا، يمكن رؤية سهل ماريا بارثولا Maria Barzola. وهو يسمى بهذا الاسم تكريماً لعاملة مناضلة سقطت منذ ثلاثين عاماً، على رأس مظاهرة، وعلم بوليفيا قد خاطته الى جسمها دفعات طلقات المدافع الرشاشة. ووراء سهل ماريا بارثولا يمكن رؤية افضل ملعب للجولف فى بوليفيا: وهو الملعب الذى يستخدمة المهندسون وكبار الموظفين فى كاتابى. فى عام ١٩٦٤ ، خفض الدكتاتور رينيه باريّنتوس Rene Barrientos الى النصف أجور التجويع لعمال المناجم، وفى نفس الوقت رفع رواتب الفنيين والبيروقراطيين الكبار، ومرتبات كبار الموظفين من الاسرار، اسرار وبالدولار. وهناك مجموعة خبراء كلية القدرة، تتشكل من فنيين من البنك الامريكى المشترك للتنمية، والتحالف من اجل التقدّم والبنك الاجنبى المقرض، توجه نصائحها صناعة التعدين المؤممة لبوليفيا، بصورة تجعل من كوميبول، عن هذا الحد، وقد تحولت الى دولة داخل الدولة، دعاية حية ضد تأميم أى شئ. حلت محل سلطة الطغمة الاوليجاركية سلطة الاعضاء العديدين فى «طبقة جديدة» كرست جهودها لتخريب صناعة المناجم المملوكة للدولة من الداخل. لم يكتف المهندسون بأن نسفوا كل مشاريع

وخطط اقامة مصنع صهر قومى، بل أنهم اسهموا كذلك فى أن تظل مناجم الدولة حبيسة حدود المناجم القديمة لباتينيو، وأرامايو Aramayo، وهو خشيلد Hochschild، فى عملية إنضاب متسارع للاحتياطيات. وفيما بين أواخر عام ١٩٦٤ وأبريل من عام ١٩٦٩، إخترق الجنرال بارّينتوس حاجز الصوت فى سرعه تسليم موارد جوف الارض البوليفية الى رأس المال الامبريالى، بتواطؤ صريح من الفنيين والمديرين. وقد قصّ سيرخيو المارات، فى أحد كتبه[٢٦]، حكاية منح امتياز سهول القصدير لشركة انترناشيونال ما ينينج بروسسينج كومبانى International Mining Processing Co. برأسمالها المعلن الذى لا يبلغ بالكاد خمسة آلاف دولار، حصلت الشركة ذات الاسم الطنان على عقد يتيح لها أن تربح اكثر من تسعمائة مليون .



■ أسنان من الحديد فى جسد البرازيل

تدفع الولايات المتحدة ثمنا للحديد الذى تتلقاه من البرازيل أو فنزويلا أرخص من ثمن الحديد الذى تستخرجه من باطن أرضها ذاته . لكن ذلك ليس مفتاح تفسير إستماته امريكا الشمالية للسيطرة على مناجم الحديد فى الخارج : فإمتلاك أو السيطرة على المناجم خارج الحدود يمثل ، أكثر من كونه عملاً تجارياً ، ضرورة للأمن القومى . فباطن الارض الامريكى الشمالى آخذ ، كما رأينا ، فى النضوب. وبدون الحديد لايمكن صنع الصلب بينما خمسة وثمانين بالمائة من الانتاج الصناعى للولايات المتحدة يحتوى ، بطريقة أو بأخرى ، على الصلب. وفى عام ١٩٦٩ ، حين إنخفضت إمدادات كندا ، انعكس ذلك على الفور فى زيادة واردات الحديد من أمريكا اللاتينية.

إن تل بوليفار ، فى فنزويلا ، من الثراء بحيث أن التربة التى تقتطعها منه شركة يواس ستيل US Steel ، تفرغ مباشرة فى مخازن السفن المتجهة إلى الولايات المتحدة ، وتبقى على جوانبه .. بالعين المجردة ، الجروح العميقة التى تفتحها فيه الجرارات : وتقدر الشركة أنه يحتوى على نحو ثمانية آلاف مليون دولار من الحديد. وفى عام واحد ، هو عام ١٩٦٠ ، إقتسمت شركتا يو إس ستيل وبيتلهم ستيل أرباحاً زادت على ثلاثين بالمائة من رؤوس أموالهما المستثمرة فى الحديد فى فنزويلا وهذه الارباح الموزعه تساوى قيمة كل الضرائب المدفوعة للدولة الفنزويلية خلال الاعوام العشر المنقضية منذ عام ١٩٥٠[٢٧]. ولما كانت كلتا الشركتين تبيع الحديد لمصانعها التعدينية فى الولايات المتحدة، فليس لديهما أقل إهتمام بالدفاع عن الاسعار؛ بل على العكس، يناسبهما أن تكون المادة الاولية أرخص ما يمكن. أن السعر الدولى للحديد ، الذى انخفض فى منحنى رأسى فيما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤، قد استقر نسبياً خلال الاعوام الماضية ومازال راكداً؛ وفى هذه الاثناء ، لم يتوقف سعر الصلب عن الارتفاع، إن الصلب ينتج فى مراكز العالم الغنية، والحديد ينتج فى الاطراف الفقيرة، يدفع الصلب أجور «ارستقراطية عمالية» بينما يدفع الحديد ، يوميات مجرد الكفاف.

بفضل معلومات حصل عليها وعممها ، فى عام ١٩١٠ مؤتمر دولى للجيولوجيا اجتمع فى ستوكهولم ، استطاع رجال الاعمال فى الولايات المتحدة أن يقدروا ، للمرة الاولى ، أبعاد الكنوز المخفيّة تحت أرض سلسلة من البلدان، كان أحدها ، وربما اكثرها اغراءً ، هو البرازيل. وبعد أعوام طويلة ، فى عام ١٩٤٨، خلقت سفارة الولايات المتحدة

وظيفة جديدة فى البرازيل ، هى وظيفة الملحق التعدينى ، الذى واجه منذ البداية كمية من العمل تساوى على الاقل عمل الملحق العسكرى أو الثقافى : عمل بلغ من كثرته أنه سرعان ما تم تعيين ملحقين تعدينيين اثنين بدلاً من واحد [٢٨]. وبعد قليل تلقت بيتلهم ستيل من حكومة دوترا Dutra مناجم المنجنيز الرائعة فى أمابا ، وفى عام ١٩٥٢ ، حظر الاتفاق العسكرى الموقع مع الولايات المتحدة على البرازيل بيع المواد الاولية ذات القيمة الاستراتيجية – مثل الحديد – الى الدول الاشتراكية .

وكان هذا احد أسباب السقوط التراجيدى للرئيس چيتوليو فارجاس Getulio Vargas الذى عصى هذا الالزام وباع الحديد الى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، بأسعار تفوق الاسعار التى كانت تدفعها الولايات المتحدة. وفى عام ١٩٥٧ ، اشترت هانا ما ينينج كومبانى ، مقابل سته ملايين دولار ، غالبية أسهم شركة بريطانية ، هى سان جون ما يننج كومبانى Saint John Mining ، التى كانت متخصصة فى استغلال ذهب ميناش چيرايش منذ زمن الامبراطورية البعيد. كانت شركة سان چون تعمل فى سهل باراوبيبا ، حيث يكمن اكبر تركز للحديد فى العالم أجمع ، يقدر بمائتى الف مليون من الدولارات . لم تكن الشركة الانجليزية مؤهلة قانونا لاستغلال هذه الثروة الرائعه ، كذلك لم تكن شركة هانا ، وفقاً لشروط دستورية وقانونية واضحة يعّددها دوارتى بيريرا Duarte Pereira فى كتابه حول الموضوع. لكن تلك كانت ، كما عُرف فيما بعد ، صفقة القرن.

كان چورج همفرى George Humphrey، مدير ورئيس هانا ، عضواً بارزاً فى ذلك الحين فى حكومة الولايات المتحدة كسكرتير للخزانة ومدير للإكسيمبانك Eximbank، وهو البنك الرسمى لتمويل عمليات التجارة الخارجية ، وكانت سان چون قد طلبت قرضاً من الاكسيمبانك : ولم يحالفها الحظ حتى استولت هانا على الشركة. ومنذ ذلك الحين إنطلقت اعنف الضغوط على حكومات البرازيل المتعاقبة. أما مديرو ، ومحامو ومستشارو هانا – لو كاس لوبيز ، وجوزيه لويز بوليوس بدريرا ، وروبرتو كامبوس ، وماريو دا سيلفا بينتو ، وأوتافيو دى بوليوس – فكانوا كذلك أعضاء على أعلى مستوى ، فى حكومة البرازيل ، واستمروا فى احتلال مناصب الوزراء ، والسفراء ، أو مديرى الخدمات فى الدورات التالية. لم تسئ هانا اختيار هيئة أركانها. صار القصف يشتد تدريجياً ، من أجل إعطاء هانا حق استغلال الحديد التابع ، فعلياً ، للدولة . وفى ٢١ أغسطس عام ١٩٦١ ، وقع الرئيس چانيوكوا دروس قراراً يلغى التراخيص غير القانونية الممنوحة

لشركة هانا وأعاد مناجم ميناش چيرايش الى الرصيد القومى . وبعد أربعة أيام ، أجبر الوزراء العسكريون كوادروس على التنحّى: «ثارت قوى رهيبة ضدى ... » هكذا ذكر نص خطاب التنحّى.

وأحبطت الانتفاضة العسكرية التى قادها ليونيل بريزولا Leonel Brizola فى بورتو اليجرى Porto Alegre انقلاب العسكريين ووضعت فى السلطة نائب الرئيس لكوادروس ، چواو جولارت Joao Goulart. وفى يوليو عام ١٩٦٢ ، حين أراد أحد الوزراء تطبيق المرسوم القاتل ضد شركة هانا – والذى تم تشويهه فى الجريده الرسمية – ، أرسل سفير الولايات المتحدة ، لنيكولن جوردون Lincoln Gordon ، برقية الى جولارت يحتج فيها بشدة على الهجوم الذى تنوى الحكومة شنه ضد مصالح شركة امريكية شمالية. وقد أكدت السلطة القضائية صلاحية قرار كوادروس ، لكن جولارت تردد .

وفى هذه الاثناء ، كانت البرازيل تتخذ الخطوات الاولى فى سبيل انشاء ميناء وسيط للمعادن فى البحر الادرياتيكى ، بهدف تزويد عدة بلدان أوربية ، اشتراكية ورأسمالية ، بالحديد : وكان البيع المباشر للحديد ينطوى على تحد لا يحتمل بالنسبة للشركات الكبرى التى تتحكم فى الاسعار على مستوى العالم. ولم يتحقق الميناء مطلقاً، لكن طبقت اجراءات وطنية أخرى – مثل الكبح المفروض على الاستنزاف الذى تمارسه أرباح الشركات الاجنبية ، وقدمت فتيلاً للموقف السياسى المتفجر. ظل سيف ديموقليس الذى يمثله قرار كوادروس معلقاً فوق رأس هانا . وأخيراً، أنفجر الانقلاب، فى آخر ايام مارس عام ١٩٦٤، فى ميناش چيرايش، التى كانت، بالصدفة ، موقع مناجم الحديد المتنازع عليها. وكتبت مجلة فورتشون تقول: «بالنسبة لشركة هانا، جاءت الانتفاضة العسكرية التى أسقطت جولارت فى الربيع الماضى مثل انقاذ فى آخر لحظة يقوم به رئيس الفرسان»[٢٩].

واحتل رجال شركة هانا منصب نائب رئيس البرازيل ومناصب ثلاثة وزراء . وفى نفس يوم التمرد العسكرى ، نشرت الواشنطن ستار إفتتاحية تنبؤية على الأقل: أعلنت "ثمة وضع يمكن فية لانقلاب جيد وفعّال ، على الطراز القديم ، من جانب القادة العسكريين المحافظين، أن يخدم أفضل مصالح كل من الامريكتين »[٣٠]. لم يكن جولارت قد تنحّى بعد ، ولم يكن قد غادر البرازيل ، حين لم يعد ليندون جونسون Lyndon Johnson قادراً على تمالك نفسة فارسل برقية التهنئة. الشهيرة الى رئيس الكونجرس البرازيلى ، الذى تولى مؤقتاً رئاسة البلاد : «لقد راقب الشعب الامريكى الشمالى بقلق

الصعوبات السياسية والاقتصادية التى كانت تمر بها أمتكم العظيمة ، وأعجب بالرغبة الحازمة للمجتمع البرازيلى فى حل هذه الصعوبات فى اطار من الديمقراطية الدستورية ودون صراع مدنى»[٣١]. وكان قد مر أكثر من شهر بقليل حين القى السفير لينكولن جوردن ، الذى كان يتجول ، فى بهجة ، بين المعسكرات ، خطاباً فى مدرسة الحرب العليا ، يؤكد فية أن أنتصار مؤامرة كاستيلو برانكو Castelo Branco « يمكن أن يندرج، مع عرض برنامج مارشال ، وحصار برلين ، وهزيمة العدوان الشيوعى فى كوريا وحل ازمة الصواريخ فى كوبا ، كواحد من أهم لحظات التحول الهامة فى تاريخ العالم عند منتصف القرن العشرين» [٣٢]. وكان أحد الأعضاء العسكريين لسفارة الولايات المتحدة قد قدم مساعده مادية للمتآمرين ، قبل قليل من وقوع الانقلاب [٣٣]. وكان جوردون نفسه قد ألمح لهم بأن الولايات المتحدة سوف تعترف بحكومة مستقلة لو استطاعت البقاء يومين فى ساو باولو [٣٤]. ولا يستحق الأمر عناء الاسهاب فى الشهادات المتعلقة بأهمية المعونة الاقتصادية للولايات المتحدة فى تطور وبداية الاحداث، لكننا سنتناولها فيما بعد ، أو بالمساعدة الامريكية الشمالية على المستوى العسكرى أو النقابى [٣٥].

وبعد أن تعبوا من القاء كتب المؤلفين الروس امثال دستويفسكى وتولستوى، وجوركى فى النيران أو فى قاع خليج جوانابارا Guanabara ، وبعد أن حكموا بالنفى، أو السجن، أو الاعدام على عدد لا يحصى من البرازيليين ، انتقلت دكتاتورية كاستيلو برانكو المتباهية الى العمل : سلمت الحديد وكل ما عداه . وتلقت شركة هانا مرسومها بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤ . لم تكفل هدية عيد الميلاد هذه للشركة كل الضمانات لكى تستغلّ فى سلام مناجم باروابيبا فحسب، بل ساندت كذلك خطط الشركة لتوسيع ميناء خاص بها على بعد ستين ميلاً من ريودى جانيرو، وكذلك لانشاء سكة حديدية مخصصة لنقل الحديد . وفى اكتوبر عام ١٩٦٥ كونت هانا كونسورتيوم مع بيتلهم ستيل لكى تستغلا بشكل مشترك الحديد المسلّم لهما. هذا النوع من التحالفات ، الشائع فى البرازيل ، لا يمكن عقده فى الولايات المتحدة ، لأن القوانين هناك تحظره [٣٦]. كان لنيكولن جوردون الذى لايكل ، قد وضع خاتمة للمهمة ، كان الكل سعداء وانتهت الحكاية ، وانتقل ليرأس جامعة فى بلتيمور. وفى ابريل عام ١٩٦٦ ، عين چونسون خلفه، چون توتيل John Tuttill ، فى ختام عدة أشهرٍ من التردد ، وأوضح أنه قد تأخر لأن من الضرورى العثور على اقتصادى جيد من أجل البرازيل.

ولم تتخلف يو إس ستيل. لماذا يتركونها دون دعوتها على العشاء؟ قبل مضى وقت طويل ، شاركت الشركة الحكومية ، لاكو مبانيا فالى دو ر يو دوسى La Companhia Vale Do Rio Doce ، التى تحولت بدرجة كبيرة ، إلى اسمها الرسمى المستعار. بهذه الطريقة حصلت اليو إس ستيل ، مكتفية بما لا يزيد على تسعة وأربعين بالمائة من الاسهم ، بإمتياز مناجم حديد جبال كاراچاس Carajas، فى الامازون. وحجمها ، كما يؤكد الفنّيون، يضاهى التاج الحديدى لهانا – بيتلهم فى ميناش چيرايش. وكما هى العادة ، أضافت الحكومة أن البرازيل ليس لديها رؤوس الاموال للقيام بالاستغلال لحسابها هى.

■ البتـرول ، واللّعنات ، والإنجـازات

يمثل البترول ، مع الغاز الطبيعى ، الوقود الاساسى لكل ما يسيّر العالم المعاصر، كما يُعدّ مادة أولية متزايدة الاهمية بالنسبة للصناعات الكيميائية والمواد الاستراتيجية اللازمة للنشاطات العسكرية. وما من قطب آخر يجتذب رؤوس الاموال الاجنبية بقدر ما يفعل «الذهب الاسود» كما لا يوجد مصدر آخر له هذه الارباح الرائعه. والبترول هو الثروة المحتكرة اكثر من سواها فى كل النسق الرأسمالى. وما من رجال أعمال يتمتعون بالسلطة السياسية التى تمارسها ، على نطاق عالمى ، الشركات البترولية الضخمة ، إن ستاندارد أويل Standard Oil وشل Shell تصنعان وتعزلان الملوك والروساء ، وتمولان مؤامرات القصور والانقلابات ، وتحت ايديهما جنرالات، ووزراء، وچيمس بوندات بلا عدد فى كل الأنحاء وبكل اللغات. إنهما تحددان مسار الحرب والسلام. وستاندارد أويل كومبانى أوف نيوجرسى هى أكبر شركة صناعية فى العالم الرأسمالى؛ وخارج الولايات المتحدة لاتوجد اية شركة صناعية أقوى من رويال دانش شل Royal Dutch Shell؛ تبيع الشركات الشقيقة البترول الخام للشركات التابعة ، التى تكرره وتبيع مواد الاحتراق للفروع لتوزيعها: لا يخرج الدم ، فى كل الدائرة ، خارج جهاز الدورة الداخلى للكارتل، الذى يملك علاوة على ذلك أنابيب البترول وجزءاً كبيراً من الاسطول البترولى فى البحار السبعة. ويتم التلاعب بالاسعار ، على نطاق عالمى، لتقليل الضرائب المدفوعة وزيادة الارباح المحصلّه: ويتزايد سعر البترول الخام دائماً أقل مما يتزايد سعر البترول المكرر.

ويحدث مع البترول ، مثلما يحدث مع البن أو اللحم ، أن البلدان

الغنية تكسب من تكبّد عناء إستهلاكه أكثر بكثير مما تكسب الدول الفقيرة من إنتاجه. والفرق بينهما هو واحد لعشرة: فمن الأحد عشر دولاراً التي تمثل قيمة مشتقات برميل واحد من البترول ، تتلقى البلدان المصدرة لأهم مادة أولية في العالم دولاراً واحداً بالكاد ، هو مجموع الضرائب وتكاليف الاستخراج، بينما بلدان المنطقة المتقدمة، حيث تقع المقار الرئيسية للشركات البترولية ، تجني عشر دولارات، هي مجموع جمارکها الخاصة وضرائبها، التي تعادل ثمانية اضعاف ضرائب البلدان المنتجة ، ومن تكاليف وأرباح النقل ، والتكرير ، والتجهيز، والتوزيع التي تحتكرها الشركات الكبرى (٣٧).

ويتمتع البترول الذي ينتج في الولايات المتحدة بسعر مرتفع ، كذلك فإن أجور عمال البترول الامريكيين الشماليين مرتفعة نسبياً، إلا أن اسعار بترول فنزويلا والشرق الاوسط ظلت تنخفض، منذ عام ١٩٥٧ ، على طول عقد الستينيات وعلى سبيل المثال، كان متوسط سعر برميل البترول الفنزويلي هو ٢,٦٥ دولاراً عام ١٩٥٧ ، وبينما أكتب هذا الفصل ، في أواخر عام ١٩٧٠ ، أصبح السعر هو ١,٨٦ دولاراً. وتعلن حكومة رافاييل كالديرا Rafael Caldera أنها ستحدد من جانب واحد ، سعراً أعلى بكثير ، لكن السعر الجديد لن يبلغ بأية حال ، حسب الارقام التي يوردها المعلقون وبرغم الفضيحة التي تبشر بها، مستوى عام ١٩٥٧ ، والولايات المتحدة هي ، في آن واحد ، أكبر منتج وأكبر مستورد للبترول في العالم. وخلال الحقبة التي كان يجيء خلالها الجزء الاكبر من البترول الخام الذي تبيعه الشركات الضخمة من التربة الامريكية ، ظل السعر مرتفعاً؛ وخلال الحرب العالمية الثانية ، تحولت الولايات المتحدة الى مستورد ، وبدأ الكارتل في تطبيق سياسة جديدة للاسعار : ظل السعر يهبط بانتظام ، إنعكاس غريب لـ «قوانين السوق»: سعر البترول يتدهور، رغم أن الطلب العالمي لايكف عن التزايد، بقدر ما تتضاعف المصانع، والسيارات، ومحطات توليد الطاقة، وثمة تناقض آخر: فرغم أن سعر البترول ينخفض، فإن سعر مواد الاحتراق الذي يدفعه المستهلكون يرتفع في كل مكان . وهناك اختلال شديد في التناسب بين سعر الخام وسعر المشتقات. كل هذه السلسلة من الامور العبيثة عقلانية تماماً؛ وما من ضرورة للجوء الى القوى الغيبية من أجل العثور على تفسير. السبب هو أن تجارة البترول في العالم الرأسمالي هي، كما رأينا في يد كارتل مطلق القدرة. وقد ولد الكارتل عام ١٩٢٨ ، في إحدى قلاع شمال اسكتلندا التي يحوطها الضباب، حتى

اتفقت ستاندارد أويل أف نيوجرسى ، وشل ، والانجلو – ايرانيان ، المسماه الان باسم برتييش بتروليوم British Petroleum ، على اقتسام الكوكب. وقد انضمت الى النواه التى تسير الكارتل فيما بعد ستاندارد أوف نيويورك ، وستاندارد أوف كاليفورنيا ، وجالف Gulf ، وتكساكو Texaco [٣٨]. وقد انقسمت ستاندارد أويل ، التى انشأها روكفللر Rockefeller عام ١٨٧٠ ، إلى خمس وثلاثين شركة عام ١٩٩١ ، بسبب تطبيق قانون شيرمان ضد التروستات؛ والاخت الكبرى ، فى أيامنا ، لعائلة ستاندارد العديدة الافراد هى شركة نيو جرسى. ومبيعاتها من البترول، مضافة الى مبيعات ستاندارد أوف نيويورك وأوف كاليفورنيا ، تبلغ نصف إجمالى مبيعات الكارتل الاجمالية فى أيامنا. ويبلغ من جحم الشركات البترولية لمجموعة روكفللر أنها تكسب مالا يقل عن ثلث مجموع الارباح التى تنتزعها الشركات الامريكية الشمالية من كل الانواع، من العالم كله. وشركة نيو جرسى، وهى شركة عابرة للقوميات من النوع النمطى، تحصل على غالبية أرباحها خارج الحدود؛ وأمريكا اللاتينية تقدم لها أرباحاً أكثر من الولا يات المتحدة وكندا معاً: فنسبة أرباحها، جنوبى نهر الريو برافو ، أعلى اربع مرات [٣٩]. ولقد أنتجت الشركات التابعة فى فنزويلا ، عام ١٩٥٧، أكثر من نصف الارباح التى جنتها ستاندارد أويل أوف نيوجرسى فى كل مكان، وفى نفس تلك السنة ، قدمت الشركات التابعة فى فنزويلا لشركة شل نصف أرباحها فى العالم كله [٤٠].

هذه الشركات العابرة للقوميات لاتنتمى الى الامم العديدة التى تعمل على اراضيها: فهى عابرة للقوميات، بالاحرى، بقدر ما تجذب، من أركان الارض الاربعة شلالات ضخمة من البترول والدولارات الى مراكز سلطة النظام الرأسمالى. وهى لاتحتاج، بالتأكيد، إلى تصدير رؤوس أموال من اجل تمويل توسع أعمالها؛ فالارباح المنتزعة من البلدان الفقيرة لا تتجه فى خط مستقيم الى المدن القليلة التى يقطنها غالبية حملة الاسهم فحسب، بل يعاد استثمارها جزئياً كذلك لتنشيط وتوسيع شبكة العمليات العالمية. وتتضمن بنية الكارتل إخضاع بلدان عديدة وإختراق حكوماتها العديدة؛ يمتص البترول رؤساء ودكتا توريين، ويزيد من حدّة التشوهات الهيكلية فى المجتمعات التى يُخضعها لخدمته. إن شركات البترول هى التى تقرر ، بقلم رصاص فوق خريطة العالم، ماهى المنا طق التى يجب أن تُستغل وما هى مناطق الاحتياطى، وهى التى تحدد الاسعار التى يجب أن يتقاضاها المنتجون ويدفعها المستهلكون. إن الثروة الطبيعية لفنزويلا وغيرها من البلدان الامريكية اللاتينية التى تملك بتروﻻً فى جوف أرضها، والتى هى أهداف للهجوم

والنهب المنظم ، قد تحولت الى الاداة الرئيسية لاستعبادها السياسى وإنحطاطها الاجتماعى. وهذه قصة طويلة من الانجازات واللعنات، وسوء السمعة والتحديات.

وكانت كوبا تقدم، بطرق فرعية، أرباحاً دسمة لستاندارد أويل أوف نيوجرسى. كانت شركة نيوجرسى تشترى البترول الخام من شركة كريول بتروليوم Creole Petroleum، الشركة التابعة لها فى فنزويلا، وتكرره وتوزعه فى الجزيرة، كل ذلك بالاسعار التى تناسبها تماماً فى كل مرحلة من المراحل. وفى اكتوبر عام ١٩٥٩، فى ذروة الفوران الثورى، رفعت وزارة الخارجية الامريكية مذكرة رسمية الى هافانا عبرت فيها عن قلقها على مستقبل الاستثمارات الامريكية الشمالية فى كوبا: كانت قد بدأت عمليات قصف طائرات «القرصنه» القادمة من الشمال ، وكانت العلاقات متوترة. وفى يناير عام ١٩٦٠، أعلن أيزنهاور تقليل حصه كوبا من السكر، وفى فبراير وقّع فيديل كاسترو إتفاقاً تجارياً مع الاتحاد السوفيتى لتباد ل السكر بالتبرول وغيره من المنتجات بأسعار جيدة بالنسبة لكوبا . ورفضت شركة نيوجرسى، وشل، وتكساكو تكرير البترول السوفيتى: وفى يوليو تدخلت الحكومة الكوبية وأممتهما دون أى تعويض . وبدأت الشركات الحصار بزعامة ستاندارد أويل أوف نيوجرسى. أضيفت مقاطعة الفنيين المؤهلين الى مقاطعة قطع الغيار الضرورية للآلات ومقاطعة السفن. كان النزاع اختباراً للسيادة[٤١]، خرجت منه كوبا منتصرة. ففى آن واحد، كفت عن أن تكون نجمة ضمن مجموعه النجوم فى علم الولايات المتحدة وعن أن تكون ترساً فى الدولاب العالمى لستاندارد أويل.

وقبل عشرين عاماً ، كانت المكسيك قد عانت من حظر دولى فرضته ستاندارد أويل أوف نيوجرسى ورويال داتش شل . ففيما بين عامين ١٩٣٩ و١٩٤٢ ، طرح الكارتل مقاطعة الصادرات المكسيكية من البترول والامدادات الضرورية للآبار ومصافى التكرير. فقد كان الرئيس لاثار وكارديناس قد أمم الشركيتن. وقد قام نيلسون روكفللر Nelson Rockefeller، الذى كان قد تخرج فى الاقتصاد عام ١٩٣٠ بأطروحة كتبها حول فضائل شركته ستاندارد أويل ، قام بزيارة المكسيك للتفاوض بشأن اتفاق ، لكن كارديناس لم يتراجع. أما ستاندارد وشل اللتان كانتا تقتسمان الاراضى المكسيكية ، الاولى تأخذ الشمال والثانية الجنوب ، فلم تكتفيا برفض قبول قرار المحكمة العليا تطبيقاً لقوانين العمل المكسيكية، بل دمرّتا المنابع الشهيرة فى فاخادى أورو Faja De Oro بسرعة رهيبة، وأجبرتا المكسيكيين على أن يدفعوا ، مقابل بترولهم ذاته ، أسعاراً

أعلى من سعر هذا البترول نفسة فى الولايات المتحدة وفى أوربا [٤٢]. وخلال اشهر قليلة، كانت حمّى التصدير قد أنضبت بوحشية آباراً كثيرة كان يمكنها أن تظل تنتج لمدة ثلاثين أو أربعين عاماً. كتب أوكونور يقول: «إنتزعوا من المكسيك أغنى احتياطياتها، ولم يتركوا لها سوى مجموعه من معامل التكرير العتيقة، والحقول المنهكة، وشحاذى مدينة تامبيكو Tampico وذكريات مرّة». وخلال أقل من عشرين عاماً، كان الانتاج قد إنخفض الى الخمس. كان من نصيب المكسيك صناعة باليه ، موجهة نحو الطلب الاجنبى، وأربعة عشر ألف عامل: مضى الفنيون، وأختفت حتى وسائل النقل. حوّل كارديناس استعادة البترول الى قضية قومية كبرى، وتخطى الازمة بقوة الخيال والشجاعة ، وشركة بيميكس Pemex، البترول المكسيكية، وهى الشركة التى انشئت عام ١٩٣٨ لتتولى كل الانتاج والسوق، هى اليوم اكبر شركة غير أجنبية فى كل امريكا اللاتينية. ومن الارباح التى تنتجها بيميكس، دفعت الحكومة المكسيكية تعويضات ضخمة للشركات ، فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٦٢، رغم أن «المكسيك» ، كما يقول خسوس سيلبا هر تسوج Jesus Silva Herzog، «ليست هى المدينة لتلك الشركات القرصانة ، بل إنها هى الدائن الشرعى» [٤٣]. وفى عام ١٩٤٩ ، استخدمت ستاندارد أويل الفيتو (حق النقض) ضد قرض – كانت الولايات المتحدة ستقدمة لشركة بيميكس، وبعد سنوات طويلة، وبعد أن إندملت الجروح بفعل التعويضات السخية، مرت بيميكس بتجربة مماثلة مع البنك الدولى للتنمية.

كانت أورجواى هى البلد الذى أقام أول معمل تكرير حكومى فى امريكا اللاتينية. وقد ولدت Ancap، الادارة القومية للمحروقات، والكحول، والبورتلاند، عام ١٩٣١، وكان من مهامها الرئيسية تكرير وبيع البترول الخام. وكانت رداً قومياً على تاريخ طويل من انتهاكات التروست فى منطقة الرّيودى لابلاتا. وبشكل موازٍ، تعاقدت الدولة على شراء بترول رخيص من الاتحاد السوفيتى. وعلى الفور، موّل الكارتل حملة غاضبة لتحقير الشركة الصناعية الحكومية لاورجواى وبدأت مهمة الابتزاز والتهديد. جرى تأكيد أن أورجواى لن تجد من يبيعها الآلات وأنها ستبقى دون بترول خام ، وأن الدولة اسوأ مدير، ولن تستطيع تولى تجارة بهذا التعقيد. وكان انقلاب القصر فى مارس عام ١٩٣٣ يفوح برائحة البترول: فقد الفت دكتاتورية جابرييل تيرا Gabriel Terra حق الـ ANCAP (الادارة القومية للمحروقات، والكحول ، والبورتلاند) فى احتكار استيراد المحروقات، وفى يناير عام ١٩٣٨ وقعّت الاتفاقيات السرية مع الكارتل، تلك الاتفاقيات المشئومة التى ظل الجمهور يجهلها لمدة ربع قرن ومازالت سارية حتى الآن. وحسب موادّها، فإن

البلاد ملزمة بشراء أربعين بالمائة من البترول الخام دون طرح عطاءات وحيث تحددلها ستاندارد أويل، وشل، وأطلانتيك Atlantic، وتكساكو، وذلك بالاسعار التى يحددها الكارتل. وعلاوة على ذلك ، فإن الدولة، التى تحتفظ بإحتكار التكرير، تدفع كل نفقات الشركات ، بما فى ذلك الدعاية ، والاجور المتميزة ، والاثاث الفاخر فى مكاتبها[٤٤]. يتغنى التليفزيون قائلاً، هذا هو التقدم ، ولا يكلف القصف الدعائى ستاندارد أويل سنتيماً واحداً. ويتولى محامى بنك الجمهورية مهمة العلاقات العامه لستاندارد أويل: وتدفع الدولة له كلاً المرتبين.

هناك، حوالى عام ١٩٣٩، كان معمل تكرير ANCAP يشمخ، ظافراً، بابراجه التى يتصاعد منها اللهب: كانت الشركة قد شوهت بشدة بعد مولدها بقليل، كما رأينا، لكنها كانت لاتزال تمثل مثالاً للتحدى الظافر ضد ضغوط الكارتل. وقد زار مونتفيديو رئيس المجلس القومى لبترول البرازيل، الجنرال هورتا باربوزا Horta Barbosa، وإمتلأ حماساً بالتجربة: كان معمل تكرير أورجواى قد دفع كل نفقات انشائه تقريباً خلال العام الاول من العمل. وبفضل جهود الجنرال باربوزا، علاوة على حماس غيره من العسكريين الوطنيين، استطاعت بتروبراز Petrobras، الشركة الحكومية البرازيلية، أن تبدأ عملياتها عام ١٩٥٣ استجابة لصيحة! O Pertroleo'e Nosso (البترول لنا !). وحالياً، نجد أن بتروبراز هى أكبر شركة فى البرازيل[٤٥]. وهى تنقب عن، وتستخرج، وتكرر البترول البرازيلى. لكن بتروبراز شُوِّهت كذلك. إنتزع منها الكارتل مصدرين كبيرين للربح: الاول، هو توزيع البنزين، والزيوت، والكيروسين، والسوائل الاخرى، وهى تجارة رائعه تديرها شل ، وإسو Esso، وأطلانتيك بالتليفون دون صعوبات كبيرة وبنتائج بلغ من جودتها أن هذا القطاع، بعد صناعة السيارات، هو أقوى بنود الاستثمار الامريكى الشمالى فى البرازيل؛ والثانى، هو صناعة البتروكيماويات، النبع السخى للارباح، التى خرجت من التأميم ، منذ سنوات قليلة ، بفضل دكتاتورية الماريشال كاستلو برانكو. ومؤخراً، شن الكارتل حملة صاخبة لسلب احتكار التكرير من بتروبراز. ويذكّر المدافعون عن بتروبراز بأن المبادرة الخاصة، التى كان المجال مفتوحاً أمامها، لم تهتم بالبترول البرازيلى قبل عام ١٩٥٣[٤٦]. ويحاولون أن يعيدوا الى ذاكرة الجمهور الضعيفة فاصلاً عظيم الدلالة على النوايا الحسنة للاحتكارات. فى نوفمبر عام ١٩٦٠، أوكلت بتروبراز الى اثنين من الفنيين البرازيليين قيادة مراجعة شاملة للحقول الرسوبية فى البلاد. ونتيجة لتقاريرهما تقدمت ولاية سرجيبى Sergipe فى الشمال الشرقى الى الطليعة فى الانتاج البترولى،

وقبل ذلك بقليل، فى أغسطس، كان الفنى الامريكى الشمالى والتر لينك Walter Link، الذى كان الجيولوجى الاول لدى ستاندارد أويل أوف نيوجرسى، قد تلقّى من الحكومة البرازيلية نصف مليون دولار مقابل جبل من الخرائط وتقرير مسهب حدد الطبقة الرسوبية لسرجيبى بأنها «غير مؤثرة»: حتى ذلك الحين كانت تعتبر من المرتبة «ب»، لكن لينك خفضها الى المرتبة «جـ». وبعد ذلك عُرف أنها من المرتبة (أ)[٤٧]. وحسب ما يقول أوكونور، فقد عمل لينك طول الوقت بإعتباره عميلاً لستاندارد، مصمماً مقدماً على الا يجد بترولاً حتى تظل البرازيل معتمدةً على وارداتها من الشركة التابعه لروكفلر فى فنزويلا.

كذلك تؤكد الشركات الاجنبية وأصداؤها المحلية فى الارجنتين على الدوام أن باطن الارض يحتوى على قليل من البترول ، رغم أن أبحاث الفنيين فى YPF ، حقول البترول الحكومية ، قد اشارت بكل تأكيد الى أن نحو نصف الاراضى القومية تحتوى على بترول ، وان هناك كذلك بترول وفير فى الرصيف القارى لساحل الاطلنطى ، وفى كل مرة يصبح فيها من الموضة الحديث عن فقر التربة الارجنتينية، توقع الحكومة امتيازاً جديداً لصالح احد اعضاء الكارتل. وقد كانت الشركة الحكومية، YPF، ضحية لتخريب متصل ومنهجى، من مولدها حتى الآن. كانت الارجنتين، حتى سنوات قريبة، واحداً من أخر المواقع التاريخية للنزاع الامبريالى بين انجلترا ، فى افولها اليائس، والولايات المتحدة الصاعدة . ولم تمنع اتفاقيات الكارتل شل وستاندارد أويل من التنازع حول بترول هذا البلد بوسائل عنيفة أحياناً: وثمة سلسلة من المصادفات البليغة فى الانقلابات التى جرت على طول الاربعين سنة الاخيرة. كان الكونجرس الارجنتينى يتأهب للتصويت على قانون تأميم البترول، فى ٦ سبتمبر ١٩٣٠، حين أسقط انقلاب خوسية فيليكس أوريبورو Jose Felix Uriburu الزعيم الوطنى ايبوليتو ايرجوين Hipolito Yrigoyen. وسقطت حكومة رامون كاستيو Ramon Castillo فى يونيو عام ١٩٤٣، حين كانت بسبيل التوقيع على اتفاقية تنشيط استخراج البترول من جانب رؤوس الاموال الامريكية الشمالية. وفى سبتمبر عام ١٩٥٥، توجه خوان دومينجو بيرون الى المنفى حين كان الكونجرس على وشك إقرار امتياز لشركة كاليفورنيا أويل كومبانى. وقد أثار أرتورو فروندیثى Arturo Frondizi أزمات عسكرية عديدة وحادة، فى القوات الثلاث، باعلانه الدعوه الى طرح عطاءات تقدم كل باطن أرض البلاد للشركات المهتمة باستخراج البترول: وفى أغسطس عام ١٩٥٩ تم إعلان التخلى عن العطاءات. وإنبعث الامر على

الفور ثم اصبح معدوماً فى اكتوبر عام ١٩٦٠. وقد حقق فروندیشی عدة امتیازات لصالح شركات الكارتل الامريكية الشمالية، ولم تكن المصالح البريطانية – الحاسمة فى البحرية وفى القسم «الملون» من الجيش – غريبة عن سقوطة فى ١٩٦٢. وقد الغى ارتورو إيبا Arturo Illia الامتيازات وأسقط عام ١٩٦٦؛ وفى العام التالى، أصدر خوان كارلوس أو نجانيا Juan Carlos Ongania قانوناً لمركبات الهيدروكربون حبذ المصالح الامريكية الشمالية فى النزاع الداخلى.

لم يثر البترول انقلابات فى امريكا اللاتينية فحسب. فقد أثار كذلك حرباً، هى حرب التشاكو Chaco (١٩٣٢ – ١٩٣٥)، بين افقر شعبين فى امريكا الجنوبية: «حرب الجنوب العراه»، هكذا وصف رينيه ثاباليتا Rene Zavaleta المنبحة الوحشية المتبادلة بين بوليفيا والباراجواى [٤٨]. فى ٣٠ مايو عام ١٩٣٤ هز سناتور لويزيانا، هوى لونج Huey Long الولايات المتحدة بخطاب عنيف كشف فيه أن ستاندارد أويل أوف نيوجرسى قد أثارت النزاع وأنها موّلت الجيش البوليفى حتى تستولى، بواسطته، على التشاكو الباراجوايى، الضرورى لمد خط أنابيب من بوليفيا حتى الريو، والذى يفترض، بالاضافة الى ذلك، إنه غنى بالبترول: «لقد مضى هؤلاء المجرومون الى هناك واستأجروا قتلتهم». هكذا اكد [٤٩]. وسار رجال الباراجواى الى المذبح، بدورهم، تدفعهم شركة شل: وكلما تقدموا نحو الشمال، كان الجنود يكتشفون الابار التى حفرتها ستاندارد فى منطقة النزاع. كان نزاعاً بين شركتين، عدوتين وفى نفس الوقت شريكتين فى اطار الكارتل، لكنهما لم تكونا هما اللتان تذرفان دمهما، وأخيراً، كسبت الباراجواى الحرب لكنها خسرت السلام، وقد ترأس سبرويل برادن Spruille Braden، قوّاد ستاندارد أويل الشهير، لجنة المفاوضات التى حفظت لبوليفيا، وإروكفللر، عدة الاف كيلو متر مربع كان يطالب بها الباراجوايون.

وعلى مقربة شديدة من آخر مواقع تلك المعارك تقع آبار البترول والحقول الواسعة للغاز الطبيعى التى فقدتها شركة جالف أويل كومبانى، شركة عائلة ميللون Mellon، فى بوليفيا فى اكتوبر عام ١٩٦٩، وقد صاح الجنرال الفريدو أوباندو Alfredo Ovando عند اعلان التأميم من شرفات قصر كيمادو Quemado قائلاً: «لقد انتهى بالنسبة للبوليفيين زمن الاحتقار»، وقبل ذلك بخمسة عشر يوماً، حين لم يكن قد تولى السلطة بعد، كان أوباندو قد أقسم أن يؤمم شركة جالف، أمام مجموعة من المثقفين الوطنيين، كان قد حرّر المرسوم، ووقعه، وإحتفظ به، دون تاريخ، فى ظرف. وقبل ذلك بخمسة شهور، فى

منطقة كانيادن دل أركى Canadon del Arque، كانت الطائرة الهليكوبتر للجنرال رينيه بارينتوس قد اصطدمت باسلاك التلغراف وتحطمت. لم يكن الخيال بقادر على أن يخترع ميْتة كاملة بهذا الشكل، كانت الهليكوبتر هدية شخصية من جالف أويل كومبانى، بينما يخص التلغراف الدولة، كما هو معروف. واحترقت مع بارينتوس حقيبتان مليئتان بالنقود كان يحملهما لتوزيعهما، ورقة عملة إثر ورقة ، على الفلاحين، كما أخذت بعض المدافع الرشاشة التى لم تحترق تماماً فى اطلاق مطر من الرصاصات حول الهليكوبتر المحترقة، بحيث لم يستطع أحد الاقتراب لانقاذ الدكتاتور بينما يحترق حياً.

وعلاوة على اصدار مرسوم التأميم، الغى أو باندو قانون البترول، المسمىّ بقانون دافنبورت تكريماً للمحامى الذى حرّره بالانجليزية. ومن أجل وضع هذا القانون، كانت بوليفيا، قد حصلت، عام ١٩٥٦، على قرض من الولايات المتحدة، وبالمقابل، فإن الاكسيمبانك Eximbank، بنك نيويورك الخاص، والبنك الدولى كانا يردّان دائماً بالرفض على طلبات القروض من أجل تطوير الـ YPF، الشركة البترولية الحكومية. فقد كانت الحكومة الامريكية الشمالية تتبنى دائماً قضية الشركات البترولية الخاصة[٥٠]. وطبقاً للقانون، تلقت جالف، فى ذلك الحين، ولمدة أربعين عاماً، امتياز استغلال أغنى حقول البترول فى كل البلاد. وحدد القانون مشاركة مضحكة للدولة فى أرباح الشركات: بنسبة لاتكاد تبلغ أحد عشر بالمائة، ولسنوات طويلة، جعلت الدولة نفسها شريكة فى نفقات الشركة صاحبة الامتياز ، لكنها لم تكن تملك أى سيطرة على هذه النفقات، ووصل الامر الى موقف متطرف بشأن الهبات: فقد كانت كل المخاطر من نصيب شركة YPFB، بينما لا تتحمل جالف أية مخاطر. وفى خطاب النوايا الذى وقّعته جالف أواخر عام ١٩٦٦، خلال دكتاتورية بارينتوس ، تقرر فعلياً، أنه فى العمليات المشتركة مع YPFB، ستستعيد شركة جالف كل رؤوس أموالها المستثمرة فى استكشاف ايه منطقة، اذا لم يتم العثور على بترول. واذا ظهر البترول، تتم استعادة النفقات من خلال الاستغلال التالى، لكنها ستقيد من البداية خصماً من حساب الشركة الحكومية. ويكون من حق جالف أن تحدد هذه النفقات حسب ما يناسبها[٥١]. وفى نفس خطاب النوايا هذا ، نسبت جالف لنفسها، بكل هدوء ، ملكية منابع الغاز، التى لم تسلم لها ابداً. ويحتوى باطن الأرض البوليفى على غاز أكثر من البترول. قام الجنرال بارينتوس بحركة لصرف الانتباه: وكانت كافية. جرة قلم تحدّد مصير مخزون الطاقة الرئيسى لبوليفيا. لكن المهمة لم تكن قد اكتملت.

قبل عام من مصادرة الجنرال الفريدو أوباندو لشركة جالف فى بوليفيا، كان جنرال وطنى آخر، هو خوان بيلاسكو البارادو Juan Velasco Alvarado، قد أمم حقول ومصافى شركة انترناشيونال بتروليوم كومبانى International Petroleum Co.، التابعة لستاندارد أويل أوف نيوجرسى، فى البيرو. كان بيلاسكو قد استولى على السلطة على رأس طغمة عسكرية، وعلى قمة موجه أثارتها فضيحة سياسية ضخمة: كانت حكومة فرناندو بيلاوندى تيرى قد فقدت الصفحة الاخيرة من اتفاقية تالارا، المعقودة بين الدولة وانترناشيونال بتروليوم كومبانى (IPC). هذه الصفحة التى تبخرت بصورة غامضة، الصفحة الحادية عشرة، كانت تتضمن ضمان الحد الادنى للسعر الذى يجب أن تدفعة الشركة الامريكية الشمالية مقابل البترول الخام القومى فى معامل تكريرها. ولم تنته الفضيحة عند هذا الحد، ففى نفس الوقت، تكشّف أن فرع ستاندارد أويل قد احتالت على بيرو بأكثر من ألف مليون دولار خلال نصف قرن، وذلك من خلال الضرائب والالتزامات التى تهربت منها ومن خلال اشكال متعددة أخرى من التزوير والفساد. وكان مدير انترناشيونال بتروليوم كومبانى (IPC) قد إجتمع مع الرئيس بيلاوندى فى ستين مناسبة قبل التوصل الى الاتفاق الذى أثار التمرد العسكرى؛ وخلال عامين، وبينما المفاوضات مع الشركة تتقدم، وتقطع وتبدأ من جديد، أوقفت وزارة الخارجية الامريكية كل أنواع المساعدة لبيرو[٥٢]. ولم يبق فعلياً وقت لاستئناف المساعدة، لأن الاستسلام حدد مصير الرئيس المدان. وحين قدمت شركة روكفللر احتجاجاً أمام المحكمة التشريعية البيروانية، كان الناس يلقون بالدراهم على وجوه محاميها.

أن امريكا اللاتينية صندوق مفاجآت، اذ لا تنضب ابداً قدرة هذا الاقليم المعّذب من العالم على الادهاش، ففى جبال الاندين، عاودت القومية العسكرية صعودها بقوة، مثل نهر دفين مختف من زمن طويل. ونفس الجنرالات الذين ينتهجون اليوم، فى عملية متناقضة، سياسة إصلاح وإثبات ذات وطنى، هم الذين صفوا مقاتلى العصابات قبل قليل. هكذا اعاد المنتصرون أنفسهم، رفع كثير من رايات من سقطوا. وكان العسكريون البيروانيون قد قصفوا بالنابالم بعض مناطق مقاتلى العصابات، عام ١٩٦٥، وكانت انترناشيول بتروليوم كومبانى، فرع ستاندارد أويل أوف نيوجرسى، هى التى زودتهم بالبنزين والخبرة الفنية من أجل تصنيع القنابل فى القاعدة العسكرية فى لاس بالماس Las Palmas، بالقرب من ليما[٥٣].

■ بحيرة ماراكايبو فى منقار الطيور الجارحة المعدنية الضخمة

رغم أن مساهمة فنزويلا فى السوق العالمية قد إنخفضت الى النصف فى الستينات، فإن فنزويلا مازالت، عام ١٩٧٠، أكبر مصدّر للبترول. ومن فنزويلا يأتى نحو نصف الارباح التى تجنيها رؤوس الاموال الامريكية الشمالية من كل امريكا اللاتينية. أنها واحدة من أغنى بلدان الكوكب، وايضاً واحدة من افقرها وواحدة من اعنفها. إنها تحقق أعلى دخل للفرد فى أمريكا اللاتينية، وتمتلك أكمل وأحدث شبكة طرق: وبالنسبة لعدد السكان، ليس هناك بلد آخر فى العالم يشرب كل هذه الكميات من الويسكى الاسكتلندى. والاحتياطيات من البترول، ومن الغاز والحديد التى تقدمها تربتها للاستغلال الفورى يمكنها أن تضاعف عشر مرات ثروة كل مواطن فنزويلى. وفى أراضيها الشاسعه البكر يمكن استيعاب كل سكان المانيا أو انجلترا. وقد استخرجت الحفارات، خلال نصف قرن، ارباحاً بترولية هائلة بحيث تعادل ضعف موارد خطة مارشال لتعمير أوربا؛ ومنذ تفجرت أول بئر بترولية بشلالات من البترول، تضاعف عدد السكان ثلاث مرات وتضاعفت الميزانية القومية مائة مرة، لكن جزءاً كبيراً من السكان، الذين يتنازعون فضلات الاقلّية المسيطرة ، لايتغذى أفضل مما كان يفعل خلال الحقبة التى كانت البلاد تعتمد فيها على الكاكاو والبن (٥٤).

وقد كبرت كاراكاس، العاصمة، سبع مرات خلال ثلاثين عاماً؛ المدينة البطريركيه ذات الافنية الرطبة، والميدان الرئيسى والكاتدرائية الصامتة أخذت تنبت فيها ناطحات السحاب كلما نمت ابراج البترول فى بحيرة ماراكايبو Maracaibo. وهى الان كابوس نو هواء مكيف، كابوس صاخب أسرع من الصوت، أحد مراكز ثقافة البترول التى تفضل الاستهلاك على الخلق وتضاعف الاحتياجات المصطنعه لكى تخفى الاحتياجات الحقيقة. تحب كاراكاس المنتجات النايلون والاغذية المحفوظة، ولا تسير إطلاقاً، بل تتحرك فقط بالسيارة، وقد سممت هواء السهل النقى بغازات المحركات؛ وكاراكاس تنام بصعوبة، اذا لا يمكن اطفاء نهم الكسب والشراء، الاستهلاك والانفاق، نهم تملك كل شئ. ومن منحدرات التلال، يتأمل اكثر من نصف مليون من المنسيين، من عششهم الصفيح المكدسة بالقمامة، يتأملون تبديد الاخرين. وتبرق الالاف والآلاف من السيارات من آخر

طراز فى شوارع العاصمة الذهبية. وعشية الاعياد، تصل السفن الى ميناء لاجوايرا La Guaira محملة بالشمبانيا الفرنسية، والويسكى الاسكتلندى، وغابات من اشجار عيد الميلاد تأتى من كندا، بينما نصف اطفال وشباب فنزويلا حتى الان، عام ١٩٧٠، وحسب الاحصاءات، يظلون خارج قاعات التعليم .

تنتج فنزويلا كل يوم ثلاثة ملايين ونصف مليون برميل من البترول من أجل ادارة الآلة الصناعية للعالم الرأسمالى، لكن الفروع العديدة لستاندارد أويل، وشل، وجالف، وتكساكو لا تستغل أربعة أخماس مناطق امتيازاتها، التى ما زالت احتياطيات لم تمس، ولا يعود الى البلاد ابداً اكثر من نصف قيمة الصادرات. وتشيد كراسات دعاية شركة كريول (ستاندارد أويل) بأريحية الشركة فى فنزويلا، بنفس التعبيرات التى كانت الشركة الملكية الجيبوتكوانية Real Compania Guipuzcoana تستخدمها لتنسب لنفسها الفضائل، فى أواسط القرن الثامن عشر؛ والارباح المنتزعه من هذه البقرة الحلوب الضخمة لا يمكن أن تقارن، بالنسبة لرأس المال المستثمر، الا مع الارباح التى كان يجنيها فى الماضى تجار العبيد والقراصنة. فما من بلد انتج هذا القدر للرأسمالية العالمية فى هذا الزمن القصير: فقد استنزفت فنزويلا ثروة تتجاوز، حسب ما يقول رانخل، الثروة التى اغتصبها الإسبان من بوتوسى أو الانجليز من الهند. وقد كشف المؤتمر القومى الاول للاقتصاديين أن الارباح الحقيقية للشركات البترولية فى فنزويلا قد ارتفعت، عام ١٩٦١، إلى ٣٨ فى المائة، وإلى ٤٨ فى المائة عام ١٩٦٢، رغم أن نسبة الارباح التى تعلنها الشركات فى ميزانياتها كانت ١٥ و ١٧ فى المائة على التوالى. ويدخل الفرق فى حساب سحر المحاسبة والتحويلات الخفية. فى الآلة المعقدة لتجارة البترول، بأنظمتها المتعددة والمتزامنة للاسعار، يكون من الصعوبة بمكان تقدير حجم المكاسب التى تختفى وراء الانخفاض المصطنع فى سعر البترول الخام، الذى يتدفق، من بئر البترول وحتى مضخة البنزين، فى نفس الشرايين على الدوام، وخلف الارتفاع المصطنع فى نفقات الانتاج، حيث تسجل مرتبات خرافية ونفقات دعاية شديدة التضخم. ومن المؤكد، حسب الارقام الرسمية، أن فنزويلا لم تسجل، خلال العقد الاخير، دخول استثمارات خارجية جديدة ، بل سجلت على العكس ، نقصاً منتظماً فى الاستثمارات. تعانى فنزويلا من نزف اكثر من ستمائة مليون دولار سنوياً ، معترف بها باعتبارها «أرباحاً لرأس المال الاجنبى». والاستثمارات الجديدة الوحيدة هى التى تأتى من الارباح التى تقدمها البلاد. وفى هذه الاثناء تنخفض نفقات إستخراج البترول

بمنحنى رأسى، لأن الشركات تستخدم أيدى عاملة أقل باستمرار. وفيما بين عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٢ فقط انخفض عدد العمال بأكثر من عشرة آلاف عامل: وظل فى العمل مايزيد قليلاً على ثلاثين ألفاً، وفى اواخر ١٩٧٠ أصبح البترول لا يستخدم اكثر من ثلاثة وعشرين الف عامل. وبالمقابل ، أرتفع الانتاج بدرجة كبيرة خلال العقد الاخير.

ونتيجة للبطالة المتزايدة، زادت خدة ازمة حقول البترول فى بحيرة ماراكايبو. فالبحيرة غابة من الابراج، وداخل الدعامات الحديدية المتقاطعة، يولد الدوران الدقيق لانابيب الحفر، منذ نصف قرن، كل رفاهية وكل بؤس فنزويلا. وبجوار انابيب الحفر تحترق شعلات اللهب ، لتحرق دون عقاب الغاز الطبيعى الذى تمنح البلاد نفسها ترف اهدائة الى الجو. وتوجد انابيب حفر حتى فى قلب البيوت أو على نواصى الشوارع فى المدن التى تفتحت كالمطر، مثل البترول، على شواطئ البحيرة: هناك يصبغ البترول باللون الاسود الشوارع والملابس، والاغذية والجدران، وحتى محترفات الحب تحملن اسماء مستعارة من البترول: مثل "شبكة الأنابيب" أو "الصمامات الأربعة"، "الونش" أو "القلاب". واسعار الملابس والطعام هنا أعلى منها فى كاراكاس. إن هذه القرى الحديثة، الحزينة منذ مولدها والمتسارعه رغم ذلك ببهجة الربح السهل، قد اكتشفت بالفعل انه لا مستقبل امامها. فحين تموت الابار، يتحول البقاء على قيد الحياه الى عمل من أعمال المعجزات: تبقى هياكل البيوت، والمياه المزيتة بسم يقتل الاسماك ويلعق المناطق المهجورة. كذلك يمسك الشقاء بتلابيب المدن التى تعيش على استغلال الابار العاملة، بسبب عمليات الفصل الجماعى والميكنه المتزايدة. «من هنا مرّ البترول من فوق رؤوسنا»، هكذا قال أحد سكان لاجونياس Lagunillas عام ١٩٦٦. وكابيماس Cabimas التى كانت على مدى نصف قرن اكبر مصدر للبترول فى فنزويلا، والتى امدت كاراكاس والعالم كثيراً من الرفاهية، ليس فيها حتى مجارى. وفيها بالكاد زوج من الشوارع المُسفلتة.

كانت النشوه قد انبعثت من سنوات طويلة. فحوالى عام ١٩١٧، كان البترول يوجد، فى فنزويلا، جنباً الى جنب مع اللاتيفونديات التقليدية، تلك الحقول الشاسعه غير المسكونه والاراضى الخاملة حيث يراقب اصحاب الضياع انتاج قوة العمل بجلد الاجراء ودفنهم احياء حتى الخصر. وفى أواخر عام ١٩٢٢، تدفق بئر لاروسا La Rosa، الذى كان يصب مائة الف برميل يومياً، وهبّت العاصفة البترولية. نبتت الحفارات والروافع فى بحيرة ماراكايبو، التى غزتها فجاه الآلات الغريبة والرجال ذوى الخوذات الفلينية؛ وتدفّق

الفلاحون واستقروا فوق الارض التى تغلى، بين الالواح وعلب الزيت، ليقدموا اذرعتهم للبترول. ورنت لهجات أو كلا هو ما وتكساس لاول مرة فى السهول والغابات، حتى فى أقصى القرى. وفى لحظة ظهرت ثلاث وسبعون شركة، وكان ملك كرنفال الامتيازات هو الدكتاتور خوان بيثنتى جومث Juan Vicente Gómez، وهو مربى ماشية من جبال الانديز شغل سنوات حكمة السبع والعشرين (١٩٠٨ - ١٩٣٥) فى خلق الاعمال والابناء. وبينما تدفقت الشلالات السوداء زاخرة، كان جومث يخرج من جيوبه المتلئة أسهماً بترولية يكافئ بها اصدقاءه وأقاربه وحاشيته، والطبيب الذى يعتنى له بالبروستاتا، والجنرالات الذين يعتنون بحماية ظهره، والشعراء الذين يتغنون بأمجاده، وكبير الاساقفة الذى منحه تراخيص استثنائية لكى يأكل اللحم ايام الجمعة الحزينة. وكست القوى الكبرى صدر جومث بأوسمة برّاقة: فقد كان من الضرورى تغذية السيارات التى تغزو طرق العالم. وكان اصدقاء الدكتاتور الاثيرون يبيعون الاسهم لشل أو لستاندارد أويل أو جالف؛ وأطلق تبادل النفوذ والرشاوى المضاربة وفقر التربة. جرى إجلاء المجتمعات الهندية عن اراضيها وفقد كثير من عائلات المزارعين ممتلكاتهم، لحسن الحظ أو لسوئه. وقد اعدّ قانون البترول الصادر عام ١٩٢٢ ممثلو ثلاث من شركات الولايات المتحدة. كانت حقول البترول مطوقة وبها شرطة خاصة. ويمنع الدخول لمن لا يحملون بطاقة العمل فى الشركات؛ وكان المرور ممنوعاً حتى فى الطرق التى يعبرها البترول الى الموانى. وحين مات جومث، عام ١٩٣٥، قطع عمال البترول الاسلاك الشائكة التى تحيط بالحقول وأعلنوا الاضراب.

وفى عام ١٩٤٨، مع سقوط حكومة روموالو جاييجوس Romulo Gallegos، إغلقت دورة الاصلاح التى بدأت قبل ثلاث سنوات ، وسرعان ما قلّص الجنرالات المنتصرون إشراف الدولة على البترول الذى تستخرجة فروع الكارتل. وتحولت تخفيضات الضرائب، عام ١٩٥٤، إلى أكثر من ثلاثمائة مليون دولار من الارباح الاضافية لشركة ستاندارد أويل. فى عام ١٩٥٣، كان أحد رجال الاعمال بالولايات المتحدة قد أعلن فى كاراكاس: « هنا تتمتع بحرية أن تفعل بنقودك ما يحلوك، وبالنسبة لى، تساوى هذه الحرية أكثر من كل الحريات السياسية والمدنية مجتمعة »[٥٥]. وحين أسقط الدكتاتور ماركوس بيريث خيمينث Marcos Perezjimenez عام ١٩٥٨، كانت فنزويلا بئر بترول كبيرة تحيطها السجون وغرف التعذيب، وتستورد كل شئ من الولايات المتحدة: السيارات والثلاجات، واللبن المركز، والبيض، والخس، والقوانين والمراسيم. وفى عام ١٩٥٧، أعلنت كبرى

شركات روكفلر، وهى شركة كريول، أرباحاً كادت تبلغ نصف استثماراتها الاجمالية. وقد رفعت العصبة الثورية للحكومة الضرائب على الدخل المفروضة على الشركات الكبرى، من ٢٥ إلى ٤٥ بالمائة. ورداً على ذلك، فرض الكارتل خفضاً فورياً لسعر البترول الفنزويلى وبدأ طرد العمال بالجملة. وبلغ من انخفاض السعر، أنه مرغم زيادة الضرائب وزيادة حجم البترول المصدّر، عام ١٩٥٨، جنت الدولة دخلاً يقل عن العام السابق بستين مليون دولار.

ولم تؤمم الحكومات التالية الصناعية البترولية، لكنها كذلك لم تقدم، حتى عام ١٩٧٠، إمتيازات جديدة للشركات الاجنبية لإستخراج الذهب الاسود. وفى هذه الاثناء، سارع الكارتل من انتاج حقوله فى الشرق الادنى وفى كندا؛ وفى فنزويلا توقف فعلياً استكشاف آبار جديدة، وتجمد التصدير. وفقدت سياسة عدم منح امتيازات جديدة معناها بقدر ما عجزت شركة البترول الفنزويلية، الجهاز الحكومى، عن تولّى المسئولية الشاغرة. وبالمقابل، إكتفت الشركة الحكومية بحفر بضعة آبار قليلة هنا وهناك، مؤكدة أن وظيفتها لا تتعدى تلك التى أوكلها اليها الرئيس روموللو بيتانكور Romulo Betancourt: «عدم بلوغ حجم الشركة الضخمة، بل القيام بدور الوسيط فى المفاوضات بشأن الصيغة الجديدة للامتيازات». ولم توضع الصيغة الجديدة موضع التطبيق، رغم الاعلان عنها عدة مرات.

وفى نفس الوقت فإن الدفعة الصناعية التى اكتسبت شكلاً وقوة منذ نحو عقدين من الزمان قد اخذت تكشف عن اعراض واضحة للنضوب، وتحيا عجزاً معروفاً تماماً فى امريكا اللاتينية: فالسوق الداخلية، المحدودة بسبب فقر الاغلبية، ليست قادرة على المحافظة على التطور التصنيعى ابعد من مدى معين. ومن ناحية اخرى، بقى الاصلاح الزراعى، الذى استهلته حكومة العمل الديمقراطى، بقى قبل منتصف الطريق الذى وعد بأن يقطعه، فى وعود خالقيه. وتشترى فنزويلا من الخارج، ومن الولايات المتحدة بالدرجة الاولى، جزءاً كبيراً من الاغذية التى تستهلكها. فالطبق التقليدى، مثلاً، وهو اللوبية، يأتى بكميات كبيرة من الشمال، فى اكياس تلمع عليها كلمة "Beans" بالانجليزية.

إن سلبادور جارمنديا Savador Garmendia، الروائى الذى اعاد ابتكار الجحيم الجاهز الصنع لكل ثقافة الغزو هذه، ثقافة البترول، قد كتب لى خطاباً، فى منتصف عام ١٩٦٩ يقول فيه: «هل رأيت حفّاراً، ذلك الجهاز الذى يستخرج البترول الخام؟ إن له شكل طائر أسود ضخم تصعد رأسه المدببة وتهبط بتثاقل، ليلا ونهاراً، دون أن تتوقف

لحظة واحدة: انه الطير الجارح الوحيد الذى لا يأكل برازاً. ماذا سيحدث حين نسمع الضوضاء المميزة لانبوبة المص حين ينفد السائل؟ إن الافتتاحية الموسيقية الغريبة قد بدأت تسمع بالفعل فى بحيرة ماراكايبو، حيث نبتت بين عشية وضحاها قرى رائعه بها دور للسينما، وسوبر ماركت، ومراقص، وأوكار عاهرات وقمار، وحيث لم تكن للنقود قيمة. منذ وقت قصير قمت بجولة هناك وأحسست بمخلب فى معدتى. فرائحة الموت والخردة اقوى من رائحة الزيت. القرى شبه مهجورة، متآكلة، متقرحة بالخراب، والشوارع مليئة بالوحل، والمتاجر انقاض. وهناك غواص قديم لدى الشركات يغوص يومياً، مزوداً بمنشار زخرفة، ليقطع اجزاء من شبكات المواسير المهجورة ويبيعها كحديد خردة. وقد بدأ الناس فى الحديث عن الشركات كمن يتذكر اسطورة ذهبية. أنهم يحيون على ماضٍ أسطورى كالسير على الحبال به ثروات تبدد فى ضربة زهر وحفلات سكر تدوم سبعة ايام. وفى هذه الاثناء ، تظل انابيب الحفر تدور ويظل مطر الدولارات يسقط على ميرافلورس Miraflores، قصر الحكومة ، ليتحول الى طرق سريعة وغيرها من وحوش الاسمنت المسلح. ويعيش ستون فى المائة من المواطنين هامشيين عن كل شئ. وفى المدن تزدهر طبقة وسطى ذاهلة ذات مرتبات عالية ، تكدس حولها أشياء بلا نفع، تعيش وقد خلبت لبها الدعاية وتبدى حمقها وفساد نوقها بصورة صاخبة. منذ قليل اعلنت الحكومة بضوضاء هائلة انها قد استأصلت الامية. والنتيجة: فى المهرجان الانتخابى الاخير، اظهر تعداد من يجهلون الكتابة مليوناً من الاميين بين سن الثامنه عشرة والخمسين ».



الهوامـش

(1) Edwin Lieuwen, ***The United States and the Challenge to Security in Latin America***, Ohio, 1966.

(2) Philip Courtney, en un trabojo presentado ante et II Congreso Internacional de Ahorroe Inversion, Bruselas, 1959.

(3) Harry Magdoff, ***La era del imperialismo***, en Monthly Review, selecciones en castellano, Santiago de Chile, evero - febrero - de 1969, Claude Julien, L'Empire Américan, París, 1969.

(٤) بالمقابل، إنتبهت حكومة المكسيك في الوقت المناسب إلي أن البلاد، وهي أحد المصدّرين الأساسيين للكبريت في العالم، أخذت تفرغ منه. كانت شركتا تكساس جالف سلفر Texas Gulf Sulfur وبان أمريكان سلفر Pan American Sulfur قد أكدتا أن الاحتياطيات التي تتمتع بها إماكن إمتيازاتهما تفوق ست مرات ماهي عليه في الحقيقة. وقد قررت الحكومة، عام ١٩٦٥، الحد من المبيعات للخارج.

(5) Sergio Almaraz Paz, ***Réquiem Para una república***, La Paz, 1969.

(6) Claude Julien, ***op. cit.***

(٧) توفي آرثر ديفيز Arthur Dovis، رئيس الومنيوم كومباني خلال زمن طويل، توفي عام ١٩٦٢ وترك ميراثه وقيمته ثلاثمائة مليون دولار للمؤسسات الخيرية، بشرط صريح هو عدم انفاق هذه الثروة خارج أراضي الولايات المتحدة. ولم تستطع جويانا حتي بهذه الطريقة أن تنقذ ولو جزءاً من الثروة التي إنتزعتها منها الشركة.

(Philip Reno, ***Aluminium Profits and Caribbean People***, en Monthly Review, Nueva York, octubre de 1963, y del mismo autor, ***El drama de la Guayana*** Británica. Un pueblo desde la esclavitud a la lucha por el socialismo, en Monthly Review, selecciones en Castellano, Buenos Aires, enero - febrero. de 1965.

(8) Harry Magdoff, ***op. cit.***

(9) Hermano Alves, ***Aerofotogrametria***, en Correio de Manhá, Río de Janeiro, 8de Junio de 1967.

(١٠) تقرير اللجنة البرلمانية للتحقيق في بيع الأراضي البرازيلية لأشخاص عينية أو إعتبارية أجنبية، برازيليا، ٣ يونيو ١٩٦٨.

(11) *Correio de Manhá*, Río de Janeiro, 30 de Junio de 1968.

(12) Paulo R. Schilling, ***Brasil para extranjeros***, Montevideo, 1966.

(13) Ernst Samhaber, ***Sudamérica, biografía de un continente***, Buenos Aires, 1946.

إن الطيور المنتجة للجوانو هي أثمن طيور العالم، كتب روبرت كوشمان مورفي Robert Cushman Murphy بعد الازدهار بكثير، «بسبب ريحها بالدولارات في كل وجبة». وهي تفوق، قال، قبّرة شيكسبير التي كانت تغني علي شرفة جولييت، وتفوق الحمامة التي حلقت فوق سفينة نوح، وتفوق، بالطبع، السنونوات الحزينة لبيكير Bécquer

(Emilio Romero, ***Historia económica del Perú***, Buenos Aires, (1949)

(14) Óscar Bermúdez, ***Historia del salitre desde sus orígenes hasta la Guerra del Pacífico***, Santiago de chile, 1963.

(15) José Carlos Mariátegui, ***Siete Eusayos de Interpretación de la Realidad Peruana***, Montevideo, 1970.

(١٦) فقدت البيرو مقاطعة تاريكا التي تستخرج النترات وبعض جزر الجوانو الهامة، لكنها إحتفظت بمكامن الجوانو علي الساحل الشمالي . وقد ظل الجوانو هو السماد الأساسي للزراعة البيروانية، حتي قضي صعود دقيق الأسماك بدءاً من عام ١٩٦٠، حتي قضي علي طيور الأطيش [طائر بحري أكل للأسماك – م] والنوارس . استولت شركات الأسماك، الأمريكية الشمالية في غالبيتها، بسرعة علي ضفاف الأنشوجة القريبة من الساحل، من أجل تغذية خنازير وطيور الولايات المتحدة وأوربا بالدقيق البيروائي، وأخذت الطيور المنتجة للجوانو تقتضي آثار الصيادين في البحر إلي مدي تزايد بعداً وكانت تسقط في البحر لعدم قدرتها علي العودة . وكانت طيور أخري لا تمضي إلي البحر ، وهكذا أمكن، عام ١٩٦٢، رؤية أسراب طيور الأطيش تبحث عن غذاء في الشارع الرئيسي في ليما : وحين لم تعد تستطيع التحليق، بقيت طيور الأطيش ميّته في الشوارع.

(17) Hernán Ramirez Necochea, ***Historia Del Imperialismo en chile***, Santiago de Chile, 1960.

(18) Hernán RanEurez Necochea, ***Balmaceday la Contrarrevolución de 1891***, Santiago de Chile, 1969.

(١٩) تزعم الكونجرس المعارضة للرئيس، وكان ضعف كثير من أعضائه تجاه الجنيهات الاسترلينيه معروفاً. كانت رشوة التشيليين، وفق ما يقول الانجليز، «إحدي عادات البلاد» . هكذا عرفها روبرت

هارفي، عام ١٨٩٧، وهو شريك نورث، أثناء القضية التي رفعها ضده وضد آخرين من مديري شركة نيترات ريلويز The Nitrate Railways Co. بعض حملة الأسهم الصغار. فأثناء تفسيره لإتفاق مائة ألف جنيه بهدف الرشوة، قال هارفي : «إن جهاز الادارة العامة في تشيلي، كما تعرف سيادتكم، بالغ الفساد ... لا أقول أن من الضروري رشوة القضاه، لكنني أعتقد أن كثيرين من أعضاء مجلس الشيوخ، القليلي الموارد، قد جنوا بعض النفع من جزء من هذه الأموال مقابل أصواتهم ، وأنها خدمت في منع الحكومة من رفض الاستماع إلي إحتجاجاتنا ومطالبنا . (Hernán Ranúrez Necochea, *Op. Cit.*) .

(٢٠) كانت ذات الشركتين تصنعان المعدن التشيلي في مصانعها البعيدة . وتظهر أناكوندا أمريكان براس Anaconda American Brass ، وأناكوندا واير أند كابل Anaconda Wire and Cable وكونيكوت واير أند كابل Kennecott Wire and Cable بين الشركات الرئيسية للبرونز والاسلاك في العالم كله.

José Cademartori, ***La Econamia Chilena,*** Santiago de Chile, 1968.

(21) R. I. Grant - Suttie, ***Sucedáneos del Cobre***, en Finanzasy Desarrollo, Revista del FMI Yel BIRD, Washington, Junio de 1969.

(22) Mario Veray Elmo Catalan, ***La Encrucijade del Cobre***, Santiago de Chile, 1965.

(٢٣) وصفته التيوورك تايمز الصادرة في ١٣ أغسطس ١٩٦٩ بهذه العبارة، حين كانت تصف بنشوة الإجازة التي قضاها ذوق وذوقة وندسور في القلعة التي ترجع إلي القرن السادس عشر والتي يملكها باتينير عند مشارف لشبونة. «يروق لنا أن نمنح الخدم بعض الهدوء والسلام»، إعترفت السيدة بذلك، وهي تشرح لشارلوت كورتيس برنامج اليوم.

بعد ذلك، يحين وقت الإجازة في الجبل في سويسرا، اندفع المصورون والصحفيون ليقفزوا علي الدوقين وعلي فناني الموضه في سان مورتيز. فقدت مليونيره في الخمسين لتوها زوجها الثاني، نائب رئيس شركة فورد، وتبتسم أمام فلاشات المصورين : تعلن زواجها القريب لشاب يمسكها من ذراعها وينظر بعيون خائفة . وإلي جانبهما زوج آخر من أعضاء المجتمع الراقي. الرجل قصير القامة ذو ملامح هندية، حواجب كثيفة، وعيون قوية، وأنف أفطس، ووجنات بارزة. مازال أنتينيو باتينيو يبدو بوليفياً. وفي احدي المجلات يظهر انتينور باتينيو متنكراً في زي أمير شرقي، يرتدي العمامة وكل شئ، بين عدة أمراء حقيقيين إجتمعوا في قصر البارون الكسيس دي ريديه : هم أميرة الدنمارك مارجاريتا، والامير إنريكي، وماريا بيّادي سابويا وابن أختها الأمير ميجيل دي بوربون – پارما، والأمير

لوبكوفيتس وغيرهم من العمال.

(٢٤) حين أعلن الجنرال الفريدو أوبادو Alfredo Ovado ، في يوليو عام ١٩٦٦، أنه قد توصل إلي إتفاق مع شركة كلوشنر Klochner الألمانية لإقامة أفران الدولة، قال أنه سيكون ثمة مصير جديد «لتلك المناجم البائسة التي لم تفد، حتي الآن، سوي في فتح فجوات في رئات إخواننا عمال المناجم». وهؤلاء الرجال الذين يهبون حياتهم من أجل المعدن، كما يقول سيرخيو أمارات (*Elpodery La caída. Elesta´no en La Historia de Bolioia*, La Paz - Cochabamba, 1967) ، «لا يملكونه. ولم يملكوه أبداً، لا قبل ولا بعد ١٩٥٢. لأن ما يحدث هو أن القصدير لا يساوي شيئاً في الاستفادة المباشرة منه ما لم يكن في شكل سبائك لامعه . والمعدن، هذا التراب الثقيل ذي المظهر الطيني، لا يفيد بالتاكيد في شئ سوي أن يُلقي في فوهة فـرن».

وقد حكي أمارات قصة أحد الصناعيين، هو ماريانو بيرو Mariano Peró ، الذي شن حرباً بمفرده، علي طول أكثر من ثلاثين عاماً، حتي يُكرر القصدير البوليفي في أورورو وليس في ليفربول. وفي عام ١٩٤٦، وبعد أيام قليلة من سقوط الرئيس الوطني جوالبرتو بيّارّويل Gualberto Villarroel ، دخل بيرو إلي القصر المحترق . جاء ليأخذ سبيكتين من القصدير. كانتا أول سبيكتين تنتجان من معمل صهره في أورورو، ولم يعد ثمة معني في أن يستمر هذان الرمزان، اللذان يجسدان الامة، في تزيين مكتب رئيس الجمهورية. كان بيّارّويل قد شنق علي عمود نور في ميدان موريو وأعيدت سلطة الحلقة الأوليجاركية بدءاً من سقوطه. أخذ ماريانو بيرو السبيكتين ومضي بهما . وكانتا ملطختين بدم جاف.

(٢٥) «حين أحس بنفسي، أجدني سكران. أري الناس ثلاثة، أو أربعة. لا أستطيع أن آكل وحدي. أنا طفل، أذن. طفل» . أن ساتورنينو كوندوري، البناء العجوز لمعسكر عمال منجم القرن العشرين، مازال ممدداً منذ أكثر من ثلاث سنوات علي فراش في مستشفي كاتابي. وهو أحد ضحايا مذبحة ليلة القديس خوان، عام ١٩٦٧ . ولم يكن حتي قد احتفل علي الاطلاق. فقد عرضوا أن يدفعوا له ثلاثة أضعاف إذا عمل يوم السبت ٢٤، وهكذا قرر، بخلاف الآخرين جميعاً، الاّ ينخرط في اللهو والخمر . وأوي إلي فراشه مبكراً. وفي تلك الليلة حلم بأن فارساً يقذفه بالشوك في جسمه : «قذفني بأشواك ضخمة» . استيقظ عدة مرات، لأن مطر الرصاص انطلق علي المعسكر منذ الخامسة صباحاً». تحطم جسمي، تفتت، وأمسكت بخناقي شبه رعشة. كنت مفزوعاً، كنت مفزوعاً، هكذا. قالت لي زوجتي : هيا، اهرب بجلدك. لكنني، ماذا فعلت؟ لم أخرج إلي أي مكان . هيا . إذهب . إذهب ، قالت لي. كان ثمة إطلاق رصاص بالليل، ماذا يكون ذلك، ماذا يكون، تاتا - تاتا - تاتا -

تاتا . وأنا أفيق وانام علي فترات، وحتي بهذه الطريقة لم أقلت، قالت لي زوجتي : حسنا إذهب، حسناً اذهب . إهرب. ماذا سيفعلون بي، أنا بناء خصوصي، ماذا سيفعلون بي». إستيقظ حوالي الثامنة صباحاً . إنتصب فوق السرير . إخترقت الرصاصة السقف، وإخترقت قبعة إمرانه ودخلت في جسمه ومزقت عموده الفقري.

(26) Sergio Almaraz Paz, ***Op. Cit.***

(27) Salvador de La Plaza, en el Volumen Colective ***Perfiles de la Economia Venezolana***, Caracas, 1964.

(28) Osny Duarte Pereira, ***Ferro e Independencia. Um Desafio a Dignidade Nacional***, Rio de Janeiro, 1967.

(29) ***Immovable Mountains***, en Fortune, Abril de 1965.

(30) Citado Por Mário Pedrosa, ***A Opcao Brasileira***, Rio de Janeiro, 1966.

(31) De Lyndon Johnson a Rainieri Mazzili, 2de Abril de 1964, Versión de Associated Press.

(32) Según Informé el Diario O Estado de Sáo Paulo. 4de maye de 1964.

(33) José Stacchini, ***Mobiliza,cáo de audácia***, Sáo Poulo, 1965.

(34) Philip Siekman, ***When Executives Turned Revalutionaires***, en Fortune, Julio de 1964.

(٣٥) راجعوا الشهادات أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس نواب الولايات المتحدة، التي أوردها هاري ماجدوف في عمله المذكور سابقاً، وكذلك المقال الملهم ليوچين ميتفين Engene Methvin ، في مختارات من ريدرز دايجست بالاسبانية، عدد ديسمبر ١٩٦٦ : وحسب رواية ميتفين، فإنه بفضل الخدمات الحميدة للمعهد الأمريكي لتطوير النقابة الحرة، ومقره واشنطن، إستطاع الأنقلابيون تنسيق تحركات قواتهم بالبرق، وكافأ النظام العسكري الجديد المعهد الأمريكي لتطوير النقابية الحرة بتعيين أربعة من خريجيه «ليقوموا بتطهير النقابات التي يسيطر عليها الحمر .... ».

(٣٧) وفق البيانات التي نشرتها منظمة الدول المصدّره للبترول :

Francisco Mieres, ***El Petróleo y la Problemática Estructural Venezolano***, Caracas, 1969.

(٣٨) تقرير مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة، الوقائع السريه للكارتل البترولي، بونيوس أيريس، ١٩٦١.

- *Actas Secretas del Cártel Petrolero*, Buenos Aires, 1961, y Harvey O´connor, *El Imperio del Petróleo*, La Habana, 1961.

(39) Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, *El Capital Monopolista*, México, 1970.

(40) Francisco Mieres, *Op. Cit.*

(41) Michael Tanzer, *The Political Economy of International Oil and The Underdeveloped Countries*, Boston, 1969.

(42) Harvey O´connor, *La Crisis Mundial del Petróleo*, Buenos Aires, 1963.

– ومازالت هذه الظاهرة مألوفة «في بلدان عديدة . ففي كولومبيا، مثلاً، حيث يصدر البترول بحرية ودون دفع أية ضرائب، تشتري معامل التكرير الحكومية البترول الكولومبي من الشركات الأجنبية بزيادة ٣٧ في المائة عن السعر العالمي، وعليها أن تدفع بالدولار (Raúl Alameda Ospina en Larevista Esquina, Bogotá, Enere de '68).

(43) Jesús Silva Herzog, *Historia de la Expropia Ción de las Empresas Petroleras*, México, 1964.

(44) Vivian Trías, *Imperialismo y Petróleo en el Uruguay*, Montevideo, 1963.

– راجع كذلك خطاب النائب إنريكي إرّو Enríque Erro في محضر جلسات مجلس النواب، رقم ١٢١١، مجلد ٥٧٧، مونتفيديو، ٨ سبتمبر ١٩٦٦.

(٤٥) تحتل بتروبراز المركز الأول ضمن قائمة أكبر خمسمائة شركة، والتي نشرت في :

- Conjuntura Economica, Vol 24, Núm 9, Rio de Janeiro, 1970.

(٤٦) تصريحات المهندس مارسيو لِيْتي كارسارينو، في :

- Correio da Manhá, Rio de Janeiro, 28 de Enero de 1967.

(٤٧) نشرت كورّيو دامانيا Correio da Manhá جزءاً كبيراً من الوثيقة في طبعتها الصادرة يوم ١٩ فبراير ١٩٦٧.

(48) René Zavaleta Mercado, *Bolivia. El Desarrollo de la Conciencia Nacional*, Montevideo, 1967.

(٤٩) لم يدخر السناتور لونج نعتاً في وصف ستاندارد أو يل : فقد دعاها مجرمة، وصانعة شر، ولصة، وقاتلة محلية، وقاتلة أجنبية، ومتآمرة دولية، وعصابة من قاطعي الطريق واللصوص المتوحشين، ومجموعة من المخربين واللصوص.

وأعيد نشر ذلك في مجلة Guarania ، بونيوس آيرس ، نوفمبر ١٩٣٤.

(٥٠) تتعدد الأمثلة في التاريخ، القريب أو البعيد، ففي ٢٨ ديسمبر ١٩٥٠، أبلغ ايرفينج فلورمان Irving Florman ، سفير الولايات المتحدة في بوليفيا دونالد دوسون Donald Dawson ، من البيت الأبيض بأنه : «منذ وصلت إلي هنا، عملت بدأب في مشروع الفتح الكامل للصناعة البترولية لبوليفيا لتغلغل الشركات الخاصة الأمريكية الشمالية، وفي مساعدة برنامجنا للأمن القومي علي نطاق واسع». وكذلك : «عرفت أن سيادتك سيهمك سماع أن صناعة بترول بوليفيا وكل هذه البلاد برمتها مفتوحتان جيداً الآن أمام المبادرة الحرة الأمريكية الشمالية. لهذا، فإن بوليفيا هي أول بلد في العالم قام بإلغاء التاميم، أو بتاميم مقلوب، وإنني لأحس بالفخر لأنني استطعت أتمام هذه المهمة لبلدي وللإدارة». وقد أعيد نشر الصورة الفوتوغرافية لهذا الخطاب، المأخوذ من مكتبة هاري ترومان، في مجلة NACLA Newslrtter ، في نيويورك، في فبراير عام ١٩٦٩.

(٥١) استجواب مارثيلو كيروجاسانتا كروث، يومي ١١ و ١٢ أكتوبر ١٩٦٦ في مجلس النواب، نشر المجلة التشريعية Revista Jurídica ، طبعة غير عادية، كوتشابامبا، ١٩٦٧.

(٥٢) حين تفجرت الفضيحة، لم تلتزم سفارة الولايات المتحدة بالصمت الحكيم. فقد بلغ الأمر بأحد موظفيها أن يؤكد عدم وجود أي أصول لاتفاقية تالارا :

(Richard N. Goodwin. *"El Conflicto Con La IPC : Carta de Perú"*, Reproducido de The New Yorker Por Comercio Exterior, México, Julio de 1969.)

(53) Georgie Anne Geyer, ***Seized U.S. Oil Firm Made Napalm***, en el New York Post, 7 de Abril de 1969.

(٥٤) من أجل كتابة هذا الفصل، استخدم المؤلف، علاوة علي الكتب المذكورة آنفا لهارفي أوكونور وفرنثيسكو ميريس، الكتب التالية :

- Orlando Araújo, ***Operacion Puerto Rico Sobre Venezuela***, Caracas, 1967, Federico Brito, ***Venezuela Siglo xx***, La Habana, 1967; M. A. Falcon Urbano, ***Desarrolloe Industrialización de Venezuela***, Caracas, 1969; Elena Hochman, Héctor Mujica y Otros, Venezuela 1.^{0}, Caracas, 1963; William Krehm, ***Democracia y Tiranías en el Caribe***, Buenos Aires, 1959; Los Ensayos de D. F. Maza Zavala, Salvador de la Plaza, Pero, Pedro Esteban Mejía y Leonardo Montiel Ortega en el Volumen Citado en

la Nota 27; Rodolfo Quintero, ***La Cultura Del Petróleo***, Caracas, 1968; Domingo Alberto Rangel, ***El Proceso Del Capitalismo Contemporáneo en Venezuela***, Caracas, 1968; Arturo Uslar Pietri, tiene Un Porvenir Lajuventud Venezolana ?, en Cuadermos Americanos, México, Marzo - Abril de 1968; y Naciones Unidas - CEPAL, ***Estudio Económico de America Latina***, 1969, Nueva York - Santiago de Chile, 1970.

(55) Time, Edición Para América Latina, 11 de Septiembre de 1953.



الباب الثانى

التنمية رحلةٌ غرقاها
أكثر من مُبحِرِيها

حكاية الموت السابق للأوان

■ البوارج البريطانية تحيّى الإستقلال من الرّيو

عندما كان جورج كاننج، داهية الامبراطورية البريطانية، يحتفل فى عام ١٨٢٣ بانتصاراتها التى حققتها على صعيد عالمى، وجد القائم بالأعمال الفرنسى نفسه مضطراً إلى ابتلاع المهانة المتضمنة فى هذه الملاحظة: "ليكن من نصيبكم مجد الانتصار الذى تتلوه الكارثة والخراب، وليكن من نصيبنا التجارة غير المجيدة فى منتجات الصناعة وازدهار لايكف عن النمو ... لقد مضى عهد الفروسية، وخلّفَهُ عهد اقتصاديين ومحاسبين". كانت لندن تدخل فترة ابتهاج طويلة؛ كانت الهزيمة قد لحقت بنابوليون قبل ذلك ببضع سنوات، وكان الستار ينفتح على عهد السلام البريطانى. وفى أمريكا اللاتينية، جرى تأمين قوة كبار ملاك الأرض وتجار الموانئ الأغنياء إلى الأبد عن طريق الاستقلال، فى مقابل الخراب الوشيك للبلدان التى وحدت حديثاً. وكانت المستعمرات الاسبانية السابقة والبرازيل أسواقاً مزدهرة بالنسبة إلى المنسوجات الانجليزية والجنيهات الاسترلينية التى حققت أرباحاً كبيرة. ولم يخطئ كاننج عندما كتب فى عام ١٨٢٤: "لقد تحقق الفعل، وانغرست الأبرة، وأصبحت أمريكا الاسبانية حرة؛ وإذا لم ندبر أمورنا تدبيراً سيئاً محزناً، فسوف تكون انجليزية"[١].

لقد أدى المحرك البخارى، والنول الآلى، وتحسين آلات النسيج إلى المسارعة بنضج الثورة الصناعية البريطانية. وقد تضاعف عدد المصانع والبنوك؛ وأدى المحرك الذى يعمل عن طريق الاحتراق الداخلى إلى تحديث الملاحة وأبحرت السفن إلى أقصى المناطق. مما أدى إلى توسيع الصناعة البريطانية. وكان الاقتصاد البريطانى يدفع المنسوجات القطنية ثمناً لجلود ريو دى لابلاتا، وأسمدة ونترات البيرو، ونحاس تشيلى. وسكر كوبا، وبن البرازيل. وطوال القرن التاسع عشر، كانت الصادرات الصناعية، ورسوم الشحن، والتأمين، والفوائد على القروض، وأرباح الاستثمارات تغذى الازدهار البريطانى. والواقع أن جانباً كبيراً من التجارة المشروعة بين اسبانيا ومستعمراتها، قبل حروب الاستقلال، كان تحت سيطرة بريطانية - علاوة على التدفق المتواصل للسلع المهربة إلى السواحل الأمريكية اللاتينية، والتى كانت تجارة العبيد تشكل ستاراً لها من الناحية العملية. ولم تكن الغالبية الساحقة من السلع المارة عبر الجمارك الأمريكية

اللاتينية اسبانية. والواقع أن احتكار اسبانيا لم يوجد قط: "لقد خسر المتروبول المستعمرة بالفعل قبل عام ١٨١٠ بوقت طويل، ولم تكن الثورة غير اعتراف سياسى بهذه الحقيقة الواقعية"[٢].

كانت القوات البريطانية قد استولت على ترينداد دون أن يقتل منها غير جندى واحد، لكن قائد الحملة، السير رالف أبيركرومبى، كان واثقاً من أن الفتوحات العسكرية الأخرى فى أمريكا الاسبانية لن تكون بهذه السهولة. فبعد ذلك بوقت قصير، فشلت الغزوات البريطانية لريو دى لابلاتا. وقد أكدت الهزيمة رأى أبيركرومبى والخاص بعدم فعالية الحملات المسلحة ونضوج ساعة الديبلوماسيين والتجار وأصحاب البنوك: إن نظاماً ليبرالياً جديداً فى المستعمرات الاسبانية سوق يتيح لبريطانيا الفرصة للاستحواذ على تسعة أعشار التجارة الأمريكية الأسبانية[٣]. كانت البلاد الأمريكية اللاتينية تتأجج بحمى الاستقلال؛ وبعد عام ١٨١٠، طبقت لندن سياسة ملتوية وذات وجهين كانت تتقلب تبعاً للحاجة إلى تأمين سيادة التجارة البريطانية، والحيلولة دون سقوط أمريكا اللاتينية فى أيدى الولايات المتحدة أو فرنسا، وتفادى العدوى اليعقوبية فى البلدان حديثة الاستقلال.

وعندما تشكل المجلس الثورى فى بوينوس آيريس فى ٢٥ مايو ١٨١٠، حيته البوارج البريطانية بدفعة من طلقات المدافع من الريو. وأدلى قبطان البارجة "موتين" بكلمة حارة نيابة عن صاحب الجلالة، وأدخل الاحتفال الدفء إلى قلوب البريطانيين. لم تنتظر بوينوس آيريس أكثر من ثلاثة أيام لكى تلغى بعض القيود على التجارة مع الأجانب؛ وبعد ذلك باثنى عشر يوماً خفضت الضرائب على المبيعات الخارجية من الجلود والدهون أو الشحوم الحيوانية من نسبة ٥٠ فى المائة إلى نسبة ٧,٥ فى المائة. وبعد ذلك بستة أسابيع، ألغى الحظر المفروض على تصدير العملات الذهبية والفضية، حتى يتسنى تدفقها بسهولة إلى لندن. وحلّت إدارة ثلاثية محل المجلس فى سبتمبر ١٨١١، وجرى مرة أخرى تخفيض الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات والغاؤها فى بعض الحالات. وبعد ١٨١٣، عندما أعلنت الجمعية الوطنية أنها السلطة ذات السيادة، جرى إعفاء التجار الأجانب من الالتزام ببيع سلعهم من خلال رجال أعمال أرجنتينيين: "أصبحت التجارة حرة حقا"[٤] وفى عام ١٨١٢، أبلغ التجار البريطانيون وزارة الخارجية البريطانية بأنهم قد نجحوا فى إحلال المنسوجات البريطانية محل المنسوجات الألمانية والفرنسية؛ وقد نجحوا أيضاً فى احلالها محل إنتاج مصانع

النسيج الأرجنتينية، والذى خنقه ميناء التجارة الحرة. وقد حدث الشئ نفسه مع تنويعات فى أماكن أخرى من أمريكا اللاتينية.

لقد تدفق من يوركشاير، ولانكشاير، وتشيفيوت هيلز، وويلز تيار لاينقطع من المنسوجات القطنية ومنسوجات الصوف ومن السلع المصنوعة من الحديد والجلد، والخشب، والخزف. وأغرقت أنوال مانشستر، ومسابك شيفيلد ومعامل خزف وورشستر وستافورد شاير الأسواق الأمريكية اللاتينية. وأدت التجارة الحرة إلى إثراء الموانئ التى تحيا على التصدير، ورفعت إلى عنان السماء تبذير أوليجاركيات عازمة على التمتع بكل ترف معروف، لكنها دمرت الصناعة المحلية الناشئة وأحبطت توسع السوق الداخلية. كانت بعض الصناعات الضعيفة والمتخلفة من الناحية التقنية قد نمت فى المستعمرات رغم القيود التى فرضها المتروبول، وكانت آخذة فى الصعود عشية الاستقلال مع ارتخاء القيود الجائرة التى فرضتها اسبانيا ومع مساعدة الحرب فى أوروبا على ايجاد نقص فى الامدادات، وفى السنوات الأولى للقرن التاسع عشر، كانت المصانع تتماثل للشفاء من الضربة التى وجهها إليها المرسوم الملكى لعام ١٧٧٨ والذى أجاز التجارة الحرة بين الموانئ الاسبانية والأمريكية. وكان طوفان السلع الأجنبية الذى ترتب على ذلك قد سحق إنتاج المستعمرات من المنسوجات والخزف، والسلع المعدنية، ولم يكن أمام الحرفيين وقت طويل لمعاودة الوقوف على أقدامهم: ثم فتح الاستقلالُ الباب على مصراعيه أمام المنافسة الحرة من جانب الصناعات الأوروبية المتقدمة بالفعل. وفى ظل السياسات الجمركية المتذبذبة التى اتبعتها حكومات الاستقلال، واصلت الصناعات الأمريكية اللاتينية مسيرتها المترنحة، حيث كانت إحدى رجليها فى القبر وحيث لم تكن أمامها إمكانية لنمو متواصل طويل الأجل.

■ أبعادُ قتل الصناعة فى مهدها

فى مستهل القرن التاسع عشر، قدَّرَ الكسندر فون همبولت قيمة المصانع المكسيكية – ومعظمها مصانع للنسيج – بنحو سبعة أو ثمانية ملايين بيسو. وكان يجرى إنتاج الملابس المصنوعة من الصوف ومن القطن فى ورش متخصصة: كان فى كيريتارو أكثر من مائتى نول وألف وخمسمائة عامل؛ وكان ألف ومئتان من عمال نسيج القطن يعملون فى بوبيلا[٥]. وفى البيرو، لم تكن المنتجات الرديئة التى كانت المستعمرة تنتجها

على مستوى جودة المنسوجات التى كان السكان الأصليون ينتجونها فى زمن بيثارّو، "لكن أهميتها الاقتصادية كانت عظيمة للغاية"(٦). وكانت الصناعة تستند إلى تسخير الهنود الذين كانوا يُحتجزون فى الورش منذ ما قبل الفجر وحتى وقت متأخر من الليل. لقد كان هذا التطور - الذى قضى عليه الاستقلال - هشاً لكنه كان يتميز بثقل معين فى أياكوتشو، وكاكامورسا، وتارما؛ أما جماعة باكايكاسا، "التى شكلت مؤسسة واحدة عظيمة للنسيج تشمل اكثر من ألف عامل"، فلم يعد لها وجود، بينما تتلاشى من الوجود باوكاركولا، التى كانت تزود منطقة واسعة بالبطانيات المصنوعة من الصوف "وفى الوقت الحاضر لايوجد هناك معمل واحد"(٧). وفى تشيلى، إحدى ممتلكات أسبانيا الأكثر بعداً، كانت العزلة مؤاتية لتطور النشاط الصناعى منذ بدايات حياة المستعمرة. لقد كان لديها معامل للغزل، ومعامل للنسيج، ومدابغ للجلود، وكانت جميع سفن بحار الجنوب مجهزّة بتجهيزات من حبال الأشرعة والصوارى التشيلية، وكانت تشيلى تنتج سبائك معدنية، من أوانى التقطير والمدافع إلى الحلى، وأدوات المائدة الجميلة، والساعات، وكانت تبنى الزوارق والمركبات(٨). وفى البرازيل، أيضاً، أدت الواردات الأجنبية إلى محو صناعات النسيج والصناعات المعدنية، التى كانت قد خطت خطواتها الأولى المتواضعة فى القرن الثامن عشر. وكانت كلتا الصناعتين قد تمكنتا من الإزدهار رغم العقبات التى فرضتها لشبونه، لكن الملكية البرتغالية، التى جرى تنصيبها فى ريو دى جانيرو، كانت بعد عام ١٨٠٧ العوبة بأيدى البريطانيين وكانت قوة لندن من نوع مختلف. وقد كتب كايو برادو فقال أنه "قبل فتح الموانئ، كانت نواقص التجارة البرتغالية توفر حاجزاً واقياً لصناعة محلية صغيرة - صحيح أنها كانت صناعة حرفية بائسة، إلاّ أنها كانت كافية لإشباع جانب من الطلب المحلى. ولم يكن بوسع هذه الصناعة أن تصمد أمام المنافسة الحرة من الخارج، ولو فيما يتعلق بأقل المنتجات شأناً"(٩).

وكانت بوليفيا أهم مركز للنسيج تابع لريو دى لابلاتا. ووفقاً لما ذكره فرانثيسكو دى بيدما، حاكم الولاية، فقد كان ثمانون ألف إنسان يعملون فى كوتشابامبا فى أواخر القرن فى صنع الملابس الصوفية والقطنية ومفارش الموائد. كما كانت أورورو ولاباث تحوزان مصانع توفر، جنباً إلى جنب المصانع الموجودة فى كوتشابامبا، البطاطين، والبونشوات، والملابس الداخلية المدفئة للسكان، وللقوات النظامية، وللحاميات على الحدود. ومن موخوس وتشيكيتوس وجوارايوس كانت ترد أجمل الملابس المصنوعة من الكتان ومن القطن، والقبعات المصنوعة من القش، وفراء البيكونيا والحملان، والسيجار.

وشهد كتاب صدر بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لاستقلال بوليفيا بأن "كل هذه الصناعات قد اختفت في وجه المنافسة من جانب منتجات أجنبية مماثلة"(١٠).

وفي الأرجنتين، كان الساحل هو المنطقة الأكثر تخلفاً والأقل كثافة من حيث عدد السكان إلى أن نقل الاستقلال مركز الجذب الاقتصادي والسياسي من الداخل إلى بوينوس آيريس. وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن يحيا في بوينوس آيريس، وسانتا في، وانترى ريوس غير عشر السكان(١١). وكانت صناعة أهلية جنينية قد أخذت تتطور ببطء في الوسط والشمال في الوقت الذي لم تكن توجد فيه "حرفة أو صناعة واحدة" على الساحل، كما لاحظ لارّاميندي، المسئول عن الشئون المالية، في عام ١٧٩٥. وكانت ورش النسيج تنتج ثلاثة أنواع من البونشوات، وكانت المصانع تنتج عربات متينة، والسيجار، والسجائر، والأحذية والأخمصة الجلدية في توكومان وسانتياجو ديل ايستيرو - وكلاهما اليوم جيبان للتخلف. وكانت كل أنواع الملابس، والمنسوجات الصوفية الجميلة، وملابس رجال الدين السوداء تجئ من كاتاماركا؛ وكانت كوردوبا تنتج أكثر من سبعين ألف بونشو، وعشرين ألف بطانية، وأربعين ألف ياردة اسبانية من الملابس الداخلية في السنة، جنباً إلى جنب الأحذية والسلع الجلدية وأحزمة الابحار وعارضات الأشرعة، والسجاد والجلد القرطبي. وكانت المدابغ وورش السراجة المهمة في كوربينيتس. وقد اشتهرت سالتا بسروجها الجميلة؛ وكانت مندوثا تنتج مابين مليونى وثلاثة ملايين لتر من الخمور سنوياً، منافسة في ذلك خمور الأندلس؛ وكانت سان خوان تقطر ٣٥٠,٠٠٠ لتر من الروم سنوياً؛ وكانت مندوثا وسان خوان، الواقعتان بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، "حلق" التجارة الأمريكية الجنوبية(١٢).

كان الوكلاء التجاريون من مانشستر، وجلاسجو، وليفربول يجوبون أرجاء الأرجنتين ويعدون نماذج من بونشوات سانتياجو وكوردوبا وسلع كوربينتوس الجلدية، إلى جانب الركابات الخشبية المحلية. وكانت بونشوات الأرجنتين تكلف سبعة بيسوات، بينما كانت بونشوات يوركشاير تكلف ثلاثة بيسوات. والحال أن صناعة النسيج الأكثر تقدماً في العالم سرعان مافازت على منتجات الأنوال المحلية، وقد حدث الشئ نفسه مع الأحذية طويلة الرقبة، والمهمازات والحواجز الحديدية، واللجامات، بل والإبر. وقد حاق الخراب بمقاطعات الأرجنتين الداخلية وسرعان ماهبت ضد ديكتاتورية ميناء بوينوس آيريس. كان كبار التجار (ايسكالادا، بيلجرانو، بوريدون، بييتوس، لاس هيراس، ثيربينيو) قد تولوا السلطة المنتزعة من اسبانيا(١٣). وقد مكنتهم التجارة من شراء

المنسوجات الحريرية والمدى الانجليزية، وملابس لوفييه الجميلة، ومخرمات الفلاندرز، والسيوف السويسرية، والجن الهولندى، ولحوم أفخاذ خنازير ويستفاليا، وسيجار هامبورج، وفى مقابل ذلك، كانت الأرجنتين تصدر الجلود، والشحوم الحيوانية، والعظام، واللحوم المملحة، وقد وسع مربّو الماشية فى مقاطعة بوينوس آيريس أسواقهم بفضل التجارة الحرة. والحال أن وودباين باريش، القنصل البريطانى فى لابلاتا، قد وصف فى عام ١٨٣٧ الجاوشو على النحو التالى: "خذوا كل معداته - تأملوا كل متعلقاته - ما الذى ليس بريطانياً فيها فيما عدا الأشياء المصنوعة من الجلد الخام؟ إن كانت زوجته ترتدى عباءة، فمن المرجح بنسبة عشرة إلى واحد أنها قد صنعت فى مانشستر؛ إن الغلاية التى يطهو فيها طعامه، والآنية الخزفية التى يأكل منها، والسكين، والبونشو الذى يرتديه، والمهماز، واللجام كلها مستوردة من انجلترا"[١٤]. بل إن الأرجنتين كانت تستورد أحجار أرصفتها من بريطانيا.

وحوالى الفترة ذاتها، ذكر جيمس واطسون ويب، سفير الولايات المتحدة فى ريو دى جانييرو: "فى جميع مزارع البرازيل، يرتدى السيد وعبيده ملابس انتجها العمل الحر، وتسعة أعشارها بريطانية. إن بريطانيا تقدم كل الرساميل اللازمة للتحسينات الداخلية فى البرازيل، وتنتج كل الأدوات التى يستخدمها الجميع، من المجراف إلى كل مايفوقه أهمية، كما تنتج كل السلع الترفيّة والعملية تقريباً، من الدبّوس إلى أغلى الملابس. إن المنتوجات الخزفية البريطانية، والسلع البريطانية المصنوعة من الزجاج، أو الحديد، أو الخشب منتشرة انتشار المنتوجات البريطانية المصنوعة من الصوف والملابس القطنية البريطانية. وتزود بريطانيا العظمى البرازيل بسفنها البخارية والبحرية، وتمهد وتصون شوارعها، وتضئ مدنها بالغاز، وتبنى سككها الحديدية، وتستغل مناجمها، وهى ممولها، وتنشئ شبكة اتصالاتها التلغرافية، وتنقل بريدها، وتصنع أثاثها، ومحركاتها، وعرباتها..." [١٥].

لقد أدى انطلاق التجارة الحرة إلى انفلات زمام تجار الميناء: ففى تلك السنوات كانت البرازيل تستورد أيضاً التوابيت المكسّوة بالفعل، لاستقبال الموتى، وسروج الركوب، وثريات الكريستال، والكاسارولات ومزلجات التزحلق على الجليد - والتى تعد أكثر الأشياء غرابة بالنسبة إلى السواحل الاستوائية؛ وكذلك محافظ الجيب (مع أن البرازيل لم تكن لها عملات ورقية) وكمية يتعذر تبريرها من الأدوات الحسابية[١٦]. لقد فرضت معاهدات التجارة والملاحة الموقعة فى عام ١٨١٠ ضريبة على الواردات

الانجليزية أقل من الضريبة المفروضة على الواردات البرتغالية وقد ترجمت نصوصها من الانجليزية ترجمة شنيعة بحيث أن كلمة "policy" (سياسة) مثلاً، قد حوّلت بسحر ساحر إلى الكلمة البرتغالية المقابلة لكلمة "Police" (شرطة)[١٧]. وكان البريطانيون فى البرازيل يتمتعون بنظام قضائى خاص بهم مما حرّرهم من ولاية المحاكم القومية عليهم: لقد كانت البرازيل "عضواً غير رسمى فى الامبراطورية الاقتصادية لبريطانيا العظمى"[١٨].

وقد شهد رحالة سويدى فى بالبارايسو فى منتصف القرن البذخ والتفاخر اللذين انتجتهما التجارة الحرة فى تشيلى. وقد كتب يقول: "إن السبيل الوحيد إلى الصعود فى العالم هو الخضوع لإملاءات مجلات الموضة الباريسية، للفراك الأسود وكل الاكسسوارات المرتبطة به .. إن السيدة تشترى قبعة جديدة تجعلها تشعر بأنها باريسية بشكل ظاهر للعيان، بينما يرتدى الزوج ربطة عنق غالية، غير مرسلة ويتخيل أنه قد بلغ ذروة الثقافة الأوروبية"[١٩]. وكانت ثلاث أو أربع احتكارات بريطانية قد استولت على سوق النحاس التشيلى وتلاعبت بالأسعار بما يتمشى مع أنسب مصالح المسابك فى سوانسى، وليفربول، وكارديف. وقد أبلغ القنصل البريطانى العام حكومته فى عام ١٨٣٨ بـ "النمو الهائل" فى مبيعات النحاس، المصدر "أساساً، وإن لم يكن بالكامل، فى سفن بريطانية أو لحساب بريطانيين"[٢٠]. وقد احتكر رجال الأعمال البريطانيون التجارة فى سانتياجو وبالبارايسو، وكانت تشيلى السوق الثانية بين أهم أسواق المنتجات البريطانية فى أمريكا اللاتينية.

إن موانئ أمريكا اللاتينية الكبيرة، والتى كانت ثروات أراضيها وباطن أراضيها تمر بها فى طريقها إلى مراكز القوة البعيدة، كانت تبنى كأدوات لفتح البلدان التى تخصّها والسيطرة عليها، وكقنوات لاستنزاف دخل الأمم. وبينما كانت الموانئ والعواصم تحاول أن تبدو مثل باريس أو لندن، كانت الصحراء الجرداء تمتّد خلفها.

■ الحماية والتجارة الحرة فى أمريكا اللاتينية: تحليق لوكاس آلامان الذى لم يدم طويلا

أدى اتساع الأسواق الأمريكية اللاتينية إلى تسارع تراكم رأس المال فى رياض رعاية الصناعة البريطانية. لقد كان المحيط الأطلسى لبعض الوقت الطريق الرئيسى للتجارة العالمية وقد استثمر البريطانيون استثماراً ذكياً موقع جزيرتهم – المحاطة

بالموانئ، والواقعة فى منتصف الطريق بين بحر البلطيق والبحر المتوسط، والمواجهة للسواحل الأمريكية. كانت بريطانيا تنظم نظاماً عالمياً وكانت تتحول إلى مصنع هائل يزود المعمورة بالمنتجات: لقد كان العالم كله يزودها بالمواد الخام ويحصل منها على السلع المصنعة التى تنتجها. وكانت الامبراطورية تملك أكبر ميناء وأقوى جهاز مالى فى عصره، وأعلى مستوى من مستويات التخصص التجارى، واحتكاراً عالميا فى مجالى التأمين والشحن، وسيطرة على سوق الذهب الدولية. وقد أشار فردريك ليست، أبُ الاتحاد الجمركى الألمانى، ذات مرة، إلى أن التجارة الحرة هى السلعة الرئيسية التى تصدرها بريطانيا. وما من شئ أثار غضب البريطانيين الشديد كالحماية، وقد عبروا أحياناً عن هذا الغضب بلغة عنيفة. مثلما حدث خلال حرب الأفيون ضد الصين. لكن المنافسة الحرة لم تصبح حقيقة ظاهرة فى نظرهم إلاّ بعد أن تأكدوا من أنهم القوة الأقوى، وبعد أن طوروا صناعة نسيجهم تحت مظلة أكثر تشريعات الحماية صرامة فى أوروبا، ففى الأزمنة الأولى الصعبة، عندما كانت الصناعة البريطانية مازالت بعيدة عن الصدارة، كان يحكم على الانجليزى الذى يضبط وهو يصدّر الصوف الخام بقطع يده اليمنى، وكان يشنق إذا عاود اقتراف هذه الخطيئة. وكان من المحظور دفن جثة دون الحصول سلفاً على شهادة من تسيس الأبرشية بأن الكفن جاء من مصنع بريطانى[٢٢].

وقد كتب ماركس يقول: "إن جميع الظواهر المدمرة التى تقود إليها المنافسة غير المحدودة فى بلد واحد، يعاد إنتاجها بمقاييس أكثر جسامة فى السوق العالمية"[٢٣]. وقد حدث دخول أمريكا اللاتينية فى الفلك البريطانى – الذى لن تتركه إلاّ لكى تدخل فى الفلك الأمريكى – ضمن هذا الإطار العام، وقد توطدت ضمنه تبعية البلدان المستقلة الجديدة. لقد ترتبت آثار محزنة على التداول الحر للسلع، وعلى التداول الحر للأموال من أجل السداد وتحويل رأس المال.

كتب تشابث أوروتكو يقول أن فيثينتى جيريرو قد صعد إلى سدة السلطة فى المكسيك فى عام ١٨٢٩ "على اكتاف يأس الحرفيين، الذى أشعل ناره الديماجوجى الكبير لورنثو دى ثافلا الذى أطلق جماهير جائعة، يائسة على المحال المتخمة بالمنتوجات البريطانية"[٢٤]. وسرعان ما سقط جيريرو وسط لامبالاة العمال، لأنه لم يكن يريد أو لم يكن قادراً على وقف تدفق السلع الأوروبية، "التى أدت وفرتها إلى إنتشار البطالة بين الجماهير الحرفية المدينية والتى كانت تتمتع قبل الاستقلال – خاصة فى فترات الحرب فى أوروبا – بقسط متواضع من يسر الحال". وكانت الصناعة المكسيكية تشكو من غياب

الرساميل، وقوة العمل، والتقنيات الحديثة، ولم تكن منظمة تنظيماً كفؤاً، وكانت تفتقر إلى وسائل المواصلات والنقل إلى الأسواق ومنها وإلى مصادر الإمداد. وقد كتب ألونسو أجيلار – يقول: "لعل الشئ الوحيد الذى كانت لديها وفرة منه هو التدخل، والقيود، وكافة أنواع العقبات"(٢٥). على أن الصناعة، كما أشار إلى ذلك فون هومبولت، قد نمت عندما كانت التجارة الخارجية راكدة، وعندما كانت المواصلات البحرية عرضة للتوقف أو عرضة لاعتراض سبيلها، وقد بدأت صناعة الصلب واستخدام الحديد والزئبق. وقد أضافت الليبرالية التى صاحبت الاستقلال لألئ جديدة إلى التاج البريطانى وأدت إلى شلل ورش صناعة النسيج والصناعات التعدينية فى مكسيكو سيتى، وبويبلا، وجوادا لاخارا.

لقد حَذَّرَ لوكاس ألامان، وهو سياسى محافظ قدير، فى الوقت المناسب من أن أفكار آدم سميث تتضمن سماً قاتلاً بالنسبة إلى الاقتصاد القومى، ومهد، بوصفه وزيراً، لإنشاء بنك للائتمان والتسليف لتشجيع التصنيع هو بنك أبيّو. وكان بوسع المكسيك، عن طريق فرض ضرائب على المنسوجات القطنية الأجنبية، شراء الآلات والمعدات من الخارج لكى تلبى حاجاتها الخاصة من الملابس القطنية. فقد كانت البلاد تملك المادة الخام والطاقة المائية – الأرخص من الفحم – وكان بوسعها تدريب عمال جيدين بسرعة. وقد بدأ البنك أعماله فى عام ١٨٣٠ وسرعان ماوصلت آلات غزل ونسج القطن الحديثة من أفضل المصانع الأوروبية؛ كما استأجرت الدولة خبراء أجانب فى تقنيات النسج. وفى عام ١٨٤٤ انتجت مصانع بويبلا الكبيرة ١,٤ مليون قطعة من القطن الثقيل. وتجاوزت الطاقة الصناعية الجديدة للبلاد الطلب الداخلى؛ ولم يكن بوسع السوق الاستهلاكية فى "مملكة اللامساواة"، المؤلفة فى معظمها من هنود جوعى، دعم النمو الصناعى الجامح. وقد اصطدم الجهد الرامى إلى كسر البنية الكولونيالية الموروثة بهذا الحائط.. على أن الصناعة كانت قد أصبحت حديثة إلى درجة أن مصانع النسيج الأمريكية الشمالية كان متوسط مغازلها أقل من متوسط المغازل فى المكسيك فى عام ١٨٤٠(٢٦). وبعد ذلك بعشر سنوات، كان قد تم ماهو أكثر من مجرد قلب النسبة. ذلك أن انعدام الاستقرار السياسى، والضغط من جانب التجار البريطانيين والفرنسيين وشركائهم المحليين الأقوياء، وهزال السوق الداخلية التى خنقها مقدماً اقتصاد التعدين والملكيات الزراعية الكبيرة، قد دمر التجربة. وبحلول عام ١٨٥٠، كانت صناعة النسيج المكسيكية قد توقفت عن التقدم. وكان مؤسسو بنك الائتمان والتسليف قد وسعوا مجال

عملهم، وعندما زال البنك، كانت ائتماناته تشمل أيضاً مصانع المنسوجات الصوفية، ومصانع السجاد، ومصانع إنتاج الورق والحديد. وقد أكد أيستيبان دى أنتونيانو على حاجة المكسيك إلى خلق صناعة آلات قوية بأسرع ما يمكن "للتصدى للأنانية الأوروبية". وتكمن المأثرة العظيمة لدورة التصنيع التى قام بها آلامان وأنتونيانو فى أن كلاً من الرجلين قد استعاد التطابق بين "الاستقلال السياسى والاستقلال الاقتصادى، وأشاد بالتصنيع بوصفه الدفاع الوحيد ضد أمم قوية وعدوانية"[٢٧]. وقد أصبح آلامان نفسه من رجال الصناعة، حيث شيد أكبر مصنع للنسيج فى المكسيك فى ذلك الوقت (وهو مايزال قائماً إلى اليوم ويحمل اسم كوكولابان)، ونَظَّمَ رجالَ الصناعة الآخرين كجماعة ضغط ضد حكومات التجارة الحرة المتعاقبة[٢٨]. لكن آلامان، المحافظ والكاثوليكى، لم يمس قط المسألة الزراعية لأنه كان يشعر بالارتباط بالنظام القديم من الناحية الايديولوجية. وهو لم يدرك أن التنمية الصناعية كان لابد لها من أن تظل معلقة فى الهواء، دون مرتكزات دعم، فى ذلك البلد الموبوء بالملكيات الزراعية الكبيرة التى لاتحصى وبالبؤس الشامل.

■ حراب المتمردين وميراث الكراهية الذي خلّفَهُ مانويل دي روساس

الحماية فى مواجهة التجارة الحرة، البلد فى مواجهة الميناء: ذلك هو جوهر النضال فى الحروب الأهلية الأرجنتينية فى القرن التاسع عشر. إن بوينوس آيريس، التى لم تكن فى القرن السابع عشر أكثر من قرية كبيرة مؤلفة من أربعمائة بيت، قد سادت الأمة برمتها بعد ثورة مايو والاستقلال. لقد كانت الميناء الوحيد: وكان كل مايدخل البلاد أو يخرج منها مجبراً على المرور عبره. واليوم تتضح التشوهات التى فرضتها هيمنتها على الأمة: إن العاصمة وضواحيها تستوعب أكثر من ثلث سكان البلاد وتلعب بأشكال مختلفة دور المدبر لحاجات المقاطعات. وفى تلك الفترة، باحتكارها لايرادات الجمارك، والبنوك، واصدار النقود، ازدهرت بوينوس آيريس ازدهاراً سريعاً جداً على حساب المقاطعات الداخلية. لقد استحوذت على ايرادات الجمارك القومية – وهى تكاد تشكل كل دخل المدينة الميناء – لحسابها الخاص، وأنفقت أكثر من نصفها على الحروب ضد المقاطعات – التى كانت بهذه الطريقة تدفع ثمن دمارها[٢٩].

لقد كان البريطانيون يراقبون حركة الملاحة بالمنظارات المكبرة من نوافذ الغرفة التجارية التى أنشئت فى عام ١٨١٠ فى بوينوس أيريس، وقد زودوا سكان المدينة بالملابس الجميلة، والأزهار الاصطناعية وأربطة الأحذية، والمظلات، والأزرار والشيكولاته، بينما كان تدفق البونشوات والركابات المنتجة فى المصانع ينشر الخراب عبر البلاد. إن تقدير القيمة التى أعطتها السوق العالمية آنذاك لجلود ريو دى لابلاتا يتطلب من المرء العودة إلى عصر لم تكن فيه اللدائن والألياف الاصطناعية موجودة، ولو كخيال فى ذهن كيميائى. ولم يكن بمقدور شئ أن يعادل السهول الساحلية الخصبة بالنسبة إلى إنتاج الماشية على نطاق كبير. وقد اكتشف، فى عام ١٨١٦، نظام جديد لحفظ الجلود إلى أجل غير مسمى عن طريق معالجتها بالزرنيخ، وفى الوقت نفسه، كانت المجازر تزدهر وتتزايد أضعافاً مضاعفة. كانت البرازيل، وجزر الأنتيل، وأفريقيا تفتح أسواقها للحوم المجمدة المستوردة، ولما كان ذلك المنتوج قد كسب مستهلكين أجانب، فقد استشعر الأرجنتينيون التغير. وهكذا فرضت الضرائب على استهلاك اللحوم الداخلى واستبعدت اللحوم من التصدير؛ وفى غضون سنوات قليلة، زاد سعر العجول ثلاث مرات وزادت أسعار حظائر تربية الماشية عن قيمة أراضيها. لقد كان الجاوشو قد اعتادوا صيد العجول بحرية تحت السماء المكشوفة للمراعى غير المسورة، كما اعتادوا أكل أفضل اللحوم ونبذ كل مايتبقى باستثناء التزامهم الوحيد بتسليم الجلد إلى المالك. لكن الأمور تغيرت. فقد تضمنت إعادة تنظيم الإنتاج خضوع الجاوشو المترحل لتبعية وعبودية جديدة: إن مرسوما صدر فى عام ١٨١٥ قد اعتبر كل ريفى غير مالك خادماً، ملزماً بأن يحمل بطاقة هوية يدقق فيها سيده كل ثلاثة أشهر. فهو إما أن يكون خادماً أو أن يكون متشرداً، وكان المتشردون يجندون، بالقوة، فى كتائب حرس الحدود[٣٠]. إن كريول الأيام الخوالى الجسور، والذى كان وقوداً للمدافع فى الحروب الوطنية، قد حُوِّلَ إلى منبوذ، أو خادم ذليل بائس، أو نفر حقير فى الجيش. وإلاَّ فإنه كان يحمل سلاحاً وينضم إلى عصابات المونتونيرا المتمردة[٣١]. إن الجاوشو العنيف هذا، المحروم من كل شئ عدا الاعتزاز والغضب، قد عزز قوى حملات الفرسان التى تحدت مراراً جيوشاً جيدة التسليح مرسلة من بوينوس أيريس. وقد أدى انتشار مراعى تربية الماشية الرأسمالية فى السهول الساحلية الرطبة إلى اخضاع البلد كله لتصدير الجلود واللحوم، وسار يداً بيد مع ديكتاتورية ميناء التجارة الحرة. وحتى هزيمته ونفيه، كان خوسيه أرتيجاس القائد البارز لنضال جماهير الكريول ضد التجار وكبار ملاك الأراضى المرتبطين

بالسوق العالمية؛ وقد تمكن فيليبى باريلا بعد ذلك بسنوات من اشعال نيران تمرد كبير فى شمالى الأرجنتين لأن المرء، كما قال، "يكون متسولاً بلا بلد، أو حرية أو حقوق عندما يكون ريفياً". وقد اجتذب تمرده استجابة من المناطق الداخلية بأسرها. لقد كان آخر المتمردين؛ وقد مات فى عام ١٨٧٠، مصاباً بالسل ومعوزاً [٣٢]. وفى التاريخ الذى يُدَرَّسُ فى المدارس الأرجنتينية، فإن هذا المدافع عن " الاتحاد الامريكى" – حلم إحياء الوطن العظيم المجزأ – مازال يعتبر قاطع طريق مثله فى ذلك مثل ارتيجاس الذى كان ينظر إليه النظرة ذاتها حتى وقت قريب.

أمّا باريلا، الذى ولد فى قرية ضائعة بين جبال كاتاماركا، فقد كان شاهداً حزيناً للتعاسة التى انزلها الميناء المتغطرس البعيد بمقاطعته. وفى عام ١٨٢٤، عندما كان باريلا فى الثالثة من عمره، لم يكن بوسع كاتاماركا دفع نفقات النواب الذين أرسلتهم إلى المؤتمر التأسيسى فى بوينوس آيريس. وكانت ميسيونس، وسانتياجو ديل ايسترو، ومقاطعات أخرى فى مأزق مماثل. وقد أشار مانويل أنطونيو أثيبيدو، نائب كاتاماركا، إلى "التغير المشؤوم" الذى أحدثته المنافسة الأجنبية: "لقد كان على كاتاماركا أن تقف موقف المتفرج بلاحول أو قوة، فى حين أن زراعتها بدائية وباهظة التكاليف، وصناعتها لاتجد مستهلكين لمنتوجاتها ... وتكاد تكون تجارتها الآن غير موجودة"[٣٣]. وفى عام ١٨٣٠، لخص البريجادير جنرال بيدرو فيريّه، النائب من مقاطعة كورّ ينتيس، النتائج المحتملة للحماية التى دعا إليها:

"أجل، من المؤكد أن عدداً قليلاً من الأثرياء سوف يحرمون من تناول الخمور والمشروبات الكحولية الجميلة مع عشائهم ... أمّا بالنسبة إلى الطبقات الأقل يسراً فإن الفارق سوف يكون من الصعب رصده فى الخمور والمشروبات الكحولية التى تشربها الآن، على أن الفارق سوف يكون ملحوظاً فى الأسعار، وسوف ينخفض الاستهلاك، وهو أمر ليس سيئاً إلى هذا الحد. أن ريفيينا لن يرتدوا البونشوات الانجليزية كما أنهم لن يحملوا كرات ولا أربطة الصيد البريطانية؛ إننا لن نستورد الملابس، والأشياء الأخرى التى يمكننا صنعها بأنفسنا؛ لكن أحوال كافة الجماعات الأرجنتينية، من الناحية الأخرى، سوف تبدأ فى أن تكون أقل بؤساً وسوف يكف الشقاء المريع المحكوم علينا به الآن عن ملاحقتنا"[٣٤].

وفى خطوة مهمة نحو إعادة بناء الوحدة القومية التى مزقتها الحرب، فرضت حكومة خوان مانويل دى روساس تعريفة جمركية تهدف إلى توطيد الحماية الجمركية

بشكل حاسم. وقد حظرت استيراد المنتجات المصنوعة من الحديد والصفائح المعدنية المقصدرة، ومعدات ركوب الخيل، والبونشوات، والأحزمة، والنطاقات الصوفية أو القطنية، والملابس الصوفية الخشنة والمنتجات الزراعية، وعجلات العربات، والشموع المصنوعة من الشحوم الحيوانية، والأمشاط، وفرضت رسوماً مرتفعة على المركبات الكبيرة، والأحذية، والملابس، والأسرجة، والفواكه المجففة، والمشروبات الكحولية. ولم تكن هناك ضريبة على اللحوم المنقولة فى سفن أرجنتينية، وجرى تشجيع السراجة وزراعة التبغ. وسرعان ماتجلت آثار ذلك. فحتى معركة كاسيروس التى أدت إلى سقوط روساس فى عام ١٨٥٢، كانت السفن التى بنيت فى ترسانات كورّينتيس وسانتا فى تبحر عبر الأنهار، وازدهر أكثر من مائة مصنع فى بوينوس آيريس، وأشاد جميع الرحالة بالمستوى الممتاز للمنسوجات والأحذية المصنوعة فى كوردوبا وتوكومان، والسيجار سالتا ومنتجات حرفييها، والخمور والأنواع البراندى التى كانت تنتجها مِندوثا وسان خوان. وكان صناع الأثاث الفاخر فى توكومان يصدرون منتجاتهم إلى تشيلى، وبوليفيا، وبيرو[٣٥]. وبعد عشر سنوات من صدور القانون، حطمت مدافع البوارج البريطانية والفرنسية السلاسل الممدودة عبر نهر ريو بارانا لفتح الممرات المائية الداخلية التى كان روساس قد أحكم إغلاقها. وجاء الحصار فى أثر الغزو.

وكانت عشرة نداءات من يوركشاير، وليفربول، ومانشستر، وليدز، وهاليفاكس، وبرادفورد، وقعّها ألف وخمسمائة من رجال البنوك، والتجار والصناعيين، قد حثت الحكومة البريطانية على اتخاذ تدابير ضد القيود المفروضة على التجارة فى لابلاتا. وقد كشف الحصار عن حدود الصناعات القومية التى كانت عاجزة عن إشباع الطلب الداخلى، رغم التقدم الذى أحرزته فى ظل قانون التعريفة الجمركية. فمنذ عام ١٨٤١، كان الإنتاج الصناعى يتميز بالهزال بدلاً من أن يكتسب قوة. وكان روساس يمثل بالدرجة الأولى مصالح أولئك المسيطرين على تربية الماشية فى مقاطعة بوينوس آيريس، ولم تكن البورجوازية الصناعية موجودة أو لم تخلق لحفز تطور رأسمالية قومية حقيقية: لقد كانت المزرعة الكبيرة لتربية الماشية تحتل صدارة المسرح الاقتصادى، ولم يكن بالإمكان تطبيق سياسة صناعية تطبيقاً مستقلاً ونشيطاً دون القضاء على جبروت مالك المزرعة الكبير المتجه إلى التصدير. ومن الناحية الأساسية، ظل روساس منسجماً دائماً مع طبقته. "فالفارس الأحسن فى المقاطعة"[٣٦]، عازف الجيتار، الراقص والخَيَّالُ السريع المرموق، الذى كان يمضغ بعض أوراق العشب فى الليالى المظلمة العاصفة

ليحدد موقعه، كان هو نفسه صاحب مزرعة كبيرة تنتج اللحوم المجففة والجلود، وكان كبار ملاك الأراضي قد جعلوه رئيساً لهم. ولايمكن للأسطورة السوداء التي نسجت فيما بعد حول أسمه أن تخفي الطابع الوطني والشعبي لكثير من تدابيره الإدارية[٣٧]، لكن التناقضات الطبقية تفسر غياب أية سياسة صناعية دينامية، متواصلة - باستثناء الجراحة الجمركية. ولايمكن رد هذا الغياب إلى حالات عدم الاستقرار وحالات نقص الامدادات الناشئة عن الحروب الداخلية والحصار الأجنبي لأنه أليس صحيحاً أن آرتيجاس قد تمكن قبل ذلك بعشرين سنة، في معمان ثورة محاصرة، من الجمع بين إصلاح زراعي عميق وسياسات هادفة إلى تصنيع وتوحيد البلاد؟. لقد قارنت بيبيان تريّاس، في كتاب مهم[٣٨]، الحماية التي فرضها روساس بسلسلة التدابير التي مدها آرتيجاس من باندا أورينتال (أوروجواي الآن)، بين عامي ١٨١٣ و ١٨١٥، لتحقيق استقلال حقيقي لمنطقة ولاية لابلاتا. والحال أن روساس لم يمنع الأجانب من التجارة في السوق الداخلية، ولم يرد إلى الأمة إيرادات التعريفة الجمركية التي واصلت بوينوس آيريس الاستحواذ عليها، كما لم ينه ديكتاتورية الميناء الواحد والوحيد. لكن تأميم التجارة الداخلية والغاء احتكار ميناء وجمارك بوينوس آيريس كانا حجر الأساس - جنباً إلى جنب المسألة الزراعية - لسياسة آرتيجاس. وكان آرتيجاس يريد ملاحة حرة في الممرات المائية الداخلية، لكن روساس لم يعط المقاطعات قط هذا المفتاح إلى باب التجارة الخارجية. كما ظل روساس مخلصاً بصفة أساسية لمقاطعته المحظوظة. ورغم كل هذه الحدود، ماتزال قومية وشعبوية" الجاوشو الأزرق العينين" تستثير الكراهية ضمن صفوف الطبقات الحاكمة في الأرجنتين. فروساس مايزال "مذنباً بخيانة الوطن" - كما ذكر قانون صادر في عام ١٨٥٧ لم يتسن الغاؤه قط - وماتزال البلاد ترفض فتح مقبرة لعظامه، المدفونة في أوروبا. إن الصورة الرسمية المرسومة له هي صورة قاتل مجرم.

ومع القضاء على هرطقة روساس، أعادت الأوليجاركية اكتشاف مصيرها. لقد افتتح رئيس لجنة المعرض الزراعي في عام ١٨٥٨ المعرض بهذه الكلمات: "إننا نرضى متواضعين، إذ مانزال في طفولتنا، بارسال منتجاتنا وموادنا الخام إلى الأسواق الأوروبية حتى تتسنى إعادتها إلينا مصنعة من خلال الوسائل القوية التي تملكها أوروبا. إن المواد الخام هي ماتريده أوروبا، لكي تحولها إلى مصنوعات غنية"[٣٩].

وكان الكاتب اللامع دومينجو فاوستينو سارمينتو وغيره من الكتاب الليبراليين

لايرون فى المونتونيرا الريفية غير رمز للبربرية، والتخلف، والجهل، المفارقة التاريخية التى تضع الريف فى مواجهة الحضارة المدينية، البونشو والمئزر فى مواجهة الفراك، الحربة والسكين فى مواجهة القوات النظامية، الأمية فى مواجهة المدرسة[٤٠]. وقد كتب سارمينتو إلى الرئيس بارتولومى ميترى فى عام ١٨٦١ يقول: "لاتحاول الاقتصاد فى نزف دم الجاوشو، فهو الشئ الإنسانى الوحيد فيهم. وهو سماد يجب إفادة البلاد به". لقد كان هذا الاحتقار والكره تعبيراً عن روح معادية للوطنية ومشربة بالاقتصاد السياسى على نحو واضح. وقد قال سارمينتو: "نحن لسنا صناعيين ولسنا ملاحين. وسوف تزودنا أوروبا لقرون عديدة بمصنوعاتها فى مقابل موادنا الخام"[٤١]. واعتباراً من عام ١٨٦٢، شن ميترى حرب إبادة ضد المقاطعات وقادتها الأخيرين. وقد وضع سارمينتو على رأس الحملة، واتجهت القوات شمالاً لقتل الجاوشو "أسوأ الحيوانات التى تسير على قدمين". وفى لاريوخا، أبدى المتمردون تحت قيادة الجنرال "إل تشاتشو" بنيالوثا، جنرال السهول الذى امتد نفوذه إلى مندوثا وسان خوان، صموداً من الصمودات الأخيرة ضد بوينوس آيريس، التى شعرت أنه قد آن الأوان للقضاء على بنيا لوثا. لقد قطعوا رأسه وعلقوها بمسار فى ساحة بلازا دى أولتا. واستكملت السكك الحديدية والطرق الرئيسية سقوط لاريوخا الذى كان قد بدأ مع ثورة ١٨١٠: ذلك أن التجارة الحرة قد جرت أزمة على حرفييها كما عمقت بؤس المنطقة المزمن.

وفى القرن العشرين، يهرب فلاحو لاريوخا من قراهم فى الجبال وفى السهول ويتدفقون على بوينوس آيريس لكى يعرضوا قوة عملهم: وشأنهم فى ذلك شأن فلاحى المقاطعات الفقيرة الأخرى، لايصلون إلى أبعد من مشارف المدينة، حيث يستقرون إلى جانب سبعمائة ألف من السكان الآخرين لـ "المدن البائسة" ويقيمون أودهم قدر الإمكان بفتات من مائدة مأدبة العاصمة الفخيمة. وقبل سنوات قليلة، سأل سوسيولوجيون المائة والخمسين شخصاً الباقين من إحدى قرى لاريوخا ما إذا كانوا قد لمسوا أى تغير فى أحوال جيرانهم السابقين الذين رحلوا ويعودون فى زيارات. وقد قال أولئك الذين بقوا بنبرة حسد نعم، إن بوينوس آيريس قد حسنت ملابس المهاجرين، وطرائق تعاملهم، وأسلوب حديثهم. كما وجد البعض أن المهاجرين قد أصبح لون بشرتهم "أكثر بياضاً"[٤٢].

■ كيف قضت حرب التحالف الثلاثي ضد الباراجواى على المحاولة الناجحة الوحيدة للتنمية المستقلة

جلس الرجل إلى جوارى فى صمت. وقد كشف ضوء الظهيرة القوى عن ملامح وجهه الذى يتميز بأنف حاد ووجنتين بارزتين. كنا قد غادرنا الحدود الجنوبية متجهين إلى أسونثيون فى باص لعشرين شخصاً اتسع بسحر ساحر لخمسين. وقد توقفنا فى إحدى المحطات بعد ساعات قليلة. جلسنا فى باحة مرصوفة مكشوفة تحت ظلال أوراق الأشجار المكتنزة. كانت تمتد أمامنا الروعة المراوغة للأرض الحمراء، الواسعة، المقفرة، التى لم تمسسها يد إنسان. ومن أفق إلى أفق لم يزعج شئ شفافية نسيم باراجواى. دخنّا. لمم صاحبى، وهو فلاح يتحدث الجوارانية، كلمات حزينة قليلة بالاسبانية وقال: "نحن أهل باراجواى فقراء وقليلون". وأوضح لى أنه كان قد ذهب إلى انكارناثيون بحثاً عن عمل إلاّ أنه لم يجد أى عمل. وكان قد تمكن من تدبير بيسوات قليلة لشراء تذكرة العودة إلى بلده. وقبل ذلك بسنوات، عندما كان فتياً، كان قد جرب حظه فى بوينوس آيريس والبرازيل الجنوبية. وها قد جاء موسم جمع القطن ويرحل كثيرون من أجراء أوروجواى إلى الأرجنتين، مثلما يفعلون كل عام. "لكننى فى الثالثة والستين. كل هؤلاء الناس يبحثون عن عمل – إن قلبى لا يقوى على احتمال ذلك".

فى السنوات العشرين الماضية، رحل نصف مليون من سكان باراجواى عن بلدهم مرة وإلى الأبد. **فالفقر يطرد سكان البلد الذى كان، قبل قرن واحد، البلد الأكثر تقدماً فى أمريكا الجنوبية.** واليوم يصل عدد سكان باراجواى بالكاد إلى ضعف ما كان عليه آنذاك، وهو، مع بوليفيا، واحد من أفقر البلدان وأكثرها تخلفاً فى نصف الكرة الأرضية الغربى. وتتبع المحن التى يمر بها سكان باراجواى من حرب إبادة تعد أكثر فصول تاريخ امريكا الجنوبية خزياً: وقد سموها بحرب التحالف الثلاثى. إذ اشتركت البرازيل، والأرجنتين وأوروجواى فى اقتراف جريمة الإبادة. وهى لم تترك حجراً على حجر، كما لم تترك ذكوراً وسط الأنقاض. ومع أن بريطانيا لم تشارك بشكل مباشر فى هذا العمل المروع، إلاّ أن الغنيمة قد انتهت إلى جيوب التجار، ورجال البنوك، والصناعيين البريطانيين. **وقد جرى تمويل الغزو من البداية إلى النهاية من جانب بنك لندن، والأخوة بارنج، وبنك روتشيلد، عن طريق قروض ذات معدلات فائدة باهظة رهنت مصير البلدان الظافرة[٤٣].**

قبل تدميرها، كانت باراجواى تتميز بكونها حالة استثنائية فى أمريكا اللاتينية – فهى البلد الوحيد الذى لم يكن رأس المال الأجنبى قد شوهه. وكانت ديكتاتورية جاسبار رودريجث دى فرانثيا (١٨١٤ – ١٨٤٠) الحديدية، الطويلة، قد رعت عملية تنمية مستقلة، متواصلة فى رحم العزلة. لقد شغلت الدولة الأبوية كلية الجبروت مكان بورجوازية قومية لاوجود لها فى تنظيم الأمة وتوجيه مواردها ومصيرها. وكان فرانثيا قد استخدم الجماهير الفلاحية فى سحق أوليجاركية باراجواى، وكان قد وطد السلم الداخلى عن طريق إقامة كوردون صحى بين باراجواى والبلدان الأخرى التابعة لولاية لابلاتا القديمة – واستخدمت المصادرات وعمليات النفى، والسجن، والاضطهاد والفرامات – ليس لتوطيد القوة الداخلية لكبار ملاك الأراضى والتجار، وإنما من أجل تدميرها. كما أن الحريات السياسية وحق المعارضة لم تكن موجودة ولن تظهر إلى الوجود فيما بعد، إلاّ أن انعدام الديمقراطية فى تلك المرحلة التاريخية لم يزعج غير الأشخاص الذين كان الحنين يجرفهم إلى الامتيازات الضائعة. ولم تكن هناك ثروات خاصة كبيرة عندما مات فرانثيا، وكانت باراجواى هى البلد الأمريكى اللاتينى الوحيد الذى لايعرف التسول، والجوع، والسرقة[٤٤]؛ وقد وجد رحالة تلك الفترة واحة من الدعة وسط مناطق تعصف بها حروب متواصلة. وقد أبلغ العميل الأمريكى هو بكنز حكومته فى عام ١٨٤٥ بأنه "لايوجد فى باراجواى طفل ليس بوسعه القراءة والكتابة". كما أنها البلد الوحيد الذى لم يضطر إلى تثبيت أنظاره على الجانب الآخر للمحيط. ولم تكن التجارة الخارجية محور الحياة القومية، ولم يكن المذهب الليبرالى، التعبير الايديولوجى عن السوق العالمية، يملك رداً على موقف التحدى الذى اتخذته باراجواى – التى أجبرتها عزلتها الداخلية على النمو اعتماداً على الداخل – منذ بداية القرن. وكان من شأن القضاء على الأوليجاركية أن يساعد الدولة على تجميع مواردها الاقتصادية الرئيسية فى يديها، وتنفيذ هذه السياسة الانمائية الداخلية المبنية على الاعتماد على الذات.

والحال أن الحكومات المتعاقبة التى عملت فى ظل كارلوس أنطونيو لوبث وأبنه فرانثيسكو سولانو قد واصلت المهمة وأضفت الحيوية عليها. وكان الاقتصاد يحقق نمواً كاملاً. وعندما ظهر الغزاة فى الأفق فى عام ١٨٦٥، كان فى باراجواى شبكات للتلغراف، وسكة حديدية، ومصانع عديدة تنتج مواد البناء، والمنسوجات، والملابس الكتانية، والبونشوات، والورق والحبر، والأوانى الخزفية، والبارود. وقد قدم مائتان من الفنيين الأجانب، الذين دفعت الدولة رواتب سخية لهم، مساهمة حاسمة. واعتباراً من عام

١٨٥٠، كان مسبك ايبيكوى ينتج البنادق، ومدافع الهاون، وذخيرة من كافة الأعيرة، وكانت الترسانة الموجودة فى أسونثيون تنتج المدافع البرونزية ومدافع هاوتزر، والذخيرة. وكانت صناعة الصلب، شأنها فى ذلك شأن كافة الأنشطة الاقتصادية الرئيسية الأخرى، تخص الدولة. وكان للبلد أسطول تجارى، وكانت ترسانة أسونثيون تنتج الكثير من السفن التى ترفع علم باراجواى فى بارانا وعبر المحيط الأطلسى والبحر المتوسط. وقد احتكرت الدولة التجارة الداخلية احتكاراً يكاد يكون كاملا؛ وكانت تورد الماتى والتبغ إلى الجزء الجنوبى من القارة وتصدر أخشاباً ثمينة إلى أوروبا. وقد حقق الميزان التجارى فائضاً كبيراً. ومع توافر عملة قوية ومستقرة، كانت باراجواى ثرية بما يكفى لتنفيذ أشغال عامة ضخمة دون اللجوء إلى رأس المال الأجنبى. وهى لم تكن مدينة للخارج بمليم واحد، وقد تمكنت مع ذلك من الاحتفاظ بأفضل جيش فى أمريكا الجنوبية، ومن استئجار فنيين بريطانيين لخدمة الدولة بدلاً من وضع الدولة فى خدمتهم، ومن ارسال بعض الطلاب الجامعيين لاستكمال دراساتهم فى أوروبا. ولم يجر تبديد الفائض الاقتصادى من الإنتاج الزراعى على يد أوليجاركية (لم يكن لها وجود)؛ كما أنه لم يذهب إلى جيوب سماسرة أو حيتان قروض، ولم يعزز أرباح شركات الامبراطورية البريطانية العاملة فى مجالى الشحن والتأمين. وخلاصة القول أن الاسفنج الامبريالى لم يشفط الثروة التى أنتجها البلد. وكانت نسبة ثمانية وتسعين فى المائة من أراضى باراجواى ملكية عامة: وقد منحت الدولة حيازات للفلاحين فى مقابل شغلها بصفة دائمة وفلاحتها دون أن يكون لهم حق فى بيعها. كما كانت هناك أربع وستون "مزرعة وطنية" وهى مزارع كبيرة تديرها الدولة إدارة مباشرة. وقد ساعدت شبكات الرى، والسدود، والقنوات، والجسور والطرق الجديدة، مساعدة مهمة فى زيادة الإنتاج الزراعى. وجرى إحياء تقليد السكان الأصليين الخاص بزراعة محصولين فى السنة، والذى كان الفاتحون الأسبان قد تخلوا عنه. ومما لاشك فيه أن التشجيع النشيط للتقاليد اليسوعية قد ساهم فى هذه العملية الابداعية(٤٥).

وقد اتبعت الدولة سياسة حماية متشددة – جرى تعزيزها أكثر فى عام ١٨٦٤ – لحماية الصناعة القومية والسوق الداخلية؛ وأغلقت الممرات المائية الداخلية فى وجه السفن البريطانية التى كانت تمطر بقية أمريكا اللاتينية بسيل من منتجات مانشستر وليفربول. ولم تخف دوائر التجارة البريطانية قلقها، ليس فقط لأن هذه القلعة الأخيرة للمقاومة القومية فى قلب القارة قد بدت منيعة حصينة، وإنما أيضاً وبوجه خاص بسبب

المثل الخطير الذى يضربه عناد باراجواى لجيرانها. فالبلد الأكثر تقدمية فى أمريكا اللاتينية يبنى مستقبله دون استثمارات أجنبية، ودون قروض البنوك البريطانية، ودون نعم التجارة الحرة.

إلاَّ أنه مع تقدم باراجواى، تقدمت أيضاً حاجتها للخروج من عزلتها. وكانت التنمية الصناعية تستدعى صلات أوثق ومباشرة أكثر مع السوق الدولية ومع مصادر التقنيات المتقدمة. وكانت باراجواى محاصرة من الناحية الفعلية من الأرجنتين من جانب ومن البرازيل من الجانب الآخر، وكان بوسعهما خنقها عن طريق اغلاق مصبات الأنهار (مثلما فعل ريفادافيا وروساس) أو عن طريق فرض ضرائب تعسفية على مرور سلعها. وعلى أية حال، فقد كان من الضرورى لتوطيد الدولة الأوليجاركية محو الفضيحة التى يثيرها هذا البلد الكريه، المكتفى ذاتياً والمعترض على الرضوخ للتجار البريطانيين.

والحال أن ادوارد ثورنتون، الوزير البريطانى المفوض فى بوينوس آيريس، قد لعب دوراً رئيسياً فى التحضير للحرب. وعندما كانت على وشك النشوب، شارك كمستشار حكومى فى اجتماعات مجلس وزراء الأرجنتين، حيث كان يجلس إلى جوار الرئيس ميترى. وقد حيك شرك الاستفزازات والخدع، والذى انتهى باتفاق برازيلى – أرجنتينى حسم مصير باراجواى، تحت رعاية ثورنتون الأبوية. وقد غزا فيناتشيو فلوريس أوروجواى، حيث ساعده فى تدخله جارتاها الكبيرتان، وبعد منحبة بياساندو أقام حكومة فى مونتفيديو تأتمر بأوامر ريو دى جانيرو وبوينوس آيريس. وكان التحالف الثلاثى آخذاً فى التبلور. لقد كان سولانو لوبث، رئيس باراجواى، قد هدد بالحرب فى حالة شن هجوم على أوروجواى: وكان يعرف أن ذلك الهجوم سوف يلف كماشة تخنق بلاده، المطوقة بالجغرافيا وبالعدو. وبرغم ذلك، يزعم المؤرخ الليبرالى افرايم كاردوزو بوقاحة أن لوبث لم يقف فى وجه البرازيل إلاَّ لأنه قد أهين إهانة شخصية: لقد رفض الامبراطور طلبه يد إحدى بناته. وكان الصدام حتمياً، لكنه كان من تدبير عطارد(*) لا بسبب كيوبيد(**).

وقد وصفت صحف بوينوس آيريس لوبث بأنه "اتيلا أمريكا". وكانت المقالات الافتتاحية تنادى صارخةً: "يجب قتله قتل الزواحف". وفى سبتمبر ١٨٦٤، أرسل ثورنتون تقريراً سرياً مطولاً إلى لندن، مرسلاً من آسونثيون. وقد وصف باراجواى كما

(*) إله التجارة والقول المعسول والخبث واللصوصية عند الرومان. – المترجم.

(**) إله الحب عند الرومان، نظير ايروس عند الإغريق. المترجم.

وصف دانتى الجحيم، لكنه وضع التأكيد فى مقامه: "إن رسوم الاستيراد على كل السلع تقريباً تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ فى المائة من القيمة، ولكن بما أن هذه القيمة تحسب على أساس السعر الجارى للسلع، فإن الرسم المدفوع غالباً ما يصل إلى نسبة تتراوح بين ٤٠ و ٤٥ فى المائة من السعر المحدد فى الفاتورة هذا بينما تتراوح رسوم التصدير بين ١٠ و ٢٠ فى المائة من القيمة ...". وفى أبريل ١٨٦٥، كانت صحيفة "ذى ستاندارد" اليومية الصادرة بالانجليزية فى بوينوس آيريس، ترحب بالفعل باعلان الارجنتين الحرب على باراجواى، التى قالت أن رئيسها قد "انتهك كافة أعراف الأمم المتحضرة"، وكانت تعلن أن سيف الرئيس الأرجنتينى ميترى "سوف يستند فى مسيرته الظافرة، بالإضافة إلى ثقل الأمجاد الماضية، إلى الهجوم الكاسح للرأى العام فى قضية عادلة". وقد وقعت المعاهدة مع البرازيل وأوروجواى فى أول مايو ١٨٦٥؛ ونشرت شروطها الوحشية بعد سنة فى صحيفة التايمز اللندنية، التى حصلت على النص من مقرضين مصرفيين فى الأرجنتين والبرازيل. لقد قَسَّمَ منتصرو المستقبل إسلاب المغلوب مقدماً. فقد وعدت الأرجنتين بمجمل أراضى ميسيونيس والتشاكو الواسعة؛ ووعدت البرازيل بشريحة سمينة غربى حدودها. أما أوروجواى، التى تحكمها حكومة عميلة لكل من الدولتين، فلم توعد بشئ.

وقد أعلن ميترى أنه سوف يستولى على أسونثيون فى خلال ثلاثة أشهر، لكن الحرب استمرت خمس سنوات. لقد كانت الحرب مذبحة من بداية إلى نهاية سلسلة الحصون المدافعة عن نهر الباراجواى. وكان "الطاغية الحقير" سولانو لوبث تجسيداً بطولياً للإرادة القومية فى البقاء؛ وإلى جانبه وقف شعب باراجواى، الذى لم يعرف الحرب على مدار نصف قرن، مستبسلاً مستشهداً. لقد حارب الرجال والنساء، الصغار والكبار، كالأسود. وكان الأسرى الجريحون ينزعون ضمادات جروحهم لينزف منها الدم حتى لايجبروا على القتال ضد إخوتهم. وفى عام ١٨٧٠، اتجه لوبث إلى الغابات، على رأس جيش من الأشباح، من الشيوخ والأطفال الذين وضعوا على نقونهم لحى مستعارة لكى يخلقوا انطباعاً من بُعْدٍ بأنهم رجال. وقد انقضت القوات الغازية على أطلال أسونثيون والمدى فى أسنانها. وعندما أنهت الرصاصات والحراب أخيراً رئيس باراجواى فى أحراش ثيرّو كورا، كان مايزال بوسعه أن يقول: "إننى أموت مع بلادى!" - وكان ذلك صحيحاً. فقد ماتت باراجواى معه بالفعل. كان لوبث قد سبق له أن أصدر الأوامر باعدام أخيه وأسقف صحبه فى قافلة الموت هذه. وقد جاء الغزاة لتخليص شعب

باراجواى، وقضوا على هذا الشعب. فعندما بدأت الحرب، كان عدد سكان باراجواى فى ضخامة عدد سكان الأرجنتين. ولم يبق فى عام ١٨٧٠ غير ٢٥٠,٠٠٠، أى أقل من السدس وكان ذلك هو انتصار الحضارة. والحال أن المنتصرين، وقد استنزفتهم التكاليف الباهظة للجريمة، قد ارتموا فى أحضان رجال البنوك الذين كانوا قد مولوا المغامرة. على أن امبراطورية بيدرو الثانى العبودية، والتى كانت جيوشها مليئة بالعبيد والأسرى، قد كسبت أكثر من عشرين ألف ميل مربع من الأرض - بالإضافة إلى قوة العمل، لأن الأسرى الذين اقتيدوا من باراجواى للعمل فى مزارع البن فى سلو باولو قد عوملوا معاملة العبيد. أما أرجنتين الرئيس ميترى، الذى كان قد سحق قادته الاتحاديين، فقد فاز بستة وثلاثين ألف ميل مربع من أراضى باراجواى، إلى جانب أسلاب أخرى: لقد كتب يقول: "سوف نقتسم الأسرى ومعدات الحرب الأخرى بصورة مناسبة". أما أوروجواى، حيث قتل ورثة آرتيجاس أو هزموا وصعدت أوليجاركية إلى سدة الحكم، فقد شاركت فى الحرب كشريك أصغر دون أن تفوز بشئ. والحال أن بعض جنود أوراجواى الذين أرسلوا إلى حملة باراجواى كان يجرى شحنهم فى السفن وأيديهم مقيدة. وقد أدى الإفلاس المالى للبلدان الثلاثة إلى تعميق اعتمادها على بريطانيا. إن منبحة باراجواى قد تركت بصماتها عليها إلى الأبد[٤٦].

لقد أدت البرازيل الدور الذى حدده لها البريطانيون، عندما نقلوا العرش البرتغالى إلى ريو دى جانييرو. وكانت تعليمات اللورد كاننج إلى السفير، الفيكونت سترانجفورد، فى أوائل القرن التاسع عشر، واضحة كل الوضوح: فلتجعل من البرازيل سوقاً للمنتوجات البريطانية الموجهة إلى الاستهلاك فى أمريكا الجنوبية بأسرها. وقبل وقت قليل من خوض الحرب، أدلى الرئيس الأرجنتينى، عند افتتاحه خط سكك حديدية بريطانية جديداً، بكلمة حماسية: "ماهى القوة المحركة لهذا التقدم؟ أيها السادة، إنها رأس المال البريطانى!". وفى باراجواى المهزومة، فإن الذى اختفى ليس هو مجرد السكان وأجزاء شاسعة من الأرض، وإنما أيضاً التعريفة الجمركية، والمسابك، والأنهار المغلقة فى وجه التجارة الحرة، والاستقلال الاقتصادى. وضمن حدودها المختزلة، غرس الفاتحون التجارة الحرة والملكية الزراعية الكبيرة. لقد جرى نهب كل شئ وبيع كل شئ: الأراضى والغابات، المناجم، مزارع الماتى، مبانى المدارس. ونصبت قوات الاحتلال حكومات عميلة متعاقبة فى أسونثيون. ولم تكد الحرب تنتهى حتى سقط أول قرض أجنبى فى تاريخ باراجواى على الأنقاض التى يتصاعد منها الدخان. وطبيعى أنه كان

قرضاً بريطانياً. لقد كانت قيمته الأسمية مليون جنيه استرليني. إلاّ أن ماوصل باراجواى كان أقل من نصف هذا المبلغ بكثير، وفى السنوات التالية، أدت إعادة التمويل إلى زيادة الدين إلى أكثر من ٣ مليون جنيه استرليني. وكانت حرب الأفيون قد انتهت فى عام ١٨٤٢ بتوقيع معاهدة فى نانكين تبيح التجارة الحرة، وتكرس حق التجار البريطانيين فى ادخال المخدر دون قيود إلى الصين؛ والآن ارتفع علم التجارة الحرة فوق باراجواى أيضاً. وجرى التخلى عن زراعة القطن وقوضت مانشستر إنتاج المنسوجات؛ ولم تعد الصناعة القومية إلى الحياة قط.

إن حزب الكولورادو، الذى يحكم باراجواى الآن، يتاجر بذكرى الأبطال، لكن ميثاق تأسيسه يحمل توقيعات اثنين وعشرين من خائنى سولانو لوبث، من "المحاربين القدماء" الذين عملوا مع قوات الاحتلال البرازيلية. إن الديكتاتور الفريدو ستروبسنر، الذى قضى السنوات الخمس عشرة الأخيرة فى تحويل باراجواى إلى معسكر اعتقال مترامى الأطراف، قد تلقى تدريبه العسكرى على يد الجنرالات البرازيليين، الذين اعادوه إلى باراجواى بأعلى الدرجات وأكثر الاشادات حرارة: "إنه جدير بمستقبل عظيم ...". وخلال عهده، أنعم ستروبسنر على البرازيل وعلى سادتها الأمريكيين بالمكانة المهيمنة التى كانت تحتلها المصالح الأنجلو – أرجنتينية فى العقود السابقة. والحال أن البرازيل والارجنتين، اللتين "حررتا" باراجواى بهدف التهامها، قد تناوبتا التمتع بثمار النهب منذ عام ١٨٧٠. لكنهما قد أرغمتا من جانب القوة الامبريالية السائدة على أن تحملا صليبيهما. لقد حملت باراجواى عبء الامبريالية والامبريالية من الباطن. وكانت الامبراطورية البريطانية تمثل الحلقة الرئيسية فى سلسلة التبعيات، أما اليوم، فإن الولايات المتحدة، التى تفهم جيداً الأهمية الجغرافية السياسية لهذا البلد الواقع فى قلب أمريكا الجنوبية، تحتفظ بمستشارين لاحصر لهم يدربون القوات المسلحة ويقدمون لها المشورة، ويطبخون الخطط الاقتصادية، ويعيدون صوغ الجامعة بما يتفق وأهواءهم، ويبتدعون سياسة "ديمقراطية" جديدة للبلاد، ويكافئون خدمات النظام السخية بقروض مرهقة[٤٧]. كما أن باراجواى، مستعمرة لمستعمرات أخرى. إن حكومة ستروبسنر، مستخدمةً الإصلاح الزراعى كذريعة، قد ألغت الحظر القانونى المفروض على بيع الأراضى المتاخمة للحدود للأجانب، وقد وقعت أراضى الدولة نفسها اليوم فى أيدى ملاك مزارع البن البرازيليين. لقد عبرت الموجة الغازية نهر ريو بارانا بتواطؤ من الرئيس، وبالاشتراك مع كبار ملاك الأراضى المتكلمين بالبرتغالية. وعندما وَصَلَتْ إلى حدود

باراجواى الشمالية الشرقية التى دخلت عليها التعديلات، كانت معى أوراق بنكنوت تحمل صورة سولانو لوبث المهزوم، لكننى اكتشفت أن أوراق البنكنوت التى تحمل صورة الامبراطور بدرو الثانى المنتصر هى وحدها المتداولة. فبعد مرور قرن، ماتزال نتيجة حرب التحالف الثلاثى تتميز بحالية ملحة. إن حرس الحدود البرازيلى يطلب جوازات سفر من مواطنى باراجواى الذين لايريدون سوى التحرك فى بلدهم. والأعلام والكنائس برازيلية. كما أن القرصنة البرية تستولى على شلالات جوايرا، أعظم مصدر محتمل للطاقة فى أمريكا اللاتينية كلها؛ وهى تسمى الآن - بالبرتغالية - سيتى كيداس. وقد أعلن أن البرازيل سوف تبنى هنا أعظم محطة للطاقة المائية فى العالم.

والامبريالية من الباطن لها ألف وجه. فعندما قرر الرئيس جونسون فى عام ١٩٦٥ اغراق الشعب الدومينيكانى فى بحر من الدماء، أرسل ستروبسنر بعض جنود باراجواى لمساعدته. وفى سخرية خبيثة، سميت الكتيبة "كتيبة المارشال سولانو لوبث". وكان جنود باراجواى تحت إمرة جنرال برازيلى، لأن البرازيل هى التى تلقت إنعامات يهوذا: لقد قاد الجنرال باناسكو ألفيم المتواطئين الأمريكيين اللاتينيين العسكريين فى المجزرة. وهناك أمثلة مماثلة أخرى. لقد منحت باراجواى البرازيل امتيازاً نفطياً فى أراضيها، لكن استثمارات توزيع الوقود والاستثمارات البتروكيميائية فى البرازيل فى أيدٍ أمريكية. وتهيمن البعثة الثقافية البرازيلية على كلية الفلسفة والتربية فى جامعة باراجواى، لكن الأمريكيين الشماليين يديرون الآن جامعات البرازيل. والأركان العامة لجيش باراجواى لاتتلقى المشورة من فنيي البنتاجون وحدهم وإنما أيضا من الجنرالات البرازيليين الذين، بدورهم، يعدون بالنسبة إلى البنتاجون كصدى بالنسبة إلى صوت. ومن خلال قنوات التهريب المفتوحة، تغزو المنتجات الصناعية البرازيلية سوق باراجواى، لكن مصانع ساو باولو التى تنتجها تخص الشركات الأمريكية منذ اعصار نزع التأميم الذى ثار فى السنوات الأخيرة.

ويعتبر ستروبسنر نفسه وريث لوبث. ولكن كيف يمكن أن توضع باراجواى قرن مضى على قدم وساق مع باراجواى اليوم، سوق تهريب حوض لابلاتا ومملكة الفساد الذى صار مؤسسة؟ إلا أنه بينما كان التصفيق والهتاف العاصفان يحييان فى تظاهرة سياسية اعلان الحزب الحاكم تمسكه بباراجواى لوبث وباراجواى ستروبسنر، شرع غلام ينادى علانية على سجائر مهربة أمام طاولة للبيع: وسرعان ماتدافع الجمهور المحموم بعصبية على سجائر كنت، ومارلبورو، وكاميل، وبنسون آندهيدجز. أما الطبقة

المتوسطة الهزيلة فى أسونثيون فهى تشرب ويسكى بالانتاين بدلاً من روم الباراجواى. ويرى المرء فى الشوارع سيارات فارهة من أحدث طراز مصنوعة فى الولايات المتحدة أو أوروبا، دخلت البلاد عن طريق التهريب أو بعد سداد رسم جمركى تافه، تسير إلى جانب عربات تجرها الثيران تحمل الفاكهة ببطء إلى السوق: الأرض تجرى فلاحتها بالمحاريث الخشبية بينما التاكسيات فورد من طراز إمبالا موديل عام ١٩٧٠. ويعرّف ستروبسنر التهريب بأنه "ضريبة السلام": فالجنرالات يملأون جيوبهم ولايحيكون مؤامرات. وطبيعى أن الصناعة تدخل مرحلة الاحتضار قبل أن يتسنى لها النمو. بل إن الدولة لاتنفذ المرسوم الذى ينص على اعطاء الأولوية لاستخدام المنتجات المحلية فى الانفاق العام. والانتصارات الوحيدة التى تعلن عنها الحكومة بفخار فى هذا المجال هى مصانع كوكاكولا وبيبسى كولا وكراش التى أنشئت فى أواخر عام ١٩٦٦ كمساهمة أمريكية فى تقدم شعب باراجواى.

وتعلن الدولة أنها لن تتدخل بشكل مباشر فى إنشاء المشروعات إلاّ "عندما لايبدى القطاع الخاص اهتماماً[٤٨]" ويبلغ البنك المركزى صندوق النقد الدولى بأنه قد "قرر إنشاء نظام سوق للتبادل الحر والغاء القيود المفروضة على التجارة وعلى المعاملات النقدية". ويشرح كتيب نشرته وزارة الصناعة والتجارة للمستثمرين أن البلاد تمنح "تنازلات خاصة لرأس المال الأجنبى". فالمشروعات الأجنبية معفاة من الضرائب والرسوم الجمركية وذلك "لخلق مناخ ملائم للاستثمار". وقد استرجع الناشيونال سيتى بنك أوف نيويورك كل رساميله المستثمرة فى سنة واحدة من النشاط الاستثمارى فى أسونثيون. ويستولى البنك الأجنبى على المدخرات القومية ويقدم قروضاً خارجية إلى باراجواى، وهى قروض تزيد من تشوه اقتصادها وتزيد من رهن سيادتها. وفى الريف، تملك نسبة ١,٥ فى المائة من الملاك نسبة ٩٠ فى المائة من الأرض الزراعية، بينما لايزرع غير أقل من ٢ فى المائة من المساحة الاجمالية للأرض. أما خطة الاستيطان الرسمية فى مثلث كاجواثو فهى تقدم للفلاحين الجائعين قبوراً أكثر من المكاسب[٤٩]. إن الوطن يحرم أطفاله من حق العمل والخبز اليومى ويهاجر سكان باراجواى هجرات جماعية.

إن أفران مسبك ايبيكوى، حيث صنع المدفع الذى استخدم فى الدفاع عن الوطن الذى تعرض للغزو، قد أنشئت فى مكان يسمى الآن مينا - كوى، التى تعنى بالجوارانية "كان منجماً". وهناك، وسط المستنقعات والبعوض، قرب حائط متداعٍ،

مايزال بوسعك أن ترى قاعدة مدخنة نسفها الغزاة قبل قرن مضى، وقطعاً من الصلب الصدئ كانت جزءاً من البناء. والحال أن الفلاحين الأشقياء القلائل الذين يحيون فى المنطقة لايعرفون أية حرب سببت الدمار، لكنهم يقولون إن بوسع المرء أحياناً أن يسمع فى الليل أصوات الآلات والمطارق، وقصف المدافع، وصيحات الجنود. لقد أحرز التحالف الثلاثى نجاحاً فائقاً.

■ كيف شوهت القروض والسكك الحديدية اقتصاد أمريكا اللاتينية

فى تقرير يبدو أنه ناشئ عن دراية جيدة بما آلت إليه الأمور، كتب رينيه شاتوبريان، وزير خارجية فرنسا فى ظل لويس الثانى عشر: "لقد تحولت المستعمرات الأسبانية فى ساعة التحرر إلى شئ شبيه بمستعمرات بريطانية"[٥٠]. وقد استشهد ببعض الأرقام. وقال إن بريطانيا، بين عامى ١٨٢٢ و ١٨٢٦، قدمت إلى المستعمرات الاسبانية المحررة عشرة قروض تصل قيمتها الاسمية إلى حوالى ٢١ مليون جنيه استرلينى، إلا أنه بعد خصم الفائدة وعمولات الوسطاء لم يصل إلى أمريكا اللاتينية بالفعل غير نحو ٧ مليون جنيه استرلينى. وفى الوقت نفسه، أنشئ أكثر من أربعين شركة مساهمة فى لندن لاستغلال الموارد الطبيعية لأمريكا اللاتينية – المناجم، الزراعة – ولإنشاء مشروعات خدمة عامة. وانتشرت البنوك فى بريطانيا: ففى عام واحد، ١٨٣٦، أنشئ أكثر من ثمانية وأربعين بنكا. وظهرت السكك الحديدية البريطانية فى بنما نحو منتصف القرن، وفى عام ١٨٦٨، دشنت مؤسسة بريطانية أول خط للترام فى أمريكا اللاتينية فى مدينة ريسيف البرازيلية. كما كان بنك أوف إنجلاند يمول الخزانات الحكومية بصورة مباشرة[٥١]: وكانت السندات العامة الأمريكية اللاتينية توزع بنشاط، بأزماتها وارواجاتها، فى السوق المالية البريطانية. ولما كانت الخدمات العامة للدول الجديدة فى أيد بريطانية، فقد واجهت هذه الدول منذ انبثاقها تدفقاً للانفاقات العسكرية كما كان عليها أن تواجه حالات عجز فى مدفوعاتها الخارجية. وكانت التجارة الحرة تنطوى على زيادة جنونية فى الواردات، خاصة واردات السلع الكمالية، وكانت الحكومات تستدين، وهو ماكان يدعو بدوره إلى قروض جديدة، حتى تتمكن أقلية من العيش فى ترف. وكانت البلاد ترهن مستقبلها مقدما، مبتعدة عن الحرية الاقتصادية والسيادة

السياسية. وباستثناء الحالة فى باراجواى (التى جرى سحق محاولتها المعاكسة)، كانت العملية متشابهة فى كافة أنحاء أمريكا اللاتينية – وماتزال متشابهة، مع أن الدائنين والآليات قد تغيرت. وقد أصبحت الحاجة إلى التمويل الخارجى ضرورية، شأنها فى ذلك شأن حاجة المدمن إلى المورفين. لقد كان يجرى فتح ثغرات بهدف سدها. كما أن تدهور المعدلات التجارية للتبادل ليس ظاهرة تخص أيامنا. فوفقاً لسيلسو فورتادو[٥٢]، هبطت أسعار الصادرات البرازيلية بنسبة ٤٠ فى المائة بين ١٨٢١ و ١٨٣٠ وبين ١٨٤١ و ١٨٥٠، بينما ظلت أسعار الواردات الأجنبية ثابتة: وكانت اقتصاديات أمريكا اللاتينية الضعيفة تعوض الهبوط باللجوء إلى القروض.

يقول روبرت شنيرب: "إن ماليات هذه الدول الفتية ليست على ما يرام ... إنها مضطرة إلى اللجوء إلى التضخم، الذى يؤدى إلى تخفيض القيمة الشرائية للعملة، وإلى قروض جائرة. ولابد من القول إن تاريخ هذه الجمهوريات هو تاريخ التزامات اقتصادية تتحملها تجاه عالم المال الأوروبى الذى يستوعب كل شئ"[٥٣]. والواقع أن حالات اشهار الإفلاس، وتأجيل السداد، وإعادة التمويل المستميتة حالات متكررة. فالجنيهات الاسترلينية تتلاشى بالسرعة التى تتلاشى بها المياه بين الأصابع. ومن قرض المليون جنيه استرلينى الذى تفاوضت عليه حكومة بوينوس آيريس مع مؤسسة بارنج براذرز فى عام ١٨٢٤، لم تحصل الأرجنتين إلاَّ على ٥٧٠,٠٠٠ جنيه استرلينى، ولم يكن ذلك المبلغ من عملات ذهبية (كما نص على ذلك العقد) وإنما من عملات ورقية. وكان القرض عبارة عن حوالات بشأن طلبات مرسلة إلى رجال أعمال بريطانيين فى بوينوس آيريس، لم يكن لديهم عملات ذهبية يدفعون بها لأن مهمتهم الحقيقية كانت تتمثل فى ارسال كل المعادن النفيسة التى تصل إليهم إلى لندن. وهكذا حصلت الأرجنتين على ورق بينما كان عليها أن تدفع ذهباً. ولم تتمكن الأرجنتين من الغاء الدين، الذى كانت عمليات إعادة التمويل قد ضخمته إلى ٤ مليون جنيه استرلينى، إلاَّ فى أوائل هذا القرن[٥٤]. وكانت مقاطعة بوينوس آيريس قد رُهِنَتْ بالكامل – كل ايراداتها، كل أراضيها العامة – ضمانا للسداد. وكما قال وزير المالية فى الفترة التى جرى التعاقد فيها على القرض: "لسنا فى موقف يسمح لنا باتخاذ تدابير ضد التجارة الخارجية، خاصة البريطانية، لأننا مرتبطون بتلك الأمة بديون ضخمة وسوف نعرض أنفسنا لقطيعة من شأنها أن تلحق ضرراً جسيماً...." إن استخدام الديون كأداة للابتزاز، كما يمكننا أن نرى، ليس بدعة أمريكية جديدة.

وقد طوقت مثل هذه العمليات الربوية الأمم الحرة بالقضبان. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت خدمة الدين الأجنبى قد استوعبت نحو ٤٠ فى المائة من ميزانية البرازيل، ووقع كل بلد فى المصيدة ذاتها. وشكلت السكك الحديدية ركناً حاسماً آخر من أركان قفص التبعية الحديدى: فعندما كانت الرأسمالية الاحتكارية مزدهرة، امتد النفوذ الامبريالى إلى أبعد الساحات الخلفية للاقتصاديات الكولونيالية. وكان جانب كبير من القروض يذهب إلى تمويل إنشاء سكك حديدية بهدف نقل المعادن والمواد الغذائية إلى محطات التصدير. لقد شيدت خطوط السكك الحديدية ليس من أجل ربط المناطق الداخلية الواحدة بالأخرى، وإنما من أجل ربط مراكز الإنتاج بالموانئ. وما يزال تصميمها يشبه أصابع كف مفتوحة: وهكذا كانت السكك الحديدية، التى جرى الترحيب بها بوصفها طلائع لتحقيق التقدم، عقبة أمام تشكل وتطور سوق داخلية. كما حققت الأمم الامبريالية ذلك بوسائل أخرى، خاصة عن طريق سياسة تعريفة جمركية تتمشى مع متطلبات النموذج البريطانى. وعلى سبيل المثال، كانت رسوم الشحن المفروضة على السلع المنتجة فى داخل الأرجنتين أعلى بكثير من الرسوم المفروضة على السلع غير المصنعة. أما رسوم النقل عن طريق السكك الحديدية فقد صارت لعنة جعلت من المستحيل إنتاج السجائر فى مناطق زراعة التبغ، أو الغزل والنسج فى مناطق الصوف، أو تصنيع الأخشاب فى مناطق الغابات[٥٥]. صحيح أن السكك الحديدية الأرجنتينية قد ساعدت على تطور صناعة الأخشاب فى سانتياجو ديل ايسيترو، لكن ذلك قد رافقته نتائج جعلت كاتبا محلياً يئن: "آه، ليت سانتياجو هذه لم تكن توجد بها شجرة قط!"[٥٦]. لقد كانت عارضات السكك الحديدية تصنع من الخشب، وكان الفحم النباتى يستخدم كوقود؛ وقد أدت معسكرات نشر الأشجار التى أنشأتها السكك الحديدية إلى تمزيق المجتمعات الريفية، وتدمير الزراعة وتربية الماشية عن طريق تدمير المراعى وأشجار الظل وأدت إلى استعباد أجيال عديدة من سكان سانتياجو فى الغابات، وزادت من التخلخل السكانى. ولم يتوقف النزوح الجماعى وماتزال سانتياجو ديل ايسيترو إلى اليوم واحدة من أفقر مقاطعات الأرجنتين. وعندما تحولت السكك الحديدية إلى استخدام البترول، أغرقت المنطقة فى أزمة عميقة.

ولم يكن رأس المال البريطانى هو الذى مد الخطوط الأولى عبر الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلى، وجواتيمالا، والمكسيك، وأوروجواى، ولافى باراجواى، كما رأينا؛ لكن السكك الحديدية التى شيدتها دولة باراجواى، بمساعدة فنيين أوروبيين، قد انتقلت إلى

أيدٍ بريطانية بعد الهزيمة. وسارت السكك الحديدية للبلدان الأخرى فى الدرب عينه دون أن تنتج مليماً واحداً من استثمارات جديدة؛ وعلاوة على ذلك، فإن عقود الدول قد حرصت على أن تكفل للشركات مستوى حد أدنى من الربح تجنباً للمفاجآت المحتملة غير السارة. وبعد عقود، فى نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما لم تعد السكك الحديدية تغل المزيد من الأرباح وأنحدرت إلى هجر نسبى لاستخدامها، قامت السلطات العامة باستردادها. والحال أن كل الدول تقريبا قد اشترت الحديد الخردة من البريطانيين وأممت بذلك خسائر الشركات.

وعندما كانت السكك الحديدية زاهرة، كانت الشركات البريطانية تحصل فى أغلب الأحيان على امتيازات ملحوظة فى الأراضى الواقعة على أحد جانبى الطريق، بالإضافة إلى الطريق نفسه وحق بناء خطوط فرعية جديدة. وكانت الأرض ثروة استثمارية إضافية. وقد أدت منحة خرافية للسكك الحديدية البرازيلية فى عام ١٩١١ إلى حرق عدد لاحصر له من الأكواخ وإلى طرد أو موت الأسر الفلاحية فى منطقة الامتياز. وكان ذلك هو ما فَجَّرَ تمرد "الكونتيستادو"، أحد أعظم تفجرات الغضب الشعبى فى التاريخ البرازيلى.

■ الحماية والتجارة الحرة في الولايات المتحدة: لم يكن النجاح من عمل يدٍ خفيّة

عندما كان التحالف الثلاثى يعلن دمار باراجواى الوشيك فى عام ١٨٩٥، كان الجنرال أوليسيس. جرانت يحتفل باستسلام الجنرال روبرت لى فى آبوماتوكس. لقد جلبت الحرب الأهلية الانتصار إلى الصناعيين الشماليين – دعاة الحماية السافرين – على زراع القطن والتبغ الجنوبيين دعاة التجارة الحرة. وهكذا تزامن نشوب الحرب التى رسمت مصير أمريكا اللاتينية الكولونيالى مع نهاية الحرب التى مكنت الولايات المتحدة من توطيد موقعها كقوة عالمية. وكما قال الرئيس جرانت الذى انتخب فور إنتهاء الحرب:

> "لقد اعتمدت انجلترا لقرون على الحماية، بل ومضت بها إلى أقصى حد، وكسبت من ورائها نتائج مرضيه. ولاشك أنها مدينة بقوتها الحاضرة لهذا النظام. وبعد قرنين، وجدت انجلترا أن من المناسب اعتماد مبدأ حرية التجارة لأنها ترى أن الحماية لم يعد بوسعها أن تعود عليها بشئ. حسناً

إذاً، أيها السادة، إن معرفتي ببلادي تدفعني إلى الاعتقاد بأن أمريكا سوف تعتمد هي الأخرى مبدأ حرية التجارة، ولكن بعد قرنين، عندما تكون قد كسبت من الحماية كل ما يمكنها تقديمه"[٥٧].

قبل قرنين ونصف من ذلك الكلام، كانت الرأسمالية الانجليزية اليافعة قد أرسلت رجالها، ورساميلها، وأسلوب حياتها، وحوافزها، ومشاريعها إلى مستعمراتها الأمريكية الشمالية. إن المستعمرات الثلاث عشرة وهي صمامات أمان للفائض السكاني الأوروبي، سرعان ما أجبرت على تعويض "عاهة" فقر أرضها وباطن أرضها، وطورت منذ البداية فلسفة تصنيع لم يفعل المتروبول شيئاً يذكر لاحباطها. ففي عام ١٦٣١، دشن المستوطنون الذين وصلوا حديثاً إلى بوسطن مركباً شراعياً ذا صارٍ واحد يزن ثلاثين طناً، هو "نعمة الخليج"، الذي بنوه بأنفسهم، ومنذ ذلك الحين فصاعداً نمت صناعة السفن بسرعة. وكان شجر السنديان الأبيض، الموجود بوفرة في الغابات، مثالياً بالنسبة إلى صنع هياكل وأبدان السفن؛ وكانت متون السفن، والأعمدة الأمامية للسفن، والصواري تصنع من خشب الصنوبر. وقد دعمت ماساشوسيتس إنتاج خيوط القنب لصنع الأشرعة والحبال، كما شجعت الإنتاج المحلي لأقمشة القنب وللأشرعة. وإلى شمالي وجنوبي بوسطن كانت السواحل مليئة بترسانات مزدهرة. وكانت الحكومات الكولونيالية تقدم إعانات وعلاوات تشجيعية لكافة أنواع الصناعة. وكانت هناك حوافز لتشجيع إنتاج خيوط الكتان والصوف، المواد الأولية لمنسوجات خشنة، إن لم تكن زاهية جداً، كانت تقي من تقلبات الأحوال الجوية وكانت قومية. ولاستغلال مستودعات الحديد في لين، دخل المسبك الأول حيز العمل في عام ١٦٤٣؛ وسرعان ما أخذت ماساشوسيتس تزوّد المنطقة كلها بالحديد. وعندما بدا الحافز إلى إنتاج المنسوجات غير كاف، اختارت هذه المستعمرة اللجوء إلى الاكراه: فقد فرضت في عام ١٨٥٥ عقوبات قاسية على أية أسرة لاتقوم بتشغيل متواصل لعجلة غزل واحدة على الأقل. وفي الفترة نفسها كان على كل ناحية في ڤيرچينيا أن تختار أطفالاً من بينها لتعلّم صناعة النسيج. كما كان من المحظور تصدير الجلود، حتى يمكن استخدامها محلياً لإنتاج الأحذية الطويلة الرقبة، والأحزمة والأسرجة.

وقد كتب المؤرخ الاقتصادي ادوارد كيركلاند[٥٨] يقول إن المعوقات التي لابد للصناعات الكولونيالية من مواجهتها تأتي من كل اتجاه باستثناء السياسة الكولونيالية البريطانية. (٣٢). والواقع أن البعد مسافة ثلاثة آلاف ميل وصعوبات المواصلات قد

جعلت التشريعات المحتملة تفقد كل مفعولها تقريبا وشجعت الاتجاه إلى الاكتفاء الذاتى. ولم تكن المستعمرات الشمالية ترسل إلى انجلترا ذهباً، أو فضة، أو سكراً، فى حين أن حاجاتها الاستهلاكية قد أدت إلى زيادة فى الواردات كان يتعين وقفها بطريقة ما. وكانت التجارة عبر المحيط غير كبيرة؛ ولذا كانت تنمية الصناعات المحلية ضرورية للبقاء. ولم يكن اهتمام انجلترا بتلك المستعمرات فى القرن الثامن عشر كبيراً بحيث أنها قد تمكنت من ادخال أحدث تقنيات المتروبول فى مصانعها، محولة المواثيق الكولونيالية المقيدة إلى قصاصات من الورق. وكان ذلك بعيداً من أن يكون صحيحاً بالنسبة إلى المستعمرات الأمريكية اللاتينية، التى كانت تسلم هواها، وماها، وملحها إلى الرأسمالية الأوروبية الصاعدة وكانت تحصل، فى مقابل ذلك، على وفرة من أجمل وأغلى السلع الكمالية لتدليل طبقاتها الحاكمة. وكانت الأنشطة الوحيدة المتوسّعة فى أمريكا اللاتينية هى الأنشطة الموجهة نحو التصدير، وقد استمر الحال على هذا النحو فى القرون التالية: إن المصالح الاقتصادية للبورجوازية التعدينية والعقارية لم تتطابق قط مع الحاجة إلى التنمية الاقتصادية الداخلية، وكان رجال الأعمال أقل ارتباطاً بالعالم الجديد من ارتباطهم بالأسواق الخارجية فيما يتعلق بالمعادن والمواد الغذائية التى يريدون بيعها وبالمصادر الخارجية للسلع المصنعة التى يريدون شراءها.

وعندما أعلنت الولايات المتحدة استقلالها، كان عدد سكانها مثل عدد سكان البرازيل. والحال أن المتروبول البرتغالى – المتخلف تخلف المتروبول الاسبانى – قد صدّرَ تخلفه إلى المستعمرة. وطوال القرن الثامن عشر، اندرج اقتصاد البرازيل فى السيمفونية البريطانية كمورد للذهب إلى الامبراطورية. وقد انعكست هذه الوظيفة فى البنية الطبقية للمستعمرة. وخلافاً للحال فى الولايات المتحدة، لم تكن الطبقة الحاكمة فى البرازيل مؤلفة من مزارعين، ومستثمرين صناعيين، ورجال أعمال محليين. والحال أن المفسّرين الرئيسيين لمثل الطبقة الحاكمة فى كل من البلدين، الكسندر هاملتون والفيكونت دى كايرو (أحد الشخصيات الرئيسية التى لعبت دوراً مؤثراً فى فتح الموانئ فى عام ١٨٠٨)، قد عبرا عن الاختلاف تعبيراً واضحاً[٥٩]. لقد كان كل منهما، فى انجلترا، من اتباع آدم سميث. إلاّ أنه بينما أصبح هاملتون من أنصار التصنيع وأحد المشجعين لحماية الدولة للصناعة القومية، كان كايرو يؤمن باليد الخفية التى حركت سحر الليبرالية: دعه يعمل ، دعه يمر، دعه يبيع.

وبحلول نهاية القرن الثامن عشر، كانت الولايات المتحدة تملك ثانى أسطول

تجارى فى العالم، وكان هذا الأسطول يتألف من سفن مبنية بالكامل فى ترساناتها، وكانت مصانع النسيج والصلب فيها تحقق نمواً متصاعداً. وسرعان مادارت عجلة صناعة الآلات فيها، مما أنهى احتياج مصانعها إلى شراء سلع رأسمالية من الخارج. وكان حجاج ماى فلاور المتحمسون قد أرسوا الأساس لأمة فى ريف نيوإنجلاند؛ وكانت بورجوازية صناعية قد نمت وازدهرت بشكل متواصل على طول ساحل خلجانها العميقة ومصبات أنهارها العظيمة. وفى هذا، كما رأينا، فإن تجارة جزر الأنتيل – بما فى ذلك بيع العبيد الأفارقة – قد لعبت دوراً رئيسياً، لكن الانجاز الامريكى ماكان ليحدث لولا أن شرارة لهب قومى مضطرم قد أشعلت أواره منذ البداية. وقد دعا جورج واشنطون فى كلمته الوداعية إلى أن تنتهج الولايات المتحدة سبيلاً مستقلاً[٦٠]. وكان ايمرسون قد أعلن فى عام ١٨٣٧: "لقد طال سماعنا لنداءات أوروبا ... إننا سوف نسير على أقدامنا نحن؛ وسوف نعمل بأيدينا نحن؛ وسوف نعبر عما يجول بخواطرنا نحن"[٦١].

وقد أدت الانفاقات العامة إلى توسيع السوق الداخلية. فقد بنت الولايات الطرق، والسكك الحديدية، والجسور والقنوات[٦٢]. وفى منتصف القرن، شاركت ولاية بنسلفانيا فى تدشين أكثر من مائة وخمسين مشروعاً من مشاريع الاقتصاد المختلط، بالإضافة إلى تدبير المائة مليون دولار المستثمرة فى الاشغال العامة. كما أن العمليات العسكرية التى انتزعت أكثر من نصف أراضى المكسيك قد ساهمت مساهمة هامة فى تقدم البلاد. لكن الولاية شاركت فى عملية التنمية بما هو أكثر من استثمار الرساميل والتكاليف العسكرية للتوسع؛ وكان قد جرى تدشين سياسة حماية صارمة فى الشمال. أما كبار ملاك الأراضى فى الجنوب فقد كانوا، خلافاً لذلك، من أنصار التجارة الحرة. وكان إنتاج القطن يتضاعف كل عشر سنوات، وبرغم أنه قد عاد على البلاد بأكملها بدخل تجارى ضخم وكان يغذى مصانع النسيج الحديثة فى ماساشوسيتس، إلا أنه كان يعتمد على الأسواق الأوروبية بالدرجة الأولى. وكانت الارستقراطية الجنوبية، شأنها فى ذلك شأن الارستقراطية الأمريكية اللاتينية، مرتبطة بالسوق العالمية بالدرجة الأولى؛ وكانت نسبة ٨٠ فى المائة من الأقطان المغزولة فى المصانع الأوروبية تجيئ من كدح العبيد الجنوبيين. وعندما أضيف الغاء العبودية إلى الحماية الصناعية الشمالية، أدى التناقض إلى اشعال الحرب. لقد كان الشمال والجنوب يواجه أحدهما الآخر كعالمين متعارضين، وعصرين تاريخيين، وفلسفتين متناحرتين عن المصير القومى. وقد كسب القرن العشرون

حرب القرن التاسع عشر هذه.

لقد آن الأوان لكى يغنى كل حر.....

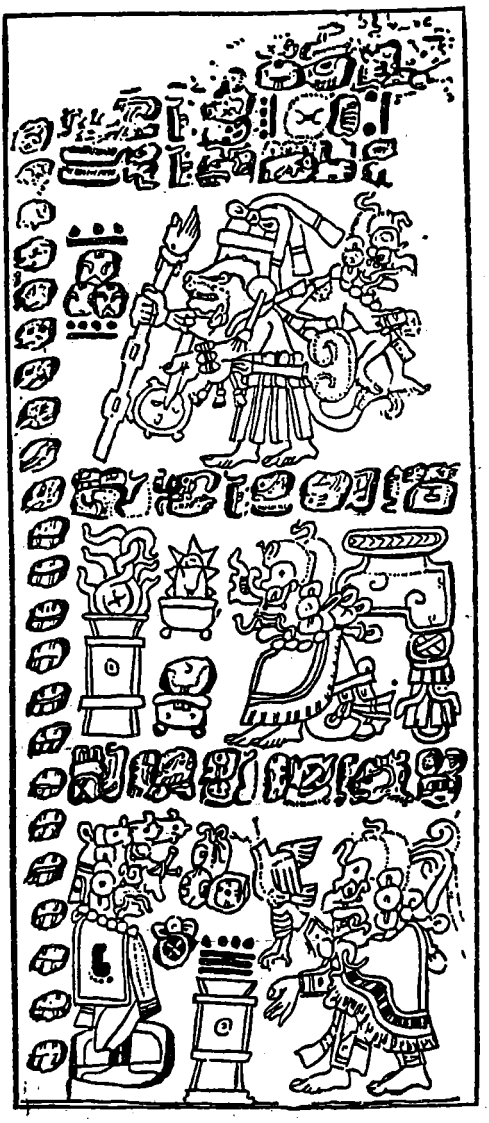
فقد مات الملك القطن العجوز ووري التراب،

هكذا غنّى أحد شعراء الجيش الظافر[٦٣]. وبعد هزيمة الجنرال لى، أصبحت القداسة من نصيب الرسوم الجمركية، التى كانت قد زيدت خلال الحرب للحصول على ايرادات وظلت سارية المفعول لحماية صناعة الظافرين. وأيد الكونجرس تعريفة "ماكنلى" الحمائية المتطرفة فى عام ١٨٩٠، وأدى مرسوم دنجلى إلى زيادة الرسوم الجمركية زيادة هائلة أخرى فى عام ١٨٩٧. وبعد ذلك مباشرة، شعرت البلدان الأوروبية المتقدمة أنها مضطرة لإقامة حواجز جمركية ضد غزو السلع الامريكية المنافسة منافسة خطيرة. وكانت كلمة "تروست" قد سكت فى عام ١٨٨٢: إذ كانت الاحتكارات التى تتقدم بخطى عملاقة قد سيطرت على البترول، والصلب، والمواد الغذائية، والسكك الحديدية، والتبغ[٦٤].

وكان جرانت قد شارك فى نهب المكسيك قبل الحرب الأهلية؛ وقد أصبح بعد الحرب رئيساً من أنصار الحماية: لقد لعب كل الأدوار التى تندرج فى سياق عملية التأكيد القومى نفسها. وكانت الصناعة الشمالية تقود أوركسترا التاريخ، وبوصفها السيد السياسى الدولة، كانت ترعى مصالحها من مقعد السلطة. أما الحدود الزراعية فقد اتجهت غرباً وجنوباً على حساب الهنود والمكسيكيين، لكنها شغلت المساحات المفتوحة الجديدة بحيازات صغيرة، لا بملكيات زراعية كبيرة. والحال أن الأرض الموعودة لم تجتذب الفلاحين الأوروبيين وحدهم؛ إن صناعاً ينتمون إلى أكثر الحرف تنوعاً وعمالاً مدربين فى مجالات الميكانيكا، والمعادن، وإنتاج الصلب قد جاءوا أيضاً من أوروبا لإثراء عملية التصنيع الجارية فى البلاد. وبحلول نهاية القرن، كانت الولايات المتحدة قد أصبحت القوة الصناعية القائدة؛ ففي غضون ثلاثين سنة بعد الحرب الأهلية كانت مصانعها قد ضاعفت طاقتها الإنتاجية سبع مرات. وكانت تنتج من الفحم مثل ماتنتجه بريطانيا، وكانت تنتج من الصلب ضعف ماتنتجه بريطانيا وكان طول خطوط سككها الحديدية يزيد تسع مرات عن طول خطوط السكك الحديدية البريطانية. لقد كان مركز العالم الرأسمالى آخذاً فى الانتقال.

وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت الولايات المتحدة فى تقليد بريطانيا فى تصدير مذهب التجارة الحرة والمنافسة الحرة، حتى يتسنى للشعوب الأخرى أن تستهلك منتجاتها. وقد برز صندوق النقد الدولى والبنك الدولى معاً لكى يحرما البلدان النامية

من حق حماية صناعاتها القومية، ولتثبيط تدابير الدول فى تلك البلدان. وجرى اضفاء خصائص علاجية سحرية على المشروع الخاص. لكن الولايات المتحدة لم تتخل عن سياسة اقتصادية ماتزال حمائية بصورة صارمة، وتصغى باهتمام لصوت التاريخ: فلم يجر خلط المرض بالعلاج قط فى الشمال.



الهوامش

(1) Willian W. Kaufmann, ***La politica británic y la independencia de la América Latina*** (1804 - 1828), Caracas, 1963.

(2) Manfred Kossok, ***El virreinato del Rio de la Plata. Su estructura económico-social***, Buenos Aires, 1959.

(3) H. S. Ferns, ***Gran Bretaña y argentina en el siglo XIX***, Buenos Aires, 1966.

(4) ***Ibid.***

(5) Alexander von Humbldt, ***Ensayo sobre el reino de la Nueva España***, México, 1944.

(6) Emilio Romero, ***Historia económica del Perú***, Buenos Aires, 1949.

(7) ***Ibid.***

(8) Hernán Ramírez Necochea, ***Antecedentes económicos de la independencia de Chile***, Saniago de Chile, 1959.

(9) Caio Prado Júnior, ***Historia económica del Brasil***, Buenos Aires, 1960.

(10) The University Society, ***Bolivia en el primer centenario de su independencia***, La Paz, 1925.

(11) Luis C. Alen Lascano, ***Imperialismo y comercio libre***, Buenos Aires, 1963.

(12) Pedro Santos Martínez, ***Las industrias durante el virreinato (1776 - 1810)***, Buenos Aires, 1969.

(13) Ricardo Levene, introducción a ***Documentos Para la historia argentina, 1919***, en Obras completas, Buenos Aires, 1962.

(14) Woodbine Parish, ***Buenos Aires y las Provincias del Rio de la Plata***, Buenos Aires, 1958.

(15) Paulo Schilling, ***Brasil para extranjeros***, Montevideo, 1966.

(16) Alan K. Manchester, ***British Preeminence in Brazil: its Rise and Decine***,

Chapel Hill, Carolina del Norte, 1933.

(17) Celso Furtdo, ***Formación económica del Brasil***, México - Buenos Aires, 1959.

(18) J. F. Normano, ***Evolucão econômica do Brasil***, São Paulo, 1934.

(19) Gustavo Beyhaut, ***Raíces contemporáneas de América Latina***, Buenos Aires, 1964.

(20) Hernán Ramírez Necochea, ***Historia del imperialismo en Chile***, Santiago de Chile, 1960.

(٢١) دعا هذا الاقتصادي الألماني، المولود في عام ١٧٨٩، في الولايات المتحدة وفي بلاده، إلي الحماية والتنمية الصناعية. وقد انتحر في عام ١٨٤٦، إلاّ أن أفكاره قد وجدت صدي بعيداً لها في كل من البلدين.

(22) Claudio Véliz, ***La mesa de tres patas, en Desarrollo económico***, vol. 3, núms. 1 y 2, Santiago de Chile, septiember de 1963.

(٢٣) "إذا كان دعاة التجارة الحرة لايمكنهم أن يفهموا كيف يمكن لأمة أن تثري علي حساب أمة أخري، فليس في ذلك ما يدعونا إلي الاستغراب، لأن هؤلاء السادة يرفضون أيضاً أن يفهموا كيف يمكن لطبقة داخل بلد واحد أن تثري علي حساب طبقة أخري". كارل ماركس، **حول مسألة التجارة الحرة، في بؤس الفلسفة**، موسكو، دون تاريخ.

(24) Luis Chávez Orozco, ***La industria de transtormación mexicana (1821 - 1867)***, en Banco Nacional de Comercio Exterior, Colección de documentos para la historia del comercio exterior de México, tomo VII, México, 1962.

(25) Alonso Aguilar Monteverde, ***Dialéctica de la economia mexicana***, México, 1968.

(26) Jan Bazant, ***Estudio sobre la productividad de la industria algodonera mexicana en 1843 - 1845*** (Lucas Alamán y la Revolución industrial en México), en Banco Nacional de Comercio Exterior, op. cit.

(27) Luis Chávez Orozco, ***op. cit.***

(٢٨) في عام ١٨٥٠، نشرت في مجلة إل سيجلو (القرن التاسع عشر) بيانات مختلفة تدعو إلي فرض الحماية: "بإنتهاء فتح الحضارة الاسبانية وقرون سيطرتها العسكرية الثلاثة، دخلت المكسيك عصراً

جديداً، يمكن أن يسمي هو أيضاً فتحاً، لكنه فتح علمي وتجاري ... إن قوته هي الملاحة التجارية؛ وعقيدته هي الحرية الاقتصادية المطلقة؛ ومبدأه الجبار مع الشعوب الأقل تقدماً هو قانون التبادل ... إنهم يقولون لنا: "فلتحضروا إلي أوروبا أية منتجات يمكنكم إحضارها (ولكن فيما عدا تلك التي نحظرها)؛ وفي المقابل، دعونا نحضر لكم المنتجات التي يمكننا إحضارها، مع أنها قد تدمر صناعاتكم" ... إننا لو تبنينا المذاهب التي تسمح لهم (سادتنا عبر المحيط والريو جراندي) بأن يقدموا دون أن يأخذوا، فقد لاتستفيد خزانتنا كثيراً ... لكننا بذلك لن نشجع عمل الشعب المكسيكي بل عمل الشعوب الانجليزي والفرنسي والسويسري والامريكي الشمالي».

(29) Miron Burgin, ***Aspectos económicos del federalismo argentino***, Buenos Aires, 1960.

(30) Juan Alvarez, ***Las guerras civiles argentinas***, Buenos Aires. 1912.

(٣١) إن عصابة المونتونيرا «تولد في السهول كزوبعة. وهي تضرب، وتهدر، وتسحق كزوبعة، ثم تتوقف وتتلاشي فجأة كزوبعة». (داردو دي لافيجاديات).

وفي كتاب «مارتين فيرّو»، وهو أكثر الكتب شعبية في الأرجنتين، يصوغ خوسيه إرناندث (الذي كان جندياً اتحادياً) محنة الجاوشو، المنفى في مأواه والذي تضطهده السلطات، في أغنية :

يحيا النسر في عشه،
يحيا النمر في الأجمة،
والثعلب في أي كهف،
لكن الجاوشو وحده،
في حظه المتقلب،
يحيا تائها حيثما ساقه القدر
لأن :
الفياهب في انتظاره،
والسجون المروعة في انتظاره،
وليس في أي شئ يقوله حق،
مع أن له حقاً وفيراً –
حق ناقوس كنيسة خشبي،
حق الفقير.

ويلاحظ خورخي أبيلاردو راموس أن اللقبين الحقيقيين الواردين في «مارتين فيرّو»، هما

آنشورينا وجاينثا – وهما اسمان يمثلان الأوليجاركية التي أبادت الكريول المسلحين . وقد اندمج الاسمان اليوم في العائلة التي تملك صحيفة لابرينسا اليومية .

أما الوجه الآخر لمارتين فيّرو فيظهر في كتاب ريكاردو جويرالدس «دون سيجوندو سومبرا» (١٩٢٩) : فهنا نجد الجاوشو الذي جري تدجينه، والمرتبط بأجره اليومي، والذي يتودد إلي سيده، والذي يعتبر نموذجاً مفيداً لفولكلور الحنين الي الماضي والشفقة.

(٣٢) في عام ١٨٧٠، أغرق الفزاه الأجانب باراجوي أيضاً في حمام دم، وكانت باراجوي هي البلد الأمريكي اللاتيني الوحيد الذي لم يكن قد دخل بعد السجن الامبريالي.

(33) Miron Burgin, ***Op. Cit.***

(34) Juan Álvarez, ***Op. Cit.***

(35) Jorge Abelardo Ramos, ***Op. Cit.***

(36) José Luis Busaniche, ***Rosas visto por sus contemporáneos***, Buenos Aires, 1955.

(٣٧) في كتابة الشهير Tablas dr Sangre ، وضع خوسيه ريبيرا قائمة بجرائم روساس لكي يثير فزع الحساسيات الأوروبية . ووفقاً لمجلة أطلس (لندن) فإن بيت صمويل لأفون المصرفي البريطاني قد دفع للكاتب مليماً لقاء كل جثة. وكان روساس قد ضرب الامبراطورية بقوة عندما حظر صادرات الذهب والفضة، وكان قد حل البنك الأهلي، الذي كان أداة للتجارة البريطانية .

(38) Vivian Trias, ***Juan Monuel de Rosas***, Montevideo, 1970.

(39) Discurso de Gervasio A. de Posadas. Citado por Dardo Cúneo, ***Comportamiento y crisis de la clase empresaria***, Buenos Aires, 1967.

(40) Armando Raúl Bazán, ***Las bases sociales de la montonera, en Revista de historia americana y argentina***, núms. 7 y 8, Mendoza, 1962 - 63.

(41) Domingo Faustino Sarmiento, ***Facundo***, Buenos Aires, 1952.

(42) Mario Margulis, ***Migración y marginalidad en la sociedad argentina***, Buenos Aires, 1968.

(43) Para escribir este capítulo el auror consultó las siguientes obras: Juan Bautista Alberdi, ***Historia de la guerra del Paraguay*** (Buenos Aires, 1962); Pelham Horton Box, ***Las origenes de la Guerra de la Triple Alianza*** (Buenos Aires-Asunción, 1958); Efraím Cardozo, El imperio del

Brasil y el Río de la Plata (Buenos Aires, 1961); Julio César Chaves, ***El presidente López*** (Buenos Aires, 1955); Carlos Pereyra, ***Francisco Solano López y la guerra del Paraguay*** (Buenos Aires, 1945); Julio F. Pérez Acosta, ***Carlos Antonio López, obrero máximo. Labor adminstrativa y constructiva*** (Asunción, 1948); José María Rosa, ***La guerra del Paraguay y las montoneras argentinas*** (Buenos Aires, 1965); Bartolomé Mitre y Juan Carlos Gómez, ***Cartas polémicas sobre la guerra del Paraguay***, con prólogo de J. Natalicio González (Buenos Aires, 1940). También un trabajo inédito de Vivian Trías sobre el tema.

(٤٤) في التواريخ الرسمية، يجري تصوير فرانثيا علي أنه بطل من أبطال الرعب. علي أن التشويهات البصرية التي فرضتها الليبرالية ليست حكراً علي الطبقات الحاكمة في أمريكا اللاتينية؛ ذلك أن كثيرين من المثقفين اليساريين الذين ينظرون إلي تاريخ بلادنا من خلال نظارات غربية يقبلون بعض الخرافات، والتقبلات والاستبعادات اليمينية؛ إن النشيد الشامل لبابلو نيرودا يشيد إشادة مؤثرة بالشعوب الأمريكية اللاتينية، لكنه يكشف بشكل واضح عن هذا الزيغ. فنيرودا لايبالي بآرتيجاس أو بكارلوس أنطونيو أو بفرانثيسكو لويث، بينما يتعاطف بدلاً من ذلك مع سارمينتو. وهو يصف فرانثيا بأنه «ملك مصاب بالجذام»، وهو ليس أكثر ودأ تجاه روساس.

(٤٥) كان رهبان جمعية يسوع المتعصبون، «الحرس الأبيض للبابا»، قد أصبحوا مدافعين عن نظام العصر الوسيط ضد القوي الجديدة التي أخذت تقتحم المسرح الأوروبي. لكن الارساليات اليسوعية في أمريكا الاسبانية قد تطورت تطوراً تقدمياً، لقد تمكنت من أن تطهر، عن طريق نكران الذات وعن طريق ضرب المثل في الزهد، كنيسة كاثوليكية كانت قد استسلمت للكسل والاستغلال الطليق للخيرات التي كان الفتح قد أتاحها لرجال الدين، وكانت ارساليات باراجواي هي التي وصلت إلي أسمي مستوي؛ ففي غضون ما لا يزيد كثيراً عن قرن ونصف (١٦٠٣ – ١٧٦٨)، برزت بالكامل غايات مؤسسيها. لقد استخدم اليسو عيون الموسيقي لاجتذاب الهنود الجوارانيين الذين كانوا يبحثون عن ملاذ لهم في الغابات، والذين كانوا قد مكثوا هناك بدلاً من الإنضمام إلي «العملية التمدينية» التي دشنها الولاة وكبار ملاك الأراضي. وهكذا تمكن ١٥٠,٠٠٠ جواراني من العودة إلي تنظيمهم المشاعي البدائي وإحياء فنونهم وحرفهم التقليدية. وكان نظام اللاتيفونديا غير معروف في الإرساليات؛ إذ كانت تجري زراعة الأرض لإشباع الحاجات الفردية، من ناحية، ولتنمية مشاريع تخص الصالح العام، من ناحية ثانية، ولتدبير موارد للحصول علي أدوات العمل الضرورية،

التي كانت ملكية عامة، من ناحية ثالثة. وقد نظمت حياة الهنود تنظيماً ذكياً؛ وكان الموسيقيّون، والحرفيون، والمزارعون، والنساجون، والممثلون، والرسامون، والبناة يجتمعون في ورش ومدارس. ولم تكن النقود معروفة؛ وكان ممنوعاً علي التجار أن يدخلوا المنطقة وكان عليهم عقد أية معاملات من فنادق علي بعد مسافة كافية. وقد خضع التاج في النهاية لضغط الولاة الكريول وطُرد اليسوعيون من أمريكا اللاتينية، وأخذ كبار ملاك الأراضي وتجار العبيد يتعقبون الهنود، وكانت الجثث تتدلي من الأشجار في مناطق الإرساليات؛ وبيعت مجموعات بشرية بأكملها في أسواق العبيد البرازيلية. وقد لجأ هنود كثيرون الي الغابات ثانية . واستُخدمت مكتبات اليسوعيين وقوداً للأفران أو لصنع خراطيش البارود.

(٤٦) ما زال سولانو لوبث حياً في الذاكرة . ففي سبتمبر ١٩٦٩، عندما أعلن المتحف التاريخي القومي في ريو دي جانيرو أنه سوف يخصص لوحة لرئيس باراجواي، انتاب العسكريين الغضب. وفي حديث إلي الصحف، قال الجنرال موريلو فيلهو، الذي كان قد دشن انقلاب ١٩٦٤، «إن ريح جنون تجتاح البلاد ..... إن سولانو لوبث شخصية يجب محوها إلي الأبد من تاريخنا، فهو نموذج للديكتاتور الأمريكي الجنوبي العسكري. لقد كان جزاراً دمّر باراجواي، إذ قادها إلي حرب مستحيلة».

(٤٧) قبل انتخابات ١٩٦٨، زار الجنرال ستروبسنر الولايات المتحدة. وقال لوكالة الصحافة الفرنسية «عندما التقيت بالرئيس جونسون، أوضحت له انني قد أديت مهمة رئيس الوزراء لمدة اثني عشر عاماً بتفويضٍ استفتائي. وقد رد جونسون بأن ذلك يعد سبباً آخر لمواصلة أداء المهمة في الفترة القادمة».

(48) Presidencia de la Nación, Secretaría de Técnica de Planificación, Plan *nacional de desarrollo ecnómico y social*, Asunción, 1966.

(٤٩) اختار فلاحون كثيرون في نهاية الأمر العودة إلي منطقة المزارع الصغيرة في وسط البلاد أو إنضموا إلى النزوح الجماعي الجديد الي البرازيل، حيث يقدمون قوة عملهم الرخيصة إلي مزارع الماتي في كوريتيبا وماتو جروسو أو مزارع البن في بارانا. أما المحنة الأقسي فهي محنة الرائد، الذي يجد نفسه وجهاً لوجه مع الغابة، محروماً تماماً من المعرفة التقنية أو المساعدة الائتمانية، مع أراض «ممنوحة» من الحكومة يتعين عليه أن يستخلص منها ما يكفي لإطعامة وسداد ديونه – لأنه إن لم يدفع الثمن المحدد للأرض فإنه لن يحصل علي حق حيازتها.

(50) R. Scalabrini Ortiz, *Política en el Rio de la Plata*, Buenos Aires, 1940.

(51) J. Fred Rippy, *British Investments in Latin America (1822 - 1949)*, Minneapolis, 1959.

(52) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(53) Robert Schnerb, ***Le XIX' siécle. L'apogée de l'expansion europenne (1815 - 1914)***, tomo VI de la historia general de las civilizaciones dirigida por Maurice Grouzet, París, 1968.

(54) R. Scalabrini Ortiz, ***Op. Cit.***

(55) ***Ibid.***

(56) J. Eduardo Retondo, ***El bosque y la industria forestal en Santiago del Estero***, Santiago del Estero, 1963.

(57) Citado por André Gunder Frank, ***Capitalism and Underdevlopment in Latin America,*** Nueva York, 1967.

(58) Edward C. Kirkland, ***Historia económica de Estados Unidos***, México, 1941.

(59) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(60) Claude Fohlen, ***L'Amérique anglo-saxonne de 1815 á nos jours***, París, 1965.

(61) Robert Schnerb, ***Op. Cit.***

(62) Harry H. Pierce, ***Railroads of New York, A Study of Goverment Aid, 1826 - 1875***, Cambridge, Massachusetts, 1953.

(63) Claude Fohlen, ***Op. Cit.***

(٦٤) لقد أصبح الجنوب مستعمرة داخلية للرأسماليين الشماليين. وبعد الحرب، اتخذت الدعاية الموجهة إلي إنشاء مصانع للغزل في كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا وألاباما أبعاد حرب صليبية. لكن ذلك لم يكن إنتصاراً لقضية أدبية، ولم تكن وراء الصناعات الجديدة أية نزعة انسانية خيرية خالصة؛ لقد كان الجنوب يقدم قوة عمل وطاقة أرخص وأرباحاً فلكية، تصل أحياناً إلي نسبة ٧٥ في المائة. وقد تدفق رأس المال من الشمال لربط الجنوب بمركز جاذبية النظام. وكانت صناعة التبغ، المتركزة في كارولينا الشمالية، خاضعة لتروست دوك مباشرة، وهو التروست الذي جعل مقره الرئيس في نيوجيرسي للاستفادة من قوانين مناسبة أكثر؛ وفي عام ١٩٠٧، وقعت شركة فحم وحديد تنيسي، التي كانت تستغل حديد وفحم ألاباما، تحت سيطرة تروست الصلب الأمريكي، الذي أخذ منذ ذلك الحين فصاعداً في تحديد الأسعار وقضي بذلك علي المنافسة المزعجة. وفي بداية القرن العشرين، كان دخل الفرد في الجنوب قد هبط إلي نصف ما كان عليه قبل الحرب الأهلية.

بنية النهب المعاصرة

■ تعويذة عاجزة

من مجموع الاستثمارات الخاصة المباشرة فى أمريكا اللاتينية والقادمة من الخارج، كانت نسبة تقل عن الخمس قادمة من الولايات المتحدة عندما كتب لينين **"الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"** فى ربيع ١٩١٦. فما هى الامبريالية التى عرفها لينين؟ إنها ضراوة المراكز الصناعية الساعية إلى أسواق عالمية لسلعها؛ حمّى الاستيلاء على كافة المصادر المحتملة للمواد الخام؛ نهب الحديد، والفحم والبترول؛ السكك الحديدية التى أدت إلى ترابط السيطرة على المناطق الخاضعة للهيمنة؛ القروض الشرهة التى تقدمها الاحتكارات المالية؛ الحملات العسكرية؛ حروب الفتح. إنها امبريالية سممت كل مكان، سواء كان مستعمرة أو شبه مستعمرة، قد يجرؤ على بناء مصنع خاص به. لقد كان التصنيع امتيازاً للمتروبولات؛ أما فى البلدان الفقيرة فقد كان متعارضاً مع نظام السيطرة الذى فرضته البلدان الغنية. وقد شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية تراجعاً شاملاً للمصالح الأوروبية عن أمريكا اللاتينية، بينما أخذت الاستثمارات الأمريكية تتقدم تقدماً ظافراً. ومنذ ذلك الحين وهناك تغير مهم فى بؤرة الاستثمار. فشيئاً فشيئاً، وسنة بعد سنة، أخذ رأس المال المستثمر فى الخدمات العامة والتعدين يفقد أهميته، بينما زاد بالمقابل حجم الاستثمارات فى البترول و، بالدرجة الأولى، فى الإنتاج الصناعى. وفى الوقت الحاضر، فإن دولاراً أمريكياً من كل ثلاثة دولارات أمريكية مستثمرة فى أمريكا اللاتينية يستثمر فى الصناعة[1].

وفى مقابل استثمارات تافهة، تقفز فروع الشركات العملاقة فوق الحواجز الجمركية المقامة – يا للمفارقة! – ضد المنافسة الأجنبية، وتستولى على عملية التصنيع الداخلية. إنها تصدر المصانع أو، وهذا ليس نادراً، تحاصر وتبتلع المصانع القائمة بالفعل. ولكى تحقق ذلك يمكنها الاعتماد على المساعدة المتحمسة من جانب معظم الحكومات المحلية وعلى قوة الابتزاز التى تسبغها عليها المنظمات الائتمانية الدولية. إن رأس المال الامبريالى يستولى على الأسواق من الداخل، مستحوذاً على القطاعات الرئيسية للصناعة المحلية: فهو ينتزع أو ينشئ المعاقل الحاسمة التى يسيطر منها على الباقى. وتصف منظمة الدول الأمريكية العملية على النحو التالى: "ماتزال

الاستثمارات الأمريكية اللاتينية تواصل السيطرة على الصناعات والتقنيات القائمة بالفعل والأقل تقدماً، فى حين أن الاستثمارات الخاصة من الولايات المتحدة ومن بلدان صناعية أخرى أيضا على الأرجح - تزيد بسرعة مشاركتها فى صناعات دينامية معينة تتطلب مستوى تقنياً عالياً نسبياً وتعد أكثر أهمية فى تحديد مسار التنمية الاقتصادية[٢]. وهكذا فإن دينامية المصانع الأمريكية جنوبى الريو جراندى أكثر كثافة بكثير من دينامية الصناعة الأمريكية اللاتينية بوجه عام. أما الأرقام الخاصة بالبلدان الثلاثة الأكبر فهى بالغة الدلالة: فلو اعتبرنا عام ١٩٦١ عام أساس، نجد أن الناتج الصناعى الأرجنتينى قد وصل فى عام ١٩٦٥ إلى ١١٢,٥، فى حين أن مبيعات فروع الاحتكارات الأمريكية قد زادت فى الفترة نفسها لتصل إلى ١٦٦,٣. وبالنسبة إلى البرازيل، فإن الأرقام المناظرة هى ١٠٩,٢ و ١٢٠؛ أما بالنسبة إلى المكسيك، فإنها ١٤٢,٢ و١٨٦,٨[٣].

وطبيعى أن اهتمام الشركات الامبريالية بالهيمنة على النمو الصناعى الامريكى اللاتينى واستثماره لحسابها لايعنى عدم اهتمامها بالأشكال التقليدية للاستغلال. صحيح أن سكك حديد شركة الفواكه المتحدة فى جواتيمالا لم تعد مربحة وأن التأميم الذى قامت به البرازيل لشركتى اليكتريك بوند آند شير وانترناشيونال تليفون آند تلجراف كان كسباً مجزياً لهما، إذ حصلتا على تعويضات بالذهب الخالص عن منشئات صدئة وآلات جديرة بأن تعرض فى المتاحف. إلا أنه إذا ما جرى التخلى عن الخدمات العامة لحساب أنشطة أكثر ربحية، فإن المواد الخام تصبح مسألة أخرى. إذ كيف يمكن للامبراطورية أن تدبر أمورها دون نفط ومعادن أمريكا اللاتينية؟ فبرغم الهبوط النسبى فى الاستثمارات التعدينية، نجد أن الاقتصاد الأمريكى لايمكنه، كما رأينا، أن يدبر أموره دون الإمدادات الحيوية من الجنوب ودون الأرباح المجزية التى تحققها. كما أن الاستثمارات التى تحول المصانع الأمريكية اللاتينية إلى مجرد تروس فى آلة الشركات العملاقة لاتبدل التقسيم الدولى للعمل بحال من الأحوال، وليس هناك تغير فى نظام الشرايين المتصلة فيما بينها والتى يجرى من خلالها توزيع الرساميل والسلع بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة. وتواصل أمريكا اللاتينية تصدير بطالتها وفقرها: المواد الخام التى تحتاجها السوق العالمية، والتى يعتمد الاقتصاد الإقليمى عليها. وويواصل التبادل غير المتكافئ عمله كما فى السابق: فالأجور التى لاتكفى لسد الجوع فى أمريكا اللاتينية تساعد على تمويل الرواتب العالية فى الولايات المتحدة وأوروبا. وماتزال

البرازيل، برغم تصنيعها، تعتمد بدرجة هامة على صادرات البن، بينما تعتمد الأرجنتين على مبيعات اللحوم، وتصدر المكسيك منتجات صناعية قليلة للغاية.

وهناك دائماً سياسيون وتكنوقراطيون مستعدون لإظهار أن غزو رأس المال الأجنبى الذى يعمل فى مجال "التصنيع" يفيد المنطقة المبتلاة بالغزو. وفى هذا التصور، فإن الامبريالية حديثة الطراز تجيئ من أجل مهمة تمدينية حقيقية، وتعد نعمة تهبط على البلدان الخاضعة، أما اعلانات الحب الصادق التى تتبجح بها القوة السائدة الآن فهى تعبر عن نواياها الحقيقية. وهكذا تجد الضمائر الآثمة مايعفيها من الحاجة إلى أدلة على البراءة من الاثم، لأنه لا أحد آثم: فامبريالية اليوم تشع تكنولوجيا وتقدماً، بل إن استخدام هذه الكلمة القديمة، غير السارة، لتعريفها هو من قبيل انعدام الذوق. إلاّ أنه عندما تبدأ الامبريالية فى الثناء على فضائلها، يجب أن ننظر إلى جيوبنا . وعندئذ سنكتشف أن النموذج الجديد لايجعل مستعمراته أكثر ازدهاراً، وإن كان يثرى أقطاب النمو بينها، وهو لايخفف التوترات الاجتماعية والإقليمية، بل يزيد تفاقمها؛ وهو ينشر الفقر بشكل أوسع بكثير ويركز الثروة تركيزاً أضيق بكثير؛ وهو يدفع أجوراً أدنى عشرين مرة مما فى ديترويت ويفرض أسعاراً أعلى ثلاث مرات مما فى نيويورك؛ وهو يستولى على السوق الداخلية والمصادر الرئيسية للجهاز الإنتاجى، ويكتسب حقوق ملكية لرسم مسار وتحديد حدود التقدم؛ ويسيطر على الائتمان القومى ويوجه التجارة الخارجية حسب أهوائه، وهو ينزع التأميم لا عن الصناعة وحدها، وإنما عن الأرباح التى تحققها الصناعة أيضاً؛ ويحفز تبديد الموارد بتحويل جزء كبير من الفائض الاقتصادى إلى الخارج؛ وهو لايأتى برساميل من أجل التنمية وإنما يتولى ترحيل الرساميل. وكما أظهرت تقارير مختلفة للمجلس الاقتصادى لأمريكا اللاتينية، فإن نزف الأرباح من الاستثمارات الأمريكية المباشرة فى أمريكا اللاتينية فى السنوات الخمس الأخيرة كان أكبر خمس مرات من تدفق الاستثمارات الجديدة. ولتمكين الشركات من ترحيل أرباحها، ترهن البلدان الأمريكية اللاتينية نفسها للبنوك الأجنبية والمنظمات الائتمانية الدولية، مضاعفةً بذلك تدفق النزيف القادم. والنتيجة واحدة بالنسبة إلى الاستثمار الصناعى كما بالنسبة إلى الاستثمار "التقليدى".

وفى الإطار المحكم لرأسمالية عالمية مندمجة حول الشركات الأمريكية الكبيرة، يتزايد انفصال تصنيع أمريكا اللاتينية عن حاجات التقدم والتحرر الوطنى. لقد حرمت التعويذة من مفعولها فى الهزائم الحاسمة التى حدثت فى القرن الماضى، عندما

انتصرت الموانئ على المناطق الداخلية وسحقت التجارة الحرة الصناعات القومية الناشئة. ولم يفرز القرن العشرون بورجوازية قوية وخلاقة بما يكفي لتحمل المهمة ومواصلتها إلى نهايتها. فقد تلاشت كل محاولة في منتصف الطريق إلى الهدف. وما حدث للبورجوازية الصناعية الأمريكية اللاتينية هو ما يحدث للأقزام: لقد أصابتها الشيخوخة دون أن تنمو. والحال أن بورجوازيينا الحاليين هم مجرد وكلاء وموظفين لدى شركات أجنبية مهيمنة. وتجبرنا الحقيقة على الاعتراف بأنهم لم يفعلوا قط شيئاً يجعلهم جديرين بمصير أفضل.

■ الحراس هم من يفتحون البوابات: عقم البورجوازية القومية الآثم

تكشف البنية الحالية للصناعة في الأرجنتين والبرازيل، والمكسيك - أقطاب التنمية الأمريكية اللاتينية الثلاثة التي يسرفون في مديحها - عن تشوهات مميزة لتنمية معكوسة. ففيما عدا استثناءات قليلة، أمكن بسهولة تحقيق تبعية الصناعة في بلدان أخرى، أضعف. ومن المؤكد أنه لاوجود لشئ تنافسي فيما يتعلق برأسمالية تصدر اليوم المصانع كما تصدر السلع والرساميل، وتخترق كل شئ وتجز كل شئ: إن هذا سديم صناعي عالمي يتحقق من جانب رأسمالية في عصر الشركات متعددة القوميات، والاحتكارات العملاقة التي تستوعب كل ضرب من ضروب النشاط في كل ركن من أركان الأرض[٤]. بل إن تركيز الرساميل الأمريكية في أمريكا اللاتينية أشد إحكاماً مما في الولايات المتحدة ذاتها؛ ذلك أن حفنة من الاحتكارات تسيطر على الغالبية الساحقة من الاستثمارات. وبالنسبة إلى هذه الاحتكارات، ليست الأمة مهمة يتعين القيام بها، أو علماً ينبغي الذود عنه، أو مصيراً يتوجب تحقيقه: إنها ليست أكثر من حاجز يلزم تخطيه - لأن السيادة يمكن أن تكون غير مناسبة - أو ثمرة ريانة جديرة بأن تلتهم. ولكن هل الأمة مصير يتوجب تحقيقه بالنسبة إلى الطبقات الحاكمة في كل بلد؟ إن مسيرة رأس المال الامبريالي الكبرى قد وجدت صناعة محلية لاحول لها ولاقوة وغير مدركة لدورها التاريخي. وقد اندمجت البورجوازية في قوة الغزو الأجنبي دون أن تذرف دمعاً أو تتزف دماً: ومع تزايد هزال الاقتصاد الأمريكي اللاتيني المتواصل على مر العقدين الماضيين، هبط نفوذ الدولة عليه إلى أدنى مستوى له وذلك بفضل المساعي الحميدة لصندوق النقد

الدولى. لقد دخلت الشركات الأمريكية أوروبا دخول الفاتحين وأمسكت بأعنة تنمية القارة العجوز إمساكاً حازماً بحيث أن الصناعة الأمريكية فى أوروبا، فيما يقال لنا، سوف تصبح قبل فوات وقت طويل القوة الصناعية الثالثة فى العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى[٥]. وإذا كانت البورجوازية الأوروبية، بتقاليدها وجبروتها، لم تتمكن من وقف السيل، فإلى أى شئ يستند الأمل فى أن بورجوازية أمريكا اللاتينية، فى هذه المرحلة التاريخية، سوف تقود مغامرة التنمية الرأسمالية المستقلة المستحيلة؟ الواقع أن عملية نزع التأميم فى أمريكا اللاتينية تعدّ أسرع وأرخص وقد ترتبت عليها نتائج أسوأ بكثير.

والحال أن نمو الصناعة الأمريكية اللاتينية قد دُشِّنَ، فى هذا القرن، من الخارج، بدلاً من أن يدشن عن طريق سياسات إنمائية قومية مخططة. وهو لم يكن تعبيراً عن عملية نضوج للقوى الإنتاجية، كما لم يكن نتيجة تفجر لنزاعات داخلية - نزاعات يزعمون أنه "قد أمكن التغلب عليها" - بين كبار ملاك الأراضى وطبقة حرفية صاعدة، لأن تلك الطبقة لم تعش طويلاً. لقد ولدت الصناعة الأمريكية اللاتينية من رحم نظام تصدير المنتجات الزراعية ذاته، رداً على اختلال حاد أثاره هبوط التجارة الخارجية. وقد أدت حربان عالميتان، وخصوصاً الكساد الرأسمالى الذى تلا "يوم الجمعة الأسود" فى أكتوبر ١٩٢٩، إلى تقليص صادرات المنطقة ومن ثم قدرتها على الاستيراد تقليصاً مفاجئاً وعنيفاً. وسرعان ما ارتفعت إلى عنان السماء أسعار المنتجات الصناعية الأجنبية التى أصبحت نادرة فجأة. ولم تنبثق إلى الوجود طبقة صناعية حرة من التبعية التقليدية: فقد جاء الحافز إلى الإنتاج الصناعى من الرساميل التى راكمها كبار ملاك الأراضى والمستوردون. وكان كبار مربى الماشية هم الذين فرضوا ضوابط التبادل فى الأرجنتين. وفى عام ١٩٣٣، قال رئيس الجمعية الزراعية، الذى أصبح وزيراً للزراعة: "إن العزلة التى وضعنا فيها عالم مضطرب تفرض علينا أن ننتج هنا ما لم يعد بوسعنا شراؤه من البلدان التى تشترى منا"[٦]. وقد سارع ملاك مزارع البن الكبيرة إلى استثمار رساميلهم التى راكموها من التجارة الخارجية فى تصنيع ساو باولو. وقد جاء فى وثيقة حكومية: "خلافا لعملية تصنيع البلدان المتقدمة بالفعل، فإن عملية تصنيع البرازيل لم تكن عملية بطيئة، جانباً من عملية عامة للتحول الاقتصادى. لقد كانت، بالأحرى، ظاهرة سريعة ومكثفة، جرى فرضها بصورة علوية على البنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة فى السابق دون أن تقود إلى تعديل هذه البنية تعديلاً كاملاً، الأمر الذى قاد إلى

التفاوتات القطاعية والإقليمية العميقة التى تميز المجتمع البرازيلى"[٧].

ومنذ البداية، احتمت الصناعة الجديدة وراء حواجز جمركية حامية أقامتها الحكومات، ونمت بفضل تدابير اتخذتها الدولة لتقييد الواردات والحد منها، وتحديد أسعار صرف خاصة، وتجنب الضرائب، وشراء أو تمويل فوائض الإنتاج، وبناء الطرق لنقل المواد الخام والسلع، وخلق أو توسيع مصادر الطاقة. والحال أن الحكومات القومية وذات الشعبية العريضة، حكومات جيتوليو فارجاس (١٩٣٠ - ١٩٤٥ و ١٩٥١ - ١٩٥٤)، ولاثارو كارديناس (١٩٣٤ - ١٩٤٠)، وخوان دومينجو بيرون (١٩٤٦ - ١٩٥٥) قد عبرت عن حاجة الصناعة البرازيلية والمكسيكية، والأرجنتينية إلى "الانطلاق"، إلى النمو أو إلى التوطد تبعاً للمكان والفترة. ففى أمريكا اللاتينية، كانت "روح الاستثمار" التى تحدد خصائص أساسية معينة للبورجوازية الصناعية فى البلدان الرأسمالية المتقدمة خاصية من خصائص الدولة، خاصة فى تلك الفترات الحاسمة. وبدلاً من الطبقة الاجتماعية التى استصرخها التاريخ دون أن يجد تجاوباً يذكر، كانت حكومة الزعماء الشعبويين هى التى تجسد الأمة وقد اتاحت للجماهير مدخلاً سياسياً واقتصادياً إلى فوائد التصنيع. أما البورجوازية الصناعية التى احتضنتها هذه المحضنة فلم تختلف من حيث الجوهر عن الطبقات الحاكمة السابقة. والحال أن بيرون، مثلاً، قد استثار الذعر فى صفوف الاتحاد الصناعى - الذى رأى قادته، ليس دون سبب، شبح المونتونيراس الريفية يعاود الظهور فى تمرد بروليتاريا مشارف بوينوس آيريس. وقبل أن يهزم بيرون الائتلاف المحافظ فى انتخابات فبراير ١٩٤٦، كان الائتلاف قد حصل على شيك شهير من قائد الصناعيين؛ وبعد ذلك بعشر سنوات، عندما سقط بيرون، اتضح لهم مرة أخرى أن التناقض مع الأوليجاركية - التى كانوا يشكلون جزءاً منها أياً كانت الأحوال - ليس أساسياً. وفى عام ١٩٥٦، شكل الاتحاد الصناعى جبهة متحدة مع الجمعية الزراعية والغرفة التجارية دفاعاً عن حرية إنشاء الاتحادات، وحرية الاستثمار، وحرية التجارة، وحرية استئجار قوة العمل[٨]. وفى البرازيل، توحد قطاع مهم من البورجوازية الصناعية مع القوى التى دفعت فارجاس إلى الانتحار. وكانت التجربة المكسيكية تتميز بخصائص متميزة وكانت تعد عملية التغيير الأمريكية اللاتينية بما هو أكثر بكثير مما ساهمت به فى نهاية الأمر. لقد كانت تجربة كارديناس القومية هى التجربة الوحيدة التى صارعت كبار ملاك الأراضى بتنفيذ الإصلاح الزراعى الذى كانت البلاد تتحرق إليه منذ عام ١٩١٠. وفى البلدان الأخرى - لا فى الأرجنتين والبرازيل وحدهما - تركت الحكومات ذات التوجهات

التصنيعية هيكل الملكية الزراعية الكبيرة على حاله، بحيث أنه قد واصل خنق السوق الداخلية والإنتاج الزراعي[٩].

ويمكن القول، بوجه عام، أن الصناعة قد هبطت مثلما تهبط طائرة دون أن يؤثر هبوطها على المطار: فهى لكونها مقيدة بحاجات سوق داخلية قائمة سلفاً ولكونها تخدم هذه الحاجات بالتحديد، لم تؤد قط إلى توسيع هذه السوق بما يكفى لجعل التغيرات الهيكلية الكبرى ممكنة. وكانت التنمية الصناعية تتطلب المزيد والمزيد من الواردات من الآلات، وقطع الغيار، والوقود، والمنتجات الوسيطة[١٠]، لكن الصادرات، مصدر العملة الأجنبية، لم يكن بوسعها تغطية ثمن هذه الواردات لأن الصادرات كانت تجيئ من نشاط حكم عليه سادته بالتخلف. وفى ظل نظام بيرون، حققت الدولة الأرجنتينية احتكاراً لتصدير الحبوب إلاّ أنها لم تمس نظام ملكية الأرض؛ كما أنها لم تؤمم مصانع تعليب اللحوم التى تملكها الشركات الأمريكية والبريطانية أو مصدرى الصوف[١١]. وهكذا كان التحرك الرسمى نحو الصناعة الثقيلة متخاذلاً للغاية ولم تدرك الدولة فى الوقت المناسب أنها إذا لم تساعد على خلق تكنولوجيا خاصة بها، فإن سياستها القومية سوف تحاول التحليق بأجنحة مقصوصة. وبحلول عام ١٩٥٣، فإن بيرون، الذى كان قد وصل إلى السلطة فى مواجهة مباشرة مع السفير الأمريكى، كان يرحب بميلتون ايزنهاور ترحيباً مثيراً ويدعو إلى تعاون رأس المال الأجنبى فى تشجيع الصناعات الحيوية[١٢]. وكانت الحاجة إلى "مشاركة" بين الصناعة القومية والشركات الامبريالية قد أصبحت ملحة مع تسارع الاستعاضة عن السلع الصناعية المستوردة ومع احتياج المصانع الجديدة لمستويات عالية من التكنولوجيا والتنظيم. وقد ظهر الاتجاه نفسه فى خطة جيتوليو فارجاس التصنيعية، وبلغ ذروته الدرامية فى قرار فارجاس المأساوى الأخير. والحال أن الاحتكارات الأجنبية، بما تتمتع به من تكنولوجيا حديثة إلى أبعد حد، قد استولت بشكل ثابت وغير سرى تماماً على الصناعة القومية لجميع البلدان الأمريكية اللاتينية، بما فى ذلك المكسيك، عن طريق بيع التقنيات الصناعية، وحقوق استخدام العلامات المسجلة، والمعدات الجديدة. لقد استولت وول ستريت نهائياً على المكان الذى كان يحتله لومبارد ستريت، وكانت الاحتكارات الأمريكية هى التى تربعت للتمتع بمكانة القوة العظمى فى المنطقة. وإلى هذا التغلغل فى المجال الصناعى، أضيف تدخل متزايد باستمرار فى مجالى البنوك والتجارة: لقد كان يجرى ادماج السوق الأمريكية اللاتينية فى السوق الداخلية للشركات متعددة القوميات.

وفى عام ١٩٦٥، أعلن روبيرتو كامبوس، القيصر الاقتصادى لديكتاتورية كاستيلو برانكو، إن "عهد الزعماء ذوى الجانبية الجماهيرية والمحاطين بهالة رومانسية يخلى مكانه للتكنوقراطية"[١٣]. وكانت السفارة الأمريكية قد شاركت مشاركة مباشرة فى الانقلاب ضد حكومة جواو جولارت؛ والحال أن سقوط جولارت، وريث فارجاس فى الأسلوب والهدف، قد أسدل الستار على الشعبوية والسياسة المتوجهة إلى الجماهير. وقد كتب إلَىَّ صديق من ريو دى جانييرو بعد بضعة أشهر من نجاح المؤامرة العسكرية: "إننا أمة مضروبة، مسودة، مغلوبة، مسحوقة": فنزع تأميم البرازيل كان يعنى حكم قبضة حديدية من جانب ديكتاتورية غير شعبية. ولم يعد يمكن الجمع بين التنمية الرأسمالية والتعبئة الجماهيرية الضخمة حول زعيم مثل فارجاس. ولإحتواء التضخم المنفلت على حساب فقر الفقراء الأعظم، كان على النظام أن يحظر الإضرابات ويدمر النقابات والأحزاب، وأن يسجن، ويعذب، ويقتل، وأن يخفض أجور العمال بأية وسيلة ضرورية. وقد أظهر استطلاع للرأى فى ١٩٦٦ – ١٩٦٧ أن نسبة ٨٤ فى المائة من كبار الصناعيين فى البرازيل تعتقد أن سياسة حكومة جولارت الاقتصادية كانت سياسة ضارة. ولاشك أنه كان بينهم أولئك القادة للبورجوازية القومية الذين حاول جولارت الاعتماد عليهم لوقف الاستنزاف الامبريالى للاقتصاد القومى[١٤]. وقد حدثت عملية قمع وخنق الشعب ذاتها فى ظل نظام الجنرال خوان كارلوس أونجانيا فى الأرجنتين – والواقع أنها كانت قد بدأت مع هزيمة بيرون فى عام ١٩٥٥، مثلما بدأت فى البرازيل مع الطلقة التى قتلت فارجاس فى عام ١٩٥٤. وفى المكسيك، أيضاً، تطابق نزع تأميم الصناعة مع سياسات قمعية بشكل متزايد من جانب الحزب الذى يحتكر الحكم.

وكما لاحظ فيرناندو هنريكى كاردوزو، فإن الصناعة الخفيفة، أو "التقليدية"، والتى نمت فى ظل الحماية الخيرة من جانب الحكومات الشعبوية، تتطلب استهلاكاً متزايداً من جانب الجماهير، الناس الذين يشترون القمصان أو السجائر[١٥]. لكن الصناعة "الحيوية" – إنتاج السلع الوسيطة والرأسمالية – موجهة نحو سوق محدودة، سوق تقف الاحتكارات الكبرى والدولة على رأسها: مستهلكين قلائل يحوزون موارد مالية ضخمة. والحال أن الصناعة الحيوية، والتى هى الآن فى أيدٍ أجنبية، تستند إلى الصناعة التقليدية القائمة سلفاً وتخضعها. وفى القطاعات التقليدية، منخفضة المستوى من الناحية التكنولوجية، يحتفظ رأس المال القومى ببعض القوة؛ وكلما قل ارتباط الرأسمالى بأنماط الإنتاج الدولية عن طريق التبعية التكنولوجية والمالية، كلما مال إلى

تحبيذ الإصلاح الزراعي وزيادة القوة الشرائية لدى الجماهير عن طريق النضال النقابي. ومن الناحية الأخرى، فإن أولئك المرتبطين بارتباطات أجنبية أوثق، الممثلين للصناعة الحيوية، لايريدون غير تعزيز الأواصر بين جزر التنمية في البلدان التابعة والنظام الاقتصادي العالمي، ويخضعون التحولات الداخلية لهذه الأولوية. وهنا الحناجر التي تخرج منها أغنية البورجوازية الصناعية، كما تظهر من كل استطلاعات الرأى الأرجنتينية والبرازيلية الأخيرة التي يستخدمها كاردوزو كمادة أولية. فرجال الأعمال الكبار يعارضون الإصلاح الزراعي معارضة حازمة؛ وينفي معظمهم أن القطاع الصناعي له مصالح مختلفة عن مصالح القطاع الريفي ويعتقد أنه لايوجد ماهو أهم بالنسبة إلى التنمية الصناعية من تلاحم كافة الطبقات المنتجة وتعزيز الكتلة الغربية. وتعتقد نسبة ٢ في المائة فقط من كبار الصناعيين في الأرجنتين والبرازيل أن العمال لهم أهمية سياسية من الدرجة الأولى. وكان معظم الذين أجرى استطلاع الرأى بينهم من "المستثمرين القوميين"؛ ومعظمهم مرتبط دون أمل في الفكاك بمراكز القوة الأجنبية عن طريق ما لاحصر له من عرى التبعية.

فهل يمكن توقع أى شئ في هذه المرحلة؟ إن البورجوازية الصناعية طبقة سائدة مسودة بدورها من الخارج. كما أن كبار ملاك المزارع الرئيسيين على ساحل بيرو، والذين تصادرهم الآن حكومة بيلاسكو ألبارادو، هم في الوقت نفسه ملاك الصناعات التحويلية الإحدى والثلاثين والكثير من المشاريع المتماثلة الأخرى[١٦]. والحالة متماثلة في كافة البلدان الأخرى: نحو مائة عائلة تملك المصانع والأراضي، الاستثمارات الكبيرة والبنوك[١٧]. وليست المكسيك استثناءً: فالبورجوازية القومية، الخاضعة للاحتكارات الأمريكية الكبيرة، تخشى ضغط الجماهير أكثر كثيراً من خشيتها من الاضطهاد الامبريالي، الذى تنمو في احضانه دون استقلال – ودون المخيلة الابداعية التي تنسب إليها – وقد ضاعفت مصالحها مضاعفة فعالة[١٨]. وفي الأرجنتين، كان مؤسس نادى الجوكى، مركز الهيبة الاجتماعية لكبار الملاك الزراعيين، الصناعي الرئيسي أيضاً، وهكذا ولد في نهاية القرن التاسع عشر تقليد كتب له الخلود[١٩]. إن صناعيين لهم حسابات مصرفية ضخمة يتزوجون بنات كبار ملاك زراعيين لكي يتسنى لهم دخول صالونات الأوليجاركية المقصورة عليها، أو يشترون أراضي للفرس نفسه؛ ولم يكن قليلاً عدد كبار مربي الماشية الذين استثمروا في الصناعة فوائض الرساميل المتراكمة في أيديهم – على الأقل في فترات الرواج. والحال أن فاوستينو فانو، الذى حقق جانباً

موفوراً من ثروته بوصفه تاجر منسوجات وصناعياً، قد رأس الجمعية الزراعية أربع مرات قبل موته فى عام ١٩٦٧. وقد أعلنت الصحف فى معرض رثائه: "لقد دمر فانو التناقض المزعوم بين الزراعة والصناعة". ويجرى تحويل الفوائض الصناعية إلى أبقار. وقد باع الأخوة دى تيا الأقوياء مصانع السيارات والثلاجات التى كانوا يملكونها لرأسماليين أجانب ويربون الآن ثيراناً نموذجية لمعارض الجمعية الزراعية. وقبل نصف قرن، كانت عائلة أنشورينا، التى كانت تمتلك مقاطعة بوينوس أيريس حتى حدودها، قد بنت واحداً من أكبر مصانع المعادن فى المدينة.

أما فى أوروبا والولايات المتحدة، فقد دخلت البورجوازية الصناعية إلى مسرح التاريخ دخولاً مختلفاً تماماً، ونمت ووطدت قوتها بشكل مختلف تماماً.

■ أى علم يرفرف على الآلات؟

مالت المرأة العجوز على النار وأخذت فى تهويتها بيديها حتى تتقد. كانت محدوبة قليلاً، وذات رقبة ممدودة متجعدة. وكانت تبدو وهى فى هذا الوضع أشبه ما تكون بسلحفاة سوداء شائخة. لكن من المؤكد أن الحماية التى توفرها أسمالها الرثة كانت أقل من تلك التى توفرها الصدفة للسلحفاة، وعلى أية حال، فإن السنين وحدها هى التى جعلتها بطيئة الحركة إلى هذا الحد. وخلفها، كان حائط كوخها، المبنى من قطع صغيرة من الخشب والصفيح، متهالكاً تهالك شاغلته؛ وكانت تظهر خلفه أكواخ مشارف ساو باولو الفقيرة المماثلة. وأمامها، كانت المياه المعدة للقهوة تغلى فى غلاية مسودة. رفعت إلى شفتيها كوزاً صغيراً من الصفيح. وقبل أن تشرب، هزت رأسها وأغلقت عينيها وقالت بالبرتغالية: "أو برازيل أى نُوسّو" – البرازيل لنا! وفى وسط المدينة ذاتها، وفى تلك اللحظة عينها، كان المدير التنفيذى لشركة يونيون كارباید يفكر فى الشئ نفسه – ولكن بلغة أخرى – وهو يرفع كأساً من الكريستال ليشرب نخب استيلاء الشركة على مصنع برازيلى آخر للدائن. ولاشك أن واحداً من الاثنين – المرأة والمدير – كان مخطئاً.

ومنذ عام ١٩٦٤، وديكتاتوريو البرازيل العسكريون المتعاقبون يستقبلون الأعياد السنوية لافتتاح مختلف المشاريع التى تملكها الدولة بالاعلان عن النزع الوشيك لتأميمها، هذا النزع الذى أصبح يسمى الآن بـ "الاستعادة". ويتدافع الوزراء للاحتفال بكل افتتاح لمصنع أجنبى. وكان القانون رقم ٥٦,٥٧٠، المجاز فى ٦ يوليو

١٩٦٥، قد احتفظ للدولة بالصناعة البتروكيميائية: أما القانون رقم ٥٦,٥٧١، المجاز في اليوم نفسه فقد ألغى القانون رقم ٥٦,٥٧٠، وفتح الصناعات البتروكيميائية أمام الاستثمار الخاص. وهكذا، فبشكل مباشر أو من خلال "المشاركة" مع الدولة، كسبت شركات داو كيميكال، ويونيون كارباید، ومجموعة روكفيللير، وفيليبس بتروليوم "شريحة الفيليه الممتازة" المشتهاة أكثر من أي شئ آخر، صناعة مشتقات النفط التي كان من المتوقع أن تشهد رواجاً في السبعينيات. فما الذي حدث في الساعات القليلة الفاصلة بين القانونين؟ ستائر لايكف حفيفها، وقع أقدام في الرواق، طرقات مستميتة على الباب، مذكرات على ورق أخضر تتحرك حركة سريعة من مكتب إلى مكتب، فورة في القصر: من شيكسبير إلى بريخت، كثيرون كان لابد لهم من أن يجدوا متعة في وصف ماجرى. ويعترف وزير في الحكومة فيقول: "في البرازيل، وفيما عدا الدولة نفسها، وعدد من الاستثناءات البارزة، فإن رأس المال الأجنبي وحده هو القوي"[٢٠]. وتبذل الحكومة كل ما في وسعها لتجنب أية منافسة مزعجة مع الشركات الأمريكية والأوروبية.

وقد بدأ رأس المال الأجنبي الموجه إلى الإنتاج الصناعي يتدفق تدفقاً غزيراً على البرازيل في الخمسينيات، ولقي حافزاً قوياً من الخطة التنموية التي نفذها الرئيس جوسيلينو كوبتشيك بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٠. كانت تلك أيام فورة النمو. وقد انبثقت برازيليا كما لو كانت تنبثق من مرجل ساحر، وسط براري لم يكن الهنود قد سمعوا فيها بعد بوجود العجلة؛ لقد بنيت طرق رئيسية وسدود عظيمة؛ وكانت مصانع السيارات تنتج سيارة جديدة كل دقيقتين. لقد كان الخط البياني الصناعي يرتفع ارتفاعاً شاهقاً. وقد فتحت الأبواب على مصاريعها أمام الاستثمارات الأجنبية، وجرى التهليل لغزو الدولار، وانتشر الاحساس بحيوية التقدم. وكانت أوراق البنكنوت تجد طريقها إلي التداول قبل أن يجف حبر طباعتها؛ والحال أن القفزة إلى الأمام قد جرى تمويلها عن طريق تدابير تضخمية وعن طريق دين خارجي فادح سوف يجرى تحميل حكومات متعاقبة بأعبائه الجسيمة. وقد أدخل كوبتشيك وكفلَ نوعاً خاصاً من الكمبيو لتحويل الأرباح إلى المكاتب الرئيسية للشركات الأجنبية ولإفراد أقساط دورية لسداد قروضها الاستثمارية. فقد شاركت الدولة في تحمل المسئولية عن سداد الديون التي تعاقدت عليها هذه الشركات في الخارج، ورتبت دولاراً رخيصاً لسداد أقساط هذه الديون وفوائدها: فوفقاً لتقرير للجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية[٢١]، كانت نسبة تزيد عن ٨٠ في المائة من كافة

الاستثمارات فيما بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٢ عبارة عن قروض مشمولة بضمان من الدولة. وبعبارة أخرى، فإن أكثر من أربعة أخماس استثمارات هذه الشركات قد جاء من بنوك أجنبية وصار إضافة أخرى إلى عبء الديون الخارجية الثقيل الذى تنوء الدولة البرازيلية بحمله. كما منحت مزايا خاصة لاستيراد الآلات[٢٢]. ولم تتمتع المشاريع القومية بالمزايا التى قدمت إلى شركتى جنرال موتورز وفولكسفاجن.

وقد تكشفت آثار نزع التأميم المترتبة على هذا الإغراء من جانب رأس المال الامبريالى فى النتائج التى توصل إليها معهد العلوم الاجتماعية التابع للجامعة عندما أجرى بحثاً عن المجموعات الاقتصادية الكبرى فى البرازيل[٢٣]. فمن بين المجموعات التى يزيد رأسمالها عن أربعة بلايين كروزييرو، كان أكثر من نصفها أجنبياً وكان معظمها مملوكاً للولايات المتحدة؛ ومن بين المجموعات التى يزيد رأسمالها عن عشرة بلايين كروزييرو، كانت اثنى عشرة أجنبية وخمسة برازيلية. وقد استنتج موريسيو فينهاس دى كويروز وهو يحلل نتائج البحث أنه «كلما كانت المجموعة أكبر، كلما زاد احتمال أن تكون أجنبية». ويتميز بدلالة مساوية أو أبلغ واقع أنه من بين المجموعات البرازيلية الأربع والعشرين التى يزيد رأسمالها عن أربعة بلايين كروزييرو، فإن تسع مجموعات فقط هى التى لاترتبط بأسهم مع رأس المال الأمريكى أو الأوروبى، بينما توجد إدارات أجنبية متداخلة مع إدارة مجموعتين من المجموعات التسع. وقد أظهر البحث أن عشر مجموعات اقتصادية تتمتع باحتكار فعلى فى مجال كل منها، وأن ثمانى مجموعات من هذه المجموعات العشر تعدّ فروعاً لشركات أمريكية شمالية كبرى.

لكن كل ذلك كان لعب أطفال بالمقارنة مع ماحدث بعد ذلك. فبين عام ١٩٦٤ ومنتصف عام ١٩٦٨، ابتلعت شركات فورد، وكريزلر، ووليز أوفرلاند، وسيمكا، وفولكسفاجن، وألفا روميو خمسة عشر مصنعاً للسيارات ولقطع غيار السيارات. وفى القطاع الكهربائى - الاليكترونى، انتقلت ثلاث شركات برازيلية مهمة إلى ملكية يابانية. وألتهمت شركات معامل ويث، وبريستول مايرز، وميد جونسون، وليفر براذارز مختلف المعامل، واختزلت الإنتاج القومى من الأدوية إلى خمس سوق الأدوية. وأنقضت شركة أناكوندا على المعادن غير الحديدية بينما انقضت شركة يونيون كارباید على اللدائن، والكيميائيات، والبتروكيميائيات، واستولت شركتا اميريكان كان وأمريكان ماشين آند فاوندرى وزملاء آخرون لهما على ست شركات برازيلية للآلات والمعادن؛ أما شركة مينيراساو جيرال، صاحبة أحد أكبر مصانع المعادن فى البرازيل، فقد اشتراها

كونسورتيوم مؤلف من شركات بيتلهيم ستيل وتشيز مانهاتن وستاندارد أويل بثمن بخس. والحال أن لجنة برلمانية انشئت للتحقيق فى الموضوع قد توصلت إلى بعض النتائج المثيرة، لكن النظام العسكرى أغلق أبواب الكونجرس البرازيلى ولم تصل النتائج قط إلى الجمهور البرازيلى[٢٤].

وفى ظل حكومة الماريشال كاستيلو برانكو، جرى توقيع اتفاق خاص بضمان الاستثمارات، مَنَحَ الشركات الأجنبية وضعية خارجة عن إطار التشريع الوطنى بالفعل؛ لقد خفضت الضرائب على أرباحها ومنحت تسهيلات ائتمانية غير عادية، بينما أزيلت الكوابح التى كانت حكومة جولارت قد فرضتها على نزح الأرباح. والحال أن الديكتاتورية قد عرضت البلاد للبيع على الرأسماليين الأجانب مثلما يعرض قوادٌ إمرأةً، ووضعت التأكيد فى موضعه: "إن معاملة الأجانب فى البرازيل تعد من بين المعاملات الأكثر تحرراً فى العالم ... ولايسرى مفعول أية قيود عامة فيما يتعلق بجنسية الملاك، أو الشركاء، أو المساهمين ... ولايوجد قيد على النسبة المئوية لرأس المال المسجل والتى يجوز ترحيلها كربح ... ولايوجد أى قيد على ترحيل الرساميل أما إعادة استثمار الأرباح فهى تعتبر زيادة للرأسمال الأصلى ...."[٢٥].

وتنافسُ الأرجنتين البرازيل على دور محظية الاستثمار الامبريالى، ولم يتخلف نظامها العسكرى خلال الفترة ذاتها عن الاعلان عن المزايا التى سوف يقدمها إلى هذا الاستثمار. ففى خطابه الذى حدد فيه فى عام ١٩٦٧ السياسة الاقتصادية الأرجنتينية، أكد الجنرال خوان كارلوس أونجانيا من جديد أن الفراخ تكفل فرصة متكافئة للثعلب: "إن الاستثمارات الأجنبية فى الأرجنتين سوف تعامل معاملة مساوية لمعاملة الاستثمارات ذات المنشأ الداخلى، وذلك طبقاً للسياسة التقليدية لبلادنا والتى لم تتحيز قط ضد رأس المال الأجنبى"[٢٦]. وكما هو الحال فى البرازيل، فإن الأرجنتين لاتفرض قيوداً على دخول رأس المال الأجنبى، أو على حركته داخل الاقتصاد القومى، أو على تصدير الأرباح، أو على ترحيل الرساميل؛ أما المدفوعات الخاصة بحقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، والمساعدة التقنية فهى تقدم دون خصومات ضريبية. وتعفى الحكومة الشركات من الضرائب وتتيح لها أسعار صرف خاصة، بالإضافة إلى الكثير من الحوافز والاعفاءات الأخرى. وبين عامى ١٩٦٣ و١٩٦٨، جرى نزع تأميم خمسين مشروعاً أرجنتينياً مهماً - انتقل تسعة وعشرون منها إلى أيدٍ امريكية - فى قطاعات متنوعة كالصلب، والسيارات وقطع غيار السيارات، والبتروكيميائيات، والكيميائيات،

والصناعة الكهربائية، والورق، والسجائر[٢٧]. وفى عام ١٩٦٢، كانت شركتان من شركات الاستثمار الرأسمالى الخاص، وهما سيام دى تيا واندستریاس كايسر أرخنتيناس، من بين الشركات الصناعية الخمس الأكبر فى أمريكا اللاتينية؛ والحال أنه قد جرى فى عام ١٩٦٧ التنازل عنهما عن طيب خاطر لحساب رأس المال الامبريالى. ومن بين كبرى المشروعات فى البلاد، فإن تلك التى تتجاوز مبيعاتها سبعة بلايين بيسو فى السنة يعود نصفُ القيمة الاجمالية لمبيعاتها إلى الشركات الاجنبية، وثلث إلى الدولة، وسدس بالكاد إلى شركات خاصة ذات رساميل أرجنتينية[٢٨].

ويستثمر نحو ثلث الاستثمارات الأمريكية الشمالية فى الصناعة الأمريكية اللاتينية فى المكسيك، التى لاتفرض هى الأخرى أية قيود على تحويل الرساميل ونقل الأرباح؛ أما قيودها الخاصة بأسعار الصرف فهى صارخة الغياب. ومن ناحية أخرى، فإن "المكسكة" الالزامية لرأس المال، والتى يتعين بموجبها على الرعايا المكسيكيين حيازة غالبية الأسهم فى بعض الصناعات، تعد، وفقاً لما ذكره وزير الصناعة والتجارة، "محل استقبال طيب بوجه عام من جانب المستثمرين الأجانب، الذين اعترفوا علانية بوجود مزايا مختلفة فى إنشاء مشاريع مختلطة". وقد أردف يقول: "يجب التنويه بأن المشاريع الشهيرة على المستوى الدولى قد تبنت هى نفسها ذلك الشكل للمشاركة فى الشركات التى أنشأتها فى المكسيك، كما يجب التأكيد على أن السياسة الخاصة بمكسكة الصناعة ليس فقط لم تؤد إلى تثبيط الاستثمار الأجنبى فى المكسيك، بل إن تدفق الاستثمارات بعد هذا قد تجاوز رقماً قياسياً فى عام ١٩٦٥، كما أن حجم الاستثمارات الذى تحقق فى ذلك العام قد تم تجاوزه مرة أخرى فى عام ١٩٦٦"[٢٩]. ومن بين المشروعات المائة الأكثر أهمية فى المكسيك فى عام ١٩٦٢، فإن ستة وخمسين كانت تحت السيطرة الكلية أو الجزئية لرأس المال الأجنبى، وكان أربعة وعشرون مشروعاً مملوكة للدولة، بينما اختص رأس المال المكسيكى الخاص بملكية عشرين مشروعاً. والحال أن هذه المشروعات العشرين لم تستأثر إلاّ بما يزيد قليلاً عن سبع حجم إجمالى مبيعات المشروعات المائة[٣٠]. وتسيطر الشركات الأجنبية الكبيرة الآن على أكثر من نصف الرساميل المستثمرة فى مجالات الحاسبات الاليكترونية، ومعدات المكاتب، والآلات، والمعدات الصناعية؛ وقد وطدت شركات جنرال موتورز، وفورد، وكريزلر، وفولكسفاجن سيطرتها على صناعة السيارات وشبكة المضانع الإضافية التابعة لها؛ أمّا الصناعة الكيميائية الجديدة فهى تخص شركات دوبون، ومونسانتو، وامبريال كيميكال انداستريز

(البريطانية)، وآلايد كيميكال، ويونيون كارباید، وسيانامید؛ ومن ناحية أخرى، فإن المعامل الرئيسية تسيطر عليها شركات بارك - ديفيز، وميرك، ومعامل روس (وهي شركة فرعية تتبع شركة آبوت)، وسكويب؛ وبعد نفوذ شركة سيلانيز بلاستكس حاسماً في صناعة الألياف الصناعية؛ وتتزايد سيطرة شركات اندرسون كلايتون وليبر براذارز على الزيوت الغذائية؛ ويشارك رأس المال الأجنبي مشاركة طاغية في إنتاج الأسمنت، والسجائر، والمطاط ومشتقاته، والأدوات المنزلية، والمواد الغذائية المتنوعة[٣١].

■ قصف صندوق النقد الدولي يسّهل إنزال الفاتحين

اعترف وزيران بالحكومة أثناء الأدلاء بشهادات أمام اللجنة البرلمانية المشكلة لدراسة نزع تأميم الصناعة البرازيلية بأن المصانع المملوكة ملكية أهلية قد وجدت نفسها في وضع غير مؤات من جراء الإجراء الذي اتخذه نظام كاستيلو برانكو والذي سمح بالتدفق المباشر للقروض الائتمانية الخارجية. وكانا يشيران إلى المرسوم رقم ٢٨٩ الصادر في أوائل عام ١٩٦٥، والذي سمح للشركات الأجنبية العاملة في البرازيل بالحصول على قروض من الخارج بفائدة تصل نسبتها إلى ٧ أو ٨ في المائة مع ترتيب خاص بأسعار الصرف تضمنه الحكومة في حالة تخفيض قيمة الكروزييرو. وكان على الشركات البرازيلية أن تدفع فائدة تصل نسبتها إلى نحو ٥٠ في المائة على القروض الائتمانية التي تحصل عليها - بصعوبة - في الداخل. والحال أن مبتكر الإجراء، روبيرتو كامبوس، قد قدّم هذا التفسير: "من الواضح أن العالم غير متكافئ: إن بعض الناس يولدون أذكياء، والبعض الآخر يولدون أغبياء. وبعض الناس يولدون بأجسام رياضية قوية، والبعض الآخر يولدون معوقين. والعالم يتألف من مشاريع صغيرة وكبيرة. بعضها يموت مبكراً، في مقتبل العمر؛ والبعض الآخر يماطل بصورة اجرامية عبر وجود عبثي طويل. وهناك انعدام رئيسي أساسي للمساواة في الطبيعة البشرية، في وضع الأشياء. ولايمكن لآلية القروض الائتمانية أن تتجنب ذلك. أما الإدعاء بأن المشاريع القومية يجب أن تتمتع بذات الحقوق التي تتمتع بها المشاريع الأجنبية في الحصول على القروض الائتمانية الأجنبية فهو لايعدو أن يكون تجاهلاً للحقائق الأساسية للاقتصاد ..."[٣٢]. ووفقاً لهذا "البيان الرأسمالي" الموجز ولكن الغني بالمادة الفكرية، فإن شريعة الغاب هي الشريعة الطبيعية التي تحكم الحياة الإنسانية؛ أما الظلم فلاوجود له،

لأن ماعتدنا التعامل معه على أنه ظلم ليس غير تعبير عن التناغم المتوحش الذى يسود الكون: فالبلدان الفقيرة فقيرة لأنها ... فقيرة؛ وأقدارنا مكتوبة فى لوح محفوظ ونحن لانجيئ إلى هذه الحياة إلاّ لكى نحقق هذه الأقدار. فالبعض محكوم عليه بأن يطيع، والبعض الآخر مكلف بإصدار الأوامر. البعض يُعَرِّضُ رقبته للشنق، والبعض الآخر يلف حبل المشنقة. إن صاحب هذه النظرية هو مبدع سياسة صندوق النقد الدولى فى البرازيل.

وكما هو الحال فى بلدان أمريكا اللاتينية، فإن تطبيق صيغ صندوق النقد الدولى قد فتح الأبواب أمام دخول الفاتحين الأجانب إلى أرض محروقة بالفعل. فمنذ أواخر الخمسينيات، ساعد الركود الاقتصادى وانعدام الاستقرار النقدى، والجفاف الذى أصاب القروض الائتمانية، والهبوط فى القوة الشرائية الداخلية على قلب الصناعة القومية ووضعها تحت رحمة الشركات الامبريالية. فمن خلال التعويذة السحرية الخاصة بـ "توفير الاستقرار النقدى" فرض صندوق النقد الدولى - الذى يخلط خلطاً غير نزيه بين الحمى والمرض، وبين التضخم وأزمة الهياكل القائمة - على أمريكا اللاتينية سياسة من شأنها زيادة حدة الاختلالات بدلاً من تخفيفها. فهى تحرر التجارة عن طريق حظر التبادلات المباشرة واتفاقات المقايضة؛ وتفرض انكماش القروض الائتمانية الداخلية إلى درجة الخنق، وتجمد الأجور وتثبط نشاط الدولة. وهى تضيف إلى هذا البرنامج تخفيضات حادة لقيمة النقد يفترض من الناحية النظرية أن تعيد العملة إلى قيمتها الفعلية وتحفز الصادرات. والواقع أن تخفيضات قيمة العملة ليس من شأنها إلاّ أن تحفز التركيز الداخلى للرساميل فى جيوب الطبقات الحاكمة وتسهيل استيعاب المشاريع القومية من جانب الأجانب الذى يلوحون بقبضة من الدولارات.

وفى أمريكا اللاتينية كلها، فإن ماينتجه النظام يقل كثيراً عن الطلب النقدى الضرورى، وينشأ التضخم عن هذا العجز البنيوى. ومع ذلك، فإن صندوق النقد الدولى، بدلاً من أن يهاجم أسباب العرض غير الكافى الذى يقدمه الجهاز الإنتاجى، يطلق سلاح فرسانه ضد النتائج، بحيث يزيد من سحق القوة الشرائية الضعيفة التى تتعامل مع السوق الداخلية: ففى هذه البلدان المؤلفة من حشود بشرية جائعة، يلقى صندوق النقد الدولى باللائمة عن التضخم على التزايد المفرط للطلب. والحال أن صيغه الخاصة بتحقيق الاستقرار والتنمية لم تفشل فى تحقيق الاستقرار أو فى تحقيق التنمية وحسب، بل إنها، علاوة على ذلك، قد ضيقت الخناق الخارجى على هذه البلدان، وعمقت

بؤس الجماهير المعدمة – بما يصل بالتوترات الاجتماعية إلى نقطة الغليان – وعجلت نزع التأميم الاقتصادى والمادى باسم المبادئ المقدسة لحرية التجارة، والمنافسة الحرة، وحرية الحركة للرساميل. والحال أن الولايات المتحدة، التى ترعى منظومة ضخمة للحماية – تشمل التعريفة الجمركية، والحصص النسبية، والاعانات الداخلية – لم يبد صندوق النقد الدولى قط تجاهها أية بادرة انتقادية . أما فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية، من الناحية الأخرى، فإن صندوق النقد الدولى لايعرف المرونة: لقد ظهر إلى الوجود لإبداء عدم المرونة. وبمجرد ما أن قبلت تشيلى بعثة صندوق النقد الدولى الأولى فى عام ١٩٥٤، غصت البلاد بـ "مستشاريه"؛ والحال أن معظم الحكومات تنفذ الآن توجيهاته تنفيذاً أعمى. **والنتيجة أن العلاج يزيد المريض مرضاً، لاسيما إذا كانت الجرعات التى يتناولها عقاقير من القروض والاستثمارات.** ويقدم صندوق النقد الدولى القروض أو يعطى الضوء الأخضر الضرورى للآخرين لتقديمها. على أن صندوق النقد الدولى، الذى ولد فى الولايات المتحدة، والذى يوجد مقره الرئيسى فى الولايات المتحدة، والذى يخدم الولايات المتحدة، يعمل من الناحية الفعلية بوصفه مفتشاً دولياً لن تبسط البنوك الامريكية أيديها دون موافقته. كما أن البنك الدولى، ووكالة التنمية الدولية، والهيئات الخيرية الأخرى العاملة على نطاق دولى تجعل قروضها الائتمانية مشروطة بتوقيع وتنفيذ **"خطابات النوايا"** التى تقدمها الحكومات المتلقية لهذه القروض إلى الصندوق كى الجبروت. والحال أن كل البلدان الأمريكية اللاتينية مجتمعة لاتملك نصف ما للولايات المتحدة من أصوات فى توجيه سياسة هذا المارد الأسمى الذى يهيمن على شئون التوازن النقدى العالمى. لقد خلق صندوق النقد الدولى لكى يفرض هيمنة وول ستريت المالية على الكوكب كله، عندما حقق الدولار هيمنته كعملة دولية لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية. وهو لم يخذل سيده قط[٣٣].

صحيح أن البورجوازية القومية الأمريكية اللاتينية، بميلها إلى العيش فوق مستوى دخلها، لم تفعل مايستحق الذكر لوقف تدفق الأجانب المحموم؛ إلا أنه صحيح أيضا أن الشركات الامبريالية قد استخدمت سلسلة مذهلة من طرق التدمير. فمع القصف التمهيدى الذى شنه صندوق النقد الدولى والذى سَهَّلَ التغلغل، جرى الاستيلاء على بعض المشاريع بمجرد مكالمة هاتفية، بعد هبوط حاد فى سوق الأسهم، فى مقابل جرعة بسيطة من الأوكسجين على شكل أسهم، أو باستدعاء دين معين للحصول على امدادات أو للتمتع بحقوق استخدام العلامات المسجلة، أو العلامة التجارية، أو الإبتكارات

التقنية. والحال أن مثل هذه الديون، التى ضاعفت من حجمها تخفيضات قيمة العملة – والتى ترغم المشاريع المحلية على دفع مبالغ أكبر بالعملة القومية للوفاء بالتزاماتها الدولارية – تصبح بهذا الشكل مصيدة مميتة. أما تكلفة التبعية التكنولوجية فهى باهظة؛ ومن بين خبرات الشركات الفنية الخبرة فى فن التهام الجار. وقد لاحظ واحد من آخر موهيكان(*) الصناعة القومية البرازيلية قبل وقت قصير من نفى الحكومة العسكرية له: "إن التجربة تبين أن الأرباح الناجمة عن مبيعات شركة قومية لاتصل قط فى أغلب الأحوال إلى البرازيل، بل تظل، حاملة للفوائد، فى السوق المالية للبلد المشترى"(٣٤). ويجمع المقرضون مستحقاتهم عن طريق الاستيلاء على منشئات وآلات المدينين. وتبين أرقام البنك المركزى البرازيلى أن مالا يقل عن خمس الاستثمارات الصناعية الجديدة فى أعوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، و١٩٦٧ لم يكن فى الواقع غير تحويل لديون غير مدفوعة إلى مجال الاستثمار.

وعلى قمة الابتزاز المالى والتكنولوجى تتربع المنافسة "الحرة" الجائرة بين الأقوياء والضعفاء. وكجزء من بنية عالمية، يمكن لفرع الشركة الكبيرة أن يسمح لنفسه بترف خسارة المال لسنة، أو لسنتين، أو لأية سنوات لابد منها. وتهبط الأسعار ثم يترقب استسلام الضحية. وتتعاون البنوك فى الحصار: إن المشروع القومى ليس قادراً على الوفاء بالديون خلافاً لما كان يبدو، وهكذا يجرى حرمانه من الامدادات وسرعان ما يرفع الراية البيضاء مستسلماً. ويتحول الرأسمالى المحلى إلى شريك أصغر أو موظف عند غالبيه. وإلا فإنه يوفق فى المائرة المشتهاة أكثر من سواها – إنه يسترد ملكيته على شكل اسهم فى الشركة الأجنبية وينهى عمره كقاطع كوبونات ميسور الحال. وتتمثل قصة بليغة فيما يتعلق بـ "الاغراق" السعرى فى قصة استيلاء شركة يونيون كارباید على مصنع أديسايت البرازيلى لشرائط التسجيل. ذلك أن شركة سكوتش تيب، وهى جزء من شركة مينيسوتا ما يننج آند مانيفاكشرنج متعددة المخالب، قد بدأت فى تخفيض أسعار منتجاتها بصورة ثابتة فى البرازيل. وهكذا واصلت مبيعات شركة أديسايت انخفاضها. وأوقفت البنوك قروضها الائتمانية لها. وواصلت شركة سكوتش تيب تخفيض أسعارها – بنسبة ٣٠ فى المائة، ثم بنسبة ٤٠ فى المائة. وعندئذ ظهرت شركة يونيون كارباید على المسرح وأشترت الشركة البرازيلية اليائسة بثمن بخس. وبعد ذلك، توصلت شركتا يونيون كارباید وسكوتش تيب إلى اقتسام السوق القومية: لقد

(*) الموهيكان، قبيلة من الهنود الحمر توشك على الفناء. المترجم.

اقتسمتا البرازيل، فأخذت كل واحدة منهما النصف، واتفقتا على هضم ما التهمتاه برفع سعر شريط التسجيل بنسبة ٥٠ فى المائة. وكان القانون المناهض للتروستات والذى يعود إلى أيام فارجاس الماضية قد ألغى قبل ذلك بسنوات.

وتعترف منظمة الدول الأمريكية[٣٥] بأن الموارد المالية الوفيرة التى تتمتع بها فروع الشركات الامريكية "فى أوقات تتميز بالانخفاض البالغ للسيولة النقدية المتاحة للمشاريع الاستثمارية القومية، قد أتاحت للمصالح الأجنبية الاستيلاء فى بعض الأحيان على بعض المشاريع الاستثمارية القومية". والواقع أن ندرة الموارد المالية، والتى زاد من احتدادها الانكماش الذى فرضه صندوق النقد الدولى فيما يتعلق بالقروض الائتمانية الداخلية، تؤدى إلى تمزيق المصانع المحلية شذر مذر. لكن وثيقة منظمة الدول الأمريكية نفسها تخبرنا أن نسبة لاتقل عن ٩٥,٧ فى المائة - ٨٠ فى المائة فى حالة الصناعات الإنتاجية - من الموارد المالية التى تحتاجها المشاريع الاستثمارية الأمريكية لمباشرة عملها ونموها الطبيعيين فى أمريكا اللاتينية تجئ من مصادر أمريكية لاتينية على شكل سلفيات ائتمانية، وقروض، وأرباح يعاد استثمارها.

■ الولايات المتحدة تحمى مدخراتها الداخلية، لكنها تتصرف فى مدخرات الآخرين بأريحية: غزو البنوك

من الممكن إلى حد بعيد تفسير نزح الموارد القومية إلى فروع الشركات الامبريالية بالانتشار الأخير لفروع البنوك الأمريكية التى تفلطح رؤوسها فى مختلف أرجاء أمريكا اللاتينية مثلما يحدث مع الطحالب بعد سقوط المطر. ويرتبط الهجوم ضد المدخرات القومية فى البلدان التابعة بالعجز المزمن فى ميزان المدفوعات الأمريكى، والذى يحتم تقييد استثمارات الولايات المتحدة الخاصة فى الخارج، كما يرتبط هذا الهجوم بالتدهور المثير للدولار بوصفه عملة عالمية. وهكذا فإن أمريكا اللاتينية تقدم اللعاب والغذاء معاً بينما تقصر الولايات المتحدة مساهمتها على الابتلاع. والحال أن نزع تأميم الصناعة كان بمثابة منحة مجانية.

ووفقاً للمسح المصرفى الدولى[٣٦]، فقد كان للولايات المتحدة ٧٨ فرعاً لبنوكها فى جنوبى الريو جراندى فى عام ١٩٦٤. وبحلول عام ١٩٦٧، وصل عددها إلى ١٣٣؛ وكانت ودائعها فى عام ١٩٦٤ لاتزيد عن ٨١٠ مليون دولار، أما فى عام ١٩٦٧ فقد

وصلت إلى ١٢٧٠ مليون دولار. وفى عامى ١٩٦٨ و ١٩٦٩ اكتسب تقدم رجال البنوك الاجانب سرعة فائقة: إذ يوجد اليوم لبنك فرست ناشيونال سيتى وحده ١١٠ فروع منتشرة فى سبعة عشر بلداً من بلدان أمريكا اللاتينية - ويشمل هذا الرقم مختلف البنوك المحلية التى تم الاستيلاء عليها مؤخراً. وقد استولى بنك تشيز مانهاتن على بنك لار برازيلييرو (٣٤ فرعاً) فى عام ١٩٦٢، والبنك القارى (٤٢ فرعاً، فى بيرو) فى عام ١٩٦٤، والبنك التجارى (١٢٠ فرعا، فى كولومبيا وبنما) وبنك أتلانتيدا (٢٤ فرعاً، فى هندوراس) فى عام ١٩٦٧، والبنك الأرجنتينى للتجارة فى عام ١٩٦٨. وكانت الثورة الكوبية قد أممت ٢٠ وكالة مصرفية أمريكية، لكن رجال البنوك قد أفاقوا من هذه الضربة أكثر من اللازم: ففى عام ١٩٦٨ وحده جرى افتتاح أكثر من ٧٠ فرعاً بنكياً أمريكياً فى أمريكا الوسطى، ومنطقة الكاريبى، والبلدان الأمريكية الجنوبية الأصغر.

ولايعرف أحد النطاق الدقيق للنمو المتزامن للأنشطة الموازية - الشركات الفرعية، الشركات القابضة، شركات التمويل، الوكالات. لكن الشئ المعروف هو أن مبلغاً مساويا أو أكبر من الموارد المالية الأمريكية اللاتينية قد استوعبته البنوك التى تعد، رغم أنها لاتعمل على المكشوف كفروع، محكومة من الخارج عن طريق كتل حاسمة من الأسهم أو عن طريق فتح خطوط قروض ائتمانية خارجية مشروطة.

وقد ساعد هذا الغزو المصرفى على تحويل المدخرات الأمريكية اللاتينية إلى المشاريع الاستثمارية الأمريكية المتواجدة فى المنطقة، بينما يؤدى غياب القروض الائتمانية إلى خنق المشاريع الاستثمارية القومية. والحال أن إدارات العلاقات العامة بمختلف البنوك الأمريكية العاملة فى الخارج تعلن دون حياء أن هدفها الرئيسى فى البلدان التى تعمل فيهاهو تحويل المدخرات الداخلية إلى الشركات متعددة القوميات والتى تتعامل مع مكاتبها الرئيسية[٣٧]. ونسمح لأنفسنا بأن نحلق قليلاً فى عالم الخيال: هل يمكن لبنك أمريكى لاتينى أن يحقق لنفسه تواجداً فى نيويورك ويستولى على المدخرات القومية للولايات المتحدة؟ إن الوهم ينفجر: فمثل هذا العمل الشنيع محظور بصورة معلنة سافرة. لكن البنوك الأمريكية تتصرف على هواها، من خلال فروعها العديدة، بالمدخرات القومية الأمريكية اللاتينية. وتتابع أمريكا اللاتينية استيلاء الولايات المتحدة على أموالها متابعة حنونة حنان الولايات المتحدة نفسها. وعلى أية حال، فإن بنك دى ديسكونتوس البرازيلى قد استشار خملة أسهمه، فى يونيو ١٩٦٦، بشأن خطوة قومية عظمى وحيوية اقترح اتخاذها. لقد قرر طبع عبارة" نحن نثق فى الرب" على

وثائقه. وقد أشار البنك فى تباهٍ إلى واقع أن الدولار يحمل عبارة "نحن نثق فى الرب".

أما السياسات الائتمانية للبنوك الأمريكية اللاتينية التى لم يستول عليها رأس المال الأجنبى، أو يتغلغل فيها، أو يحاصرها، فهى تتبع ذات المبادئ التى تتبعها فروع بنوك ناشيونال سيتى، وتشيز مانهاتن وبنك أوف أميركا: فهى، أيضاً، تفضل تلبية متطلبات المشاريع الاستثمارية الصناعية والتجارية الأجنبية، والتى تتمتع بضمانات راسخة وتعمل على أساس حجم كبير.

■ إمبراطورية تستورد رؤوس الأموال

افترض برنامج العمل الاقتصادى الذى طرحته الحكومة والذى أعده روبيرتو كامبوس أن رأس المال الأجنبى، تجاوباً مع سياسة سخية كهذه، سوف يتدفق على البلاد لتشجيع التنمية وسوف يساهم فى تحقيق الاستقرار الاقتصادى والمالى فى البرازيل[٣٨]. وقد أعلن عن استثمارات مباشرة جديدة من الخارج حجمها ١٠٠ مليون دولار سوف تصل فى عام ١٩٦٥؛ إلا أنه لم يصل غير ٧٠ مليون دولار. وكانت هناك تأكيدات بأن الأرقام المستهدفة لعام ١٩٦٥ سوف يتم تجاوزها فى الأعوام التالية، لكن التخمينات ذهبت سدىً. وفى عام ١٩٦٧، وصل ٧٦ مليون دولار، لكن حجم الأرباح والأنصبة المحولة، جنباً إلى جنب المدفوعات التى ذهبت إلى المساعدة التقنية، وحقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، واستخدام العلامات التجارية، فاق حجم الاستثمارات الجديدة بأكثر من أربع مرات. وعلاوة على كل ذلك، كانت هناك أيضاً التحويلات السرية. ويعترف البنك المركزى بأن ١٢٠ مليون دولار قد خرجت من البرازيل فى عام ١٩٦٧ دون أن تمر بالقنوات المشروعة. وهكذا فإن ما خرج كان أكثر بكثير مما دخل. والواقع أن الاستثمارات الجديدة فى السنوات الرئيسية لنزع التأميم الصناعى - ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧ - كانت أدنى بكثير من المستوى الذى كانت عليه فى عام ١٩٦١[٣٩]. وتستثمر معظم الرساميل الأمريكية فى البرازيل فى الصناعة، إلا أنها تصل إلى نسبة تقل عن ٤ فى المائة من الاستثمارات الأمريكية العالمية فى مجال الإنتاج الصناعى. أما فى الأرجنتين فهى تصل إلى نسبة ٣ فى المائة بالكاد؛ بينما تصل فى المكسيك إلى نسبة لاتزيد عن ٣,٥ فى المائة. إن ابتلاع كبرى المنشئات الصناعية الأمريكية اللاتينية لم ينطو على تضحيات عظيمة من جانب وول ستريت. لقد جاءت

بدولارات قليلة وأخذت دولارات أكثر.

كتب لينين يقول: "فى ظل الرأسمالية الحديثة، حيث تسود الاحتكارات، فإن تصدير رأس المال قد أصبح السمة النموذجية". أما فى أيامنا، كما أشار باران وسويزى، فإن الامبريالية تستورد رأس المال من البلدان التى تعمل فيها. وخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٦٧؛ بلغ إجمالى الاستثمارات الأمريكية الجديدة فى أمريكا اللاتينية (من غير الأرباح التى أعيد استثمارها) ٣,٩٢١ بليون دولار. أما الأرباح والأنصبة التى أرسلت إلى الخارج خلال الفترة نفسها فقد بلغ إجماليها ١٢,٨١٩ بليون دولار. لقد زادت الأرباح المنزوحة عن حجم الرساميل الجديدة المستثمرة فى المنطقة بأكثر من ثلاث مرات[٤٠]. ووفقاً للجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فإن استنزاف الأرباح قد زاد منذ ذلك الحين عن الاستثمارات الجديدة نحو خمس مرات؛ وقد عانت الارجنتين، والبرازيل، والمكسيك من التوسع الأكبر لبوابة الهرب هذه. لكن هذه الحسبة حسبة محافظة. ذلك أن جانباً مهماً من الموارد المالية المحولة على شكل دفعات لسداد الديون يعد فى واقع الأمر مطابقاً لأرباح عن الاستثمارات، ولاتشمل الأرقام لا التحويلات إلى الخارج للمدفوعات عن حقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، والمساعدة التقنية، ولا التحويلات غير المنظورة الأخرى والتى جرى التستر عليها عادة تحت بند" الأخطاء والتقصيرات"[٤١]. كما أن هذه الأرقام لاتأخذ بعين الاعتبار الأرباح التى تعود على الشركات عندما تضخم أسعار الامدادات التى تشحنها إلى فروعها وتضخم - بحماس مساوٍ - تكاليفها التشغيلية.

والحال أن المشاريع الاستثمارية تتميز بسعة الحيلة والخيال أيضاً فيما يتعلق بالاستثمارات نفسها. فالواقع أنه، مع استمرار حمى التقدم التقنى فى تقصير فترات تجديد رأس المال الثابت فى الاقتصاديات المتقدمة، تكون معظم المنشئات ومعدات المصانع المصدرة إلى أمريكا اللاتينية قد أتمت بالفعل دورة من دورات حياتها المربحة فى الأماكن الأصلية التى جاءت منها. وهكذا تكون قد استهلكت حسابها بصورة كاملة أو بصورة جزئية. وهذا العامل فى الاستثمار فى الخارج يجرى تجاهله: فالقيمة التى تحدد بصورة اعتباطية للآلات غالباً ماتكون جزءاً صغيراً مما هى عليه لو أخذنا فى حسابنا الإهلاك الذى تعرضت له فى السابق. وعلاوة على ذلك، فإن المكتب الرئيسى ليست لديه مبررات للمشاركة فى نفقات إنتاج سلع فى أمريكا اللاتينية كانت تباع لها فى السابق من الخارج. وتتعهد الحكومات الأمريكية اللاتينية بأن تمنع هذا عن طريق

تقديم الموارد إلى الفرع المحلى، الذى يتمتع بحق الحصول على قروض ائتمانية محلية بمجرد ما أن يضع علامة على الموقع المختار لمصنعه. وهو يحصل على امتيازات خاصة بأسعار الصرف فيما يتعلق بوارداته – وهى مشتريات يشتريها المشروع الاستثمارى عادة من نفسه – بل ويمكنه فى بعض البلدان الاطمئنان إلى ترتيب خاص فيما يتعلق بأسعار الصرف لسداد ديونه الخارجية، والتى غالباً ماتكون ديوناً مستحقة للجناح المالى للشركة نفسها. وقد قدرت مجلة برازيلية[٤٢] أن مدخلات العملة الأجنبية عن طريق صناعة السيارات فى الأرجنتين بين عامى ١٩٦١ و ١٩٦٤ كانت أزيد ثلاث مرات ونصف عن المبلغ الذى يلزم لبناء سبع عشرة محطة حرارية كهربائية وست محطات مائية كهربائية، تزيد قوتها الاجمالية عن ٢,٢٠٠ ميجاوات؛ وأنها تساوى قيمة الآلات والمعدات التى يتعين على الصناعات الدينامية استيرادها على مدى فترة قوامها أحد عشر عاماً لإنتاج زيادة سنوية نسبتها ٢,٨ فى المائة فى المنتجات بالنسبة إلى الفرد الواحد من السكان.

■ التكنوقراطيون أبرع من مشاة البحرية فى قطع الطريق

تحرك المشاريع الاستثمارية، بترحيلها لدولارات تفوق كثيراً الدولارات التى تدخلها، جوع المنطقة المزمن إلى الدولارات؛ فالبلدان "المستفيدة" يجرى حرمانها من الرساميل بدلاً من رسملتها. وهنا تبدأ آلية اللجوء إلى القروض فى العمل. وتعد المنظمات الائتمانية الدولية مهمة فى المساعدة على القضاء على القلاع الهزيلة للصناعة المرسملة قومياً وفى توطيد هياكل الاستعمار الجديد. والحال أن "المساعدة" تعمل كفاعل الخير الذى يزود خنزيره الصغير برجل خشبية لأنه يأكل رجله الأصلية قطعة قطعة. إن العجز فى ميزان المدفوعات الأمريكى هو نتيجة للانفاق العسكرى والمساعدات الخارجية، وهو سيف ديموقليس مسلط على رفاهية الولايات المتحدة. لكنه، فى الوقت نفسه، يجعل تلك الرفاهية ممكنة: إن الامبراطورية ترسل مشاة بحريتها لانقاذ دولارات احتكارييها؛ وبشكل أكثر فعالية، ترسل تكنوقراطييها وقروضها لتوسيع الاستثمار وللاستحواذ على المواد الخام والأسواق.

إن رأسمالية أيامنا تعبر فى مركز قوتها العالمى عن تطابق واضح فى المصالح بين الاحتكارات الخاصة وجهاز الدولة[٤٣]. فالشركات المتعددة القوميات تستخدم الدولة

فى مراكمة، ومضاعفة، وتركيز رأس المال، وفى تعميق الثورة التكنولوجية، وفى عسكرة الاقتصاد، وفى ضمان النجاح، بمختلف الوسائل، فى الحملة الصليبية الرامية إلى إحكام السيطرة على العالم الرأسمالى. والحال أن بنك التصدير والاستيراد، ووكالة التنمية الدولية ومنظمات أخرى أصغر حجماً تشارك فى هذا الدور، مثلما تشارك فيه بعض المنظمات التى يقال إنها دولية والتى تتمتع الولايات المتحدة فيها بهيمنة طاغية: صندوق النقد الدولى، وتوأمه البنك الدولى للإنشاء والتعمير، وبنك التنمية الأمريكى المشترك. فهذه المنظمات تمنح نفسها الحق فى تقرير السياسة الاقتصادية للبلدان التى تطلب قروضاً ائتمانية، منقضة انقضاضاً ناجحاً على البنوك المركزية لهذه البلدان وعلى وزرائها الحاسمين. وهى تضع أيديها على كافة البيانات الاقتصادية والمالية السرية، وتصوغ وتفرض قوانين قومية، وتمنع أو تجيز الخطوات التى تقترحها الحكومات والتى تحدد هى نهجها حتى أدق التفاصيل.

إن الاحسان الدولى لاوجود له؛ وهو يبدأ فى الداخل، بالنسبة إلى الولايات المتحدة كما بالنسبة إلى جميع الآخرين. فدور المساعدة الخارجية محلى بالدرجة الأولى – الاقتصاد الأمريكى يساعد نفسه – وقد عرفها روبيرتو كامبوس نفسه لا سواه، عندما كان سفيراً لحكومة جولارت القومية، بأنها برنامج لتوسيع الأسواق الخارجية حتى تستوعب الفوائض الامريكية وتخفف من فيض الإنتاج فى الصناعات التصديرية للولايات المتحدة[٤٤]. وفى الأيام الأولى لمشروع التحالف من أجل التقدم، أشارت وزارة التجارة الأمريكية إلى نجاحها فى إنشاء مشاريع استثمارية ومصادر توظيف جديدة للاستثمارات الخاصة فى أربع وأربعين ولاية أمريكية شمالية[٤٥]. وفى يناير ١٩٦٨، أكد الرئيس جونسون للكونجرس أن نسبة تزيد عن ٩٠ فى المائة من المساعدات الخارجية الأمريكية فى عام ١٩٦٩ سوف تذهب إلى تمويل مشتريات من الولايات المتحدة، وأنه قد قام بصورة شخصية ومباشرة بتكثيف الجهود الرامية إلى زيادة هذه النسبة المئوية[٤٦]. وفى أكتوبر ١٩٦٩، دوت البرقيات بتصريحات كارلوس سانز دى سانتاماريا، رئيس اللجنة الأمريكية المشتركة للتحالف، الذى قال فى نيويورك إن المساعدة قد تكشفت عن عمل مربح ممتاز للاقتصاد الأمريكى والخزانة الأمريكية. فبعد أن أصبح اختلال ميزان المدفوعات الأمريكى حرجاً فى أواخر الخمسينيات، أصبحت القروض مشروطة بشراء سلع صناعية أمريكية، تكلف عادةً أكثر مما تكلفه منتجات مماثلة من بلدان أخرى. ومؤخراً جداً، جرى تطبيق آليات معينة، من بينها "القوائم السلبية" للتأكد من عدم

استخدام القروض الائتمانية من أجل تصدير سلع يمكن للولايات المتحدة بيعها فى السوق العالمية فى ظل ظروف تنافسية جيدة دون اللجوء إلى الاحسان على الذات. أما "القوائم الايجابية" التى تلت ذلك فقد ساعدت على بيع منتجات صناعية أمريكية معينة من خلال "المساعدة" بأسعار تزيد بنسب تتراوح بين ٣٠ و ٥٠ فى المائة عن أسعار السلع نفسها من مصادر أخرى.

وتتكرم "المساعدة المربوطة" (هكذا سمتها وثيقة منظمة الدول الأمريكية التى سبق الاستشهاد بها) بـ "إعانة عامة للصادرات الأمريكية". ففى البرازيل، "تواجه مبيعات مصدرى السلع الرأسمالية الامريكية منافسة متزايدة من جانب المصدرين الآخرين ... (و) تجد نفسها فى موقف غير مؤات بدرجة خطيرة مالم تتسن لها الاستفادة من التمويل الأكثر تحرراً والمتاح فى ظل مختلف برامج المساعدة"[٤٧]. وعندما وعد ريتشارد نيكسون، فى خطاب ألقى به فى أواخر عام ١٩٦٩، بـ "فك" المساعدة، فإنه لم يشر إلاّ إلى إمكانية مشتريات بديلة من بلدان أمريكية لاتينية. وهذا هو ماحدث مع القروض التى منحها بنك التنمية الأمريكى المشترك وعهد بها إلى صناديق العمليات الخاصة التابعة له. لكن التجربة تبين أن الولايات المتحدة – أو الفروع الأمريكية اللاتينية لشركاتها – تنتهى دائماً بأن تكون المُوَرِّدَ المختار فى العقود. كما أن القروض المقدمة من وكالة التنمية الدولية، وبنك التصدير والاستيراد، ومعظم القروض المقدمة من بنك التنمية الأمريكى المشترك تشترط نقل ما لايقل عن نصف الشحنات فى سفن أمريكية. والحال أن رسوم الشحن على السفن الأمريكية تصل إلى ضعف رسوم الشحن على خطوط الملاحة المتاحة الأخرى. كما أن المؤسسات التى تؤمن السلع المنقولة، والبنوك التى تتحقق العمليات من خلالها، عادة ماتكون مملوكة للولايات المتحدة.

وقد قدمت منظمة الدول الأمريكية تقديراً غنياً بالدلالات لحجم المساعدة الفعلية التى حصلت أمريكا اللاتينية عليها[٤٨]. فبعد نزع القشرة عن الحبة، لابد للمرء من أن يستنتج أن نسبة ٣٨ فى المائة فقط من المساعدة الاسمية هى التى يمكن اعتبارها مساعدة فعلية. ولاتتألف المساعدة إلاّ من مجرد خمس إجمالى القروض المجازة للصناعة، والتعدين، والمواصلات، والقروض الائتمانية التعويضية. وفى حالة بنك التصدير والاستيراد، فإن المساعدة تسافر من الجنوب إلى الشمال: إذ تقول منظمة الدول الأمريكية إن التمويل الذى يقدمه البنك لايعنى مساعدةً بل تكاليف إضافية للمنطقة بالنظر إلى الأسعار المتضخمة للسلع الأمريكية المصدرة عبر البنك.

وتقدم أمريكا اللاتينية معظم الموارد الرأسمالية العادية لبنك التنمية الأمريكى المشترك. لكن وثائق بنك التنمية الأمريكى المشترك تحمل شعار التحالف من أجل التقدم بالإضافة إلى شارته الخاصة، والولايات المتحدة هى البلد العضو الوحيد الذى يتمتع بحق الفيتو؛ أما أصوات البلدان الأمريكية، المناظرة لمساهماتها من الرساميل، فهى عاجزة عن تحقيق أغلبية الثلثين اللازمة لاتخاذ القرارات المهمة. وقد اعترف نيلسون روكفيللير، فى تقريره الشهير إلى الرئيس نيكسون فى أغسطس ١٩٦٩، بأنه «فى حين أن حق الفيتو الذى تتمتع به الولايات المتحدة فيما يتعلق بالقروض التى يقدمها بنك التنمية الأمريكى المشترك لم يستخدم، إلاّ أن التهديد باستخدامه لأغراض سياسية قد أثر على القرارات». ويفرض بنك التنمية الأمريكى المشترك على معظم القروض التى يقدمها نفس الشروط التى تفرضها الهيئات الأمريكية السافرة: فالنقود يجب انفاقها على شراء سلع أمريكية، يتعين نقل ما لايقل عن نصفها فى سفن ترفع علم الولايات المتحدة - ويشار إلى التحالف من أجل التقدم بشكل سافر فى النشرات الدعائية. ويحدد بنك التنمية الأمريكى المشترك سياسة الهيئات التى يمسها بعصاه السحرية فيما يتعلق بالتعريفة والضرائب: فهو يقرر الرسم الذى يجب فرضه على استهلاك المياه، ويحدد ضريبة الانتفاع من مواسير المياه الرئيسية والسكن على أساس مقترحات يقدمها مستشارون أمريكيون يعينون بموافقته الكريمة. وهو يصدق على خطط العمل، ويصوغ شروط العطاءات، ويدير الموارد المالية، ويرصد أسلوب تنفيذ العمل[٤٩]. أما فى مهمة إعادة تشكيل بنية التعليم العالى فى المنطقة وفقاً لمعايير الاستعمار الثقافى الجديد، فقد لعب بنك التنمية الأمريكى المشترك دوراً مثمراً. فقروضه المقدمة إلى الجامعات تستبعد إمكانية تعديل القوانين واللوائح دون علمه وموافقته؛ وهو، فى الوقت نفسه، يفرض إصلاحات تربوية، وإدارية، ومالية محددة[٥٠]. وفى حالة نشوء خلاف فى الرأى، يُعَيِّنُ الأمينُ العامُ لمنظمة الدول الأمريكية حَكَماً.

أما عقود وكالة التنمية الأمريكية فهى لاتكتفى باشتراط شراء سلع أمريكية ونقل السلع على سفن أمريكية، وإنما تُحَرِّمُ أيضاً التجارة مع كوبا وفيتنام وتجعل الوصاية الإدارية لفنيى وكالة التنمية الدولية إلزامية. والتعويض عن فروق الأسعار بين التراكتورات أو الأسمدة الأمريكية والتراكتورات أو الأسمدة التى يمكن الحصول عليها من السوق العالمية بأسعار أرخص، يجرى النص على الغاء الضرائب والرسوم الجمركية على المنتجات المستوردة بقروض ائتمانية. وتشمل مساعدات وكالة التنمية الدولية هربات

الجيب والأسلحة الحديثة لكى تستخدمها الشرطة فى حماية القانون والنظام فى البلدان المعنية. وليس من المفارقات أن ثلث القروض الائتمانية يمكن تسليمه فوراً، بينما يعد الثلثان الآخران متوقفين على موافقة صندوق النقد الدولى - والذى تؤدى وصفاته عادةً إلى اشعال نيران غليان اجتماعى. وإذا لم يتمكن صندوق النقد الدولى من فك كل آليات السيادة مثلما يفك المرء ساعة اليد، فإن وكالة التنمية الدولية تسارع باشتراط إقرار قوانين ومرسومات محددة. وتعد وكالة التنمية الدولية المستودع الرئيسى للموارد المالية لمشروع التحالف من أجل التقدم. وإذا ما اكتفينا بمثال واحد لتيه الكرم والسخاء، فسوف نجد أن اللجنة الأمريكية المشتركة التابعة للتحالف قد تمكنت من إجبار حكومة أوروجواى على توقيع تعهد تنتقل بموجبه إيرادات ونفقات أجهزة الدولة، والسياسة الرسمية بشأن التعريفة، والأجور، والاستثمارات، تحت سيطرة هذه الهيئة الأجنبية[٥١]. لكن أكثر الشروط خبثاً نادراً ماتظهر فى النصوص المنشورة للعقود والتعهدات، ويجرى اخفاؤها فى ملاحق سرية. فلم يعرف برلمان أوروجواى قط أن الحكومة قد وافقت فى مارس ١٩٦٨ على الحد من صادرات الأرز فى ذلك العام حتى يتمكن البلد من الحصول على الدقيق، والذرة، والسرغم بموجب قانون الفوائض الزراعية الأمريكى.

وتلمع خناجر عديدة تحت عباءة المساعدات المقدمة إلى البلدان الفقيرة. وقد اعترف تيودورو موسكوسو، الذى كان رئيساً للتحالف من أجل التقدم: "قد يحدث أن تكون الولايات المتحدة بحاجة إلى تصويت بلد معين فى الأمم المتحدة أو منظمة الدول الأمريكية، ومن الممكن أن تطلب حكومة ذلك البلد (طبقاً للتقاليد المقدسة لديبلوماسية الحرب الباردة) ثمناً فى مقابل ذلك"[٥٢]. والحال أن مندوب هاييتى إلى مؤتمر منظمة الدول الأمريكية فى بونتا ديل ايستى فى عام ١٩٦٢ قد غير تصويته فى مقابل مطار جديد، وهكذا حصلت الولايات المتحدة على أغلبيتها فى سعيها إلى طرد كوبا من منظمة الدول الأمريكية[٥٣]. وقد قال المدير الجواتيمالى السابق ميجيل يديجوارس فوينتيس أنه قد أضطر إلى تهديد الولايات المتحدة بحرمانها من تصويت بلاده إلى جانبها فى مؤتمرات التحالف من أجل التقدم لدفع الولايات المتحدة إلى الوفاء بوعودها بشراء المزيد من سكر جواتيمالا[٥٤].

وقد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن البرازيل كانت خلال عهد جولارت البلد الأولى برعاية برنامج التحالف من أجل التقدم. لكن الغرابة تتبدد بمجرد ما أن يدرك المرء التوزيع الداخلى للمساعدة المتلقاة: لقد زرعت قروض التحالف الائتمانية فى طريق

جولارت كالألغام المتفجرة. إن كارلوس لاسيردا، محافظ جوانابارا وزعيم اليمين المتطرف آنذاك، قد حصل على مساعدات يزيد حجمها سبع مرات عن حجم المساعدات التى حصل عليها الشمال الشرقى كله: وهكذا فإن جوانابارا، التى تضم بالكاد أربعة ملايين من السكان، قد تمكنت من إنشاء حدائق غنّاءَ للسياح على أكثر خلجان العالم إثارة، بينما ظل الشمال الشرقى قرح أمريكا اللاتينية المفتوح. وفى يونيو ١٩٦٤، بعد الانقلاب الذى نجح فى وضع كاستيلو برانكو فى السلطة، بَيَّنَ توماس مان، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية للشئون الدولية: "أن الولايات المتحدة قد وزعت بين المحافظين الأكفاء لولايات برازيلية معينة المساعدات التى كانت مخصصة لحكومة جولارت، رامية من وراء ذلك إلى تمويل الديمقراطية، ولم تقدم واشنطون أموالاً لميزان المدفوعات أو للميزانية الاتحادية، لأن ذلك كان من شأنه أن يفيد الحكومة المركزية بشكل مباشر"[٥٥]. وكانت الإدارة الأمريكية قد قررت حرمان حكومة بيلاوندى فى بيرو من أى شكل من أشكال التعاون "مالم تقدم التأكيدات المنشودة بإنتهاج سياسة متساهلة تجاه الشركة الدولية للبترول. وقد رفض بيلاوندى أن يفعل ذلك و، كنتيجة لذلك، فإنه لم يحصل حتى أواخر عام ١٩٦٥ على حصة الموارد المالية التى كانت حكومته قد اكتسبت حق توقع الحصول عليها من برنامج التحالف من أجل التقدم"[٥٦]. وفيما بعد، كما هو معروف، ساوم بيلاوندى – وخسر كلاً من النفط والسلطة: وكان قد رضخ لكى يبقى. وفى بوليفيا، لم تقدم القروض الأمريكية مليماً واحداً إلى البلاد لكى تبنى فرناً خاصاً بها لصهر القصدير، بحيث أن خام القصدير قد واصل الرحيل إلى ليفربول، ومن هناك، بعد صهره، إلى نيويورك. لقد أدت "المساعدة" إلى نشوء بورجوازية تجارية طفيلية، وإلى تضخم البيروقراطية، وأقامت بنايات ضخمة وطرقاً رئيسية حديثة للسيارات وأفيالاً بيضاء أخرى(*) فى بلد يزاحم هاييتى على أعلى معدل لوفيات الأطفال فى أمريكا اللاتينية. وقد حرمت القروض الائتمانية المقدمة من الولايات المتحدة وهيئاتها "الدولية" بوليفيا من حقها فى قبول عروض سوفيتية، وتشيكية، وبولندية لإنشاء صناعة بترو – كيميائية، ولاستخراج وصهر الزنك، والرصاص، والحديد، ولإنشاء أفران لصهر القصدير والانتيمون. وفى الوقت نفسه، جرى إرغام بوليفيا على استيراد المنتوجات من الولايات المتحدة وحدها دون سواها. وعندما سقطت حكومة الحركة القومية الثورية فى نهاية الأمر، بعد أن نخرت المساعدة الأمريكية دعائمها، بدأ دوجلاس هيندرسون، السفير

(*) المقصود هو الإنشاءات باهظة التكاليف قليلة العائد والفائدة. المترجم.

الأمريكى، فى حضور اجتماعات وزارة رينيه بارينتوس بصفة منتظمة[٥٧].

والحال أن القروض تحدد بدقةٍ موازينِ الحرارة المناخ الاستثمارى العام لكل بلد، وتساعد على تبديد الغيوم السياسية أو العواصف الثورية من سماء المليونيرات الصافية. وقد أعلن فريق من رجال الأعمال برئاسة ديفيد روكفيللير فى عام ١٩٦٣: "إن الولايات المتحدة سوف ترتب برنامج مساعداتها الاقتصادية فى البلدان التى تبدى استعداداً أكبر لتهيئة المناخ للاستثمارات، وسوف تسحب المساعدات من البلدان الأخرى التى لاتبدى أداءً مرضياً"[٥٨]. وينص قانون المساعدات الخارجية بشكل قاطع على حجب المساعدات عن أية حكومة "تؤمم، أو تصادر، أو تحوز ملكيةً أو تسيطر على ملكيةً تخص أى مواطن، أو أية شركة، أو جمعية، أو اتحاد أمريكى" يخص مواطنين أمريكيين بنسبة لاتقل عن ٥٠ فى المائة"[٥٩]. وليس غريباً أن اللجنة التجارية التابعة لبرنامج التحالف من أجل التقدم تضم بين أعضائها الأبرز كبار مديرى بنك تشيزمانهاتن، وناشيونال سيتى بنك، وستاندارد أويل، وأناكوندا، وجريس. وتمهد وكالة التنمية الدولية الطريق أمام الرأسماليين الأمريكيين بسبل مختلفة – على سبيل المثال، عن طريق اشتراط التصديق على اتفاقات تكفل الاستثمارات ضد الخسائر الممكنة من جراء الحروب، أو الثورات، أو الانتفاضات، أو الأزمات النقدية. وفى عام ١٩٦٦، وفقاً لوزارة التجارة الأمريكية، حصل المستثمرون الخاصون الأمريكيون على هذه الضمانات فى خمسة عشر بلداً من بلدان أمريكا اللاتينية، بالنسبة إلى مائة مشروع تشمل أكثر من ٣٠٠ مليون دولار، بموجب برنامج وكالة التنمية الدولية لضمان الاستثمارات[٦٠].

وليست أديلا أغنية ثورية مكسيكية، بل هى أسم كونسورتيوم استثمارى دولى. وقد دشنه فرست ناشيونال سيتى بنك، وستاندارد أويل أوف نيو جيرسى، وشركة فورد موتور. وقد انضمت مجموعة ميلون إلى المشروع بحماس، وكذلك فعلت شركات أوروبية كبرى لأن "أمريكا اللاتينية"، كما أشار السناتور جاكوب جافيتز، "تتيح فرصة ممتازة للولايات المتحدة لتظهر، بدعوتها أوروبا إلى "الدخول"، إنها لاتسعى إلى موقع السيطرة أو الانفراد"[٦١]. وقد قدمت اديلا فى تقريرها السنوى لعام ١٩٦٨ **شكراً خاصاً إلى بنك التنمية الأمريكى المشترك على القروض الموازية التى قدمها لتعزيز النشاط الاستثمارى للكونسورتيوم فى أمريكا اللاتينية**، كما حيت الأداء المماثل للشركة المالية الدولية، وهى جناح للبنك الدولى. وتعد اديلا على اتصال مستمر بكل من المؤسستين لتجنب ازدواج الجهود ولتقييم فرص الاستثمار[٦٢].

ويمكن تقديم الكثير جداً من الأمثلة على مثل هذه التحالفات المقدسة. ففى الأرجنتين، تحولت المساهمات الأمريكية اللاتينية فى موارد بنك التنمية الأمريكى المشترك إلى قروض مناسبة جداً تفيد شركة بترو سور التابعة لشركة اليكتريك بوند آندشير (أكثر من ١٠ مليون دولار لإنشاء مجمع بترو كيميائى)، وشركة آرميتال التابعة لشركة بود (فيلادلفيا) (لتمويل مصنع لقطع غيار السيارات)[٦٣]. وقد أتاحت قروض وكالة التنمية الدولية الائتمانية توسيع مصنع ريتشفيلد الكيميائى فى البرازيل، وقدم بنك التصدير والاستيراد قروضاً إلى شركة ايكومى، وهى فرع لشركة بيتلهيم للصلب فى البلد نفسه. وفى البرازيل أيضاً، أدت مساهمات من برنامج التحالف من أجل التقدم والبنك الدولى إلى تمكين شركة دوتش فيليبس انداستريز من إنشاء أكبر مجمع لمصانع الأسمدة فى امريكا اللاتينية فى عام ١٩٦٦. وكل ذلك يحدث تحت اسم "المساعدة" - وكله يزيد من عبء الدين الخارجى الذى تتحمله البلدان المحظوظة بهذه الطريقة.

وقد عهد فيدل كاسترو، فى الأيام الأولى للثورة الكوبية، بمشكلة إعادة تعزيز احتياطيات العملة الأجنبية التى كانت ديكتاتورية باتيستا قد استنزفتها إلى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى؛ لكنهما ردا بأن عليه أولاً أن يقبل برنامجاً لتحقيق الاستقرار، وهو مايعنى - كما حدث فى كل مكان آخر - تقويض الدولة وتجميد الاصلاحات البنيوية[٦٤]. ويعمل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى توافق وثيق ومن أجل أهداف مشتركة؛ وقد ولدا معاً فى بريتون وودز. وتتمتع الولايات المتحدة بربع الأصوات فى البنك الدولى: أما بلدان أمريكا اللاتينية التى تبلغ اثنين وعشرين بلداً فهى تتمتع بأقل من العشر. ويتجاوب البنك الدولى مع الولايات المتحدة تجاوب الرعد مع البرق.

وكما يبين البنك، فإن معظم القروض تذهب إلى بناء الطرق وشبكات المواصلات الأخرى، وإلى تنمية مصادر الطاقة الكهربائية، وهى شرط جوهرى لنمو المشاريع الاستثمارية، الخاصة[٦٥]. والواقع أن مشاريع البنية الأساسية هذه تسهل حركة المواد الخام إلى الموانئ والأسواق العالمية وتقدم الصناعة التى نزع تأميمها بالفعل فى البلدان الفقيرة. ويعتقد البنك الدولى أن

> *"الصناعة المعتمدة على المنافسة يجب تركها، إلى أقصى الحدود الممكنة من الناحية العملية، للمشاريع الاستثمارية الخاصة. ولايعنى هذا أن البنك يحظر بصورة مطلقة تقديم القروض إلى الصناعات التى تملكها الحكومات، إلاّ أنه لن يتعهد بتمويلات كهذه إلاّ عندما لاتكون الرساميل*

الخاصة متاحة، وعندما يرتاح، بعد دراسة شاملة، إلى أن مشاركة الحكومات سوف تكون متمشية مع التشغيل الكفء ولن يكون لها أثر معوّق لالزوم له على توسع المبادرة الخاصة والاستثمار الخاص".

وتعد القروض مشروطة بتطبيق صيغ تحقيق الاستقرار التى يقدمها صندوق النقد الدولى وبالسداد السريع للديون الخارجية، وهى تتعارض مع سياسات السيطرة على أرباح الشركات الاستثمارية، "والتى تتميز بالميل إلى فرض القيود بحيث أن المرافق لاتتمكن من العمل على أساس سليم، ناهيك عن التوسع فى المستقبل"(٦٦). ومنذ عام ١٩٦٨، حَوَّلَ البنكُ الدولى جانباً ملحوظاً من قروضه إلى مشروعات تعزيز تحديد النسل، والخطط التعليمية، والاستثمارات الهندسية الزراعية، والسياحة.

كما أن البنك، شأنه فى ذلك شأن كل أجهزة امتصاص الأموال التابعة للمؤسسات المالية الدولية الكبرى، يعد أداة ابتزاز فعالة لحساب أوساط محددة للغاية. وكان رؤساؤه منذ عام ١٩٤٦ رجال أعمال أمريكيين بارزين. فيوجين ر. بلاك، رئيس البنك من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٢، قد أصبح فيما بعد مديراً لشركات خاصة عديدة، تعد احداها – اليكتريك بوند آند شير – أكبر احتكارى فى العالم للطاقة الكهربائية(٦٧). وقد استطاع البنك الدولى فى عام ١٩٦٦، من باب المصادفة أو من أى باب آخر، أن يدفع جواتيمالا إلى قبول "اتفاق جنتلمان" مع اليكتريك بوند آند شير كشرط لتنفيذ مشروع خورون – مارينالا للطاقة الكهربائية المائية: وقد نص الاتفاق على دفع تعويض للمؤسسة عن الأضرار المحتملة فى موقع حوض النهر الذى كان قد قدم لها كهدية قبل ذلك ببضع سنوات، وتضمن الاتفاق تعهداً من جانب الدولة بعدم التدخل فى تحديد مؤسسة اليكتريك بوند آند شير لرسوم استهلاك الكهرباء. ومن باب المصادفة أو من أى باب آخر، تمكن البنك الدولى فى عام ١٩٦٧ من اجبار كولومبيا على دفع تعويض قيمته ٣٦ مليون دولار لشركة الكهرباء الكولومبية التابعة لمؤسسة اليكتريك بوند آند شير عن معداتها العتيقة التى أممت مؤخراً. وهكذا اشترت الدولة الكولومبية مايخصها – لكن الامتياز الممنوح للشركة كان قد انقضى أجله فى عام ١٩٤٤. ويعد ثلاثة من رؤساء البنك الدولى نجوماً فى كوكبة جبروت روكفيللير. إن جون. ج. ماكلوى، الذى رأس البنك من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٤٩، قد انتقل إلى مقعد مدير فى بنك تشيز مانهاتن. أما خليفته، بلاك، فقد عبر الطريق فى الاتجاه المقابل، إذ جاء من مجلس إدارة تشيز مانهاتن إلى البنك الدولى. وقد حل جورج د. وودز، وهو رجل آخر من رجال روكفيللير، محل بلاك فى

عام ١٩٦٣. ومن باب المصادفة أو أى باب آخر، يشارك البنك الدولى مشاركة مباشرة – بعشر الرساميل وبقروض مهمة – فى أكبر مشاريع روكفيللير الاستثمارية فى البرازيل: أهم مجمع فى أمريكا اللاتينية للصناعات البتروكيميائية، بتروكيميكا أونياو.

ويأتى أكثرمن نصف القروض التى تحصل عليها أمريكا اللاتينية – بعد صدور الضوء الأخضر من صندوق النقد الدولى – من مصادر أمريكية خاصة ورسمية؛ كما يقدم البنك الدولى نسبة مئوية مهمة. ويتزايد ضغط صندوق النقد الدولى والبنك الدولى أكثر فأكثر على البلدان الأمريكية اللاتينية لكى تعيد صوغ اقتصادياتها وماليتها بما يتمشى مع متطلبات سداد الدين الخارجى. لكن الوفاء بالالتزامات – جوهر حسن السلوك الدولى – يزداد صعوبة ويصبح فى الوقت نفسه ضرورياً أكثر. وتشكو المنطقة من الظاهرة التى يسميها الاقتصاديون بـ "انفجار الديون". إنها حلقة خانقة. فالقروض تتزايد، والاستثمارات تتلو الاستثمارات، بحيث أن المدفوعات تتزايد بالنسبة إلى الأقساط، والفوائد، والحصص النسبية وغير ذلك من خدمات الديون. ولسداد هذه الديون، يجرى اللجوء إلى حقنات جديدة من الرساميل الأجنبية، مما يزيد من حجم الالتزامات، وهلمجراً، وهلمجراً. والحال أن خدمة الدين تستهلك نسبة متزايدة من دخول الصادرات التى لايمكنها، على أية حال، بسبب الهبوط المتواصل للأسعار، تمويل الواردات الضرورية، وهكذا تصبح القروض الجديدة لتمكين البلدان من الحصول على الامدادات التى تحتاج إليها ضرورية ضرورة الهواء للرئتين. وقد ذهب خمس قيمة الصادرات فى عام ١٩٥٥ إلى سداد أقساط، وفوائد، وأرباح عن الاستثمارات. أما فى عام ١٩٦٨، فقد وصلت هذه المدفوعات إلى نسبة ٣٧ فى المائة من قيمة الصادرات[٦٨]. وإذا ما واصلت أمريكا اللاتينية اللجوء إلى الرساميل الأجنبية لسد "الفجوة التجارية" وتمويل ترحيل الأرباح عن الاستثمار الامبريالى، فإن نسبة لاتقل عن ٨٠ فى المائة من العملة الأجنبية سوف تظل، بحلول عام ١٩٨٠، فى أيدى المقرضين الأجانب، وسوف يصل إجمالى الديون إلى مايزيد بأكثر من ست مرات عن قيمة الصادرات[٦٩]. وقد تنبأ البنك الدولى بأن مدفوعات خدمة الديون سوف تؤدى فى عام ١٩٨٠ إلى الإلغاء الكامل لتدفق رساميل أجنبية جديدة إلى العالم النامى. لكن الحال أن تدفق القروض الجديدة إلى أمريكا اللاتينية فى عام ١٩٦٥ كان أقل بالفعل من رأس المال المستنزف على شكل أقساط وفوائد وفاءً بالتزامات سابقة.

■ التصنيع لايغيّر من تنظيم عدم التكافؤ فى السوق العالمية

يشكل تبادل السلع، جنباً إلى جنب القروض والاستثمارات المباشرة فى الخارج، الإطار الحديدى للتقسيم الدولى للعمل. وتتبادل بلدان العالم الثالث فيما بينها مايزيد إلى حد ما عن خمس صادراتها، وتذهب ثلاثة أرباع مبيعاتها الخارجية إلى المراكز الامبريالية التى تعد هذه البلدان روافد تابعة تصب فيها[٧٠]. ويرتبط معظم البلدان الأمريكية اللاتينية فى السوق العالمية بمادة أولية واحدة أو بمحصول غذائى واحد[٧١]. وتتمتع أمريكا اللاتينية بوفرة من الصوف، والقطن، والألياف الطبيعية، وبصناعة منسوجات تقليدية، لكنها لاتتمتع إلاّ بحصة نسبتها ٠,٦ فى المائة فى المشتريات الأوروبية والأمريكية من الغزل والأقمشة. لقد حكم على المنطقة ببيع المنتجات الأولية حتى تواصل عجلات المصانع الأجنبية الدوران؛ ويحدث أن تلك المنتجات "يجرى تصديرها فى معظم الأحيان من جانب كونسورتيومات قوية ذات ارتباطات دولية، تملك العلاقات الضرورية فى السوق العالمية بما يمكنها من طرح منتجاتها فى ظل أنسب الشروط[٧٢]" – أنسب الشروط لها، الشروط المناسبة لمصالح البلدان المشترية: أى بأرخص الأسعار. ويوجد فى الأسواق الدولية احتكار فعلى لطلب المواد الأولية ولعرض المنتجات الصناعية، فى حين أن طارحى المنتجات الأساسية، وهم أيضاً مشترون للسلع المصنعة، يعملون بصورة منفصلة. إن الأوائل، الملتفين حول الولايات المتحدة – التى تستهلك مثيل مايستهلكه باقى العالم كله تقريبا – والذين تهيمن الولايات المتحدة عليهم، أقوياء؛ بينما نجد أن الأخيرين معزولون وضعفاء: مقهورون يزاحمون مقهورين. أمّا مايسمى بالحركة الحرة للعرض والطلب فى السوق العالمية فهو غير موجود؛ والموجود فعلاً هو ديكتاتورية مجموعة تتسلط على الأخرى، لحساب البلدان الرأسمالية المتقدمة دائماً. وتوجد مراكز صنع القرار، التى تتحدد فيها الأسعار، فى واشنطون، ونيويورك، ولندن، وباريس، وأمستردام، وهامبورج، فى اجتماعات مجالس الوزراء وفى أسواق الأوراق المالية. ولا أهمية تذكر أولا أهمية على الاطلاق لتوقيع اتفاقات دولية لحماية أسعار القمح (١٩٤٩)، والسكر (١٩٥٣)، والقصدير (١٩٥٦)، وزيت الزيتون (١٩٥٦)، والبن (١٩٦٢). وتبين نظرة سريعة إلى المنحنى الهابط للقيمة النسبية لتلك المنتجات أن الاتفاقات ليست أكثر من معاذير رمزية تقدمها البلدان القوية عندما تهبط أسعار منتجات البلدان النامية هبوطاً فاضحاً. وماتبيعه أمريكا اللاتينية يزداد رخصاً باستمرار، أمّا ماتشتريه فهو يزداد – من الناحية النسبية أيضاً – غلاءً باستمرار.

لقد كان بوسع أوروجواى فى عام ١٩٥٤ أن تشترى جراراً من جرارات فورد بثمن يعادل ثمن اثنين وعشرين ثوراً؛ أما اليوم فهى بحاجة إلى أن تدفع ثمناً يزيد عن الضعف. وقد قدر فريق من الاقتصاديين التشيليين الذين أجروا مسحاً لحساب النقابات أنه، لو كانت أسعار الصادرات الأمريكية اللاتينية قد ارتفعت منذ عام ١٩٢٨ بالمعدل نفسه الذى ارتفعت به أسعار الواردات، لحصلت أمريكا اللاتينية على زيادة تقدر بـ ٥٧ بليون دولار لقاء مبيعاتها بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٧ عما حصلت عليه بالفعل[٧٣]. ودون الرجوع إلى ذلك التاريخ البعيد، وباعتبار أسعار عام ١٩٥٠ أساساً، تقدر الأمم المتحدة أن أمريكا اللاتينية، بسبب تدهور شروط التبادل، خسرت أكثر من ١٨ بليون دولار فى العقد الممتد من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٤. وقد استمر الهبوط بعد ذلك. والحال أن **"الفجوة التجارية"** - الفارق بين الاحتياجات من الواردات والدخل المتحقق من الصادرات - سوف تواصل الاتساع ما لم تتغير الهياكل الحالية للتجارة الخارجية، كما أن الهاوية تزداد عمقاً كل سنة. وإذا ماحاولت المنطقة فى المستقبل المباشر أن تزيد زيادة طفيفة معدل سرعة تنميتها عن معدل السنوات الخمس عشرة الماضية - والذى كان بطيئاً للغاية - فإن احتياجات الاستيراد التى سوف تواجهها سوف تتجاوز بدرجة ملحوظة النمو المتوقع لدخلها المتحقق من الصادرات فى صورة عملات أجنبية. ووفقاً للمعهد الأمريكى اللاتينى للتخطيط الاقتصادى والاجتماعى[٧٤]، فسوف ترتفع الفجوة التجارية إلى ٤,٦ بليون دولار فى عام ١٩٧٥، وإلى ٨,٣ بليون دولار فى عام ١٩٨٠. وهذا الرقم الأخير ليس أقل من نصف قيمة الصادرات المتوقعة لذلك العام. وهكذا فإن البلدان الأمريكية اللاتينية، وقد أجبرت على التسول، سوف تطرق باستماتة لاحد لها أبواب حيتان القروض الدولية.

ويرى آرجيرى ايمانويل أن لعنة الأسعار المنخفضة لاتقع بحملها على منتجات محددة، وإنما على بلدان محددة[٧٥]. وعلى أية حال، فإن الفحم - الذى كان إلى وقت قريب أحد صادرات بريطانيا الرئيسية - لايختلف عن الصوف أو النحاس من حيث كونه مادة أولية، كما أن السكر فيه من العمل أكثر مما فى الويسكى الاسكتلندى أو النبيذ الفرنسى. وتصدر السويد وكندا الألواح الخشبية، وهى مادة أولية، بأسعار ممتازة. ويرى ايمانويل أن السوق العالمية تؤسس عدم التكافؤ التجارى على مبادلة **ساعات عمل أكثر فى البلدان الفقيرة بساعات عمل أقل فى البلدان الغنية:** ومفتاح الاستغلال هو أنه فى الوقت الذى يوجد فيه فارق هائل بين

مستويات الأجور فى البلدان الفقيرة ومستويات الأجور فى البلدان الغنية، فإن هذا الفارق ليس مصحوباً بفوارق مماثلة فى إنتاجية العمل. ويقول ايمانويل إن انخفاض الأجور هو الذى يقرر انخفاض الأسعار، لا العكس: فالبلدان الفقيرة تصدر فقرها - وتزيد فى ذلك السياق من افقارها لنفسها - بينما تحصل البلدان الغنية على النتيجة المقابلة. ويرى سمير أمين[٧٦] أنه، لو كانت المنتجات التى صدرتها البلدان النامية فى عام ١٩٦٦ قد أنتجتها البلدان المتقدمة بالتقنيات نفسها ولكن بمستويات أجور أعلى بكثير، لاختلفت الأسعار بدرجة كان من شأنها أن تسمح للبلدان النامية بالحصول على زيادة تقدر بـ ١٤ بليون دولار.

ومن المؤكد أن البلدان الغنية قد استخدمت حواجز التعريفات ومازال تستخدمها لحماية مستويات الأجور المرتفعة فيها فى المجالات التى لاتستطيع منافسة البلدان الفقيرة فيها. وتستخدم الولايات المتحدة اتفاقات صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى والجات (الاتفاق العام بشأن التعريفات والتجارة) لفرض مبدأ حرية التجارة والمنافسة الحرة على أمريكا اللاتينية، بما يؤدى إلى اختزال التبادلات المتعددة، والحصص النسبية، وأذون الاستيراد والتصدير، والتعريفات والرسوم الجمركية. لكنها لاتمارس بحال من الأحوال ماتدعو إليه. فالولايات المتحدة، بالطريقة نفسها التى تثبط بها نشاط الدولة فى البلدان الأخرى بينما تحمى الاحتكارات فى الداخل عن طريق منظومة واسعة من الاعانات ودعم الأسعار، تمارس فى تجارتها الخارجية سياسة حماية صارمة تستند إلى التعريفات المرتفعة والقيود القاسية. ويجرى الجمع بين الرسوم الجمركية وضرائب أخرى، والحصص النسبية وقرارات الحظر[٧٧]. فما الذى يمكن أن يحدث لمربى الماشية فى وسط الغرب الأمريكى لو سمحت الولايات المتحدة بأن تدخل إلى أسواقها الداخلية - دون تعريفات ودون قرارات حظر تستند إلى اعتبارات صحية مزعومة - لحوم أفضل وأرخص من الأرجنتين وأوروجواى؟ إن خام الحديد يدخل السوق الأمريكية بحرية، إلا أنه إذا حُوِّلَ إلى كتل مصبوبة فسوف يسدد ١٦ دولاراً عن الطن الواحد، وترتفع التعريفة بما يتمشى مباشرة مع مرحلة الصقل. والشئ نفسه ينطبق على النحاس وعلى منتجات أخرى لاحصر لها: فما أن يجرى تجفيف الموز، أو تقطيع التبغ، أو تحلية الكاكاو، أو نشر الخشب، أو نزع نوى البلح، حتى تتراكم التعريفات عليها بلاهوادة[٧٨]. وفى عام ١٩٦٩، أمرت الحكومة الأمريكية بوقف المشتريات من الطماطم المكسيكية - التى تشغل ١٧٠,٠٠٠ فلاح فى ولاية سينالوا - إلى أن يتمكن زارعو الطماطم فى فلوريدا من اجبار المكسيكيين على رفع الأسعار تفادياً للمنافسة.

لكن التناقض الأكثر إثارة للروع بين النظرية والواقع فى السوق العالمية قد ظهر فى "حرب البن سريع الذوبان" المكشوفة فى عام ١٩٦٧. فقد صار من الواضح آنذاك أن البلدان الغنية وحدها هى التى تملك الحق فى أن تستغل لحسابها "المزايا النسبية الطبيعية" والتى تقرر التقسيم الدولى للعمل من الناحية النظرية. والحال أن سوق البن سريع الذوبان الآخذة فى التوسع بشكل مثير تخضع لشركتى نسله وجنرال فودز: ومن المعتقد أن هاتين الشركتين سوف تتمكنان، قبل فوات وقت طويل، من تقديم مايزيد عن نصف البن المستهلك فى العالم. وتشترى الولايات المتحدة وأوروبا حبوب البن من البرازيل وأفريقيا، وتتوليان تركيزه فى معاملهما الصناعية، وتبيعانه فى العالم قاطبة على شكل بن سريع الذوبان. أمّا البرازيل، أكبر منتج للبن، فهى لاتملك الحق فى المنافسة عن طريق تصدير بنها سريع الذوبان، مستفيدة بذلك من تكاليفه الأدنى بشكل واضح وموفرة مخرجاً لتصريف الفوائض التى أعدمتها فى وقت من الأوقات والتى تخزنها الآن فى مستودعات الدولة. ولاتملك البرازيل غير حق توريد البن الخام لإثراء المصانع الأجنبية. وعندما بدأت المصانع البرازيلية – مجرد عشرة مصانع من مجموع عالمى يصل إلى ١١٠ مصانع – فى طرح البن سريع الذوبان فى السوق الدولية، جرى اتهامها بالمنافسة الظالمة. وارتفعت شكوى البلدان الغنية إلى عنان السماء وقبلت البرازيل فرضاً مهيناً: لقد فرضت ضريبة داخلية ضخمة على بنها السريع الذوبان لتخرجه من المنافسة فى السوق الأمريكية الشمالية[٧٩].

وليست أوروبا مختلفة عن الولايات المتحدة فى إقامة الحواجز الجمركية، والضريبية، والصحية ضد المنتجات الأمريكية اللاتينية. فالسوق المشتركة تراكم الرسوم على الواردات لحماية الأسعار الداخلية المرتفعة لمنتجاتها الزراعية، وتدعم فى الوقت نفسه تلك المنتجات من أجل تصديرها بأسعار تنافسية: وهى تمول الدعم مما تحصل عليه من الرسوم. وهكذا تدفع البلدان الفقيرة الأموال لزبائنها الأغنياء لكى يقوموا بالمنافسة ضدها. إن سعر رطل من اللحم فى بوينوس آيريس أو مونتفيديو يزيد خمس مرات عندما يتدلى من خطاف جزار فى هامبورج أو ميونيخ[٨٠]. وكما اشتكى، وله الحق فى ذلك، مندوب للحكومة التشيلية فى مؤتمر دولى، فإن "البلدان المتقدمة مستعدة للسماح لنا بأن نبيع لها طائرات نفاثة وأجهزة كومبيوتر، لكنها ليست مستعدة للسماح لنا بأن نبيع لها أى شئ يوجد أى احتمال فى أن نتمكن من إنتاجه"[٨١].

إن الاستثمارات الامبريالية فى الصناعة الأمريكية اللاتينية لم تبدل بحال من

الأحوال شروط تجارتها الدولية. وتواصل المنطقة خنق نفسها إذ تستبدل بمنتجاتها الأولية المنتجات المتخصصة التى تنتجها الاقتصاديات المتروبولية. ويتركز توسع مبيعات الشركات الامريكية جنوبى الريو جراندى فى الأسواق المحلية، وليس فى الصادرات. والواقع أن النسبة المصدرة قد مالت إلى الانخفاض: فوفقاً لمنظمة الدول الأمريكية، صدرت فروع الشركات الأمريكية مانسبته ١٠ فى المائة من إجمالى مبيعاتها فى عام ١٩٦٢ ولم تصدر بعد ذلك بثلاث سنوات غير مانسبته ٥ ,٧ فى المائة[٨٢]. فالتجارة فى المنتجات الصناعية الأمريكية اللاتينية لاتنمو إلاّ فى داخل أمريكا اللاتينية: ففى عام ١٩٥٥، مثلت المنتجات الصناعية نسبة ١٠ فى المائة من حجم التبادل فيما بين بلدان المنطقة؛ وفى عام ١٩٦٦، كانت النسبة قد ارتفعت إلى ٣٠ فى المائة[٨٣].

والحال أن جون أبينك، رئيس بعثة فنية أمريكية فى البرازيل، كان قد تنبأ فى عام ١٩٥٠ فقال: "إن على الولايات المتحدة أن تستعد لـ "توجيه" التصنيع الذى سوف يحدث حتماً للبلدان النامية إذا كنا نريد تجنب صدمة تنمية اقتصادية مكثفة خارج إشراف الولايات المتحدة ... إن التصنيع، إذا لم تجر السيطرة عليه بطريقة ما، سوف يؤدى إلى اختزال مهم لأسواق الصادرات الأمريكية"[٨٤]. فعلاً، أليس من شأن التصنيع - حتى ولو كان موجهاً من الخارج - أن يحل المنتجات القومية محل السلع التى كان على كل بلد فى السابق استيرادها؟ لقد لاحظ سيلسو فورتادو أنه بقدر تقدم أمريكا اللاتينية فى إحلال المنتجات المستوردة الأكثر تعقيداً، "فإن الاعتماد على مدخلات من المكاتب الرئيسية يميل إلى الازدياد". وبين عامى ١٩٥٧ و ١٩٦٤، زادت مبيعات فروع الشركات الأمريكية بنسبة الضعف بينما زادت وارداتها - من غير المعدات - بنسبة ثلاثة أضعاف. ويرى سيلسو فورتادو أن "هذا الاتجاه يبدو أنه يشير إلى أن الفعالية "الاحلالية" دالة هابطة للتوسع الصناعى الذى تسيطر عليه البلدان الأجنبية"[٨٥].

التبعية لاتنكسر بل تشهد تغيراً نوعياً: فالولايات المتحدة تبيع اليوم لأمريكا اللاتينية نسبة أكبر من المنتجات الأكثر تعقيداً والأعلى مستوى من الناحية التكنولوجية. وتقول وزارة التجارة الأمريكية أنه "فى المدى البعيد، مع نمو الإنتاج الصناعى المكسيكى، سوف تكون الفرص أعظم أمام صادرات أمريكية اضافية من المواد الخام الصناعية أو المكونات الصناعية ...."[٨٦]. وتعد الأرجنتين، والمكسيك، والبرازيل زبائن جيدين جداً للآلات الصناعية، والآلات الكهربائية، والمحركات، والمعدات، وقطع الغيار المصنوعة فى الولايات المتحدة. وتزود فروع الشركات الكبرى أنفسها بالتجهيزات

الواردة من مكاتبها الرئيسية بأسعار مضخمة عن عمد. وكما كتب اسماعيل بنياس ويوخينيو جاستياثورو عن شركات السيارات الأرجنتينية فى الأرجنتين: "إنها إذ تدفع مقابل هذه الواردات بأسعار مرتفعة للغاية، ترسل الموارد المالية إلى الخارج. وغالباً ماتكون المدفوعات من الضخامة بحيث أن المشاريع الاستثمارية لاتحقق خسائر وحسب (برغم الأسعار التى تباع بها السيارات هنا)، بل وتبدأ أيضا فى الافلاس، مع تدهور سريع للأسهم المملوكة فى البلد ... والنتيجة أنه من أصل اثنتين وعشرين شركة، "منشأة"، لم يبق الآن غير عشر شركات، بعضها على شفا الإفلاس"[٨٧]

وهكذا فإن الشركات الفرعية تحقق مجداً أعظم للشركات الأم التى تنتمى إليها عن طريق التهام العملات الاجنبية المحدودة التى تحوزها البلدان الأمريكية اللاتينية. ولاتختلف خطة تشغيل الصناعة التابعة اختلافاً كثيراً عن النظام التقليدى للاستغلال الامبريالى للمواد الخام. ويرى انطونيو جارثيا[٨٨] أن التصدير "الكولومبى" للبترول الخام كان على الدوام مجرد تحويل طبيعى لخام النفط من حقل نفط أمريكى شمالى إلى مراكز التكرير، والتسويق، والاستهلاك الأمريكية الشمالية، وأن التصدير "الهندوراسى" أو "الجواتيمالى" للموز كان عبارة عن تحويل تتولاه شركات أمريكية شمالية من مزارع كولونيالية معينة إلى مناطق تسويق واستهلاك أمريكية شمالية معينة. لكن المصانع "الأرجنتينية"، و "البرازيلية"، و "المكسيكية" – إنْ لم نذكر غير الأكثر أهمية – تحتل هى أيضاً موقعاً اقتصادياً لا علاقة له بموقعها الجغرافى. إنها تشكل، بالتضافر مع خيوط أخرى عديدة، شبكة دولية من الشركات التى تحول مكاتبها الرئيسية الأرباح من بلد إلى بلد، محددة فواتير المبيعات بأسعار أكثر أو أقل من الأسعار الفعلية تبعاً للوجهة التى تريد للأرباح المضى فيها[٨٩]. وهكذا تبقى العوامل الرئيسية للتجارة الخارجية فى أيدى الشركات الأمريكية أو الأوروبية، التى توجه السياسات التجارية للبلدان تبعاً لمعايير تحددها حكومات وإدارات خارج أمريكا اللاتينية. وكما أن فروع الشركات الأمريكية لاتصدر النحاس إلى الاتحاد السوفيتى ولا إلى الصين، ولاتبيع النفط لكوبا، فإنها لاتحصل على المواد الخام والآلات من المصادر الأرخص والأنسب.

وطبيعى أن هذا التنسيق الفعال لأنشطة عالمية، والبعيد تماماً عن أى "تفاعل حر لقوى السوق"، لايترجم نفسه إلى أسعار أقل بالنسبة إلى المستهلكين المحليين، وإنما يترجم نفسه إلى أرباح لحملة الأسهم الأجانب. وصناعة السيارات مثال بليغ لذلك. فالبلدان الأمريكية اللاتينية تقدم قوة عمل وافرة ورخيصة للغاية وسياسة رسمية تشجع

توسع الاستثمارات، بكل السبل - المنح المجانية من الأراضى، الرسوم الرمزية لاستهلاك الكهرباء، الخصومات الثانية من جانب الدولة لتمويل المبيعات التى تسدد أثمانها فى وقت لاحق، الأموال سهلة المنال؛ وكما لو أن كل ذلك ليس كافياً، لجأت بلدان معينة إلى إعفاء الشركات من ضرائب الدخل أو المبيعات أيضاً. ويجرى زيادة تسهيل السيطرة على السوق مقدماً عن طريق الهيبة السحرية التى يتم اضفاؤها، فى أعين الطبقات المتوسطة، على الطرز والموديلات التى تروج لها حملات الدعاية العالمية. لكن كل هذه العوامل، بعيداً عن أن تجعل السيارات المنتجة فى أمريكا اللاتينية أرخص من السيارات المنتجة فى البلدان الأصلية للشركات، تجعل أسعارها أكثر تفجراً بكثير. صحيح أن الأسواق الأمريكية اللاتينية أصغر بكثير، إلا أنه صحيح أيضا أن شهوة الشركات فى هذه البلدان إلى الأرباح أكثر ضراوة مما فى أى مكان آخر. إن سيارة فورد فالكون تصنع فى أمريكا اللاتينية تكلف ثلاثة أضعاف ماتكلفه فى الولايات المتحدة[٩٠]. ويصل سعر سيارة فالیانت أو فيات مصنوعة فى الأرجنتين إلى أكثر من ضعف سعرها فى الولايات المتحدة أو ايطاليا[٩١]. وينطبق الشئ نفسه على العلاقة بين سعر سيارة فولكسفاجن البرازيلية وسعر مثيلتها فى ألمانيا[٩٢].

■ الربة تكنولوجيا لاتتكلم بالاسبانية

يرى رايت باتمان، عضو الكونجرس الأمريكى، أن نسبة ٥ فى المائة من الأسهم فى شركة كبيرة يمكن فى أغلب الأحوال أن تكفى لسيطرة فرد، أو أسرة، أو مجموعة اقتصادية على هذه الشركة[٩٣]. وإذا كانت نسبة ٥ فى المائة كافية للسيطرة على أحد المشاريع الاستثمارية الأمريكية الجبارة، فما هى النسبة المئوية الضرورية للسيطرة على مشروع استثمارى أمريكى لاتينى؟ الواقع أن بالإمكان تحقيق السيطرة بما هو دون هذه النسبة: فالشركة "المختلطة"، وهى إحدى البقايا القليلة التى تتفاخر بها البورجوازية الأمريكية اللاتينية، لاتفعل غير تزيين الجبروت الأجنبى بمشاركة رأسمالية قومية قد تمثل الأغلبية إلاّ أنها غير مسيطرة أبداً على العناصر الأجنبية. وغالباً ماتدخل الدولة نفسها فى مشاركة مع مشروع استثمارى امبريالى يحصل، وقد تحول بهذه الطريقة إلى مشروع "قومى"، على كافة الضمانات المنشودة ويجد مناخاً يتميز بروح التعاون - بل والحنان. ويجرى عادة تبرير مشاركة رأس المال الأجنبى "الصغرى" بالحاجة إلى

التحويلات التقنية والتحويلات الخاصة بحقوق استخدام العلامات المسجلة فالبورجوازية الأمريكية اللاتينية، وهى بورجوازية تجارية تفتقر إلى أية ميزة خلاقة، وترتبط ارتباطاً سرّياً بقوة الملكيات الزراعية الكبيرة، تسجد أمام الربة تكنولوجيا. وإذا كانت ملكية الأجانب للأسهم (مهما كانت صغيرة) والتبعية التكنولوجية (التى نادراً ماتكون صغيرة) دليلين على نزع التأميم، فكم يبلغ عدد المصانع التى يمكن أن تعتبر قومية بالفعل فى أمريكا اللاتينية؟ فى المكسيك، مثلاً، غالباً مايطالب ملاك التكنولوجيا الأجانب بأسهم فى مشروع استثمارى، بالإضافة إلى مواقع سيطرة تقنية وإدارية حاسمة، وبيع المنتوج لوسطاء أجانب محددين، واستيراد الآلات وسلع أخرى من مكاتبهم الرئيسية، فى مقابل توقيع عقود لنقل حقوق استخدام العلامات المسجلة أو "الخبرة التكنولوجية"[٩٤]. وليس فى المكسيك وحدها. فقد صاغت بلدان مايسمى بمجموعة الانديز (بوليفيا، كولومبيا، تشيلى، اكوادور، وبيرو) خطة للتعامل المشترك مع رأس المال الأجنبى فى المنطقة، مؤكدة على رفض العقود الخاصة بتحويل التكنولوجيا التى تتضمن بنوداً كهذه. لكنها تقترح على البلدان التى لن تقبل الخطة أن تحدد الشركات الأجنبية التى تملك حقوق استخدام العلامات المسجلة أسعار المنتجات المعتمدة على هذه العلامات، أو أن تقرر حظر تصديرها إلى مناطق محددة.

لقد أنشئ النظام الأول لبراءات الاختراع لحماية حقوق ملكية الاختراع قبل نحو أربعة قرون على يد السير فرانسيس بيكون. وكان بيكون مغرماً بالإشارة إلى أن "المعرفة قوة"، ومن ساعتها صار واضحاً أنه كان على حق. وليست هناك شمولية تذكر فى الشوامل العلمية؛ إنها محصورة، من الناحية الموضوعية ضمن حدود الأمم المتقدمة. ولاتطبق أمريكا اللاتينية نتائج البحث العلمى لحسابها الخاص لسبب بسيط هو أنها لاتملك أية نتائج؛ ولذا فهى محكوم عليها بمكابدة تكنولوجيا الأقوياء التى تهجم على المواد الأولية الطبيعية وتنتزعها، وهى عاجزة عن خلق تكنولوجيا خاصة بها لدعم وحماية نموها الخاص. والحال أن استيراد تكنولوجيا البلدان المتقدمة لايجر إلى مجرد التبعية الثقافية – والاقتصادية، بشكل حاسم تماماً. فلقد تبين أيضاً، بعد أربعة قرون ونصف من تجربة انتشار واحات حديثة وسط صحارى التخلف والجهل، أنه لم يحل أية مشكلة من مشكلات التخلف[٩٥]. فمنطقة الأمبين هذه تستثمر ما يقل بمائتى مرة عما تستثمره الولايات المتحدة فى مجال البحوث التكنولوجية. ويوجد فى أمريكا اللاتينية أقل من ألف جهاز كومبيوتر بينما يوجد فى الولايات المتحدة خمسون ألف جهاز؛ وطبيعى أن النماذج

الاليكترونية ولغات البرمجة التى تستوردها أمريكا اللاتينية مصممة وموضوعة فى الولايات المتحدة. وليس التخلف الأمريكى اللاتينى مرحلة على طريق التنمية؛ بل هو الوجه المقابل للتنمية فى أماكن أخرى؛ فالمنطقة "تتقدم" دون أن تحرر نفسها من بنية تخلفها، وكما يشير مانويل سادوسكى، فإن "ميزة" عدم مشاركتها فى التقدم ببرامجها وأهدافها الخاصة تعد "ميزة" وهمية[٩٦]. إن رموز الازدهار رموز للتبعية. ويجرى الحصول على التكنولوجيا الحديثة بالطريقة التى كان يجرى الحصول بها على السكك الحديدية فى القرن الماضى، لتكون في خدمة المصالح الأجنبية التي تصوغ وتعيد صوغ الوضعية الكولونيالية لهذه البلدان. ويقول سادوسكى "إن مايحدث لنا هو مايحدث لساعة يدٍ تشكو من تأخير عقاربها ولايجرى ضبطها. ومع أن عقاربها تواصل التحرك إلى الأمام، فإن الفارق يزيد بين الوقت كما يبدو من خلالها والوقت الفعلى".

وتُخَرِّجُ الجامعات الأمريكية اللاتينية، على نطاق صغير، رياضيين، ومهندسين، ومنظمى برامج لايمكنهم العثور على عمل إلاَّ فى المنفى: إننا نمنح أنفسنا ترف تزويد الولايات المتحدة بأفضل فنيينا وأقدر علمائنا، الذين يجرى اغراؤهم على الهجرة بالرواتب العالية وإمكانيات البحث العريضة المتاحة فى الشمال. وفى الوقت نفسه، فكلما تحاول جامعة أو مركز من مراكز التعليم العالى الأمريكية اللاتينية تشجيع تطور العلوم الأساسية، وإرساء الأسس لتكنولوجيا غير منسوخة من الأنماط والشواغل الأجنبية، فإن انقلاباً يقع فى الوقت المناسب يدمر التجربة بحجة أنها بؤرة للتخريب[٩٧]. والحال أن جامعة برازيليا، التى سحقت فى عام ١٩٦٤، كانت مثالاً لذلك. والحقيقة هى أن الملائكة المدرعة التى تحمى النظام القائم ليست مخطئة: فالسياسة الثقافية المستقلة، عندما تكون حقيقية، تتطلب وتحفز تغيرات عميقة فى كافة الهياكل القائمة.

والبديل هو الاعتماد على المصادر الأجنبية: محاكاة التقدمات التى تروجها الشركات الكبرى، التى تحتكر أحدث تقنيات إنتاج منتوجات جديدة وتحسين نوعية أو خفض تكاليف المنتوجات القائمة، وهى محاكاة تشبه محاكاة القردة للبشر. والحال أن العقل الاليكترونى يملك مناهج لاتخطئ فى حساب التكاليف والأرباح ولذا تستورد أمريكا اللاتينية تقنيات إنتاج تهدف إلى توفير قوة العمل، مع أنها تتمتع بوفرة فى قوة العمل وقد يشكل العاطلون قريباً الغالبية الساحقة فى بلدان عديدة. وهكذا فإن عجزنا نحن يجعل تقدم المنطقة رهن مشيئة أو نزوة المستثمرين الأجانب. ولأسباب لاتخفى على أحد، تساعد الروافع التكنولوجية الشركات متعددة القوميات على السيطرة على روافع

اقتصادنا الحاسمة الأخرى. وطبيعى أن المكاتب الرئيسية لاتقدم البتة لفروعها أحدث المبتكرات كما أنها لاتشجع استقلالاً ليس من شأنه أن يكون مناسباً لها. وقد استنتج مسح قامت به بزنس انترناشيونال لحساب بنك التنمية الأمريكى المشترك أن "من الواضح أن فروع الشركات الدولية العاملة فى المنطقة لاتبذل أية جهود مهمة فى اتجاه "البحث والإستحداث". والواقع أن معظمها يفتقر إلى أية إدارة لهذا الغرض ولايتولى مهمة التكييف التقنى إلاّ فى حالات نادرة للغاية، فى حين أن أقلية صغيرة أخرى من المشاريع الاستثمارية – لاتكاد توجد إلاّ فى الأرجنتين، والبرازيل، والمكسيك – تقوم بأنشطة متواضعة فى مجال البحوث[٩٨] ويلاحظ راوول بريبيتش أن "المشاريع الاستثمارية الأمريكية فى أوروبا تنشئ معامل وتقوم بأبحاث تساعد على تعزيز القدرات العلمية والتقنية لتلك البلدان، وهو شئ لم يحدث فى أمريكا اللاتينية"، ويشير إلى مسألة بالغة الخطورة: "نظراً لغياب المعارف المتخصصة (الخبرة التكنولوجية) لدى المستثمرين القوميين، فإن الجانب الأعظم من التكنولوجيا المستوردة يتألف من تقنيات متاحة فى المجال العام إلاّ أنه يجرى إصدار تراخيص باستخدامها كما لوكانت معارف متخصصة"[٩٩].

وتكلف التبعية التكنولوجية تكاليف باهظة تتخذ أكثر من شكل واحد: الدولارات المدفوعة نقداً، على سبيل المثال، برغم أن تحايل الشركات البارع على إعلان تحويلاتها إلى الخارج يجعل من العسير تقدير المبلغ. على أن الأرقام الرسمية تشير إلى أن نزف الدولارات مقابل المساعدة التقنية للمكسيك قد زاد خمسة عشر ضعفاً بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٦٤، فى حين أن الاستثمارات الجديدة فى الفترة نفسها لم تصل حتى إلى الضعف. وتتركز الآن ثلاثة أرباع الرساميل الأجنبية فى المكسيك فى صناعة المنتوجات الصناعية، بما يمثل ارتفاعاً عن الربع الذى كان مستثمراً فى عام ١٩٥٠. ولايعنى هذا التركيز للموارد المالية فى الصناعة غير تحديث موروث، باستخدام تكنولوجيا سبق استخدامها، وتدفع البلاد مقابلاً لها كما لو كانت أحدث تكنولوجيا. وقد نزحت صناعة السيارات بليون دولار من المكسيك بطريقة أو بأخرى، لكن قائداً لاتحاد عمال السيارات كتب بعد جولة تفقد فيها مصنع شركة جنرال موتورز الجديد فى تولوكا: "إنه أسوأ من عتيق. أسوأ، لأنه عتيق بصورة مقصودة، حيث أنه مجهز بتجهيزات عتيقة موضوعة بعناية فى صلب عمله ... إن مصانع المكسيك يجرى تجهيزها عمداً بآلات من شأنها تخفيض الإنتاج"[١٠٠]. فما الذى يجب علينا قوله عن الجميل الذى تدين به أمريكا

اللاتينية لشركتى كوكاكولا وبيبسى اللتين تجمعان رسوم ترخيص صناعى فلكية من أصحاب امتياز إنتاج منتوجاتهما مقابل تزويدهم بعجينة تذوب فى الماء وتخلط بالسكر والكربون؟

■ تهميش البشر والأقاليم

"حققوا نموكم مع البرازيل". تستحث الاعلانات التى تحتل مساحات واسعة فى صحف نيويورك رجال الاعمال الأمريكيين على الانضمام إلى النمو المندفع لعملاق المناطق الاستوائية. إن مدينة سلو باولو تنام وعيناها مفتوحتان وضجيج النمو يخرق طبلتى أذنيها؛ فالمصانع وناطحات السحاب، والجسور والطرق الرئيسية، تنمو بالسرعة المفاجئة التى تنمو بها النباتات الاستوائية. إلا أنه لو كان للدقة مكان فى عالم الاعلان، لوجب أن يكون الشعار هو: "حققوا نموكم على حساب البرازيل". فهذا النمو، برغم بريقه الخادع، عبارة عن مأدبة ليس مدعواً إليها غير عدد قليل من الناس وأطباقها الرئيسية مخصصة لمعدات أجنبية. إن عدد سكان البرازيل قد وصل بالفعل إلى تسعين مليون إنسان وسوف يصل إلى ضعف ذلك العدد بحلول نهاية هذا القرن، لكن مصانعها الحديثة توفر قوة العمل، وفى المناطق الداخلية، لم تعد المزارع الكبيرة التى ماتزال على حالها تشكل مصدراً للأعمال. ويحدق صبى صغير بعينين تلمعان ذهولاً فى أطول نفق فى العالم، أفتتح مؤخراً فى ريو دى جانييرو، لكن الصبى يرتدى أسمالاً. ومن حق الصبى الذى يرتدى أسمالاً أن يفخر ببلاده، لكنه أمى ويسرق ليأكل.

وفى كافة أرجاء أمريكا اللاتينية، أدى غزو الرساميل الاجنبية المتجهة إلى الصناعة، والذى يقابل بكل هذا الحماس، إلى احتداد التباين بين "الأنماط الكلاسيكية" للتصنيع كما يصفها مؤرخو البلدان المتقدمة، والعملية المميزة للجزء الذى نحتله من العالم. إن النظام يتقيأ البشر، لكن الصناعة فى أمريكا اللاتينية تضحى بالعمل أكثر من تضحيتها به فى أوروبا[١٠١]. وليست هناك علاقة منسجمة بين العمل المتاح والتكنولوجيا المستخدمة، إلاّ إذا أمكن وصف ميزة استخدام قوة من أرخص قوى العمل فى العالم بأنها دليل على وجود مثل هذه العلاقة. أرض غنية، وثروات أغنى فى باطن الأرض، وشعب هدّه البؤس، فى مملكة الوفرة والتقصير هذه: إن جيش العمال الذين يلقى بهم النظام على الرصيف يؤدى إلى احباط نمو السوق الداخلية وينزل بمستوى الأجور إلى

أسفل سافلين. أما تخليد نظام ملكية الأرض القائم فهو لايؤدى وحسب إلى تفاقم المشكلة المزمنة المتمثلة فى انخفاض الإنتاجية الزراعية من جراء تبوير الأرض والرساميل فى مزارع كبيرة غير منتجة، وتبديد العمل فى مزارع صغيرة متزايدة الانتشار؛ إنه يتضمن أيضا تدفقاً غزيراً ومتزايداً للعمال العاطلين صوب المدن. وهكذا يتحول نقص العمالة الزراعية إلى نقص عمالة مدينية. وتنمو البيروقراطية، وتنتشر الأحياء الفقيرة انتشار مجارى لاقعر لها يسكنها ناس محرومون من حق العمل. ولاتستطيع المصانع استيعاب فائض العمل، لكن وجود هذا الجيش الاحتياطى الجرار، المتوافر دائما، يجعل الأجور أدنى خمس عشرة مرة أو عشرين مرة من أجور العمال فى الولايات المتحدة أو ألمانيا. ويمكن للأجور أن تظل منخفضة بينما تزيد الإنتاجية، وتزيد الإنتاجية على حساب عمليات اختزال القوى العاملة. إن طبيعة التصنيع "التابع" هى الاستبعاد: ففى هذه المنطقة التى تتميز باطى معدل فى العالم لتزايد السكان، تتضاعف الجماهير بسرعة خارقة لكن نمو الرأسمالية التابعة - وهو رحلة غرقاها أكثر من مبحريها - يخلق "فائضاً" فى عدد الناس يزيد كثيراً جداً عن العدد الذى يمكن لها استخدامه. والحال أن نسبة العمال فى صناعة المنتجات الصناعية إلى إجمالى عدد السكان القادرين على العمل فى أمريكا اللاتينية تقل بدلاً من أن تزيد: ففى الخمسينيات، كان عمال المصانع يمثلون نسبة ١٤,٥ فى المائة، أما اليوم، فإنهم لايمثلون غير نسبة ١١,٥ فى المائة[١٠٢]. ووفقا لدراسة أجريت مؤخراً، فإن العدد الاجمالى للوظائف التى يتوجب ايجادها فى البرازيل سوف يصل إلى ١,٥ مليون فى المتوسط سنوياً خلال العقد القادم[١٠٣]. ومع ذلك فإن العدد الإجمالى للعمال الذين تشغلهم المصانع فى البرازيل، البلد الأكثر تقدماً من الناحية الصناعية فى أمريكا اللاتينية، لايزيد عن ٢,٥ مليون.

والحال أن عمالاً لاحصر لهم يهجرون أفقر مناطق كل بلد: فالمدن تجتذب وتخدع أسراً كاملة بأمانى العمل، بأمانى فرصة فى تحسين أحوالها، بأمانى مكان فى الدائرة السحرية للحضارة المدينية. لكن الهلوسات لاتملأ المعدة. فالمدينة تزيد الفقراء فقراً، وتواجههم مواجهة غادرة بسراب ثروة هيهات أن يصلوا إليها - سيارات، شقق سكنية فى بنايات فاخرة، آلات قوية قوة الآلهة أو الشياطين - بينما تحرمهم من الأعمال المضمونة، ومن أسقف لائقة يحتمون بها، ومن أطباق مليئة على مائدة الغداء. ووفقاً لتقدير أجرته الأمم المتحدة، فإن نسبة لاتقل عن ٢٥ فى المائة من سكان المدن الأمريكية

اللاتينية تحيا فى "أحياء لاتتمشى مع المعايير الحديثة للبناء الحضرى"[١٠٤] – وهذا تعبير ملطف طويل صادر عن أحد الفنيين لوصف مدن الصفيح: فافيلات ريو دى جانييرو، كاييامبات سانتياجو دى تشيلى، خاكالات المكسيك، باريوات كاراكاس، باريادات ليما، والبياس ميزيرياس (المدن البائسة. – المترجم) فى بوينوس آيريس، وكانتيجريلات مونتفيديو. وكل ليلة تنمو اضافات جديدة فى مستعمرات الأكواخ المبنية من الصفيح، والطين، وألواح الخشب على مشارف المدن؛ فالسكان المهمشون الذين دفعهم الفقر والأمل إلى المجيئ يواصلون التزايد. إن كلمة هوايكو تعنى سيلاً من الصخور المنهارة فى اللغة الكيتشوا، وهكذا يسمى سكان بيرو الموج البشرى المتدافع من الجبال إلى العاصمة الساحلية: إن حوالى ٧٠ فى المائة من سكان ليما يجيئون من الأرياف. وهم يسمون فى كاراكاس بالتوديروس، لأنهم على استعداد للعمل فى أى شئ وكل شئ (تودو). فالمهمشون يحيون من أعمال تعد من قبيل السخرة، متشبثين بالعمل عن طريق دفع الرشاوى أو يعملون بصورة متقطعة أو يؤدون مهاماً حقيرة أو غير مشروعة؛ إنهم يصبحون خدماً، شاحذين للأحجار، بنائين، كهربائيين، سباكين أو نقاشين فى أعمال عرضية، سياساً، أو باعة ليمون أو أى شئ آخر. وهم يصبحون أيضاً متسولين أو لصوصاً – إنهم أيدى جاهزة لكل آت. وحيث أن الفائض البشرى ينمو بدرجة أسرع من نمو العنصر "المستوعب"، فإن مسحاً أجرته الأمم المتحدة يتنبأ بأنه فى غضون سنوات قلائل "سوف تشكل المخيمات مأوى لغالبية سكان المدن". إن المهزومين سوف يكونون الغالبية. ومن ناحية أخرى، يفضل النظام اخفاء القذارة تحت البساط. إنه يخلى الفافيلات من منطقة الخليج والبياس ميزيرياس من العاصمة القومية تحت تهديد السلاح، مشتتاً الفائض البشرى بالآلاف المؤلفة. إن ريو دى جانييرو وبوينوس آيريس تستبعدان منظر البؤس الذى ينتجه النظام: وسرعان ما لن يُرى غير مضيفات الرفاهية دون برازها فى هاتين المدينتين اللتين يجرى فيهما تبديد الثروة التى خلقتها البرازيل كلها والارجنتين كلها.

والحال أن نظام السيطرة الدولى الذى يكابده كل بلد يجد ترجمة له داخل كل بلد. فتركيز الصناعة فى مناطق معينة يعكس التركيز السابق للطلب فى الموانئ الكبرى أو مناطق التصدير. إن ثمانين فى المائة من الصناعة البرازيلية تتركز فى المثلث الجنوبى الشرقى – ساو باولو، ريو دى جانييرو، وبيلو هوريزونتى – بينما تتدهور بشكل متواصل مشاركة الشمال الشرقى الجائع فى الناتج الصناعى القومى. ويتركز ثلثا الصناعة

الأرجنتينية في بوينوس آيريس وروساريو. وتستوعب مونتفيديو ثلاثة أرباع صناعة أوروجواي، شأنها في ذلك شأن سانتياجو وبالبارايسو في تشيلي. وتتركز في ليما وميناثها نسبة ٦٠ في المائة من صناعة بيرو[١٠٥]. والحال أن التخلف النسبي المتزايد للمناطق الداخلية المترامية الأطراف، والغارقة في هوة البؤس والحرمان، لايعود، كما يزعم البعض، إلى عزلتها، بل يعود، على العكس من ذلك، إلى الاستغلال المباشر وغير المباشر من جانب المراكز الاستعمارية القديمة والتي تحولت الآن إلى مراكز صناعية. وكما قال زعيم نقابي أرجنتيني[١٠٦]: "لقد شهد قرن ونصف قرن من تاريخنا انتهاك كل مواثيق التضامن، وخيانة العهود المقطوعة في الأناشيد والدساتير، وتسلط بوينوس آيريس على الأقاليم. إن الجيوش والجمارك، والقوانين التي فرضها قليلون وكابدها كثيرون، والحكومات التي كانت، باستثناء البعض، عميلة للقوى الأجنبية، قد شيدت هذه الحاضرة المزهوة التي تراكم الثروة والجبروت. لكننا لو تحرينا أسباب تلك العظمة وتبعة ذلك الزهو، فسوف نجدها في مزارع الماتي التي أقامها المبشرون، وفي المجتمعات التي قتلتها شركات فورستال لاند، وتيمبر، والسكك الحديدية، وفي يأس مصانع السكر في توكومان ومناجم خوخوي، وفي موانئ بارانا المهجورة، وفي النزوح الجماعي عن بيريسو: خريطة كاملة للبؤس تحيط مركزاً للثروة تحميه ممارسة تسلط داخلي لم يعد بالإمكان اخفاؤه أو قبوله". وقد لاحظ أندريه جوندر فرانك، في دراسته لتطور التخلف البرازيلي، أنه بينما تعد البرازيل بلداً يدور في فلك الولايات المتحدة، فإن الشمال الشرقي يلعب على الصعيد الداخلي دور تابع لـ "الحواضر الداخلية" الموجودة في الجنوب الشرقي. ويظهر الاستقطاب في ظواهر عديدة: ليس فقط في تركيز الغالبية الساحقة من الاستثمارات الخاصة والعامة في ساو باولو، وإنما أيضاً في استحواذ المدينة المتحايل – من خلال التبادل التجاري الجائر، وسياسة أسعار تعسفية، ومستويات ضريبية داخلية مميزة، واستيلاء بالجملة على العقول واليد العاملة الماهرة – على الرساميل المنتجة في طول البلاد وعرضها"[١٠٧].

كما يزيد التصنيع التابع من تركيز الدخول على المستويين الاقليمي والاجتماعي. فالثروة التي ينتجها لاتنتشر عبر كل أرجاء البلاد أو عبر المجتمع كله، وإنما تعزز وتعمق التفاوتات القائمة. بل إن عماله "المستوعبين" أنفسهم – الأقل عدداً بكثير – لايستفيدون بنسبة مساوية من النمو الصناعي؛ فثمار الإنتاجية العالية، المرة بالنسبة إلى الكثيرين جداً، تذهب إلى الفئات العليا المتربعة على قمة الهرم الاجتماعي. إن الصناعات

الميكانيكية، والكهربائية، والمواصلات، وصناعة السيارات فى البرازيل قد زادت الإنتاجية بين عامى ١٩٥٥ و١٩٦٦ بنحو ١٣٠ فى المائة، لكن أجور عمالها فى الفترة نفسها لم تزد من حيث قيمتها الفعلية إلاَّ بنسبة ٦ فى المائة[١٠٨]. وتقدم أمريكا اللاتينية العمل الرخيص: ففى عام ١٩٦١، كان متوسط أجر العامل فى الساعة دولارين فى الولايات المتحدة؛ وكان فى الأرجنتين ٠,٣٢ من الدولار، وفى البرازيل ٠,٢٨ من الدولار، وفى كولومبيا ٠,١٧ من الدولار، وفى المكسيك ٠,١٦ من الدولار[١٠٩]، وفى جواتيمالا مجرد ٠,١٠ من الدولار. وقد اتسعت الهوة منذ ذلك الحين. فالعامل البرازيلى يجب عليه الآن أن يعمل يومين ونصف يوم ليكسب مايكسبه العامل الفرنسى فى ساعة واحدة، ويحصل العامل الامريكى عن عمل يزيد قليلاً عن عشر ساعات على مايعادل ما يحصل عليه عامل برازيلى عن عمل يدوم شهراً. ولكى يحصل العامل البريطانى أو الالمانى على أكثر مما يحصل عليه عامل فى ريو دى جانيرو لقاء يوم عمل من ثمانى ساعات، فإنه لايحتاج إلاَّ للعمل لأقل من نصف ساعة[١١٠]. وينعكس مستوى الأجور المنخفضة فى أمريكا اللاتينية فى الأسعار المنخفضة التى تتقاضاها المنطقة عن موادها الخام فى السوق الدولية، لحساب المستهلكين فى البلدان الغنية. وفى الأسواق الداخلية، حيث تبيع الصناعة منزوعة التأميم سلعاً مصنعة، تواصل الأسعار ارتفاعها للحفاظ على الأرباح المتضخمة للشركات الامبريالية.

ويتفق جميع الاقتصاديين على أهمية تزايد الطلب بالنسبة إلى دفع التنمية الصناعية. لكن الصناعة الأمريكية اللاتينية التى يهيمن عليها الأجانب لاتبدى اهتماماً بتوسيع وتعميق سوق استهلاك واسع، لأن هذا لايمكن تحقيقه إلاَّ على أساس خطوات عملية لتحويل الهيكل الاجتماعى الاقتصادى، لابد من أن تتضمن عواصف سياسية مزعجة. ومع اخضاع النقابات أو إبادتها أو تدجينها فى المدن الأكثر تصنيعاً، فإن نمو القوة الشرائية للعامل نمو طفيف للغاية، كما أن أسعار السلع الصناعية لا تهبط. هذه، إذاً، منطقة واسعة ذات سوق ممكنة هائلة وسوق فعلية منكمشة من جراء فقر جماهيرها. إن المستهلكين الذين توجه مصانع السيارات والثلاجات الكبرى منتجاتها إليهم لايزيدون عن ٥ فى المائة من سكان أمريكا اللاتينية[١١١]. ويمكن اعتبار واحد بالكاد

من كل أربعة برازيليين مستهلكاً من الناحية الفعلية. والحال أن الدخل الاجمالى لخمسة وأربعين مليون برازيلى يساوى الدخل الاجمالى لتسعمائة ألف مواطن مميزين على الطرف المقابل من السلم الاجتماعى(١١٢).

■ تكامل أمريكا اللاتينية فى ظل العلم ذى الخطوط والنجوم

مازال بعض الأبرياء يعتقدون أن كافة البلدان تنتهى عند حدودها. وهم يقولون إن الولايات المتحدة لها دخل كبير أو ليس لها دخل على الإطلاق بتكامل أمريكا اللاتينية، وذلك لسبب بسيط، هو أن الولايات المتحدة ليست عضواً فى منطقة التجارة الحرة الأمريكية اللاتينية (ALALC)، ولافى السوق المشتركة لأمريكا الوسطى. وهم يقولون إن التكامل موجود بالشكل الذى أراده المحرر سيمون بوليفار: فهو لايمضى إلى أبعد من الحدود التى تفصل المكسيك عن جارتها الشمالية القوية. والحال أن أولئك الذين يتبنون هذه الفكرة الحارسة لعرش السيد الأمريكى يعانون من شكل ما من أشكال سقوط الذاكرة قد لايكون بريئاً تماماً. فهم ينسون أن جيشاً من القراصنة، والتجار، ورجال البنوك، ومشاة البحرية والتكنوقراطيين، وذوى البيريهات الخضراء، والسفراء، وقباطنة الصناعة قد استولوا، فى صفحة سوداء طويلة من صفحات التاريخ، على حياة ومصائر معظم شعوب الجنوب وأن صناعة أمريكا اللاتينية ترقد الآن فى قعر جهاز هضم الامبراطورية. إن اتحاد "نا" يخلق قوة "هم" بالدرجة التى تلجأ بها بلادنا، وقد عجزت عن الافلات من قوالب التخلف والتبعية، إلى تحقيق التكامل بين عبوديات كل منها.

وتمتدح وثائق "ALALC" الرسمية دور الرساميل الخاصة فى نمو التكامل – وقد رأينا فى فصول سابقة فى أية أيدٍ تتركز هذه الرساميل الخاصة. لقد اجتمع المجلس الاستشارى المعنى بشئون النشاط الاستثمارى فى منتصف أبريل ١٩٦٩ فى أسونثيون. وبين أمور أخرى، أكد من جديد على "توجه الاقتصاد الأمريكى اللاتينى، الذى يتحقق التكامل الاقتصادى للمنطقة بالنسبة إليه عن طريق الاستناد بصورة أساسية إلى تطور المشروع الاستثمارى الخاص". وقد أوصى بأن تدخل الحكومات تشريعاً مشتركاً لتكوين "مشاريع استثمارية متعددة القوميات، تتألف بصورة غالبة (كذا) من رساميل ومستثمرين من الدول الأعضاء". لقد سلّمت كل المفاتيح إلى اللص. والحال أنه قبل ذلك بسنتين، فى أبريل ١٩٦٧، فى الاعلان الختامى لمؤتمر بونتا ديل ايستى –

الذى ختمه ليندون جونسون نفسه بخاتمه الذهبى - كان قد وصل الأمر إلى حد اقتراح إنشاء سوق مشتركة للأسهم، وهى نوع من التكامل بين أسواق الأوراق المالية، بحيث يمكن شراء المشاريع الاستثمارية المتواجدة فى أى مكان من أمريكا اللاتينية فى أى مكان من أمريكا اللاتينية. وقد ذهبت الوثائق الرسمية إلى حد التوصية على المكشوف بنزع تأميم المشاريع العامة. فقد قرر المؤتمر الأول لصناعة تعليب اللحوم ضمن إطار (ALALC)، والمنعقد فى مونتفيديو فى أبريل ١٩٦٩ "دعوة الحكومات ... إلى دراسة السبل المناسبة للتحويل التدريجى لمصانع تعليب اللحوم المملوكة للدولة إلى القطاع الخاص". وفى الوقت نفسه، اتبعت حكومة أوروجواى، التى رأس أحد أعضائها المؤتمر، سياسة تخريب سافرة لمصنع فريجوريفيكو ناشيونال لتعليب اللحوم والذى تملكه الدولة وذلك لحساب المصانع التى يملكها الأجانب ملكية خاصة.

والحال أن المقصود من وراء نزع سلاح التعريفة الجمركية، والذى يؤدى تدريجياً إلى إطلاق انتشار السلع داخل منطقة ALALC، هو إعادة تنظيم توزيع مراكز الإنتاج والأسواق الأمريكية اللاتينية لحساب الشركات الكبرى متعددة القوميات. إن "اقتصاد التصاعد" يسود الآن: لقد شهدت المرحلة الأولى، التى جرت خلال هذه الأعوام الأخيرة، توطيد السيطرة الأجنبية على منصات الإطلاق - المدن الصناعية - والتى سوف تجرى السيطرة منها على السوق الإقليمية ككل. وتعد المشاريع الاستثمارية المتواجدة فى البرازيل والأعظم اهتماماً بالتكامل الأمريكى اللاتينى مشاريع أجنبية على وجه التحديد؛ و، بالدرجة الأولى، المشاريع الأقوى[١١٣]. ومن بين الشركات المتعددة القوميات - المملوكة فى معظمها للولايات المتحدة - التى أجابت على استبيان أمريكى لاتينى عام أرسله بنك التنمية الأمريكى المشترك، كان أكثر من نصفها يعتزم أو يقترح أن تكون أنشطته فى النصف الثانى من الستينيات فى سوق ALALC الآخذة بالاتساع، وذلك عن طريق إنشاء أو تعزيز فروع اقليمية[١١٤]. وفى سبتمبر ١٩٦٩، أعلن هنرى فورد الثانى فى مؤتمر صحفى فى ريو دى جانيرو أنه يريد الانضمام إلى العملية الاقتصادية البرازيلية "لأن الموقف مناسب للغاية. وتتمثل مشاركتنا الأولية فى شراء شركة ويليز أوفرلاند دو برازيل". وقال إنه سوف يصدر سيارات برازيلية إلى بلدان أمريكية لاتينية عديدة. وقد استفادت شركة كاتيربيلار تراكتورز - وهى "شركة تتعامل دائماً مع العالم باعتباره سوقاً واحدة "حسب تعبير بزنس انترناشيونال - من تخفيضات التعريفة الجمركية بمجرد التفاوض عليها، وكانت تزود بالفعل فى عام ١٩٦٥ مختلف البلدان الأمريكية

الجنوبية بالبولدوزرات وقطع غيار الجرارات من مصنعها في ساو باولو. وبسرعة مساوية، بدأت شركة يونيون كارباید في إمطار البلدان الأمريكية اللاتينية بالمنتجات التكنيكية الكهربائية من مصنعها في المكسيك، مستفيدة من الاعفاءات الجمركية، والضريبية، والتأمينية في منطقة ALALC[١١٥].

إن البلدان الأمريكية اللاتينية - المحكوم عليها بالفقر والعزل والتجريد من الرساميل، والتي تواجه مشكلات بنيوية خطيرة داخل حدودها هي نفسها - تنزع تدريجياً حواجزها الاقتصادية، والمالية، والأميرية[*] لحساب الاحتكارات. والنتيجة هي أن الاحتكارات، التي مازال تخنق كل بلد على حدة، يمكنها التحرك بحرية أوسع وتوطيد تقسيم جديد للعمل على نطاق اقليمي من طريق اضفاء طابع التخصص على أنشطتها حسب البلدان ومجالات النشاط، وتحديد الأحجام المثلى لمشاريعها الاستثمارية الفرعية، وخفض التكاليف، والقضاء على المنافسين خارج المنطقة، وتحقيق الاستقرار للأسواق. ويمكن لفروع الشركات متعددة القوميات أن تطمح إلى الاستيلاء على السوق الأمريكية اللاتينية في مجالات معينة وفي ظل شروط معينة لاتمس السياسات العالمية لمكاتبها الرئيسية. وكما رأينا في فصل سابق، فإن التقسيم الدولي للعمل يواصل العمل مثلما كان دائما بالنسبة إلى أمريكا اللاتينية: فالتغيرات تقع داخل المنطقة فقط. وقد أعلن الرؤساء في بونتا ديل ايستي أن "المبادرة الخاصة الأجنبية سوف تتمكن من القيام بدور مهم في ضمان تحقيق أهداف التكامل"، وقد اتفقوا على ضرورة أن يزيد بنك التنمية الأمريكي المشترك "المبالغ المتاحة لقروض التصدير الائتمانية في التجارة فيما بين البلدان الأمريكية اللاتينية".

وقد قدرت مجلة "فورتشن" في عام ١٩٦٧ "الفرص الجديدة المغرية" التي تتيحها السوق المشتركة الأمريكية اللاتينية أمام الشركات الاستثمارية الأمريكية: "إن موضوع السوق المشتركة يتحول إلى عنصر جدي في تخطيط كثير من مجالس إدارات الشركات للمستقبل. فشركة فورد موتور دو برازيل، التي تنتج السيارات من طراز جالاكسي، تعتقد أن بوسعها التعاون على أحسن وجه مع شركة فورد الأرجنتين، التي تنتج السيارات من طراز فالكون، بما يمكنهما من استنبات اقتصاديات كبرى عن طريق إنتاج كل من السيارتين لأجل أسواق أكبر وأوسع. أما شركة كوداك، التي تصنع الآن ورق التصوير الحساس في البرازيل، فسوف تكون مستعدة لصنع الأفلام للتصدير في

(*) الخاصة بخزانة الدولة. - المترجم.

المكسيك ولصنع أجهزة التصوير وأجهزة عرض الأفلام فى الأرجنتين"[١١٦]. وقد أوردت المجلة أمثلة أخرى لـ "ترشيد" أو "توسيع" العمليات من جانب شركات مثل شركة التليفون والتلغراف الدولية، وشركات جنرال اليكتريك، ريمنجتون راند، أوتيس اليفيتور، ، ورثنجتون، فايرستون، دير، ويستنجهاوس، اير بريك وأميركان ماشين أند فاوندرى. وقد كتب رواول بريبيتش، وهو نصير متحمس، للاتحاد الامريكى للتجارة الحرة، قبل تسع سنوات: "تتمثل حجة أخرى أسمعها، من مكسيكو إلى بوينوس أيريس، مروراً بساو باولو وسانتياجو، فى أن السوق المشتركة سوف تتيح للصناعة الأجنبية فرصاً للتوسع لاتتمتع بها الآن فى أسواقنا المحدودة .... ويخشى من أن الفوائد التى تتيحها السوق المشتركة لن يستفيد بها من الناحية الرئيسية غير الصناعة الأجنبية، لا الصناعات القومية .... وقد تقاسمت ومازلت أتقاسم هذه الخشية، ليس على مستوى التصور وحده وإنما لأننى قد تحققت من واقع هذه الحقيقة فى الممارسة العملية"[١١٧]. لكن هذا التحقق لم يمنع بريبيتش من أن يوقع بعد ذلك وثيقة خاصة بالتكامل الجارى جاء فيها أن "مما لاشك فيه أن رأس المال الأجنبى له دور مهم فى تنمية اقتصادياتنا"[١١٨]، كما تقترح إنشاد شركات مختلطة "يمكن للمستثمر الأمريكى اللاتينى أن يشارك فيها بصورة فعالة ومتكافئة". بصورة متكافئة؟ أجل، فمن الطبيعى أنه يجب الحفاظ على "تكافؤ الفرص". لقد قال أناتول فرانس بشكل لائق أن القانون فى مساواته المهيبة يمنع الأغنياء والفقراء سواء بسواء من النوم تحت الجسور، والتسول فى الشوارع، وسرقة الخبز. إلاّ أنه يحدث أنه على هذا الكوكب و فى هذا العصر تستثمر شركة استثمارية واحدة، هى، شركة جنرال موتورز، قوة عمل عدد من العمال المنتشرين فى مختلف أرجاء العالم يساوى عدد كل سكان أوروجواى القادرين على العمل، وتكسب كل سنة من الأموال مايزيد أربع مرات عن كامل الناتج القومى الإجمالى لبوليفيا.

وتعرف الشركات، من تجربتها مع التكاملات السابقة، مزايا العمل "من الداخل" فى التطور الرأسمالى للمناطق الأخرى. ويتميز واقع أن اجمالى مبيعات فروع الشركات الأمريكية فى مختلف أرجاء العالم يزيد ست مرات عن قيمة الصادرات الأمريكية الشمالية بدلالة بليغة[١١٩]. وفى أمريكا اللاتينية كما فى أماكن أخرى، فإن القوانين الأمريكية غير المناسبة والخاصة بمكافحة التروستات لايسرى مفعولها. فهنا، وبحرية تامة، تصبح البلدان مجرد أسماء مستعارة للشركات الاحتكارية الاجنبية التى تهيمن عليها. وقد وقع أول اتفاق تنفيذى ضمن إطار ALALC فى أغسطس ١٩٦٢ من جانب

الأرجنتين، والبرازيل، و تشيلي، وأوروجواي، لكنه كان في واقع الأمر اتفاقاً بين شركة أي. بي. إم.، وشركة أي. بي. إم.، وشركة أي. بي. إم.، وشركة أي. بي. ام. لقد الغى رسوم الاستيراد في البلدان الأربعة على أجهزة الكومبيوتر ومكوناتها، بينما زاد الرسوم على هذه الأجهزة المستوردة من خارج المنطقة: إن شركة أي. بي. إم. قد "أبلغت الحكومات أنها لو ألغت الرسوم على التجارة فيما بينها، فسوف تبني مصانع في البرازيل والأرجنتين ..."[١٢٠] وقد أضافت المكسيك توقيعها على الاتفاق الثاني: في هذه المرة، كانت شركتا آر. سي. ايه. وفيليبس (هولندية) هما اللتان شجعتا على إعفاء معدات أجهزة الراديو والتليفزيون من الرسوم. وهلمجراً. أما الاتفاق التاسع، في أبريل ١٩٦٩، فقد قَسَّمَ السوق الأمريكية اللاتينية في مجال معدات توليد، وارسال، وتوزيع الكهرباء بين شركات يونيون كارباید، وجنرال اليكتريك، وسيمينز (المانية).

ومن ناحية أخرى، فإن السوق المشتركة لأمريكا الوسطى، وهي محاولة لتوحيد الاقتصاديات المتداعية والمشوهة لخمسة بلدان، قد ساعدت على القضاء بضربة واحدة على المنتجين القوميين الهزيلين للملابس، والصبغات والأدوية، ومستحضرات التجميل، والبسكويت، وعلى توسيع الأرباح والفلك التجاري لشركات جنرال تاير آند رابر، بروكتر آند جامبل، جريس، كولجيت - بالموليف، سترلنج بروديكتس، وناشيونال بسكويت[١٢١]. وقد سار الاعفاء من الرسوم الجمركية في أمريكا الوسطى يداً بيد أيضاً مع تعلية الحواجز ضد المنافسة "الأجنبية الخارجية" (كما يجوز أن تسمى) حتى تتمكن الشركات "الأجنبية الداخلية" من البيع بأسعار أعلى ومن تحقيق أرباح أكبر: "إن الاعانة المتحصلة من خلال الحماية الجمركية تتجاوز القيمة الاجمالية المضافة عن طريق عملية الإنتاج المحلية" كما يستنتج روجر هانسن[١٢٢].

والحال أنه لا أحد يملك حساً بالتناسب أفضل من هذه الشركات الاستثمارية الأجنبية: تناسباتها الخاصة وتناسبات الشركات الاستثمارية الأخرى. فمثلاً، ما أهمية إنشاء مصنع كبير للسيارات، أو أفران لصهر الصلب عن طريق استخدام التيار الهوائي، أو مصنع كيميائي مهم في أوروجواي، أو بوليفيا، أو اكوادور، بأسواقها الهزيلة؟ إن مواقع الانطلاق تُخْتَارُ في أماكن أخرى على أساس حجم الأسواق الداخلية وإمكانيات نموها: إن مصنع فونسا لإطارات السيارات في أوروجواي يعتمد على شركة فايرستون بدرجة مهمة لكن فروع شركة فايرستون في البرازيل والأرجنتين هي التي تتوسع بهدف التكامل. فنمو المصنع الموجود في أوروجواي يجري كبحه، باستخدام

نفس المعيار الذى يقرر أن شركة أوليفتى، وهى شركة ايطالية غزتها شركة جنرال اليكتريك، سوف تصنع آلاتها الكاتبة فى البرازيل وآلاتها الحاسبة فى الأرجنتين. ويقول روزنشتاين - رودان إن "التوزيع الفعال للموارد يتطلب تطوراً غير متكافئ للأجزاء المختلفة لبلد من البلدان أو لمنطقة من المناطق"، وسوف يكون لأمريكا لاتينية متكاملة جهاتها الشمالية الشرقية(*) وأقطاب نموها[١٢٣]. وقد قال مندوب أوروجواى عند تقييمه للسنوات الثمانى من عمر معاهدة مونتفيديو التى أدت إلى إنشاء ALALC، إن "الاختلافات فى درجات النمو" بين مختلف البلدان " تميل إلى الاحتداد" لأن مجرد زيادة التجارة فى تبادل للتنازلات المتبادلة ليس من شأنه غير تعزيز انعدام التكافؤ القائم سلفاً بين أقطاب مميزة ومناطق غارقة. وقد قدم سفير باراجواى شكوى مماثلة، فقد قال إن مما يتنافى مع العقل أن البلدان الضعيفة تدعم التنمية الصناعية لأكثر بلدان منطقة التجارة الحرة تقدماً، مستوعبة تكاليفها الداخلية الباهظة من خلال الاعفاءات الجمركية. وقد أضاف أن تدهور شروط التجارة قد أثر تأثيراً بالغ السوء على بلاده أكان ذلك ضمن ALALC أم خارجها: "فمقابل كل طن من المنتجات تستورده باراجواى من المنطقة، تدفع طنين". وقال المتحدث بلسان اكوادور إن الواقع يتمثل فى وجود "أحد عشر بلداً فى مراحل تطور مختلفة، بما يعنى قدرات أكبر أو أقل على الاستفادة من منطقة التجارة الحرة وبما يقود إلى استقطاب المغانم والخسائر". وقد استنتج سفير كولومبيا "استنتاجاً واحداً فقط: إن برنامج الاعفاء يفيد البلدان الثلاثة الكبيرة أكثر كثيراً جداً من فائدته للبلدان الأخرى"[١٢٤]. ومع استمرار التكامل، سوف تتخلى البلدان الصغيرة عن الدخول التى كانت تحصل عليها من الرسوم الجمركية - والتى تمول فى باراجواى قرابة نصف الميزانية القومية - فى مقابل الميزة المشكوك فيها والخاصة بالحصول، مثلاً، على سيارات من ساو باولو، أو بوينوس أيريس، أو المكسيك تصنعها نفس الشركات التى تبيعها من ديترويت، أو فولفسبورج، أو ميلانو بنصف السعر[١٢٥]. تلك هى الحقيقة الراسخة وراء النزاعات التى تثيرها عملية التكامل بشكل متزايد. ويعد الانبثاق الناجح لحلف الاندين، والذى يجمع أمم المحيط الهادئ، أحد نتائج الهيمنة الواضحة للبلدان الثلاثة الكبيرة فى إطار ALALC الأوسع: إن البلدان الصغيرة تقترح الاتحاد على حدة.

إلا أنه برغم كافة المشاكل، الشائكة كما قد تبدو، فإن الأسواق تتوسع مع

(*) شديدة التخلف. - المترجم.

اجتذاب التابعين لتابعين جدد إلى فلك قوتهم التابعة. وفى ظل ديكتاتورية كاستيلو برانكو، وقعت البرازيل اتفاقاً لضمان الاستثمارات الاجنبية يثقل كاهل الدولة بتبعات المخاطر والمعوقات التى تحف كل صفقة استثمارية. ومما له دلالته أن المسئول الذى رتب للاتفاق قد دافع عن الشروط المهينة التى يتضمنها أمام الكونجرس البرازيلى بقوله إن "البرازيل سوف تستثمر رساميل فى المستقبل القريب فى بوليفيا، أو باراجواى، أو تشيلى وسوف تكون ساعتها بحاجة إلى اتفاقات من هذا النوع"(١٢٦). والواقع أنه قد تطور فى الحكومات البرازيلية إثر انقلاب ١٩٦٤ إتجاه يرمى إلى قيام البرازيل بدور "امبريالى من الباطن" تجاه جيرانها. والحال أن زمرة عسكرية واسعة النفوذ تصور البلاد على أنها المدير الكبير للمصالح الأمريكية فى المنطقة، وتدعو البرازيل إلى أن تكون سيدة للجنوب بالشكل نفسه الذى تعتبر به الولايات المتحدة سيدة للبرازيل. وفى هذا الاتجاه، استحضر الجنرال جوابيرى دوكوتو إى سيلفا "مصيراً جلياً" (١٢٧). جديداً. فقد كتب ايديولوجى "الامبريالية من الباطن" هذا فى عام ١٩٥٢: "هذا هو ماسوف يحدث، خاصة وأن مصيرنا الجلى لايتعارض فى منطقة الكاريبى مع مصير أشقائنا الشماليين الكبار ....." والحال أن الجنرال يرأس الآن شركة داوكيميال فى البرازيل. ومن المؤكد أن بنية السيادة من الباطن والتى يسعون إلى خلقها لها سوابق تاريخية كثيرة، من إبادة باراجواى لحساب رجال البنوك البريطانيين بعد حرب ١٨٦٥ إلى ارسال جنود برازيليين، بعد قرن واحد بالضبط، لتزعم عملية التضامن عندما غزا مشاة البحرية الأمريكية سانتو دومينجو.

وقد شهدت السنوات الأخيرة أحياناً للمنافسة بين عملاء المصالح الامبريالية المتمركزين فى الحكومات البرازيلية والمتمركزين فى الحكومات الأرجنتينية فيما يتعلق بالمسألة المزعجة والخاصة بقيادة القارة. وتشير كل الدلائل إلى أن الأرجنتين ليست فى وضع يسمح لها بمقاومة التحدى البرازيلى القوى: فمساحة البرازيل ضعف مساحة الأرجنتين، وعدد سكان البرازيل يزيد أربع مرات عن عدد سكان الأرجنتين، وتنتج البرازيل من الصلب مايزيد نحو ثلاث مرات عما تنتجه الأرجنتين، وتنتج من الأسمنت ضعف ماتنتج الأرجنتين، وتنتج من الطاقة الكهربائية أكثر من ضعف ماتنتجه الأرجنتين، وتجدد أسطولها التجارى بمعدل يزيد خمس عشرة مرة عن معدل تجديد الأرجنتين لأسطولها التجارى. وعلاوة على ذلك، فإن معدل النمو الاقتصادى للبرازيل، فى العقدين الماضيين، كان أعظم بدرجة ملحوظة من معدل النمو الاقتصادى للأرجنتين.

وحتى وقت قريب، كانت الأرجنتين تنتج من السيارات والشاحنات أكثر مما تنتجه البرازيل، لكن صناعة السيارات البرازيلية بالمعدل الحالى سوف تكون أكبر ثلاث مرات من صناعة السيارات الأرجنتينية بحلول عام ١٩٧٥ أما أسطولها - الذى كان مساويا لأسطول الأرجنتين فى عام ١٩٦٦ - فسوف يكون حجمه مماثلاً لحجم اساطيل أمريكا اللاتينية كلها مجتمعة. وتقدم البرازيل للمستثمرين الأجانب سوقها المكنة المترامية الأطراف، وثرواتها الطبيعية الخرافية، والأهمية الاستراتيجية لموقعها - حيث توجد لها حدود مشتركة مع كل البلدان الأمريكية الجنوبية باستثناء اكوادور وتشيلى - وكل الشروط المناسبة للمشاريع الاستثمارية الأمريكية على أرضها للتقدم بأحذية تجتاز سبعة فراسخ فى خطوة واحدة. وهى تحوز قوة عمل أرخص وأوفر مما لدى منافستها: فالمستوى المتوسط للأجور أدنى ثلاث مرات مما فى الأرجنتين فى حين أن العاطلين ملايين. وليس من قبيل المصادفات أن ثلث المنتجات المصنعة وشبه المصنعة المبيعة داخل منطقة ALALC يأتى من البرازيل. إنها البلد المدعو إلى أن يصبح محور تحرر كل أمريكا اللاتينية أو استعبادها. ولعل السناتور فولبرايت لم يكن يدرك المغزى الكامل لكلماته عندما نسب إلى البرازيل، فى تصريحات علنية أدلى بها فى عام ١٩٦٥، مهمة توجيه السوق المشتركة لأمريكا اللاتينية.

■ «أبداً لن نكون سعداء، أبداً» - هذا ماتنبأ به سيمون بوليڤار

لكى تتمكن الامبريالية الأمريكية من "توحيد وحكم" أمريكا اللاتينية اليوم، كان من الضرورى أن تساعد الامبراطورية البريطانية على تفرقتنا وحكمنا أمس. لقد ظهر إلى الوجود أرخبيل من البلدان المنفصلة نتيجة لاحباط وحدتنا القومية. وعندما كسبت الشعوب استقلالها بالسلاح، وقفت أمريكا اللاتينية على مسرح التاريخ وقد جمعت بين مختلف أقاليمها عرى تراث مشترك، ووحدة الأرض، والتكلم بلغتين أصلهما واحد، الاسبانية والبرتغالية. لكنها كانت تفتقر إلى شرط جوهرى واحد لكى تشكل أمة عظيمة واحدة - الحياة الاقتصادية المشتركة.

إن أقطاب الازدهار التى ترعرعت لكى تلبى حاجة أوروبا إلى المعادن والمواد الغذائية لم تكن مترابطة فيما بينها: لقد كان مربط أجنحة المروحة عبر المحيط. وكان الناس ورأس المال يتحركون تبعاً للمصير الصاعد أو الهابط للذهب أو السكر، الفضة أو

النيلة، ولم يكن الوجود الدائم المستقر من نصيب أحد غير الموانئ والعواصم، الطفيليات النامية على حساب المناطق المنتجة. لقد ولدت أمريكا اللاتينية كأرض واحدة فى خيالات وآمال سيمون بوليفار، وخوسيه أرتيجاس، وخوسيه دى سان مارتين، لكنها تمزقت سلفاً من جراء التشوهات الأساسية للنظام الاستعمارى. والحال أن أوليجاركيات موانئ التجارة الحرة قد وطدت بنية التجزئة هذه، والتى كانت مصدر ربح لها: فلم يكن بوسع هؤلاء التجار العقلاء حفز الوحدة القومية التى كانت جوهر البورجوازيات الأوروبية والأمريكية. وطوال القرن الماضى، حرص البريطانيون، ورثة اسبانيا والبرتغال منذ ما قبل الاستقلال، على بلورة هذه البنية عن طريق دسائس الديبلوماسيين الماكرة، وابتزازات رجال البنوك، واستعداد التجار للغواية. لقد أعلن بوليفار: "إن الوطن بالنسبة إلينا هو أمريكا" (اللاتينية. – المترجم)؛ لكن جران كولومبيا قد قسمت إلى خمسة بلدان ومات المحرر مهزوماً. وقد قال للجنرال أوردانيتا: "أبداً لن نكون سعداء، أبداً!". أمّا سان مارتين، الذى خانته بوينوس آيريس، فقد نزع شارة القيادة من على منكبيه فى حين أن آرتيجاس، الذى كان يسمى جنوده امريكيين (لاتينيين . – المترجم)، قد ذهب ليموت موت منفى انفرادى فى باراجواى: لقد قسمت ولاية ريو دى لابلاتا إلى أربع ولايات .أمّا فرانثيسكو دى موراثان، مؤسس جمهورية أمريكا الوسطى الاتحادية، فقد أعدم رمياً بالرصاص[١٢٨]، ومزقت خاصرة أمريكا إلى خمس قطع – وأضيفت إليها فيما بعد بنما، القناة التى تحمل رتبة جمهورية والتى ابتدعها تيدى روزفيلت.

واليوم يرى العالم النتيجة: إن أية شركة من الشركات المتعددة القوميات تعمل بتماسك وحس بالوحدة أكبر مما لدى كومة الجزر التى تتألف منها أمريكا اللاتينية، الممزقة بكل هذه الحدود وبكل هذا الانعدام للاتصال. فما هو التكامل الذى يمكن أن تحققه فيما بينها بلدان عاجزة عن مجرد التكامل داخلياً، على صعيد كل منها؟ إن كل بلد يكابد إنشطارات فى جسده هو، وانقسامات اجتماعية مريرة وتوترات غير محلولة بين صحاريه الهامشية الكبرى وواحاته المدينية. وتتكرر المأساة على الصعيد الاقليمى. فالسكك الحديدية والطرق الرئيسية، التى أنشئت لنقل المنتجات الأجنبية بأقصر الطرق، ماتزال تشهد بشكل دامغ على عجز أو عدم قدرة أمريكا اللاتينية على تحقيق الحلم القومى الذى راود أبطالها. إن البرازيل لاتملك طرقاً برية دائمة للارتباط بثلاث من جاراتها، كولومبيا، وبيرو، وفنزويلا، والمدن المطلة على شاطئ المحيط الأطلسى لاتملك اتصالات برقية مباشرة مع المدن المطلة على شاطئ المحيط الهادى، بحيث أن البرقيات

المتبادلة بين بوينوس آيريس وليما، أو ريو دى جانييرو وبوجوتا، يجب أن تمر عبر نيويورك؛ والشئ نفسه فيما يتعلق بالاتصالات الهاتفية بين منطقة الكاريبى والجنوب. ومازال كل بلد أمريكى لاتينى متوحداً بميناته - مما يعد نفياً لجنوره وهويته الحقيقية - إلى درجة أن كافة المنتجات تقريباً يجرى تبادلها عن طريق البحر: فالنقل البرى غير موجود من الناحية العملية. وعلاوة على ذلك، يحدد كارتيل الشحن العالمى رسوماً وخطوط رحلات تناسب مصالحه، ولاتفعل أمريكا اللاتينية غير مكابدة الرسوم الباهظة وخطوط الرحلات المثيرة للعجب العجاب. فمن بين خطوط الملاحة المنتظمة الـ ١١٨ العاملة فى المنطقة لايرفع أعلاماً لبلدان من المنطقة غير سبعة عشر؛ وتستنزف رسوم الشحن من الاقتصاد الأمريكى اللاتينى ٢,٦ بليون دولار سنوياً[١٢٩]. وهكذا فإن السلع المشحونة من بورتو اليجرى إلى مونتفيديو تصل أسرع إذا ماذهبت عن طريق هامبورج، والشئ نفسه بالنسبة إلى صوف أوروجواى المتجه إلى الولايات المتحدة؛ وتقل رسوم الشحن من بوينوس آيريس إلى ميناء فى خليج المكسيك عن نسبة ٢٥ فى المائة إذا ماذهبت الشحنة عن طريق ساوثهامبتون[١٣٠]. ويكلف شحن ألواح الخشب من المكسيك إلى فنزويلا أكثر من ضعف تكاليف شحن الواح الخشب من فنلندا إلى فنزويلا، مع أن الخرائط مازال تصر على أن المكسيك أقرب. وتكلف شحنة مباشرة من المنتجات الكيميائية من بوينوس آيريس إلى تامبيكو فى المكسيك أكثر بكثير مما لوذهبت عن طريق نيواورليانز[١٣١].

إن ماشرعت الولايات المتحدة فى تحقيقه لنفسها، وحققته بالفعل، شئ مختلف بالتأكيد. فبعد سبع سنوات من استقلالها، كانت المستعمرات الثلاث عشرة قد ضاعفت أراضيها، الممتدة بالفعل وراء الأليجين إلى ضفاف الميسيسبى، وبعد ذلك بأربع سنوات صاغت وحدتها بخلق سوق مشتركة. ثم أدى شراء أرض ليوزيانا من فرنسا فى عام ١٨٠٣ إلى مضاعفة مساحة الأرض؛ وبعد ذلك جاءت فلوريدا و، فى منتصف القرن، غزو وبتر نصف المكسيك باسم "المصير الجلى". ثم شراء آلاسكا واغتصاب هاواى، وبويرتو ريكو، والفلبين. لقد جعلت المستعمرات من نفسها أمة، وجعلت الأمة من نفسها امبراطورية، بتحقيقها لأهداف جرى الاعراب عنها والسعى إليها بشكل واضح منذ أيام "الآباء المؤسسين" البعيدة. وبينما نما شمال أمريكا، من خلال التطور داخلياً ضمن حدوده الآخذة فى الاتساع، فإن الجنوب قد تطور نحو الخارج وأنفجر إلى شظايا كقنبلة.

والحال أننا فى عملية التكامل الراهنة لانتعرف من جديد على أصولنا كما لانصبح أكثر قرباً من أهدافنا. وقد تنبأ بوليڤار نبوءة ثاقبة بأنه يبدو أن العناية الالهية قد كلفت الولايات المتحدة بابتلاء أمريكا اللاتينية بالكوارث باسم الحرية. إن شركة جنرال موتورز أو شركة آى. بى. إم. لن تتكرم علينا بلعب دورنا ورفع رايات الوحدة والتحرر القديمة التى سقطت فى ساحات القتال، كما أن الأبطال الذين غُدِرَ بهم أمس لايمكن لخونة اليوم تبرير تضحياتهم. فالمسألة مسألة حمل ثقيل من العفونة يجب طمره فى قعر البحر على طريق إعادة بناء أمريكا اللاتينية. والمهمة منوطة بالمحرومين، المهانين، الملعونين. فالقضية الأمريكية اللاتينية قضية اجتماعية بالدرجة الأولى: إن الميلاد الجديد لأمريكا اللاتينية يجب أن يبدأ بالاطاحة بسادتها، بلداً بلداً. إننا نلج أزمنة التمرد والتغيير. وهناك من يعتقدون أن المصير يتكئ على رُكَبِ الآلهة؛ لكن الحقيقة هى أنه يواجه ضمير الإنسان بوصفه تحدياً متقداً.

مونتڤيديو، أواخر عام ١٩٧٠



الهوامش

(١) قبل أربعين سنة، كانت الاستثمارات الأمريكية فى الصناعات التحويلية لا تشكل غير نسبة ٦ فى المائة إجمالى الرساميل الأمريكية المستثمرة فى أمريكا اللاتينية. وفى عام ١٩٦٠، تجاوزت نسبة ٢٠ فى المائة، وواصلت التزايد لتصبح ثلث الإجمالى.

(2) Secretaría General de la Organización de Estados Americanos, ***El financiamiento externo para el desarrollo de la América Latina***, Washington, 1969. Documento de distribución limitada; sextas reuniones anuales del CIES.

(3) Datos del Departmento de Comercio de los Estados Unidos y del Comité Interamericano de la Alianza para el progreso. Secretaría General de la OEA, ***Op. Cit.***

(4) Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, ***El capital monopolista***, México, 1971.

(5) J. J. Servan-Schreiber, ***El desafío americano***, Santiago de Chile, 1968.

(6) Citado por Alfredo Parera Dennis, ***Naturaleza de las relaciones entre las clases dominantes argentinas y las metrópolis, en Fichas de investigación económica y social***, Buenos Aires, diciember de 1964.

(7) Ministério do Planejamento e Coordenacão Geral, ***A industrializacão brasileira: diagnóstico e perspectivas***, Río de Janeiro, 1969.

(8) Dardo Cúneo, ***Comportamiento y crisis de la clase empresaria***, Buenos Aires, 1967.

(٩) قامت شيلى وكولومبيا وأورجواى أيضاً ببعض محاولات التصنيع كبديل للاستيراد فى الفترات المشار اليها هنا. وكان رئيس أورجواى خوسيه باتييه إى أوردونييث (١٩٠٣ – ١٩٠٧ و ١٩١١ – ١٩١٥) نبياً للثورة البورجوازية فى أمريكا اللاتينية قبل ذلك. وقد سبقت أوروجواى الولايات المتحدة فى تطبيق يوم عمل من ثمانى ساعات بموجب قانون. ولم تكن تجربة دولة الرعاية الإجتماعية التى قام بها باتييه قاصرة على تنفيذ أكثر القوانين الإجتماعية تقدماً فى ذلك الزمن: فقد قدمت أيضاً تشجيعاً قوياً للتطور الثقافى ولتربية الجماهير، وأممت الخدمات العامة ومختلف الأنشطة الإنتاجية

المهمة من الناحية الإقتصادية. إلاّ أنها لم تمس قوة كبار ملاك الأراضى، كما لم تؤمم البنوك أو التجارة الخارجية، وتعانى أورجواى اليوم من تقصيرات النبى التى ربما كانت حتمية كما تعانى من خيانات خلفائه.

(١٠) «إن تحويل متنوج معين إلى الإنتاج الداخلى ليس من شأنه غير «تعويض» جزء من إجمالى القيمة المستخلصة سلفاً من خارج الاقتصاد ... وكلما توسع استهلاك هذا المنتوج «المعوض» بسرعة، كلما أمكن للطلب الناشئ عن ذلك على الوارادات أن يتجاوز بسرعة اقتصاد العملة الأجنبية» (ماريا دى كونسيساو تافاريس).

(11) Ismael Viñas y Eugenio Gastiazoro, ***Economía y dependencia (1900 - 1968)*** Buenos Aires, 1968.

(١٢) فى ٢٧ نوفمبر ١٩٥٣، أجاب وزير الشئون الاقتصادية على سؤال مندوب لمجلة «فيزيون» على النحو التالى :

- باستثناء صناعة النفط، ما هى الصناعات الأخرى التى تريد الأرجنتين تنميتها بالتعاون مع رأس المال الأجنبى؟

«لكى نكون محددين، لنذكر حسب الأولوية النفط ... ثانياً، صناعة الصلب ... الصناعات الكيميائية الثقيلة ... صناعة وحدات النقل ... صناعة إطارات السيارات وعجلات السيارات ... وبناء محركات الديزل».

(13) Octavio Ianni, ***O colapso do populismo no Brasil***, Río de Janeiro, 1968.

(14) Luciano Martins, ***Industrializacão, burguesia nacional e desenvolvimento***, Río de Janeiro, 1968.

(15) Fernando Henrique Cardoso, ***Ideologías de la burguesia industrial en sociedades dependientes*** (Argentina y Brasil), México, 1970.

(16) Fran cois Bourricaud, Jorge Bravo Bresani, Henri Favre, Jean Piel, ***La oligarquía en el Perú***, Lima, 1969. El dato proviene del trabajo de Favre.

(17) Ricardo Lagos Escobar, ***La concentración del poder económico.***

Su teoría. Realidad chilena (Santiago de Chile, 1961) y Vivian Trías, Reforma agraria en el Uruguay (Montevideo, 1962).

(١٨) كما يقول الونسو آجيلار : «إن الرأسماليين المكسيكيين يزدادون براعة وطموحاً. وإذ يتخذون من حرية الاستثمار نقطة إنطلاق لهم للحصول على الثروة، فإنهم – أو أبرزهم على الأقل – يتمتعون بشبكة من القنوات التى يضاعفون من خلالها مصالحهم عن طريق الصداقات، والمشاركات الإستثمارية، والمصاهرة، وتقديم الخدمات المتبادلة، والإنتماء إلى أندية أو تجمعات معينة، واللقاءات الإجتماعية المتكررة، و بالطبع، التقارب فى مواقفهم السياسية».

(١٩) هو كارلوس بييجرينى. وقد كرمه نادى الجوكى بنشر خطبه؛ لكن الخطب التى يؤيد فيها آراء الصناعيين قد حذفت.

(20) Discurso del ministro Hélio Beltrrão, en el almuerzo de la Asociación Comercial de Río de Janeiro, *Correio do Povo*, 24 de mayo de 1969.

(21) CEPAL-BNDE, *Quince años de politica económica en el Brasil*, Santiago de Chile, 1965.

(٢٢) يقدر يوجينيو جودين، وهو اقتصادى يحبذ الاستثمارات الأجنبية كثيراً، أن البرازيل قد منحت الشركات الأمريكية والأوروبية، تحت هذا البند وحده، ما لا يقل عن بليون دولار. ووفقاً لمواسير بايكساو، فإن المزايا المقدمة الى صناعة السيارات فى فترة إنبثاقها كانت تعادل الميزانية القومية من حيث حجمها المالى . ويلاحظ پاولو شيلينج أنه بينما كانت الدولة البرازيلية شخصية فى المزايا التى قدمتها إلى الشركات الدولية، حيث سمحت لها بتحقيق أقصى الأرباح مقابل أدنى الإستثمارات، فإنها قد رفضت مساعدة المصنع القومى للسيارات، الذى أنشئ فى عهد قارجاس. وفيما بعد، فى ظل نظام كاستيلو برانكو، بيع هذا المشروع الذى تملكه الدولة لشركة ألفا روميو.

(23) Maurício Vinhas de Oueiroz, *Os grupos multibilionarios, en Revista do Instituto de Ciências Sociais*, Universidade Federal de Río de Janeiro, enero-diciembre de 1965.

(٢٤) وجدت اللجنة أن رأس المال الأجنبى قد سيطر فى عام ١٩٦٨ على نسبة ٤٠ فى المائة من سوق الرساميل فى البرازيل، وعلى نسبة ٦٢ فى المائة من التجارة الخارجية، وعلى نسبة ٨٢ فى المائة

من النقل عبر المحيط، وعلى نسبة ٦٧ فى المائة من النقل الجوى الخارجى، وعلى نسبة ١٠٠ فى المائة من إنتاج السيارات، وعلى نسبة ١٠٠ فى المائة من إنتاج إطارات السيارات، وعلى نسبة تزيد عن ٨٠ فى المائة من الصناعات الدوائية، وعلى نسبة تصل إلى نحو ٥٠ فى المائة من الصناعة الكيماوية، وعلى نسبة ٥٩ فى المائة من إنتاج الآلات ونسبة ٦٢ فى المائة من أنتاج قطع غيار السيارات، وعلى نسبة ٤٨ فى المائة من أنتاج الألومينيوم ونسبة ٩٠ فى المائة من انتاج الأسمنت. وكان نصف الرساميل الأجنبية يخص الشركات الأمريكية تليها الشركات الألمانية، وتجدر الإشارة، بالمناسبة، إلى الثقل المتزايد لإستثمارات جمهورية ألمانيا الاتحادية فى أمريكا اللاتينية، فمن كل سيارتين تصنعان فى البرازيل، تأتى واحدة من مصنع فولكسفاجن، أكبر مصنع فى المنطقة كلها. وكان أول مصنع للسيارات فى أمريكا الجنوبية ألمانياً – مرسيدس بنز الأرجنتين، الذى تأسس فى عام ١٩٥١. وتسيطر الشركات الألمانية، باير، هوكست، بى. ايه. اس. إف.، وشيرينج على جانب مهم من الصناعات الكيميائية فى أمريكا اللاتينية.

(25) Suplemento especial del *New York Times*, 19 de enero de 1969.

(26) Sergio Nicolau, ***La inversión extranjera directa en los países de la ALALC***, México, 1968.

(27) Rogelio García Lupo, ***Contra la ocupación extranjera***, Buenos Aires, 1968.

(28) Citado por Naciones Unidas, CEPAL, ***Estudio económico de América Latina, 1968***, Nueva York-Santigo de Chile, 1969.

(29) Reportaje de la revista ***Visión***, 3 de febrero de 1967.

(30) José Luis Ceceña, ***Los monopolios en México***, México, 1962.

(31) José Luis Ceceñs, ***México en la órbita imperial***, Míxico, 1970, y Alonso Aguilar y Fernando Carmoa, México, riqueza y miseria, México, 1968.

(٣٢) ظهرت هذه الشهادة فى تقرير للجنة برلمانية معنية بالتحقيق فى المعاملات بين المشاريع القومية والأجنبية، مؤرخ فى ٦ سبتمبر ١٩٦٨. وقد نشر كامبوس بعد ذلك بوقت قصير تفسيراً غريباً

للموقف القومى لحكومة بيرو. فوفقاً له، لم تكن مصادرة حكومة بيلاسكو الباراندو لممتلكات شركة ستاندارد أويل أكثر من «استعراض فارغ للرجولة». وقد كتب يقول إن الهدف الوحيد للروح القومية هو إشباع حاجة الأنسان البدائية الى الكراهية. على أنه أضاف أن «الكرامة لا تحفز الاستثمارات كما أنه ليس من شأنها أن تعمل على زيادة الرساميل ...» (صحيفة أو جلوبو اليومية، ٢٥ فبراير ١٩٦٩).

(33) Samuel Lichtensztejn y Alberto Couriel, ***El FMI y la crisis económica nacional***, Montevideo, 1967; y Vivian Trías, ***La crisis del Imperio***, Montevideo, 1970.

(34) Fernando Gasparian, en ***Correio da Manhã***, 1. de mayo de 1968.

(35) Secretaría General de OEA, ***Op. Cit.***

(36) International Banking Survey, ***Journal of Commerce***, Nueva York, 25 de febrero de 1968.

(37) Robert A. Bennett y Karen Almonti, ***International Activities of United States Banks, en The American Banker***, Nueva York, 1969.

(٣٨) أكد كامبوس، خلال حديثة فى ٢٢ ديسمبر ١٩٦٦ فى جامعة ما كينزى فى ساو باولو : «ما دامت الاقتصاديات التى ما تزال فى عملية التنظيم تفتقر إلى الموارد اللازمة لكى تتحول إلى اقتصاديات دينامية – لأنها، ببساطة، لو كانت تمتلكها لما كانت متخلفة – فمن الطبيعى قبول المساعدة من جانب كل من يود أن يغامر معنا فى المغامرة الرائعة، مغامرة التقدم، لكى يحصل منها على جانب من الثمار».

(٣٩) وفقاً لجهاز وزارة التجارة بالولايات المتحدة، فإن «تدفق الفوائد والأرباح والأنصبة و العوائد والمدفوعات مقابل المساعدة التقنية والخارج من البرازيل قد شهد زيادة ملحوظة منذ عام ١٩٦٥ عندما أصبح القانون المعدل لقانون الاستثمار الأجنبى لعام ١٩٦٢ سارى المفعول».

(٤٠) كان الرئيس كيندى قد إعترف بأنه، فى عام ١٩٦٠، «أخذنا من العالم النامى، الذى يحتاج الى الرساميل، ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار وأرسلنا رساميل للاستثمار يبلغ حجمها ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار». (كلمة أمام مؤتمر الـ AFL - CIO ، فى ميامى، ٨ ديسمبر ١٩٦١).

(٤١) بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٦، مثلاً، كلفت «الأخطاء والتقصيرات» الغامضة أكثر من بليون دولار فى فنزويلا و ٧٤٣ مليون دولار فى الأرجنتين و ٧١٤ مليون دولار فى البرازيل و ٣١٠ مليون دولار فى أوروجواى.

(42) ***Fichas de investigaación económica y social***, Buenos Aires, junio de 1965.

(43) V. A. Cheprakov, ***El capitalismo monopolista de Estado***, Moscú, s. f.; Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, ***Op. Cit.***, y Vivan Trías, ***Op. Cit.***

(44) ***O Estado de São Paulo***, 24 de enero de 1963.

(45) ***International Commerce***, 4 febrero de 1963.

(46) ***Wall Street Journal***, 31 de enero de 1968.

(47) ***International Commerce***, 17 de julio de 1967.

(48) Secretaría General de la OEA, ***Op. Cit.***

(٤٩) مثال ذلك، فى أوروجواى، نصُّ العقد الموقع فى ٢١ مايو ١٩٦٣ بين بنك التنمية الأمريكى المشترك ومحافظة مونتفيديو و الخاص بمد مواسير المياه الرئيسية.

(٥٠) مثال ذلك، فى بوليفيا، نصُّ العقد الموقع فى أول أبريل ١٩٦٦ بين بنك التنمية الأمريكى المشترك وجامعة سان سيمون، كوتشابامبا، لتحسين تعليم العلوم الزراعية.

(51) Documento publicado por el diario Ya, Montevideo, 28 de mayo de 1970.

(52) ***Panorama***, Centro de Estudios y Documentación Sociales, México, noviember-diciember de 1965.

(٥٣) كما تلقت ديكتاتورية دوفالييه وعداً، إعترافاً بالجميل، بإنشاء طريق رئيسى إلى المطار. ويتفق كتاب عديدون على أن ذلك كان حالة من حالات الرشوة . لكن الولايات المتحدة لم تف بوعدها لهاييتى، وقد شعر «بابا دوك» دوفالييه، حارس الموت فى ميثولوچيا الفودو [عقائد زنوج هاييتى القائمة على السحر- المترجم]، بأنه قد تعرض للخديعة. ويقال إن الساحر العجوز قد دعا الشيطان

أن ينتقم له من الرئيس كيندى، وإنه قد إبتسم إبتسامة راضية عندما قتلت الرصاصات الرئيس فى دالاس.

(54) Reportaje por Georgie Anne Geyer, ***The Miami Herald***, 24 de diciembre de 1966.

(55) Declaración ante la subcomisión de la Cámara de Representantes. Citado por Nelson Werneck Sodré, ***História militar do Brasil***, Río de Janeiro, 1965.

(56) Frederick B. Pike, ***The Modern History of Peru***, Nueva York, 1968.

(57) Amado Canelas, ***Radiografia de la Alianza para el Atraso***, La Paz, 1963; Mariano Baptista Gumucio y otros, ***Guerrilleros y generales sobre Bolivia***, Buenos Aires, 1968; y John Gunther, ***Inside South America***, Nueva York, 1967.

(٥٨) بعد ذلك بوقت قصير، قررت بيجى، إبنة رو كفيللير، الذهاب والعيش فى فافيلا من فافيلات ريو دى جانيرو إسمها چاكاريزينهو. والحال أن والدها، وهو أحد أغنى الناس فى العالم، قد ذهب إلى البرازيل لمتابعة أحوال إستثماراته التى يصل حجمها إلى ملايين عديدة من الدولارات وزار شخصياً منزل الأسرة المتواضعة الذى اختارته بيجى للإقامة فيه مع ساكنيه؛ وقد جُرِّب تناول عشاء متواضع واكتشف منزعجاً أن المنزل ملئ بالشقوق وأن الفئران تدخل من عقب الباب. وعند مغادرته المنزل، ترك شيكاً بمبلغ هائل على المائدة. وقد أقامت بيجى هناك بضعة أشهر، حيث تعاونت مع فيلق السلام. ولم تتوقف الشيكات عن الوصول، وكان مبلغ كل واحد منها يساوى المبلغ الذى يمكن لرب البيت كسبه من خلال عمل متواصل على مدار عشر سنوات. وعندما رحلت بيجى فى نهاية الأمر، كان قد حدث تحول لمنزل وأسرة جاكاريزينهو. إن الفافيلا لم تعرف قط ثروة كهذه. لقد هبطت بيجى عليها من السماء مباشرة. وكان الأمر أشبه ما يكون بالفوز بكل أوراق اليانصيب مرة واحدة. وعندئذ صار رب البيت بمثابة مصدر بركة للنظام. لقد انفلت عقال النشرات التليفيزيونية والإذاعية ومقالات الصحف والمجلات : فالرجل نموذج يجب على جميع البرازيليين الإقتداء به. لقد خرج من الفقر بفضل إصراره الذى لايلين على العمل وقدرته على الإدخار

انظروا، انظروا، إنه لا ينفق ما يكسبه على العربدة، وهو لديه الآن جهاز تليفزيون وثلاجة كهربائية وأثاث جديد وأحذية لأطفاله ! على أن الدعاية قد أغفلت الإشارة إلى جزئية واحدة : زيارة بيجى، الأم الروحية الحنون . والحال أن البرازيل تضم تسعين مليون إنسان ولم تحدث المعجزة إلاّ لواحد فقط منهم.

(٥٩) ليس من قبيل المصادفات أن هذا النص القانونى يشير بشكل محدد إلى التدابير المتخذة ضد المصالح الأمريكية «فى أول يناير ١٩٦٢ أو تاريخ لاحق». ففى ١٦ فبراير ١٩٦٢، أمم المحافظ ليونيل بريزولا شركة التليفونات، إحدى فروع شركة التليفون والتلغراف فى ولاية ريو جراندى دو سول البرازيلية، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين واشنطون وبرازيليا . ولم تقبل الشركة التعويض الذى اقترحته الحكومة.

(60) ***International Commerce***, abril 10 de 1967.

(61) Citado por ***NACLA Newsletter***, mayo-junio de 1970.

(62) ADELA Annual Report, 1968. Citado por NACLA,***Op. Cit.***

(63) Banco Interamericano de Desarrollo, ***Décimo informe anual, 1969***, Washington, 1970.

(64) Harry Magdoff, ***La era del imperialismo, Monthly Review***, selecciones en castellano, enero-febrero de 1969.

(65) The World Bank, IFC and IDA, ***Policies and Operations***, Washington, 1962.

(66) The World Bank, IFC and IDA, ***Op. Cit.***

(٦٧) يرى بلاك أن "المساعدة الخارجية تحفز تطور أسواق خارجية جديدة للشركات الأمريكية، وتوجه الاقتصاديات القومية نحو نظام للإستثمار الحر يمكن للمؤسسات الخاصة الأمريكية أن تزدهر فيه" (كولومبيا جيرنال أوف وورلد بيزنس، المجلد الأول، ١٩٦٥).

(68) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***, y ***Estudio económico de América Latina,*** 1969, Nueva York-Santiago de Chile, 1970.

(69) Según previsiones del Instituto Latinoamericano del Planificación

Económica y Social, ***La brecha comercial y la integración latinoamericano***, México - Santiago de Chile, 1967.

(70) Pierre Jalée, ***Le pillage du Tiers Monde***, París, 1966.

(٧١) في سنوات ١٩٦٦ - ١٩٦٨ الثلاث، عاد الربح على كولومبيا بنسبة ٦٤ في المائة من إجمالي دخل صادراتها، وعلى البرازيل بنسبة ٤٣ في المائة، وعلى السلفادور بنسبة ٤٨ في المائة، وعلى جواتيمالا بنسبة ٤٢ في المائة، وعلى كوستاريكا بنسبة ٣٦ في المائة. وعاد الموز على اكوادور بنسبة ٦١ في المائة من عملاتها الأجنبية، وعلى بنما بنسبة ٥٤ في المائة، وعلى هندوراس بنسبة ٤٧ في المائة. واعتمدت نيكاراجوا بنسبة ٤٢ في المائة على القطن، وجمهورية الدومينيكان بنسبة ٥٦ في المائة على السكر. وحققت اللحوم، والجلود والصوف لأوروجواي نسبة ٨٣ في المائة من عملاتها الأجنبية وللأرجنتين نسبة ٣٨ في المائة. وكان النحاس مسئولاً عن نسبة ٧٤ في المائة من دخل تشيلي التجاري وعن نسبة ٢٦ في المائة من دخل بيرو التجاري؛ ومثل القصدير بالنسبة لبوليفيا نسبة ٥٤ في المائة من قيمة صادراتها، وجاءت نسبة ٩٣ في المائة من عملات فنزويلا الأجنبية من البترول.

أما فيما يتعلق بالمكسيك، فإنها "تعتمد بنسبة تزيد عن ٣٠ في المائة على ثلاثة منتجات، وبنسبة تزيد عن ٤٠ في المائة على خمسة منتجات، وبنسبة تزيد عن ٥٠ في المائة على عشرة منتجات، معظمها غير مصنعة وتصريفها الرئيسي في السوق الأمريكية الشمالية" (بابلو جونثالث كازانوفا، **الديمقراطية في المكسيك**، مكسيكو، ١٩٦٥).

(72) Marco D. Pollner en el volumen colectivo de INTAL - BID, ***Los empresarios y la integración de América Latina***, Buenos Aires, 1967.

(73) Central única de Trabajadores de Chile, ***América Latina, un Mundo que ganar***, Santiago de Chile, 1968.

(74) Instituto Latinoamericano de Planificación Económica y Social, ***Op. Cit.***

(75) A. Emmanul, ***El cambio desigual***, México (próxima aparición).

(76) Citado por André Gunder Frank, ***Toward a Theory of Capitalist Underdevelopment***, introducción a la antología ***Underdevelopment***. Inédito.

(77) L. Delwart (*The Future of Latin American Exports to the United States : 1965 and 1970*, Nueva York, 1970).

(78) Harry Magdoff, *Op. Cit.*

(79) *Revista Fator*, Río de Janeiro, noviembre - diciembre de 1968.

(80) Carlos Quijano, *Las victimas del sistema, en Marcha*, Montevideo, 23 octubre de 1970.

(81) *New York Times*, 3 de abril de 1968.

(٨٢) أظهر مسح شامل للشركات الفرعية الأمريكية فى المكسيك، أجرى لحساب الناشيونال شامبر فاونديشن فى عام ١٩٦٩، أن نصف الشركات التى أجابت على أسئلة الإستبيان ممنوع من بيع منتجاته فى الخارج بناءً على أوامر من مكاتبه الرئيسية الأمريكية. فالشركات الفرعية لم تتشكل لهذا الغرض.

ولم تتجاوز العلاقة بين صادرات المنتجات الصناعية والناتج الصناعى الإجمالى نسبة ٢ فى المائة فى عام ١٩٦٣ فى الأرجنتين، والبرازيل، وبيرو، وكولومبيا، واكوادور؛ وكانت ٣,٧ فى المائة فى المكسيك و ٣,٢ فى المائة فى تشيلى.

(83) Naciones Unidas, CEPAL, *Op. Cit.*

(84) *Jornal do Comercio*, Río de Janeíro, 23 de marzo de 1950.

(85) Celso Furtado, *Um projeto para o Brasil*, Río de Janeiro, 1968.

(86) *International Commerce*, 24 de abril de 1967.

(87) Ismael Viñas y Eugenio Gastiazoro, *Op. Cit.*

(88) Antonio García, *Las Constelaciones del poder y el desarrollo latinoamericano, en Comercio exterior*, México, noviembre de 1969.

(٨٩) من المؤكد أن هذه الآلية ليست جديدة. لقد حقق المصنع الأنجليزى لتعليب اللحوم على الدوام خسائر (فانتورية. - المترجم) فى أوروجواى لكى يحصل على إعانات من الدولة ويزيد أرباح محال الجزارة التابعة له فى لندن - التى يصل عددها إلى ستة آلاف محل - حيث يباع كيلو اللحم المصدر من أوروجواى بسعر يزيد أربع مرات عن السعر الذى تصدره أوروجواى به.

(90) Declaraciones del presidente Salvador Allende, según cable de AFP del 12 de diciembre de 1970.

(91) Dato publicado en diario ***La Razón***, Buenos Aires, 2 de marzo de 1970.

(92) ***Resultados da indústria automobilística***, estudio especial de Conjentura económica, febrero de 1969.

(93) ***NACLA - Newsletter***, abril - mayo de 1969.

(94) Miguel S. Wionczek, ***La trasmisión de la tecnologla a los paises en desarrollo : proyecto de un estudio sobre México***, en Comercio exterior, México, mayo de 1968.

(95) Víctor L. Urquidi en ***Obstacles in Latiin America,*** de Claudio Véliz y otros, Londres, 1967.

(٩٦) فى معرض تصويره لطبيعة الوهم التنموى، يستشهد سادوسكى بشهادة أحد أخصائى منظمة الدول الأمريكية: "يقول جورج لانداو" إن البلدان النامية تتمتع بمزايا معينة بالمقارنة مع البلدان المتقدمة لأنها حين تستخدم عملية أو تقنية جديدة معينة فإنها تختار عادةً أكثر أنماطها تقدماً، وهكذا تجنى ثمار سنوات من البحث وثمار إستثمارات ملحوظة كان على البلدان الأكثر تقدماً من الناحية الصناعية تكريسها لتحقيق تلك النتائج".

(97) Oscar J. Maggiolo en el volumen colectivo ***Hacia una politica cultural autónoma para América Latina***, Montevideo, 1969.

(98) Gustavo Lagos y otros, ***Las inversiones multinacionales en el desarrollo y la integración América Latina***, Bogotá 1968.

(99) Raúl Prebisch, ***La cooperación internacional en el desarrollo latinoamericano***, en Desarrollo, Bogotá, enero de 1970. (El subrayado es mío).

(١٠٠) تعتبر الفروع الأجنبية، على أية حال، أحدث بكثير من المشاريع الإستثمارية القومية. ففى صناعة المنسوجات مثلاً – إحدى القلاع الأخيرة لرأس المال القومى – تعد درجة الآتمتة منخفضة بصورة مزرية. ووفقاً لتقارير اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فقد استثمرت أربعة بلدان

أوروبية فى عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٣ فى المعدات الجديدة لصناعات النسيج فيها مايزيد ست مرات عما استثمرته أمريكا اللاتينية كلها لذلك الغرض فى عام ١٩٦٤.

(١٠١) فى عام ١٩٥٧ – لاتوجد وثائق أحدث –، شغلت الفروع الأمريكية الشمالية فى الصناعة الأوروبية، قياساً إلى رأس المال المستثمر، أيد عاملة أكثر بكثير مما فعلت فى أمريكا اللاتينية.

(102) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***

(103) F. S. O'Brien, ***The Brazilian Population and Labor Force in 1968***, documento para discusión interna, Ministério do planejamento e Coordénasão Geral, Río de Janeiro, 1969.

(104) Naciones Unidas, CEPAL, ***Estudio económico de América Latina, 1967***, Nueva York - Santiago de Chile, 1968.

(105) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***

(106) Raimendo Ongaro, carta desde la prisión, ***De Frente***, Buenos Aires, 25 de septiembre de 1969.

(107) André Gunder Frank, ***Capitalism and Underdevelopment in Latin America***, Nueva York, 1967.

(108) Ministério do Planejamento e Coordenão Econômica, ***Op. Cit.***

(109) Z. Romanova, ***La expansión económica de Estados Unidos en América Latina***, Moscú, s. f.

(110) Datos de Serge Birn, técnico norteamericano en organización del trabajo, según ***Jornal do Brasil***, Río de Janeiro, 5 de enero de 1969.

(111) André Gunder Frank, ***Op. Cit.***

(١١٢) وفقاً لهذه الدراسة ذاتها التى أجرتها اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فإن "عملية هامة لإعادة توزيع الدخل بصورة تدريجية قد جرت فى الأرجنتين فى السنوات السابقة لسنة ١٩٥٣. ومن بين السنوات الثلاث التى تتوافر عنها معلومات أكثر تفصيلاً، فقد كانت هذه السنة على وجه التحديد هى السنة التى كان التفاوت فيها أقل مما فى سواها، بينما كان التفاوت أعظم بكثير فى سنة ١٩٥٩ ... وفى المكسيك، فى الفترة الأطول الممتدة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٦٤ ... فإن

هناك مؤشرات تدل على أن الخسائر لم تكن نسبية فقط بل ومطلقة ايضاً بالنسبة إلى ٢٠ فى المائة من الأسر ذات الدخول الأكثر انخفاضاً".

(113) Maurício Vinhas de Queiroz, ***Op. Cit.***

(١١٤) كانت نسبة ٦٤ فى المائة من المشاريع الإستثمارية، مستفيدةً من التنازلات التى قدمتها ALALC، تصدر داخل المنطقة منتجات كيميائية وبتروكيميائية، والألياف الاصطناعية، والمواد الاليكترونية، والآلات الصناعية والزراعية، ومعدات المكاتب، والمحركات، وأدوات القياس، والمواسير المصنوعة من الصلب، ومنتجات أخرى.

(115) ***Business International, LAFTA, Key America's 200 Million Consumers***, reportaje de investigación, junio de 1966.

(116) ***Fortune, A Latin American Common Market Makes Common Sense For U. S. Businessmen Too***, junio de 1967.

(117) Raúl Prebisch , ***Problemas de la integración económica, en Actualidades económicas financieras***, Montevideo, enero de 1962.

(118) Prebisch, Sanz de Santamaría, Mayobre y Herrera, ***Proposiciones para la creación del Mercado Común Latinoamericano***, documento presentado al presidente Frei, 1966.

(119) ***The Multinational Corporation***, Office of External Research, Washington, 1969.

(120) Business International, ***Op. Cit.***

(121) E. Lízano F., ***El problema de las inversiones extranjeras en Centro América***, en la Revista del Banco Central de Costa Rica, septiembre de 1966.

(122) En ***Columbia Journal of World Business***. Citado por ***NACLA Newsletter***, enero de 1970.

(123) Pual N. Rosenstein - Rodan, ***Reflections on Regional Develop-***

ment. Citado en BID, varios autores, ***Op. cit.***

(١٢٤) يرى مدير الأونكتاد أن التكامل بوصفه مجرد عملية لاختزال الحواجز التجارية سوف يحافظ على "جيوب متقدمة للغاية داخل قارة متدهورة تدهوراً عاماً".

(١٢٥) تعد صناعة السيارات أجنبية بنسبة ١٠٠ في المائة في البرازيل والأرجنتين، وأجنبية بصورة رئيسية في المكسيك.

(١٢٦) على سبيل المثال، وافقت أوروجواي على زيادة وارداتها من الآلات من البرازيل في مقابل مزايا كإمداد أوروجواي بطاقة كهربائية برازيلية. واليوم لاتستطيع محافظتا آرتيجاس وريفيرا في أوروجواي زيادة استهلاكهما من الطاقة دون إذنٍ من البرازيل.

(127) Golbery do Couto e Silva, ***Aspectos geopolíticos do Brasil***, Río de Janeiro, 1952.

(١٢٨) كتب جريجوريو بوستامانتي ماثيو يصف إعدام موراثان: "لقد أمر جنود سرية الإعدام بوضع أسلحتهم موضع الإستعداد، وعَرّى رأسه، وأمرهم بالتصويب، وصحح التصويب، ثم أصدر الأمر بإطلاق النار، وسقط مضرجاً بدمه؛ ومع ذلك فقد رفع رأسه النازف وقال، إنني حي؛ وأنهى وابل آخر من الرصاص حياته".

وفي ساحة تيجوثيجالبا، تعزف الفرقة الموسيقية موسيقى خفيفة مساء كل يوم أحد حول قاعدة تمثال موراثان البرونزي لكن النقش المكتوب على قاعدة التمثال مغلوط": إن الهندوراسيين الذين ذهبوا إلى باريس إثر الإعدام لتكليف أحد النحاتين نيابة عن الحكومة بنحت تمثال لموراثان قد أنفقوا النقود على العربدة وانتهوا بشراء تمثال للمارشال ناي من سوق الروبابيكيا. وسرعان ما أصبحت مأساة أمريكا الوسطى مهزلة.

(129) Naciones Unidas, CEPAL, ***Los fletes Marítimos en el comercio exterior de América Latina***, Nueva York - Santiago de Chile, 1968.

(130) Enrique Angulo H. en el volumen colectivo ***Integración de América Latina, Experiencias y perspectivas***, México, 1964.

(131) Sidney Dell, ***Experiencias de la integración económica en América Latino,*** México, 1966.

بعد سبع سنوات

١• مضت سبع سنوات منذ نُشر **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية** للمرة الأولى.

لقد كُتب هذا الكتاب من أجل النقاش مع الناس. ففيه يتوجّه مؤلف غير متخصص إلى جمهور غير متخصص، بغرض تعميم حقائق معيّنة يخفيها أو ينكرها التاريخ الرسمي، التاريخ الذي يرويه المنتصرون.

ولم تأت أكثر الاستجابات تشجيعاً من الصفحات الأدبية للصحف، بل من بعض المشاهد الواقعية التي جرت في الشارع. مثلاً، تلك الفتاة التي كانت تقرأ هذا الكتاب لجارتها في المقعد وإنتهى بها الأمر إلى أن توقفت وأخذت تقرأه بصوت عالٍ لكل الركّاب بينما الأوتوبيس يعبر شوارع بوجوتا؛ أو المرأة التي هربت من سنتياجودي تشيلي، أيام المذبحة، وهذا الكتاب ملفوف في أقمطة الرضيع؛ أو ذلك الطالب الذي ظل طوال أسبوع يجوب مكتبات شارع كورّنيتس، في بوينوس أيرس، ليقرأه شذرة شذرة، من مكتبةٍ إلى مكتبة، لأنه لم يكن يملك نقوداً يشتريه بها.

وبنفس الطريقة، فإن أفضل التعليقات التي نالها هذا الكتاب لم تأت من أي ناقد مرموق بل من الدكتاتوريات العسكرية التي إمتدحته بأن منعته. وعلى سبيل المثال، فإن **الشرايين** لايمكن توزيعه في بلدي، أورجواي، ولا في تشيلي، وفي الأرجنتين شجبته السلطات، في التليفزيون وفي الصحف، بوصفه أداةٍ لإفساد الشباب. وقد قال بلاس دي أوتيرو* Blas de Otero، "إنهم لايدعون الناس ترى ما أكتب، لأنني أكتب ماأرى".

أعتقد أنه ليس ثمة زهو في بهجة التأكد، بعد مرور هذا الزمن، من أن **الشرايين** لم يكن كتاباً أخرساً.

٢• أعرف أنه قد يبدو تدنيساً للمقدّسات أن يتحدث هذا المرجع الواسع الانتشار عن الإقتصاد السياسي بأسلوب رواية حب أو رواية عن القراصنة. لكنني أعترف بأنني أتكبد عناءً بالغاً حين أقرأ بعض الأعمال القيّمة لبعض علماء الاجتماع، والسياسة، والاقتصاديين، والمؤرخين، الذين يكتبون بلغة مُلغِزة. فاللغة العسيرة ليست دائماً الثمن الذي لامفرّ منه للعمق. إذ يمكنها أن تخفي، ببساطة، في بعض الحالات، عجزاً عن

---

* شاعر إسباني معاصر.

التواصل إرتفع إلى مرتبة فضيلة ذهنية. وأتوجس من أن الملل دائماً ما يخدم، على هذا النحو، فى مباركة النظام القائم: إذ أنه يؤكّد أن المعرفة هى إمتياز لمجموعات النخبة.

وبالمناسبة، فإن شيئاً مشابهاً يحدث بالنسبة لنوع معّين من الأدب المناضل الموجّه إلى جمهور من المقتنعين. إن اللغة التى تكرر بصورة آلية، على نفس المسامع، نفس العبارات الجاهزة، ونفس النعوت، ونفس الصيغ الاستنكارية، تبدو لى مُمتثلةً، رغم كل رطانتها الثورية المحتملة. وربما كان أدب الأبرشية هذا بعيداً عن الثورة بعد الكتابات البذيئة عن الشبق.

٣• يكتب المرء ليحاول الإجابة على الأسئلة التى تطنّ فى رأسه، تلك الذبابات العنيدة التى تقلق نومه، ويمكن لما يكتبه أن يكتسب معنىً جماعياً حين يتطابق، على نحوٍ ما، مع الحاجة الاجتماعية إلى إجابة. وقد كتبت **الشرايين** من أجل تعميم أفكار غريبة عناو تجارب تخصّنا ربما ساعدت قليلاً، بقدر واقعى، فى توضيح التساؤلات التى تتعقبنا منذ الأزل: هل أمريكا اللاتينية إقليم من العالم محكوم عليه بالإذلال والفقر؟ ومن الذى حكم عليه؟ هل هو ذنب الرب، أو ذنب الطبيعة؟ هل هو المناخ الخانق، أو الأجناس المنحطّة؟ هل هو الدين، أو العادات؟ ألا يكون الشقاء نتاجاً للتاريخ، صنعه البشر، ومن ثم يمكن البشر أن ينزعوه؟

لقد بدا لى توقير الماضى، على الدوام، أمراً رجعياً. فاليمين يختار الماضى لأنه يفضّل الأموات: عالم ساكن، وزمن ساكن. ونوى النفوذ، الذين يُضفون الشرعية على إمتيازاتهم الموروثة، يزرعون الحنين إلى الماضى. تجرى دراسة التاريخ مثلما تجرى زيارة متحف؛ وهذه المجموعة من المومياوات خدعة. إنهم يزوّرون لنا الماضى مثلما يزوّرون لنا الحاضر: يضعون قناعاً على الواقع. ويُجبر المُضطهَد على إكتساب ذاكرة صنعها المضطهِد، ذاكرة غريبة عنه، ومُمزّقة، وعقيمة. وهكذا يرضى بأن يحيا حياةً ليست حياته وكأنها الحياة الممكنة الوحيدة.

وفى **الشرايين**، يبدو الماضى دائماً وقد إستحضره الحاضر، يبدو كذاكرة حيّة لزمننا. فهذا الكتاب هو بحثٌ عن مفاتيح للتاريخ الماضى تسهم فى توضيح الزمن الحاضر، الذى يصنع التاريخ أيضاً، بدءاً من قاعدة أن الشرط الأول لتغيير الواقع هو معرفته. هنا، لايُقدّم سجلّ بأبطال يرتدون ثياب حفلة تنكّرية، يتفوّهون، قبل أن يموتوا فى المعركة، بعبارات مهيبة بالغة الطول، بل يجرى التفتيش عن أصوات وآثار خطوات

الجموع التى تنبئ بمساراتنا الحالية. إن الشرايين يأتى من الواقع، لكنه كذلك يأتى من كتب أخرى، أفضل من هذا الكتاب، ساعدتنا على معرفة من نحن، لكى نعرف ماذا يمكننا أن نكون، وأتاحت لنا تمحيص من أين نأتى لكى نستشرف بصورة أفضل إلى أين نمضى. هذا الواقع وهذه الكتب يوضحان أن التخلف الأمريكى اللاتينى هو نتيجة لتقدم الآخرين، وأننا، نحن الأمريكيين اللاتين فقراء لأن الأرض التى نطأها غنية، وأن الأماكن التى حبتها الطبيعة قد لعنها التاريخ. ففى عالمنا، عالم المراكز القوية والأطراف الخاضعة، ليس هناك ثروة لاتثير الشك، على الأقل.

٤٠ خلال الزمن المنصرم منذ الطبعة الأولى لـ الشرايين، لم يكف التاريخ، بالنسبة لنا، عن أن يكون مُعلِّمةً قاسية.

فقد ضاعف النظام الجوع والخوف؛ واصلت الثروة تركّزها والفقر إنتشاره. وهذا ماتُقِّر به وثائق الهيئات الدولية المتخصّصة، التى تصف لغتها المعقّمة أقاليمنا المقهورة بأنها "بلدان على طريق النمو" وتنعت الإفقار الذى لاهوادة فيه للطبقة العاملة بأنه "إعادة توزيع تراجعية للدخل".

واصل الدولاب الدولى عمله: البلدان فى خدمة السلع، والبشر فى خدمة الأشياء.

مع مرور الزمن، تأخذ فى الاكتمال طرق تصدير الأزمات. يبلغ رأس المال الاحتكارى أقصى درجات التركّز والسيطرة الدولية على الأسواق، والقروض، والاستثمارات، ويتيح نقل التناقضات المنهجى والمتزايد: تدفع الأطراف ثمن رفاهية المراكز، دون مقاومة تذكر.

وتظل السوق الدولية أحد المفاتيح الأساسية لهذه العملية. فهناك تمارس الشركات العابرة للقومية دكتاتوريتها – وهى شركات عابرة للقومية، كما يقول سويزى، لأنها تعمل فى بلدان عديدة، لكنها قومية، بالتأكيد، فى ملكيتها والسيطرة عليها. والتنظيم الدولى للتفاوت لاتغيّره حقيقة أن البرازيل تصدّر الآن، على سبيل المثال، سيارات فولكس فاجن إلى غيرها من بلدان أمريكا الجنوبية وإلى الأسواق البعيدة فى إفريقيا والشرق الأوسط. فشركة فولكس فاجن الألمانية هى التى قررت، فى نهاية المطاف، أن من الأنسب تصدير السيارات إلى أسواق معينة من فرعها البرازيلى: وتكاليف الإنتاج المنخفضة، والأيدى العاملة الرخيصة برازيليتان، أما الأرباح العالية فألمانية.

كذلك لايتمزق قميص المجانين بفعل السحر حين تنجح مادة أولية فى الإفلات من لعنة الأسعار المنخفضة. وهذه هى حالة البترول بدءاً من عام ١٩٧٣. أليس البترول تجارة دولية؟ وهل ستاندارد أويل أوف نيوجرسى، التى تسمى الآن إكسون Exxon، أو الرويال داتش شل، أو جالف شركات عربية أم امريكية لاتينية؟ ومن الذى يفوز بنصيب الأسد؟ ومن ناحية أخرى، كانت موجية تلك الضجة التى ثارت ضد البلدان المنتجة للبترول، التى تجاسرت على الدفاع عن الأسعار وتحولت فجأة إلى كبش فداء للتضخم والبطالة العمالية فى أوربا والولايات المتحدة. وهل استشارت البلدان المتقدمة أحداً، ذات مرة، قبل أن ترفع سعر أى منتج من منتجاتها؟ منذ عشرين عاماً وسعر البترول ينخفض المرة تلو المرة. وقد مثّل سعره الأساسى دعماً ضخماً للمراكز الصناعية العالمية الكبرى، التى أخذت منتجاتها، بالمقابل، ترتفع فى السعر. وبالنسبة للإرتفاع المتواصل فى أسعار المنتجات الأوربية ومنتجات الولايات المتحدة، لم يفعل السعر الجديد للبترول سوى العودة إلى مستويات عام ١٩٥٢. استعاد البترول الخام، ببساطة، قدرته الشرائية التى كان يتمتع بها منذ عقدين من الزمن.

٥• كان أحد الفصول الهامة التى جرت خلال هذه السنوات السبع هو تأميم البترول فى فنزويلا. لم يكسر التأميم تبعية فنزويلا فيما يتعلّق بالتكرير والتسويق، لكنه فتح مجالاً جديداً للإستقلال. فبعد مولدها بقليل، إحتلت الشركة الحكومية، بترول فنزويلا، المرتبة الأولى بين أهم خمسمائة شركة فى أمريكا اللاتينية. وشرعت فى البحث عن أسواق جديدة بالإضافة إلى الأسواق التقليدية وسرعان ماكسبت بتروفن Petroven خمسين عميلاً جديداً.

إلاّ أنه، كالمعتاد، حين تصبح الدولة مالكة للثروة الأساسية فى بلدٍ من البلدان، فإنه يجدر بنا أن نتساءل من هو مالك الدولة. فتأميم الموارد الأساسية لايتضمن، فى حد ذاته، إعادة توزيع الدخل لصالح الأغلبية، كذلك لايهدّد، بالضرورة، سلطة ولا إمتيازات الأقلية المسيطرة. وفى فنزويلا، يواصل إقتصاد التبديد عمله. وفى مركزه تتلألأ، بضوء غاز النيون، طبقة إجتماعية مبذّرة ومالكة للملايين. وفى عام ١٩٧٦، زادت الواردات بنسبة خمسة وعشرين بالمائة، لتمول بدرجة كبيرة المواد الترفيّة التى تتدفق على السوق الفنزويلية. إنها صنّمية السلعة بإعتبارها رمزاً للسلطة، الوجود الإنسانى وقد قلّص إلى علاقات منافسة واستهلاك: فى وسط بحر التخلف تمارس الأقلية المحظوظة نمط حياة وموضات أغنى أعضاء المجتمعات الأكثر ازدهاراً فى العالم: فى ضجيج كاراكاس،

مثلما فى نيويورك، تصبح السلع "الطبيعية" بلا منازع – الهواء، والضوء، والسكون– أغلى وأندر بإستمرار. ويحذّر خوان پابلو بيرث ألفونسو، بطريرك القومية الفنزويلية ونبّى إستعادة البترول قائلاً: "حذار، إذ يمكن الموت من عسر الهضم، مثلما يمكن الموت من الجوع"[١].

٦. فرغت من كتابة **الشرايين** فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٠.

وفى الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٧، توفى خوان بيلاسكو ألبارادو Juan Velasco Alvarado على طاولة العمليات. وحمل نعشه على الأكتاف حتى المقبرة أكبر حشد شهدته شوارع ليما فى تاريخها. كان الجنرال بيلاسكو ألبارادو، الذى ولد فى بيت متواضع فى الأراضى الجافة بشمالى البيرو، قد تزعم عملية إصلاحات إجتماعية وإقتصادية. وكانت هذه محاولة التغيير الأعمق والأوسع نطاقاً فى تاريخ البلاد المعاصر. وبدءاً من إنتفاضة عام ١٩٦٨، نفذت الحكومة العسكرية إصلاحاً زراعياً حقيقياً وفتحت الطريق أمام إستعادة الموارد الطبيعية التى إغتصبها رأس المال الأجنبى. لكن عند وفاة بيلاسكو ألبارادو، كانت قد شيّعت، قبل زمن، جنازة الثورة. كانت العملية الخلاّقة قصيرة العمر؛ وانتهت بأن خنقها ابتزاز المقرضين والتجار والهشاشة الكامنة فى كل مشروع أبوى ودون قاعدة شعبية منّظمة.

عشية أعياد الميلاد عام ١٩٧٧، وبينما قلب بيلاسكو ألبارادو يخفق لآخر مرّة، ضرب جنرال آخر لايشبهه فى شئ، المكتب بقبضته، فى بوليڤيا. قال الجنرال أوجو بانثر Hugo Bánzer، دكتاتور بوليڤيا، لا للعفو عن السجناء، والمنفيين، والعمال المفصولين. قامت أربع نساء وأربعة عشر طفلاً، وصلوا إلى لاپاث من مناجم القصدير، قاموا حينئذ بإضراب عن الطعام.

قال العارفون– ليست هذه هى اللحظة المناسبة. سنبلغكن حين ... جلست النساء على الأرض.

– إننا لانستشيركم. إننا نبلغكم. فالقرار قد إتُّخذ. هناك فى المنجم، ثمة إضراب دائم عن الطعام. فور أن نولد يبدأ الاضراب عن الطعام. هناك أيضاً، علينا أن نموت. ببطء أكثر، لكن علينا أن نموت كذلك.

ردّت الحكومة بالعقاب، والتهديد؛ لكن الإضراب عن الطعام أطلق عنان قوى مكبوته من زمن طويل. تأهبت بوليڤيا بأسرها وكشفت عن أسنانها. وبعد عشرة أيام، لم

يكن المضربون أربع نساء وأربعة عشر طفلاً: فقد بدأ ألف وأربعمائة عامل وطالب الإضراب عن الطعام. أحست الدكتاتورية أن الأرض تنشقّ تحت أقدامها. فأصدرت العفو العام.

كذلك عبر بلدان من بلدان الانديز الحدود بينهما فيما بين ١٩٧٧ و١٩٧٨. وإلى الشمال، فى الكاريبى، كانت بنما تنتظر تحقيق الوعد بإنهاء الوضع الاستعمارى للقناة، فى ختام مفاوضات شاقة مع الحكومة الجديدة للولايات المتحدة، وفى كوبا، كان الشعب فى عيد: كانت الثورة الاشتراكية تحتفل، وهى سليمة لم تمس، بأول تسعة عشر عاماً من حياتها. وبعد أيام قلائل، فى نيكاراجوا، إندفعت الجماهير إلى الشوارع غاضبة. وأخذت الدكتاتور سوموثا، إبن الدكتاتور سوموثا، يتلصص من ثقب المفتاح. وأشعل الغضب الشعبى عدة شركات. وكانت إحداها، وتسمى بلازمافيرسيس Plasmaférsis ، متخصصة فى مص الدماء. كانت بلازمافيرسيس، التى أكلتها النيران فى أوائل عام ١٩٧٨، مملوكة لمنفيين كوبيين ومكرّسة لبيع الدم النيكاراجوى إلى الولايات المتحدة. (فى تجارة الدم، مثلما فى كل ما عداها، لايتلقى المنتجون سوى البقشيش فشركة هيمو كاريبيان Hemo Caribbean، مثلاً، تدفع للهايتيين ثلاثة دولارات مقابل كل لتر تعيد بيعه بخمسة وعشرين دولاراً فى سوق الولايات المتحدة).

٧• فى أغسطس عام ٧٦، نشر أورلاندو ليتلبير Orlando Letelier مقالاً يعلن فيه أن رعب دكتاتورية بينوشيه و "الحرية الاقتصادية" لمجموعات القلّة المتميزة هما وجهان لعملة واحدة[٢]. كان ليتلبير، الذى كان وزيراً فى حكومة سلبادور ألليندى، منفياً فى الولايات المتحدة. وبعد وقت قصير تطاير أشلاءً هناك[٣]. فى مقاله، أصر على أنه من العبث الحديث عن منافسة حرة فى إقتصاد مثل إقتصاد تشيلى، خاضع للإحتكارات التى تتلاعب بالأسعار كما يحلو لها، وأن من المضحك ذكر حقوق العمال فى بلدٍ تحرّم فيها القوانين النقابات الأصيلة وتحدّد فيها الأسعار مراسيم الطغمة العسكرية. ووصف ليتلبير التفكيك الشامل للمنجزات التى حققها الشعب التشيلى خلال حكومة الوحدة الشعبية. فمن بين الاحتكارات والاحتكارات الأوليجاركية الصناعية التى أمّمها سلبادور ألليندى، أعادت الدكتاتورية النصف إلى الملاك القدامى وباعت النصف الآخر. اشترت شركة فايرستون Firestone الشركة القومية للإطارات؛ واشترت بارسونز أندهويتمور Parsons & Whittemore شركة كبيرة للبّ الورق ... قال ليتلبير، أن الاقتصاد التشيلى

الآن أكثر تركّزاً وإحتكاراً منه عشية حكومة ألليندى[٤].

أعمال حرّة أكثر من أى وقت مضى، بشر سجناء أكثر من أى وقت مضى: فى أمريكا اللاتينية، نجد أن حرية الشركات لاتتمشى مع الحريات العامة.

حرية السوق؟ منذ أوائل عام ١٩٧٥، فإن سعر اللبن حر، فى تشيلى. ولم تتأخر العواقب فى الظهور. تسيطر شركتان على السوق. وارتفع سعر اللبن على الفور، بالنسبة للمستهلكين، بنسبة أربعين فى المائة، بينما إنخفض السعر بالنسبة للمنتجين بنسبة ٢٢ فى المائة.

أما وفيّات الأطفال، التى كانت قد إنخفضت بدرجة كبيرة فى ظل حكومة الوحدة الشعبية، فقد تزايدت بصورة درامية بدءاً من حكم بينوشيه. وحين إغتيل ليتلبير فى أحد شوارع واشنطن، كان ربع سكان تشيلى لايتلقّون أى دخل على الاطلاق ويبقون على قيد الحياة بفضل إحسان الآخرين أو بفضل عنادهم وسرقتهم هم أنفسهم.

إن الهوّة التى تنفتح فى أمريكا اللاتينية بين رفاهية القلة وشقاء الأكثرية تفوق بما لايقاس مثيلتها فى أوربا أو فى الولايات المتحدة. ومن ثم، فإن الوسائل الضرورية للحفاظ على هذه المسافة أشد وحشية بكثير. فلدى البرازيل جيش ضخم وجيد التجهيز، لكن البرازيل تخصص لنفقات التعليم خمسة بالمائة من الميزانية القومية. وفى أورجواى، تمتص القوات المسلحة والشرطة الآن نصف الميزانية: وخُمس السكان مهمتها مراقبة، وتَعَقُّب، أو معاقبة الآخرين.

دون شك، فإن أحد أهم أحداث هذه السنوات من عقد السبيعنات فى بلادنا، كان مأساة: كان هو التمرد العسكرى الذى أطاح بالحكومة الديمقراطية لسلبادور ألليندى يوم ١١ سبتمبر عام ١٩٧٣، وأغرق تشيلى فى حمام دمّ.

وقبلها بقليل، فى يونيو، حل انقلاب فى أورجواى البرلمان، وأخرج من نطاق القانون كل النقابات وحظر كل النشاط السياسى[٥].

وفى مارس عام ١٩٧٦، عاد الجنرالات الأرجنتينيون إلى السلطة: إنهارت حكومة أرملة خوان دومينجو بيرون، التى كانت قد تعفنت، دون مجد أو جهد.

واليوم، فإن بلدان الجنوب الثلاثة هى قرحة فى جسد العالم، هى نبأ سيئ متصل. تحولت التعذيبات، والاختطافات، والأغتيالات، والنفى إلى عادات يومية. هذه الدكتاتوريات، هل هى أورام يجب استئصالها من أجهزة عضوية صحيحة أم هى

الصديد الذى يشى بتلوث النسق؟

أعتقد أنه توجد، على الدوام، علاقة وثيقة بين كثافة الخطر وبين وحشية الاستجابات. ولايمكن، على ما أعتقد، فهم مايجرى اليوم فى البرازيل وفى بوليڤيا دون أن نضع فى الاعتبار تجربة أنظمة چواو جولارت وخوان خوسيه توريس. فقبل سقوطهما، طبقت هاتان الحكومتان سلسلة من الإصلاحات الإجتماعية وطوّرتا سياسة إقتصادية وطنية، على طول عملية قُطعت فى البرازيل عام ١٩٦٤ وفى بوليڤيا عام ١٩٧١. وبنفس الطريقة، يمكن القول بأن تشيلى، والأرجنتين، وأورجواى تكفّر الآن عن خطيئة الأمل. فدورة التحولات العميقة خلال حكومة ألليندى، ورايات العدالة التى استنفرت الجماهير العمالية الأرجنتينية وخفقت عالياً خلال الفترة القصيرة لحكم إكتوركامبورا Héctor Cámpora عام ١٩٧٣ و التسييس المتسارع لشبيبة أورجواى، كانت كلها تحديات لم يكن باستطاعة نظام عاجز فى أزمة أن يتحملها. كان أوكسجين الحرية العنيف قاتلاً بالنسبة للأشباح فتم إستدعاء الحرس البريتورى لإنقاذ النظام. إن خطة التطهير هى خطة إبادة.

٨. عادةً ما تسجّل محاضر جلسات كونجرس الولايات المتحدة شهادات لايمكن دحضها حول التدخّلات فى أمريكا اللاتينية. فالضمائر التى يعضّها الإحساس بالذنب، تحقق تطهّرها فى سجلات اعترافات الامبراطورية. وخلال الفترة الأخيرة، على سبيل المثال، تضاعفت الإقرارات الرسمية بمسئولية الولايات المتحدة عن عدة كوارث. فقد أثبتت اعترافات علنية مسهبة، بين ما أثبتته، أن حكومة الولايات المتحدة قد شاركت بشكل مباشر، من خلال الرشوة، والتجسس، والابتزاز، فى السياسة التشيلية. وفى واشنطن خُطّطت إستراتيجية الجريمة. فمنذ عام ١٩٧٠، أعد كيسنجر وإدارات المعلومات بعناية إسقاط ألليندى. وتم توزيع ملايين الدولارات على أعداء الحكومة الشرعية للوحدة الشعبية. وهكذا، مثلاً، تمكن أصحاب عربات النقل من مواصلة إضرابهم الطويل، وتمكنوا، عام ١٩٧٣، من شل جزء كبير من إقتصاد البلاد. إن التأكد من الإفلات من العقاب يفك عقدة الألسنة. وفى وقت الإنقلاب ضد جولارت، كانت سفارة الولايات المتحدة فى البرازيل هى أكبر سفاراتها فى العالم. وقد اعترف لنيكولن جوردون Lincoln Gordon، الذى كان سفيراً، أمام أحد الصحفيين بعد ثلاثة عشر عاماً، بأن حكومته كانت، قبل الإنقلاب بزمن، تموّل القوى المعارضة للإصلاحات. قال

جوردون:

"يا للشياطين. كان ذلك عادةً، بدرجة أو بأخرى، فى تلك الفترة .... فقد كان من عادة وكالة المخابرات المركزية أن تحصل على أرصدة سياسية"[٦]. وفى نفس الحديث، أوضح جوردون أن البنتاجون قد أرسل فى أيام الإنقلاب حاملة طائرات ضخمة وأربع مدمّرات تجاه سواحل البرازيل "فربما طلبت القوى المناهضة لجولارت عوننا". هذا العون، كما قال، "لن يكون معنوياً. بل سوف نعطى مساندة بالإمدادات وبالمؤن، والذخائر، والبترول".

ومنذ استهل الرئيس جيمى كارتر سياسة حقوق الإنسان، أصبح من المألوف أن تصدر الأنظمة الأمريكية اللاتينية المفروضة بفضل التدخل الأمريكى الشمالى، أن تصدر بيانات ملتهبة ضد التدخل الأمريكى الشمالى فى شئونها الداخلية.

وقد قرر كونجرس الولايات المتحدة، عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧، وقف المعونة الاقتصادية والعسكرية لعدة بلدان. إلاّ أن الجزء الأكبر من المساعدات الخارجية للولايات المتحدة لايمر من خلال مصفاة الكونجرس. وهكذا، ورغم البيانات والقرارات والاحتجاجات، تلقى نظام الجنرال بينوشيه، خلال عام ١٩٧٦، مبلغ ٢٩٠ مليون دولار من المساعدة المباشرة من الولايات المتحدة دون ترخيص من الكونجرس. وحين أتمت دكتاتورية الجنرال بيديلا فى الارجنتين عامها الأول، كانت قد تلقت خمسمائة مليون دولار من بنوك أمريكية شمالية خاصة و ٤١٥ مليوناً من مؤسستين (هما البنك الدولى وبنك التنمية الدولى) تتمتع فيهما الولايات المتحدة بنفوذ حاسم. أما حقوق السحب الخاصة للأرجنتين من صندوق النقد الدولى، والتى كانت ٦٤ مليون دولار عام ١٩٧٥، فقد إرتفعت إلى سبعمائة مليون بعد عامين.

يبدو قلق الرئيس كارتر بشأن المذبحة التى تعانى منها بعض البلدان الأمريكية اللاتينية أمراً جديراً بالترحيب، لكن الدكتاتوريين الحاليين لم يعلّموا أنفسهم: فقد تعلموا أساليب القمع وفن الحكم على مناهج البنتاجون فى الولايات المتحدة وفى منطقة قناة بنما. وهذه المناهج مستمرة فى أيامنا ولم تغيّر، وليكن هذا معلوماً، محتواها قدر أنملة. والعسكريون الأمريكيون اللاتين الذين يشكلون أسباباً للفضيحة بالنسبة للولايات المتحدة اليوم، كانوا تلاميذاً جيدين. ومنذ بضع سنوات، حين كان روبرت مكنمارا Robert McNamara، الرئيس الحالى للبنك الدولى، وزيراً للدفاع، أعلنها بوضوح: "أنهم الزعماء الجدد. ولست بحاجة إلى الإسهاب فى شرح قيمة أن يكون فى مواقع القيادة رجال قد

عرفوا مسبقاً عن قرب كيف نفكر نحن الأمريكيين ونصنع الأشياء. إن صداقتنا مع هؤلاء الرجال لاتقدّر بثمن"[٧]. هل يستطيع من جعلونا مشلولين أن يقدّموا لنا الكرسى ذا العجلات؟

٩. يتحدث أساقفة فرنسا عن نوع آخر من المسئولية، أشد عمقاً، وأقل وضوحاً[٨]: "إننا، نحن الذين ننتمى إلى الأمم التى تزعم أنها أكثر الأمم تقدماً فى العالم، نشكّل جزءاً من المستفيدين من استغلال البلدان النامية. ولانرى المعاناة التى يسببها ذلك فى جسد وروح شعوب بأكملها. إننا نسهم فى تدعيم إنقسام العالم الحالى، الذى يبرز فيه إخضاع الفقراء من جانب الأغنياء، والضعفاء من جانب الأقوياء. هل نعرف أن تبديدنا للموارد وللمواد الأولية لن يكون ممكناً بدون السيطرة على التبادل التجارى من جانب البلدان الغربية؟ ألا نرى من الذى يستفيد من تجارة الأسلحة، التى ضربت فيها بلادنا أمثلة مُحزنة؟ هل ندرك، ياترى، أن عسكرة أنظمة الدول الفقيرة هى إحدى عواقب السيطرة الاقتصادية والثقافية التى تمارسها الدول الصناعية، التى يحكم الحياة فيها السعى إلى المكاسب وسلطات المال؟".

دكتاتورات، وجلاّدون، ومحققون: الرعب له موظفون، مثل البريد والبنوك، ويُطبّق لأنه ضرورى. وليس الأمر أمر مؤامرة للمنحرفين. يمكن للجنرال بينوشيه أن يشبه إحدى شخصيات الرسوم السوداء لجويا، أو أن يمثل وليمة يسعد بها المحللون النفسيون، أو أن يبدو وريثاً لإحد التقاليد المرعبة لجمهوريات الموز. لكن السمات الإكلينيكية أو الفولكلورية لهذا الدكتاتور أو ذاك، والتى تفيد فى إضافة التوابل إلى التاريخ، ليست هى التاريخ. من يجرؤ اليوم على تأكيد أن الحرب العالمية الأولى إندلعت بسبب عُقَد القيصر غليوم، الذى كان أحد ذراعيه أطول من الآخر؟ "فى البلدان الديمقراطية لايتكشف طابع العنف الكامن فى الاقتصاد؛ وفى البلدان التسلطية، يحدث نفس الشئ بالنسبة للطابع الاقتصادى للعنف"، هكذا كتب برتولت بريخت، فى أواخر عام ١٩٤٠، فى يوميات العمل.

فى بلدان جنوبى امريكا اللاتينية، إحتل القواد العسكريون السلطة بسبب إحتياج النظام ويُطبّق إرهاب الدولة حين لاتعود الطبقات المسيطرة قادرة على إنجاز أعمالها بوسائل أخرى. **فى بلادنا لم يكن التعذيب ليوجد لو لم يكن فعالا؛ وكان يمكن للديمقراطية الشكلية أن تستمر لو أمكن ضمان أنها لن**

تفلت من سيطرة أصحاب السلطة. وفى الأوقات الصعبة، تتحول الديمقراطية إلى جريمة ضد الأمن القومى - أو بالأحرى، ضد أمن الامتيازات الداخلية والاستثمارات الأجنبية. إن آلاتنا لفرم اللحم البشرى تتضمن صندوق تروس دولية. يصبغ الطابع العسكرى المجتمع بأسره، وتصبح حالة الطوارئ حالة دائمة ويصبح جهاز القمع مهيمناً نتيجة ضغط على الأزرار فى مراكز النظام الامبريالى. حين يخيّم شبح الأزمة، يصبح من الضرورى مضاعفة نهب البلدان الفقيرة من أجل ضمان التشغيل الكامل لقوة العمل، والحريات العامة، ومعدلات النمو العالية فى البلدان الغنية. **إن علاقات الضحية والجلاّد، هى جدل شرير: ثمة بنية من الإذلال المتّصل تبدأ فى الأسواق الدولية وفى المراكز المصرفية وتنتهى فى منزل كل مواطن.**

• ١٠ هايتى هى أفقر بلدان نصف الكرة الغربى. وفيها غاسلو أقدام أكثر من ماسحى الأحذية: وغاسلو الأقدام هم أطفال يغسلون، لقاء قطعة عملة أقدام الزبائن الحفاة، الذين ليس لديهم أحذية يلمّعونها. ومتوسط عمر الهايتيين أكثر قليلاً من ثلاثين سنة. وتسعة من كل عشرة هايتيين لايعرفون القراءة أو الكتابة. ومن أجل الاستهلاك الداخلى، يزرعون حواف الجبالة القاحلة، ومن أجل التصدير، يزرعون السهول الخصبة: أفضل الأراضى تخصّص للبن، والسكر، والكاكاو، والمنتجات الأخرى التى تتطلبها السوق الأمريكية الشمالية. وليس هناك من يلعب البيسبول فى هايتى، لكن هايتى هى المنتج العالمى الأول لكرات البيسبول. وفى البلاد مصانع يعمل فيها الأطفال مقابل دولار واحد فى اليوم فى تركيب أجهزة الكاسيت والقطع الإلكترونية. وهى، بالطبع، منتجات للتصدير؛ وبالطبع، تصدّر الأرباح أيضاً، بعد خصم نصيب من ينشرون الرعب. إن أقل إشارة إحتجاج تتضمن، فى هايتى، السجن أو الموت. وبرغم فظاعة ماييدو ذلك، فإن أجور العمال الهايتيين قد فقدت، فيما بين عام ١٩٧١ و ١٩٧٥، ربع قيمتها الفعلية البالغة الإنخفاض[٩]. ومما له دلالة كبيرة، إنه خلال تلك الفترة دخل إلى البلاد فيض من رؤوس الأموال الأمريكية الشمالية.

أتذكر مقالة إفتتاحية فى إحدى صحف بوينوس آيرس، نشرت منذ عامين. كانت صحيفة عتيقة محافظة تزبد غضباً لأن الأرجنتين ظهرت فى إحدى الوثائق الدولية بإعتبارها بلداً متخلفاً وتابعاً. كيف يمكن لمجتمع راق، أوربى، مزدهر، وأبيض أن يقاس بنفس معيار بلد فقير وزنجى مثل هايتى؟

والفروق شاسعة، بلاشك – رغم أنها ضعيفة الصلة بمقولات تحليل الأوليجاركية المتغطرسة فى بوينوس آيرس. لكن، برغم كل التنويعات والتناقضات مهما كانت، فإن الأرجنتين ليست بمأمن من الحلقة الشريرة التى تخنق الاقتصاد الأمريكى اللاتينى فى مجمله وما من جهد ذهنى لطرد الأشباح يمكن أن يخرجها من الواقع الذى تشارك فيه بقية بلدان الإقليم، بدرجة تزيد أو تنقص.

وفى نهاية الأمر، فإن مذابح الجنرال بيديلا ليست أكثر تحضّراً من مذابح بابا دوك دوفالييه Papa Doc Duvalier أو وريثه على العرش، رغم أن القمع فى الأرجنتين، قد يتمتع بمستوى تكنولوجى أرفع. وبصدد ماهو جوهرى، فإن كلتا الدكتاتوريتين تعملان فى خدمة نفس الهدف: تقديم ألرع رخيصة لسوق دولية تتطلب منتجات رخيصة.

ففور وصولها إلى السلطة، سارعت دكتاتورية بيديلا بمنع الإضرابات وأطلقت حرية الأسعار فى نفس الوقت الذى سجنت فيه الأجور. وبعد خمسة أشهر من الانقلاب، فرض القانون الجديد للإستثمارات الأجنبية المساواة فى الشروط بين الشركات الأجنبية والشركات القومية. وعلى هذا النحو، أنهت المنافسة الحرة الوضع الجائر الذى كانت بعض الشركات العابرة للقوميات تجد نفسها فيه مقابل الشركات المحلية. ومنها، شركة جنرال موتورز المسكينة، الذى يساوى حجم مبيعاتها الدولية ما لايقل عن صافى الناتج القومى للأرجنتين بأكملها. كذلك فإن إعادة سحب الأرباح إلى الخارج واستعادة رأس المال المستثمر أمران حرّان، مع قيود هشّة.

وحين أتمّ النظام عامه الأول، كانت القيمة الفعلية للأجور قد إنخفضت إلى أربعين بالمائة. وتحققت المهمة بالإرهاب. "خمسة عشر ألف مفقود (مُختف)، وعشرة آلاف سجين، وأربعة آلاف قتيل، وعشرات الآلاف من المنفيين هم الرقم العارى لذلك الإرهاب"، هكذا شجب الكاتب رودولفو والش Rodolfo Walsh فى خطاب مفتوح. وقد أرسل الخطاب يوم ٢٩ مارس عام ١٩٧٧ إلى الأعضاء الثلاثة فى العصبة الحاكمة. وفى نفس اليوم، إختُطف والش وإختفى.

١١ـ تؤكد مصادر لاتقبل الشك أن جزءاً تافها من الاستثمارات الأجنبية المباشرة الجديدة فى أمريكا اللاتينية يأتى فعلاً من بلد المنبع. فوفق إستقصاء نشرته وزارة التجارة بالولايات المتحدة[١٠]، يأتى اثنى عشر بالمائة بالكاد من الأموال من المقار الرئيسية للشركات فى الولايات المتحدة، وتمثل نسبة ٢٢ بالمائة الأرباح المتحصلة فى

امريكا اللاتينية وتأتى نسبة الـ ٦٦ بالمائة الباقية من مصادر الإقراض الداخلى، وبالدرجة الأولى، الإقراض الدولى. والنسبة متماثلة بالنسبة للإستثمارات ذات المصدر الأوربى أو اليابانى؛ ولابد أن نضع فى الإعتبار أن هذه الإثنى عشر بالمائة من الاستثمار التى تأتى من الفروع الرئيسية عادةً ما تكون نتيجة نقل آلات مستعملة وتعكس ببساطة السعر التعسفى الذى تفرضه الشركات ثمناً لخبرتها الفنية الصناعية، والماركات المسجلة، والتراخيص. **إن الشركات العابرة للقوميات، إذن، لاتقتصب فحسب الإئتمان الداخلى للبلدان التى تعمل بها، مقابل إسهام رأسمالى قابل للجدل بدرجة كبيرة، بل إنها كذلك تضاعف لهذه البلدان دينها الخارجى.**

وقد كان الدين الخارجى لأمريكا اللاتينية، عام ١٩٧٥، زهاء ثلاثة أضعاف هذا الدين عام ١٩٦٩[١١]. وخصصّت البرازيل، والمكسيك، وتشيلى، وأورجواى، عام ١٩٧٥، نحو نصف دخول التصدير لدفع أقساط وفوائد الدين ولدفع ارباح الشركات الأجنبية العاملة فى تلك البلدان. وابتلعت خدمة الدين، ودفعات الفوائد فى ذلك العام نسبة ٥٥ بالمائة من صادرات بنما و ٦٠ بالمائة من صادرات البيرو[١٢]. وفى عام ١٩٦٩، كان كل مواطن فى بوليفيا مديناً بمبلغ ١٣٧ دولاراً للخارج. وفى عام ١٩٧٧، أصبح كل مواطن مديناً بمبلغ ٤٨٣ دولاراً. لم تتم إستشارة مواطنى بوليفيا ولا رأوا سنتيماً واحداً من تلك القروض التى وضعت رقابهم فى المشنقة.

لايظهر سيتى بانك كمرشّح على أى قائمة، فى البلدان الأمريكية اللاتينية القليلة التى مازالت تجرى فيها إنتخابات؛ ولايحمل أى واحد من الجنرالات الذين يمارسون الدكتاتورية إسم صندوق النقد الدولى. لكن، أيّ يدٍ تُنفذ وأيّ ضمير هو الذي يأمر؟ من يُقرض، يأمر. فى سبيل الدفع، يجب تصدير المزيد، ويجب تصدير المزيد لتمويل الواردات ولمواجهة نزيف الأرباح ورسوم التراخيص التى تستنزفها الشركات الأجنبية إلى فروعها الرئيسية. وزيادة الصادرات، التى تتناقص قدرتها الشرائية، يتضمن دفع أجور تجويع. والجوع الشامل، مفتاح النجاح لإقتصاد موّجه إلى الخارج، يمنع نمو سوق الاستهلاك الداخلية إلى الحد المطلوب لإتاحة تنمية داخلية متجانسة. تتحول بلداننا إلى إصداء وتأخذ فى فقدان صوتها الخاص. لأنها تعتمد على الآخرين، وتوجد بقدر ماتكون إستجابة لإحتياجات الآخرين. وإعادة ترتيب الإقتصاد حسب الطلب الخارجى، بدوره، يعيدنا إلى الإختناق الأصلى: لأنه يفتح الأبواب أمام نهب الإحتكارات الأجنبية

ويجبر على طلب قروض جديدة أكبر من البنوك الدولية. إن الحلقة الشريرة مغلقة: فالدين الخارجي والإستثمار الأجنبي يجبران على مضاعفة الصادرات التي يلتهمانها بدورهما. ولايمكن إنجاز المهمّة إلا بحسن السلوك. وحتى يقوم العمال الأمريكيون اللاتين بوظيفتهم كرهائن لرفاهية الآخرين، عليهم أن يظلّوا سجناء - داخل أو خارج قضبان السجن.

١٢. لايتعارض الإستغلال الوحشي للأيدي العاملة مع التكنولوجيا الكثيفة. ولم يتعارض أبداً، في بلداننا: وعلى سبيل المثال، فإن أفواج العمال البوليفيين الذين تركوا رئاتهم في مناجم أورورو، في زمن سيمون باتينيو، كانوا يعملون بنظام عبودية مأجورة لكن بآلات حديثة جداً. فقد عرف بارون القصدير كيف يجمع بين أعلى مستويات التكنولوجيا في عصره وبين أدنى مستويات الأجور[١٣].

وفي أيامنا، علاوة على ذلك، يتطابق استيراد التكنولوجيا من الاقتصاديات المتقدمة مع عملية نزع ملكية الشركات الصناعية ذات رأس المال المحلي من جانب الشركات العابرة للقوميات القادرة على كل شئ. وتتحقق حركة تركيز رأس المال من خلال "تصفية لاترحم للمستويات الصناعية العتيقة، والتي ليس من قبيل الصدفة أن تكون هي بالضبط تلك التابعة للملكية القومية"[١٤]. إن نزع القومية المتسارع عن الصناعة الأمريكية اللاتينية يجلب معه تبعية تكنولوجية متزايدة. فالتكنولوجيا، المفتاح الحاسم للسلطة، محتكرة، في العالم الرأسمالي، من جانب المراكز المتروبوليتانية. وتأتي التكنولوجيا مستعملة، لكن تلك المراكز تتقاضى ثمن النسخ وكأنها صور أصلية. وفي عام ١٩٧٠، دفعت المكسيك ضعف ما دفعته عام ١٩٦٨ مقابل استيراد تكنولوجيا أجنبية. وبين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٩، ضاعفت البرازيل مدفوعاتها؛ وحدث نفس الشئ، في نفس الفترة، مع الأرجنتين.

إن نقل التكنولوجيا يزيد الديون المتضخمة للخارج وله عواقب مدمّرة على سوق العمل. ففي نظام يقوم على أساس استنزاف الأرباح إلى الخارج، تأخذ الأيدي العاملة في الشركة " التقليدية" فرص عملها. ومقابل دافع دينامي مشكوك فيه لبقية الاقتصاد، تضحي جزر الصناعة الحديثة بالأيدي العاملة بتخفيض وقت العمل اللازم للإنتاج. ووجود جيش جرار ومتزايد من العاطلين يسهل، بدوره، إغتيال القيمة الفعلية للأجور.

١٣. الآن، تتحدث حتى وثائق اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية عن إعادة تقسيم دولية للعمل. يخالج الأمل التقنيين فى أن أمريكا اللاتينية ربما استطاعت، بعد بضع سنوات، تصدير مصنوعات بنفس القدر الذى تبيع به الآن المواد الأولية والأغذية للخارج. "إن فروق الأجور بين الدول المتطورة والدول النامية – بما فى ذلك دول أمريكا اللاتينية – يمكن أن تحفز تقسيماً جديداً للأنشطة بين البلدان وتزيح، بسبب المنافسة، الصناعات التى تكون فيها تكلفة العمل بالغة الأهمية، من البلدان الأولى إلى الثانية. فتكاليف اليد العاملة اللازمة للصناعة المانيفاكتورية، مثلاً، هى على وجه العموم أقل فى المكسيك أو البرازيل عنها فى الولايات المتحدة"[١٥].

هل هذا دافع التقدم أم مغامرة كولونيالية جديدة؟ إن الآلات الكهربائية وغير الكهربائية تظهر فعلاً بين منتجات التصدير الأساسية للمكسيك. وفى البرازيل، تنمو مبيعات السيارات والأسلحة للخارج. وتعيش بعض البلدان الأمريكية اللاتينية مرحلة جديدة من التصنيع، تدفعها وتوجهها بدرجة كبيرة الاحتياجات الأجنبية والملاك الأجانب لوسائل الإنتاج. ألن يكون هذا فصلاً جديداً يضاف إلى تاريخنا الطويل من "النمو باتجاه الخارج"؟ فى الأسواق الدولية، لاتعود الأسعار التى ترتفع بإستمرار أساساً إلى "المنتجات المصنعة"، بل إلى السلع الأكثر تطوراً وذات المركّب التكنولوجى، والتى هى حكر على الإقتصاديات الأشد تطوراً. **إن الناتج الأساسى للتصدير فى أمريكا اللاتينية، مهما باعت من موادا أولية ومصنّعة، هو الأيدى العاملة الرخيصة.**

ألم تكن تجربتنا تجربة تاريخية متصلة من التمزيق والتفكك مقنّعة بقناع النمو؟ قبل قرون، حرق الفتح الأراضى حتى يزرع زراعات تصدير وأباد التجمعات الهندية فى أنفاق المناجم وفى مصافى الذهب من أجل تلبية الطلب على الفضة والذهب فيما وراء البحار. أما تغذية السكان السابقين على كولومبس والذين استطاعوا البقاء بعد الإبادة فقد تدهورت مع التقدم الأجنبى. وفى أيامنا، ينتج شعب البيرو دقيق سمك، غنى جداً بالبروتينات، من أجل أبقار الولايات المتحدة وأوربا، لكن البروتينات غائبة عن طعام أغلبية البيروانيين. وفرع فولكس فاجن فى سويسرا يزرع شجرة مقابل كل سيارة يبيعها، مراعاةً للبيئة، وفي نفس الوقت يحرق فرع فولكس فاجن في البرازيل مئات الهكتارات من الغابات التى سيخصصها للإنتاج الكثيف من اللحوم للتصدير. وتزداد بإطراد مبيعات شعب البرازيل من اللحم للخارج – وهذا الشعب نادراً ما يأكل اللحم.

ومنذ زمن ليس ببعيد، قال لى دارسى يبيرو، فى حوار، أن جمهورية **لفولكس فاجن** لاتختلف، من الناحية الجوهرية، عن **جمهور موز**. ومن كل دولار ينتجه تصدير الموز، يبقى فى البلد المنتج بالكاد أحد عشر سنتيماً[١٦]، ومن هذه السنتيمات الأحد عشر، يمثل جزء لايذكر نصيب عمال المزارع. فهل تتغير النسب إذا صدّر بلد أمريكى لاتينى السيارات؟

لم تعد سفن تجارة العبيد تعبر المحيط. الآن يعمل تجار العبيد من وزارة العمل. أجور افريقية، وأسعار أوربية. ماذا تكون الإنقلابات، فى أمريكا اللاتينية، سوى فصولٍ متتابعة من حرب سرقة؟ وعلى الفور تدعوا الدكتاتوريات الظافرة الشركات الأجنبية إلى إستغلال الأيدى العاملة المحلية، الرخيصة والمتوفّرة، والقروض غير المحدودة، والإعفاءات الضريبية، والموارد الطبيعية الموجودة فى متناول اليد.

١٤• يتقاضى مستخدمو خطة طوارئ الحكومة التشيلية أجوراً تعادل ثلاثين دولاراً شهرياً. وثمن كيلو الخبز نصف دولار. وهكذا، فإنهم ينالون كيلو جرامين من الخبز يومياً. أما الحد الأدنى للأجور فى أورجواى والأرجنتين فيعادل حالياً ثمن ستة كيلو جرامات من البن. ويصل الحد الأدنى للأجور فى البرازيل إلى ستين دولاراً فى الشهر، لكن **العوامات الباردة** boias frias، أى عمال التراحيل الزراعيين، يتقاضون بين خمسين سنتاً ودولار واحد فى اليوم بالعمل فى مزارع البن، والصويا، وغيرهما من محاصيل التصدير. والعلف الذى تاكله أبقار المكسيك يحتوى على بروتين أكثر مما يحتوى طعام الفلاحين الذين يرعونها. ولحم هذه الأبقار يذهب إلى أفواه قليلة محظوظة داخل البلاد وإلى السوق الدولية بالدرجة الأولى. وفى حماية سياسة سخية للقروض والتسهيلات الرسمية، تزدهر فى المكسيك زراعة التصدير، بينما **إنخفضت**، بين عامى ١٩٧٠ و١٩٧٦ كمية البروتينات المتاحة لكل مواطن وفى المناطق الريفية نجد أن واحداً فقط من كل خمسة أطفال مكسيكيين يتمتع بوزن وقامة عاديين[١٧]. وفى جواتيمالا، يترك الأرز، والذرة، والفاصوليا الموجّهون للإستهلاك الداخلى لمشيئة الرب، لكن البن، والقطن وغيرهما من منتجات التصدير تحتكر ٨٧ بالمائة من القروض. ومن بين كل عشرة عائلات جواتيمالية تعمل فى زراعة وحصد البن، المصدر الرئيسى للعملات الأجنبية للبلاد، تتغذى واحدة بالكاد وفق مستويات الحد الأدنى للتغذية[١٨]. وفى البرازيل، تنتج خمسة بالمائة فقط من الإقراض الزراعى إلى الأرز، والفاصوليا، والمنيهوت – التى

تشكل الغذاء الرئيسى للبرازيليين. ويتجه الباقى إلى منتجات التصدير.

إن التدهور الأخير فى السعر العالمى للسكر لم يبعث، مثلما حدث من قبل، موجة من الجوع بين فلاّحى كوبا. وفى كوبا لم يعد هناك وجود لسوء التغذية. وعلى العكس، فإن الارتفاع المتزامن مع ذلك تقريباً فى السعر العالمى للبن لم يخفف فى شئ من البؤس المزمن لعمال مزارع البن البرازيلية. إن ارتفاع أسعار البن عام ١٩٧٦ – وهو البهجة العارضة التى أثارتها موجات الصقيع التى اجتاحت المحاصيل البرازيلية – " لم ينعكس مباشرة" فى الأجور"، حسب ما اعترف أحد كبار المديرين فى المعهد البرازيلى للبن(١٩).

وفى الواقع، فإن زراعات التصدير ليست، فى ذاتها، غير متمشّية مع رفاهية السكان ولاتتناقض، فى ذاتها، مع التنمية الاقتصادية "باتجاه الداخل". ففى نهاية الأمر، أفادت مبيعات السكر للخارج، فى كوبا، كمنطلق لخلق عالم جديد يصل فيه الجميع إلى ثمار التنمية وتكون فيه روح التضامن هى عصب العلاقات الإنسانية.

١٥• أصبح معروفاً من هم المحكوم عليهم بدفع ثمن أزمات إعادة تعديل النظام. إن أسعار غالبية المنتجات التى تبيعها أمريكا اللاتينية تنخفض بصورة لا ترحم بالنسبة لأسعار المنتجات التى تشتريها من البلدان التى تحتكر التكنولوجيا، والتجارة، والاستثمار، والقروض. ومن أجل موازنة الفرق، ومواجهة الإلتزامات تجاه رأس المال الأجنبى، **فإن من الضرورى أن تتم التغطية بالكم لما يُفقد فى السعر.** وداخل هذا الإطار، فإن دكتاتوريات المخروط الجنوبى للقارة قد اقتطعت بمقدار النصف أجور العمال وحوّلت كل مركز إنتاجى إلى معسكر للأشغال الشاقة. كذلك فإن **على العمال أن يعوّضوا إنخفاض قيمة قوة عملهم، التى هى الناتج الذى يبيعونه للسوق. والعمال مضطرون أن يغطوا بالكم، بكم ساعات العمل، ما يفقدونه فى القدرة الشرائية للأجر. هكذا، يعاد إنتاج قوانين السوق الدولية فى العالم المصغّر لحياة كل عامل أمريكى لاتينى.** وبالنسبة للعمال الذين أسعدهم "الحظ" بالاعتماد على عمل ثابت، فإن يوم العمل ذى الثمانى ساعات لايوجد سوى فى الحروف الميتة للقوانين. فمن المألوف أن يعمل المرء عشر، أو إثنى عشر، أو حتى أربع عشر ساعات، وفقد أكثر من واحد إجازة يوم الأحد.

وفى نفس الوقت، تضاعفت حوادث العمل، هذا الدم البشرى المقدّم على مذبح الإنتاجية. وهاكم ثلاثة أمثلة من أواخر عام ١٩٧٧ فى أورجواى:

– تضاعف محاجر السكك الحديدية، التى تنتج الأحجار والحصى، تضاعف الإنتاج. وفى بداية الربيع، يموت خمسة عشر عاملاً فى إنفجار ديناميت.

– طوابير من العاطلين أمام شركة لإنتاج صواريخ الألعاب النارية. وأطفال عديدون يعملون فى الإنتاج. ويسجلون أرقاماً قياسية. وفى يوم ٢٠ ديسمبر، يقع إنفجار: والمحصلة خمسة عمال موتى وعشرات من الجرحى.

– يوم ٢٨ ديسمبر، فى السابعة صباحاً، يرفض العمال دخول مصنع لحفظ الأسماك، لأنهم يشمون رائحة غاز قوية. يهدّدونهم: إذ لم يدخلوا فسوف يفقدون عملهم. يظلون على رفضهم. يهدّدونهم: سوف نستدعى الجنود. وكانت الشركة قد استدعت الجيش عدة مرات. يدخل العمال. والنتيجة أربعة موتى وعدد من المحتجزين فى المستشفى. كان هناك تسرّب لغاز الأمونيوم[٢٠].

وفى هذه الأثناء، تعلن الدكتاتورية بفخر: باستطاعة الأورجوايين أن يشتروا أرخص من أى وقت مضى، الويسكى الإسكتلندى، والمربات الانجليزية، والجامبو الدنماركى، والنبيذ الفرنسى، وسمك التونة الأسبانى، والبذلات التايوانية.

١٦. ولدت ماريًا كارولينا دى خيسوس Mariá Carolina de Jesus وسط القمامة والطيور الجارحة.

كبرت، وعانت، وعملت بإجتهاد؛ أحبّت رجالاً، وأنجبت أبناءً. وفى كراسة صغيرة، كانت تسجل، بخط سئ، عناها وأيامها.

وقرأ صحفى، بالصدفة تلك الكراسات وتحوّلت ماريا كارولينا دى خيسوس إلى كاتبة مشهورة. فكتابها "بيت الراحة Quarto de despejo" أو "الفافيلا*"، وهو يوميات خمس سنوات من الحياة فى ضاحية بائسة من ضواحى مدينة سان پابلو، قرئ فى أربعين بلداً وترجم إلى ثلاث عشرة لغة.

خرجت من الفافيلا ماريا كارولينا دى خيسوس، سندريلا البرازيل، وناتج الاستهلاك العالمى، ولفّت العالم، وأجريت معها الأحاديث وجرى تصويرها، ونالت جوائز النقّاد، ورحب بها السادة واستقبلها الرؤساء.

* الفافيلا: هى عشش الصفيح التى تشكل مدن البؤس فى ضواحى مدن البرازيل – م.

ومرت الأعوام. وفى أوائل عام ١٩٧٧، ذات صباح باكر ليوم أحد، ماتت ماريا كارولينا دى خيسوس وسط القمامة والطيور الجارحة. لم يعد أحد يتذكر المرأة التى كتبت: "الجوع هو ديناميت الجسم الإنسانى".

إنها، هى التى عاشت على الفضلات، استطاعت أن تكون متميزة، بصورة عابرة. سُمح لها بالجلوس على المائدة. وبعد تناول الحلوى إنتهى المهرجان. لكن، بينما استمر حلمها، واصلت البرازيل كونها بلداً يصبح فيه مائة عامل كل يوم جرحى نتيجة حوادث العمل وحيث يولد أربعة، من كل عشرة أطفال، وهم مضطرون لأن يتحولوا إلى متسولين، أو لصوص، أو سحرة.

مهما إبتسمت الإحصائيات، فإن البشر يُكال لهم الشقاء. ففى نظم مرتّبة بالمقلوب، حين ينمو الاقتصاد، ينمو معه الظلم الاجتماعى. وخلال أكثر فترات "المعجزة" البرازيلية نجاحاً، ارتفع معدل وفيات الأطفال فى ضواحى أغنى مدن البلاد. والازدهار المفاجئ للبترول فى إكوادور جلب التليفزيون الملّون بدل المدارس والمستشفيات.

تظل المدن تتضخم حتى الانفجار. ففى عام ١٩٥٠، كان فى أمريكا اللاتينية ست مدن يفوق تعداد سكانها المليون نسمة. وفى عام ١٩٨٠، سيكون بها خمس وعشرين مدينة من هذا الحجم[٢١]. وفيالق العمال الضخمة التى يلفظها الريف تشارك، على حواف المراكز الحضرية الضخمة، نفس المصير الذى يدّخره النظام للمواطنين الشباب " الزائدين". وتصل إلى حد الكمال، ويا للسخرية الأمريكية اللاتينية، أشكال البقاء للباحثين عن لقمة العيش. "إن النظام الإنتاجى قد أظهر عدم كفاءة ملحوظة فى خلق أعمال منتجة تمتص قوة العمل المتزايدة فى الإقليم، وبالأخص الفيالق الضخمة من الأيدى العاملة فى المدن.."[٢٢].

منذ وقت قريب، أظهرت دراسة لمنظمة العمل الدولية أن فى أمريكا اللاتينية ١١٠ مليون شخص فى ظروف فقر مدقع". ومن بين هؤلاء، هناك سبعون مليوناً يمكنهم اعتبار أنفسهم "معوزين"[٢٣]. ماهى نسبة السكان الذين يأكلون أقل من القدر الضرورى؟ بلغة التقنيين، يتلقى "دخولا أقل من تكاليف التغذية الدنيا المتوازنة"، ٤٢ بالمائة من سكان البرازيل، و ٤٣٪ من الكولومبيين، و ٤٩٪ من الهندوراسيين، و٣١٪ من المكسيكيين، و ٤٥٪ من البيروانيين، و ٢٩٪ من التشيليين، و ٣٥٪ من الاكوادوريين[٢٤]

كيف يمكن خنق إنفجارات الثورة للأغلبيات الساحقة الشقية؟ كيف يمكن التنبؤ بهذه الانفجارات؟ وكيف يمكن تجنب تزايد هذه الأغلبيات باستمرار إذا كان النظام

لايعمل من أجلها؟ إذا استبعدنا الإحسان، لايبقى سوى الشرطة.

١٧. في بلادنا، تدفع صناعة الرعب ثمناً عالياً، مثل أي مكان آخر، مقابل **الخبرة الفنية الأجنبية**. ويجرى شراء وتطبيق تكنولوجيا القمع الأمريكية الشمالية، بدرجة كبيرة، تلك التكنولوجيا التي تُجرَّب في أركان الكوكب الأربعة. لكن سيكون من الجور عدم الاعتراف للطبقات الحاكمة الأمريكية اللاتينية بقدرة خلاقة معينة، في هذا المجال.

لم تكن برجوازياتنا قادرة على عمل تنمية اقتصادية مستقلة وكان لمحاولاتها لخلق صناعة قومية تحليق أشبه بتحليق الدجاج، أي تحليق قصير المدى ومنخفض. وعلى طول عمليتنا التاريخية، أعطى سادة السلطة، كذلك، براهين ضافية على إفتقارهم إلى الخيال السياسي وعلى عقمهم الثقافي. وبالمقابل، عرفوا كيف يقيمون آلة ضخمة للرعب وأضافوا إضافات خاصة إلى تقنية إبادة الأشخاص والأفكار. والتجربة الحديثة، بهذا المعنى، لبلدان الريّودي لابلاتا، تجربة موحية.

"إن مهمة التطهير ستستغرق منا وقتاً طويلاً"، هكذا أعلن العسكريون الأرجنتينيون منذ البداية. وقد تم إستدعاء القوات المسلحة من جانب الطبقات المسيطرة في أورجواي والأرجنتين على التوالي لسحق قوى التغيير، وانتزاعها من جذورها، وتأبيد نظام الامتيازات الداخلي، وخلق ظروف اقتصادية وسياسية مغرية لرأس المال الأجنبي: أرض محروقة، بلد يسوده النظام، عمال نحيلون ورخيصون. ليس ثمة ما هو أكثر نظاماً من جبّانة. تحول السكان على الفور إلى العدو الداخلي. وكل بادرة حياة، أو احتجاج، أو مجرد شك، تمثل تحدياً خطيراً للأمن القومي من وجهة نظر النظام العسكري.

ومن ثم، تم تطوير آليات بالغة التعقيد للوقاية والعقاب.

وثمة عقلانية عميقة تختفي تحت المظاهر. **فلكي يعمل القمع بكفاءة، يجب أن يبدو تعسفياً**. وباستثناء التنفّس، يمكن لكل نشاط إنساني أن يكون جناية. وفي أورجواي، يطبق التعذيب كنظام عادي للإستجواب: **وكل فرد يمكن أن يكون ضحية له**، وليس فقط المشتبه فيهم والمذنبين بارتكاب أفعال معارضة. **على هذا النحو ينتشر الرعب من التعذيب بين كل المواطنين، مثل غاز يسبب الشلل يغزو كل منزل ويستقر في روح كل مواطن.**

وفي تشيلي، كانت محصلة المذبحة ثلاثين ألف قتيل، لكن في الأرجنتين، لايتم الإعدام بالرصاص، بل يجرى الإختطاف. والضحايا يختفون. وتنجز جيوش الليل

الخفية هذه المهمة. ما من جثث، ولامسئولين. هكذا تتحقق المذبحة – الدائرة على قدم وساق دائما، وغير الرسمية على الاطلاق – دون عقاب، وهكذا يُمحى بقوة أكبر الكرب الجماعى. فلا أحد يقدم حساباً، ولا أحد يقدم تفسيرات. وكل جريمة هى عدم يقين معذّب بالنسبة للقريبين من الضحية وكذلك تحذيراً للآخرين جميعاً. إن إرهاب الدولة يطرح شللّ السكان عن طريق الخوف.

من أجل الحصول على عمل أو الحفاظ عليه، فى أورجواى، لابد من الاعتماد على موافقة العسكريين. فى بلدٍ من أصعب الأمور فيه الحصول على عمل خارج معسكرات الجيش ومراكز الشرطة، يفيد هذا الشرط فيما هو أكثر من مجرد دفع جزء كبير من الثلاثمائة ألف مواطن المسجّلين بوصفهم يساريين إلى الخروج من البلاد. فهو مفيد كذلك فى تهديد الباقين. وعادة ماتنشر صحف مونتفيديو بيانات وإعلانات توبة علنية لمواطنين يضربون صدورهم من باب الحيطة: "لم أكن أبداً، ولست الآن، ولن أكون ....".

وفى الأرجنتين، لم يعد من الضرورى حظر أى كتاب بمرسوم. فقانون العقوبات الجديد يعاقب، مثلما هى الحال دوماً، كاتب وناشر الكتاب الذى يُعدّ تخريبياً. لكنه يعاقب أيضا من يطبعه، حتى لايجرؤ أحد على طبع نص موضع شك ببساطة، كما يعاقب الموزّع وصاحب المكتبة، حتى لايجرؤ أحد على بيعه، كما يعاقب، وكأن كل ذلك قليل، القارئ، حتى لايجرؤ أحد على قراءته ناهيك عن الإحتفاظ به. وهكذا ينال مستهلك الكتاب المعاملة التى تخصصها القوانين لمستهلك العقاقير المخدّرة[٢٥]. فى مشروع مجتمع للصُّم البُكم، يجب أن يتحول كل مواطن إلى توركيمادا* خاص على نفسه.

فى أورجواى، يُعدّ عدم الوشاية بالجيران جريمة. وعند الالتحاق بالجامعة، يقسم الطلبة، كتابةً، على أنهم سيُبلغون عن كل من يقوم، فى الحرم الجامعى، "بأى نشاط خارج عن أعمال الدراسة". يجعل الطالب من نفسه مشاركاً فى مسئولية أى مشهد يحدث فى وجوده. ففى مشروع مجتمع من السائرين نياماً، يجب على كل مواطن أن يكون شرطياً على نفسه وعلى الآخرين. ورغم ذلك لايثق النظام بأحد، وله كل الحق فى ذلك. ومجموع الشرطة والجنود مائة ألف، لكن مجموع المخبرين مائة ألف كذلك. ويعمل الجواسيس فى الشوارع وفى المقاهى وفى الأتوبيسات، وفى المصانع والمدارس، وفى المكاتب والجامعة. ومن يحتج بصوتٍ مرتفع على غلاء الحياة وقسوتها، ينتهى به الأمر

* توركيمادا: المحقق العام بمحاكم التفتيش الإسبانية (١٤٢٠ - ١٤٩٨) والمشهور بقسوته البالغة - م.

فى السجن: فقد إقترف "هجوماً ضد الروح المعنوية للقوات المسلحة"، يدفع ثمنه بثلاث إلى ست سنوات فى السجن.

١٨ • فى استفتاء يناير عام ١٩٧٨، كان التصويت بنعم على دكتاتورية بينوشيه يتم برسم صليب تحت علم تشيلى. وكان التصويت بلا، بالمقابل، يتم بوضع علامة تحت مربع أسود.

يريد النظام أن يخلط بين نفسه وبين البلاد. النظام هو البلاد، هكذا تقول الدعاية الرسمية التى تقصف المواطنين صباح مساء. وعدو النظام هو خائن للوطن. والقدرة على الاحساس بالمهانة تجاه الظلم والرغبة فى التغيير تشكلان البراهين على الخيانة. فى كثير من بلدان أمريكا اللاتينية، نجد أن من لم يصبح منفياً خارج الحدود، يحيا منفاه فى بلاده ذاتها.

لكن فى نفس الوقت الذى كان بينوشيه يحتفل فيه بإنتصاره، أطلقت الدكتاتورية على الإضرابات التى إندلعت فى كل أرجاء تشيلى رغم الإرهاب إسم "غياب العمال الجماعى". والغالبية العظمى من المختطفين والمختفين فى الأرجنتين تتشكل من عمال شاركوا فى نوع من أنواع النشاط النقابى. وبدون توقف، تندرج فى الخيال الشعبى الذى ليس له حدود أشكال جديدة من النضال، مثل العمل بحزن، والعمل باضطراب، ويبلغ التضامن أبعاداً جديدة لتجنّب الخوف. وقد جرت عدة إضرابات إجماعية فى الأرجنتين طوال عام ١٩٧٧، حين كان خطر فقدان الحياة أكيداً مثل خطر فقدان العمل. لايمكن، بجرّة قلم، تدمير القدرة على الرد لدى طبقة عاملة منظمة وذات تقاليد كفاحية طويلة. وفى شهر مايو من نفس العام، حين أجرت دكتاتورية أورجواى تقييماً لبرنامجها لإفراغ الضمائر والإخصاء الجماعى، وجدت نفسها مضطرة للإعتراف بأنه "مازال فى البلاد سبعة وثلاثون بالمائة من المواطنين مهتمّون بالسياسة"(٢٦).

إننا، فى هذه البلاد، لانشهد الطفولة الوحشية للرأسمالية، بل شيخوختها الدموية. إن التخلف ليس مرحلة من مراحل التقدم. بل هو نتيجته. وتخلّف امريكا اللاتينية ينبع من تقدم الآخرين ويواصل تغذيته. للنظام ساقان من الطين نتيجة قيامه بدور الخضوع فى المجال الدولى، ونتيجة سقمه منذ مولده. إنه يطرح نفسه بإعتباره قدراً ويودّ أن يخلط بين نفسه وبين الأبدية. وكل ذاكرة مخرّبة، لأنها مختلفة، وكذلك كل مشروع للمستقبل. يتم إجبار الزومبى Zombi على تناول طعامه بدون ملح:

والملح، الخطر، يمكن أن يوقظه. يجد النظام مثاله فى مجتمع النمل الذى لايقبل التغيير. ولهذا لايستريح لتاريخ البشر، لأن أموراً كثيرة تتغير. ولأن كل فعل تدمير، فى تاريخ البشر، يجد الردّ عليه، إن عاجلاً أو آجلاً، فى فعل خلق.

إدواردو جاليانو

كاليًا، برشلونة، فى أبريل عام ١٩٧٨.

الهوامـــش

(١) حوار مع چان – بيير كليرك Jean - Pierre Clerc فى صحيفة لوموند، باريس فى ٨ – ٩ مايو ١٩٧٧.

(2) the Nation, 28 de agosto.

(٣) وقعت الجريمة فى واشنطن، يوم ٢١ سبتمبر ١٩٧٦. وكان عدد من المنفيين السياسيين من أورجواى وتشيلى وبوليفيا قد إغتيلوا، قبلها، فى الأرجنتين. وكان من أشهرهم الجنرال كارلوس براتس، الشخصية المحورية فى الهيكل العسكرى لحكومة اليندى، الذى انفجرت سيارته فى أحد جراچات بوينوس آيرس يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٧٤؛ والجنرال خوان خوسيه توريّس، الذى كان قد تزعم حكومة مناهضة للامبريالية لوقت قصير فى بوليفيا، الذى إخترقته الرصاصات يوم ١٥ يونيو ١٩٧٦؛ والمشرعان الأورجوايان ثيلمار ميشيلينى واكتور جوتييريث رويث، اللذان إختطفا، وعُذّبا، واغتيلا، فى بوينوس آيرس كذلك، بين ٨ و ٢١ مارس ١٩٧٦.

(٤) كذلك هُدم الإصلاح الزراعى الذى كان قد بدأ تحت حكم الديمقراطية المسيحية وتعمق من جانب الوحدة الشعبية. انظر:

María Beatriz de Albuquerque. W., *"La agriculturachilena: ; moderización capitalista o regresión a formas tradicionales?* Comentarios sobre la contra - reforma agraria en Chile", I beroamerìcana, vol. VI: 2, 1976, Institute of Latin American Studies, Estocolmo.

(٥) بعد ثلاثة أشهر، جرت انتخابات فى الجامعة. كانت هى الانتخابات الوحيدة الباقية. وحصل مرشحو الدكتاتورية على ٢,٥ بالمائة من أصوات الجامعة. وبالتالى، ودفاعاً عن الديمقراطية، سجنت الدكتاتورية حشوداً كبيرة وسلّمت الجامعة إلى تلكم الإثنين ونصف بالمائة.

(6) Veja, núm. 444, San Pablo, 9 de marzo de 1977.

(٧) مجلس نواب الولايات المتحدة، لجنة المخصصات، مخصصات العمليات الخارجية لعام ١٩٦٣، جلسات الكونجرس رقم ٨٧، الجلسة الثانية، الجزء الأول.

(8) Declaración de Lourdes, octubre de 1976.

(9) Le nouvelliste, Puerto Príncipe, Haití, 19 - 20 de marzo de 1977. Dato citado por Agustín Cueva en ***El desarrollo del capitalismo en Amérìca Latina***, Sìglo XXI, México, 1977.

(10) Ida May Mantel, *"Sources and uses of funds for a sample of majority -*

owned foreign affiliates of U. S. companies, 1966 - 1972", U. S. Department of Commerce, Survey of Current Business juliode 1975.

(11) Naciones Unidas, Comisióna Económica para Amèrica Latina (CEPAL) ***El desarrollo económico y social ylasrelaciones externas de Amèrica Latìna***, Santo Domingo, Repúblìca Dominicana, febrereo de 1977.

(١٢) إن النقود، التى تملك أجنحة، تسافر دون جواز سفر. وجزء كبير من الأرباح المتولدة عن إستغلال مواردنا يهرب إلى الولايات المتحدة، وسويسرا، وألمانيا الاتحادية، أو إلى غيرها من البلاد حيث تقفز قفزة بهلوان لتعود إلى أقاليمنا وقد تحولت إلى قروض.

(13) Agustín Cueva, ***Op. Cit.***

(14) ***Idem.***

(15) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***

(16) UNCTAD, ***The Marketing and distribution system for banana***, diciembre de 1974.

(17) "Reflexiones sobre la desnutricion en México", Comercio exterior, Banco Nacional de Comercio Exterior, S. A., vol. 28, núm. 2, México, febrero de 1978.

(18) Roger Burbachy Patricia Flynn, ***"Agribusiness Tergets Latin America"***, NACLA, volumen XII, núm. 1, Nueva York, enero- febrero de 1978.

(19) Idem.

(٢٠) معلومات من مصادر نقابية وصحفية، نشرت فى Uruguay Informations، الأعداد ٢١ و ٢٥، باريس.

(21) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***

(22) ***Idem.***

(23) OIT, ***Empleo, crecimiento, necesidades esenciales***, Ginebra, 1976.

(24) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***

(٢٥) فى أورجواى، اكتسب المحققون ملامح حديثة. هى مزيج غريب من البربرية والحس الرأسمالى. فلم يعد العسكريون يحرقون الكتب: إذ يبيعونها الآن إلى شركات الورق. وشركات الورق تفرمها وتحولها إلى لب الورق وتعيدها إلى السوق الاستهلاكية. ليس صحيحاً أن ماركس ليس فى متناول

الجمهور. إنه في متناول الجمهور، ليس في شكل كتب، بل على شكل مناديل ورقية.

(٢٦) مؤتمر صحفي للرئيس أباريثيو ميندث، يوم ٢١ مايو ١٩٧٧، في پاياساندو، قال الرئيس "إننا نجنّب البلاد مأساة الحماس السياسي. فالرجال الطيبون لايتحدثون عن الدكتاتوريات، ولايفكرون في الديكتاتوريات، ولايطالبون بحقوق الإنسان".





النيل للنشر - إسكندرية

٦ شارع الغرفة التجارية - ت ٨٠٤٠٠٦

تصميم واخراج

مطبعة الجمهورية

١ شارع محمد طلعت نعمان خلف شيكوريل

محطة الرمل ٨١٩٦٤٨